بحث في
أصول العلاقة القائمة بين المسيحية واليهودية

كتبه : [illegible]

المقدّمة

لما كانت هذه الدراسة بحثاً لاهوتياً يتميز بأبعاده الاجتماعية والحضارية والتاريخية فقد عمدت الى طرح الموضوع في منهج فكري تظهر من خلاله معالم المسيحية الأممية .

وفي دراستي هذه سأحاول التنبيه الى بعض النقاط الهامة :

أولها : ان سير الأمم المسيحية في ركاب اليهود واعتقادهم بعدالة قضيتهم ناتج عن امور ثلاثة :

آ ـ علاقة الانجيل بالتوراة .　　　ب ـ سوء فهم للانجيل والتوراة .

ثانيها : ان تأثر العقائد العالمية والفئات الاجتماعية العديدة بالقضية الصهيونية يعود الى عدم رؤية الصهيونية في اليهودية(١) .

ثالثها : ان المبادىء العديدة التي وضعها اليهود ونشروها في أصقاع العالم عامة ، والغرب خاصة ، خدمت قضيتهم خدمة كبرى .

— ١ —

ان المسيحي الذي يقيم دينه على التوراة ويعتبرها الأساس او القاعدة التي يرتكز عليها ، يصبح ارضاً خصبة لتقبل كل دعاية يهودية او تفسير يهودي للانجيل . وليست الدعايات التي يطلقها اليهود عن مجيء المسيح ، أو حقهم في ارض ، او تفسير معتقدات عديدة كرؤيا يوحنا واناجيل متى ومرقس ولوقا ، الا حصيلة لهذا الرباط القائم بين المسيحية واليهودية ، اي بين الانجيل والتوراة . والمسيحي الذي يقيم دينه على التوراة يؤمن بفصل الصهيونية عن اليهودية ، ان كان هذا المسيحي ما يزال على مسيحيته التقليدية او ان كان ينتمي الى فئة او عقيدة خلفيتها الحضارية مسيحية .

ومما يؤسف له ان يجهل المسيحيون حقيقة كتابهم . فقد اعتادوا ان يقرؤوا فصلاً ويتركوا فصلاً آخر ، او يقرؤوا انجيلاً ويهملوا انجيلاً آخر ، او رسالة دون رسالة اخرى ، أو عبارة دون اكمالها ، أو أن يقرؤوا لمجرد قراءة قصة .

— ٢ —

اني أعتبر دراستي هذه دفاعاً عن حضارة قامت ورداً على تشويه اليهود لها . وفي رأيي أن الصراع اليهودي المسيحي صراع حضاري ، يتصف بخلفية دينية . ولما كان هذا الصراع في أوجه ، فاني سأعمل على فصل المسيحية عن اليهودية ، وذلك من أجل التأكيد على الحضارة الانسانية الأممية مقابل القومية اليهودية الضيقة . ولما كان المسيحيون يسيرون في ركاب اليهودية بفعل لا وعي سببته العلاقة القائمة بين الانجيل والتوراة ، فان الفصل بينهما يعيدهم الى الوعي . فالمسيحي التقليدي يدافع عن اليهودية بلا وعي يسيطر عليه خلال العصور ؛ وهذا اللاوعي جمعي حسب اصطلاح كارل يونغ وتعبيره ، وفق عقيدة تدفعه الى الدفاع عن التوراة التي اقرتها المسيحية التقليدية(٢) .

المسيحية لم تقر التوراة ؛ لكن المسيحيين الذين جهلوا البشارة الجديدة اقروها . فاذا كان واجباً أن نعمل على فصل البشارة الجديدة ، وهي الخليقة الجديدة بالمسيح ، عن القديم الذي لا يمت الى الجديد بصلة ، فاننا نكون قد قمنا بواجب كبير نحو الحضارة الانسانية ، وحافظنا على المبادىء الجميلة التي تتعرض للانهيار في الوقت الحاضر .

ولما كنت واحداً من المنادين بالديانة العالمية ، وواحداً من المؤمنين بالثيوزوفية ، بالمحبة الانسانية الشاملة ، بالانسان الكل ، فانني لن انعرض لليهود او للاسرائيليين كأناس وشعب بل لليهودية كمبدأ . وعندئذ ، تكون دراستي هذه نداءً لهم ليتخلوا عن عرقيتهم وعنصريتهم وقوميتهم الضيقة(٣) التي زينوها بالمثل الدينية وزجوا « الارادة الالهية » فيها . انه نداء للعمل على مستويين :

١ ــ مستوى الأممية المسيحية ودورها في اعادة اليهودية الى صوابها دون جهل بالمسيحية .

٢ ــ مستوى اليهود لينفتحوا على الحضارة الانسانية والعالمية ويعوا الحقيقة .

— ٣ —

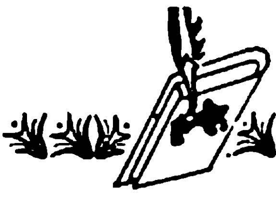
ان بحثاً من هذا النوع يثير حفيظة أدعياء الدين التقليدي ، وهي فئات يهودية مسيحية ترى في الانجيل استمراراً لليهودية . فما زال اولئك الأدعياء ، اي اليهود المسيحيون ، يعتقدون بل يؤمنون ان لا مسيحية بدون يهودية . ففي زعمهم ان اليهود شعب الله الخاص او الشعب المختار(٤) . وما زالوا على اعتقادهم الى يومنا هذا ، وذلك لأن الأمم المسيحية تنساق وراء هذا الزعم . ولهذا نرى المأساة ، كل المأساة ، تقوم في الجمع بين المسيحية واليهودية ، بين الانجيل والتوراة .

ومن جانبي ، لا انكر وجود علاقة بين المسيحية واليهودية على مستوى الأناجيل الثلاثة : متى ومرقس ولوقا . ولكن المسيحية تبدو برونقها وسموها وشمولها في انجيل يوحنا . اما رسائل بولس فانها تشتمل على موضوعين :

١ ــ تصفية العلاقة بين المسيحية واليهودية ، والبرهان ليهود الشتات الذين آمنوا بالانجيل على نهاية دور اليهود بانتهاء الناموس والشريعة .

٢ ــ تثبيت المسيحية في الأمم دون الاعتماد على التوراة . واما رسائل يعقوب وبطرس ويهوذا فانها رسائل تربط المسيحية باليهودية ، وتدعو كل مسيحي أممي الى اليهودية أولاً والمسيحية ثانياً ، كما تدعو كل يهودي في الشتات اعتنق المسيحية أن يعود الى التوراة .

ولما كنت اممياً ، فانني اترك التوراة جانباً لليهود انفسهم ذلك لأنها لم تكن طريقي الى الايمان والاعتقاد . واذا كان لا بد من علاقة بين المسيحية واليهودية ، فانني اعتمد انجيل يوحنا كمسيحي واعد الأناجيل الثلاثة الأخرى حواراً بين المسيحية واليهودية . ولما كان الحوار هو المطلوب ، وليس الخضوع ، فان التوراة تلغى وتظل الأناجيل الثلاثة الأولى بالاضافة الى اقسام من رسائل بولس حواراً مع اليهود . ولا غرو ، ان هذا الحوار ، باقسامه العديدة في العهد الجديد ، ينتهي بلفظ اليهودية والابقاء على المسيحية .



انه تبشير لليهود بخطئهم ونهاية دورهم ، وتعليم لاقتبال الدور الجديد الذي يكون الله فيه إلهاً للعالم كله لا إلهاً خاصاً ، وتكون المحبة فيه مبدأ الشمول وليس العرقية ، وتكون العالمية والانسانية مبدأ التآخي وليس الناموس الذي يتمثل بالعرق وبالإله الغاضب(٥). انه دعوة الى العمل والحق والكل(٦) .

— ٤ —

هكذا تكون دراستي هذه دفاعاً عن حضارة الانسان ، دفاعاً عن انسانية الانسان . فاذا كان اليهودي يؤمن بمجيء مسيح يضع الأمم تحت اقدامه ، فانه يتوجب عليّ الدفاع عن الأمم من خلال الإنسان . ويكون دفاعي لزوما ووجوبا لأن اليهودية تشير بعرقيتها الى اخضاع الأمم ، اعتقاداً منها بأنه كلمة « الله » الحق . ولما كانت كلمة الحق قائمة في كل انسان ، فان دفاعي هو دفاع عن الانسان ، دفاع عن الانسانية والحضارة . ولما كانت اليهودية تدعي بأنها ستخضع العالم لها ، فان الدفاع واجب عن العالم مشخصاً بالانسان الذي هدرت اليهودية حقه وجردته من مغزى وجوده عن طريق عرقيتها . ولا يتحقق هذا الدفاع الا بفصل المسيحية عن اليهودية . ومتى تم هذا الفصل فان الحقيقة تنتصر ، وتدافع الأمم عن الحضارة التي انبثقت من قاعدة دينية ، على الأقل في هذا المضمار ، وتعمل على اعادة اليهود الى وعيهم .

ان دراستي دفاع عن الأمم الذين تبنوا عقيدة يعمل اليهود على هدمها . فقد توغلوا في نفوس المسيحيين ونشروا بذور الفوضى والانحلال فيها ، متخذين من التوراة ، التي هي نقطة ضعف المسيحيين وعلة لا وعيهم المتراكم عبر العصور ، انطلاقاً لهم . وفي معتقدي ، ان الحقيقة تتجلى عندما تنتهي العلاقة بين الانجيل والتوراة .

— ٥ —

تنقسم دراستي هذه الى الأقسام التالية :

١ ـ نشأة المسيحية .
٢ ـ نهاية الناموس .
٣ ـ عالمية الانجيل أو المسيح رجاء الأمم .
٤ ـ الانسان العتيق والانسان الجديد .
٥ ـ الأناجيل الأربعة ومفهوم المجيء .
٦ ـ ازمة المسيحية المعاصرة .

١ ـ نشأة المسيحية

اعمال الرسل ١١ : ٢٦ : ودعي التلاميذ مسيحيين في انطاكية اولا .
أعمال الرسل ١٥ : ١٤ افتقد الله الأمم اولا لياخذ منهم شعبا على اسمه .

تشير الدراسات اللاهوتية والتاريخية الى وجود المسيح على ارض فلسطين . وتشير هذه الدراسات ايضاً الى انتشار عقيدة المسيح وتعاليمه داخل فلسطين بين اليهود والاسرائيليين ، وخارج فلسطين بين الأمم .

بعد ان اكمل المسيح رسالته ، انطلق تلاميذه يبشرون ويكرزون . وفي بادىء الأمر ، لم يجتازوا حدود فلسطين رغم ان المسيح ارشدهم الى الكرازة في انحاء المعمورة كلها ، وقد عملوا براي المسيح بعد مضي بعض الوقت ، فانطلق عدد منهم الى جهات عديدة ومختلفة . ومع ذلك ، نعجز عن اقتفاء آثارهم في تلك الأصقاع النائية او معرفة جوهر عملهم او النتائج التي توصلوا اليها الا ما يخبرنا عنه التاريخ الكنسي . وبالفعل ، لا يمكننا معرفة الكثير عن انتشار المسيحية في المناطق البعيدة، وكل ما يمكننا معرفته هو انتشارها في حوض البحر المتوسط وذلك من خلال اعمال الرسل، وبخاصة من خلال رسائل بولس .

ماذا حدث بعد صعود المسيح الى السماء ؟

بعد قيامة المسيح من الموت، وخلال فترة وجيزة من الزمن لم تتجاوز خمسة عشرة سنة ، انقسمت منطقة حوض البحر المتوسط الى ثلاث بيئات دينية :

آ ـ بيئة يهودية .
ب ـ بيئة يهودية ـ مسيحية .
جـ ـ بيئة مسيحية .

تعد البيئة الأولى يهودية في اساسها وجوهرها . فقد ظلت على التوراة ، اي تعاليم موسى ، ونبذت المسيحية والمسيحيين، وتنكرت للتعليم الجديد والبشارة الجديدة ، واعتقدت ان المسيح الذي اتى ليس بالمسيح



المنتظر ، وحاربت انتشار الدعوة الجديدة . وانحصرت هـذه البيئة في منطقة اليهودية من اعمال فلسطين(٧) وفي اماكن اخرى في السامرة والجليل ، وفي اجزاء من الامبراطورية الرومانية وبلاد بعيدة خارج فلسطين حيث ظل اليهود على يهوديتهم ، حتى مجيء بولس الذي جذب بعضهم الى المسيحية .

وتعد البيئة الثانية يهودية-مسيحية في جوهرها وعقيدتها . اعتنق اهلهـا المسيحية ، وهم مـن اصل اسرائيلي ، سواء كانوا داخـل فلسطين ايام المسيح أم خارجها ايام بولس وبرنابا . وقد ظل هؤلاء المسيحيون الذي يتحدرون مـن اصل اسرائيلي ، على توراتهـم وناموسهم . اعتنقوا المسيحية ولم يتخلوا عـن تعاليم موسى والتوراة . ربطوا الانجيـل بالتوراة ، وجمعوا بين المسيحية واليهودية ، واقاموا تآليفا بينهما . واننا نسمي اولئك المتجددين يهـودا ـ مسيحيـين ، اي نصارى . فالنصارى هم فلة موسى وابراهيم الذين اعتنقوا المسيحيـة ، ولكنهم ظلوا متمسكين بشريعـة موسى .

اما البيئة الثالثـة ، فهي مسيحية بجوهرها . وتشير هذه البيئة الى كل اممي ، من اصل غير يهودي كاليوناني والهلنستي والكنعـاني الفينيقي والروماني وسكان آسيا الصغرى ومصر ، آمن بالمسيحية من دون توراة . وقـد اعتنتت هذه البيئة العقيدة المسيحية على يـد رائدها بولس . وكانت انطاكية مركز الدعوة الجديدة . ولهذا ، تعد هذه البيئة مسيحية محضة ، قوامها الأمم الذين اقتبلوا المسيحية بالضمير والنعمة والحكمـة والناموس الإلهي المكتوب في عقـل الانسان وروحه منذ فجر الخليقة . ولم تتبنَّ هـذه البيئـة تعاليم التوراة لأنها لم تقم في خلفيتها الحضارية .

هكذا نرى انقسام حوض البحـر المتوسط الى بيئات ثلاث من الناحية الدينية :

١ ـ بيئة يهودية تتعصب لتوراتها وتتمسك بها ، وتنكر الجديد(٨) . لقد تمسكت هذه البيئة بيهوديتها ونبذت تعاليم المسيح معتقدة ان المسيح لم يات ، ذلك لأن المسيح ، وفق تقاليـدها وعاداتهـا ، يأتي لليهود فقط وتنحصر رسالته فيهم ، ويكون لهم قائداً وزعيماً ومخلصـاً .

٢ ـ بيئـة يهودية ـ مسيحية تتمسك بالتوراة والانجيل وتؤلف بينهما . وهذه الفئة اضاعت المسيحية لأنها وفقت بين عقيدتين تتناقضان كل التناقض . وقد استطاعت ، بعد انقضاء فترة زمنية معينة ، ان تلعب دوراً رئيساً في العـالم المسيحي ، وفرضت آراءها ، الأمر الذي جعل المسيحيين يتبنون التوراة ، فضاعت المسيحيـة .

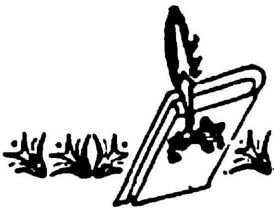
٣ ـ بيئة مسيحية بحتة تنكر التوراة ولا تتبناها لأنها تخرج عن دائرة ايمانها وضميرها وحكمتها . هي فئـة الأمم ، الفلاسفة والحكماء مـن رواقيين واهل الغنوص . وهذه الفئة لم تعتمد التوراة بل نبذتها قبل المسيح وبعده ، ذلك لأنها لم تجد طريقها فيها . وقـد تمسكت هذه البيئة بالانجيل ، اي البشارة التي تمت وتحققت بالايمان دون وساطة شريعة مكتوبة او ناموس حرفي . ولذا ، تخلت هذه البيئة عن التوراة لأنها ليست من تراثها ، ولأن تراثها هو الحكمة والفلسفة والمعرفة التي تتوج بالمحبة وفق تعاليم الرواقية وغيرها . وقد اجتهدت هذه البيئة لتجعل من المسيحية فكرة اممية ، عاليـة شاملة ، تعطى للجميـع دون ربطهـا بأرض او بشعب او بعرقيـة خاصـة .

ـ ٢ ـ

تشير دراستنا الى اهمية الفئتين ، الثانية والثالثة . اما الفئـة الأولى ، اليهودية ، فانها كانت وما زالت تدين بالتوراة دون غيرها . واننـا سنفرد لها دراسة خاصة متى اظهرنا معـالم التوراة والدعوة اليهوديـة ـ نسبة الى يهوه ـ والفكرة الميسيائية ـ المخلصية ـ نسبة الى مجيء المسيا ـ المسيح(٩) .

وتعتمد دراستنا هـذه على تعاليم كل من هاتين الفئتين . وقـد بينا ان الفئة الثانية تعتمـد التوراة والانجيل . ولما كانت هذه الفئة يهودية في صميمها ، اي انها تعتنق التوراة ، فانها اقامت الانجيل والتوراة. فالانجيل ، في رايهـا ، يكمل التوراة . وهكـذا تاتي اليهودية اولاً ، والمسيحية ثانياً . والمسيح ، في زعمها ، يكمل موسى ويكون ابنـاً لداود . ولما كانت هذه البيئة تخلت عن يهوديتها ، الى حد ما ، لدى تبنيها للمسيحية ، فان الضيـاع الفكري ، الذي مُنيت بـه المسيحية ، كان مصيرها ومن نصيبها ، فأورثته للمسيحية كلها .

عمدت هذه الفئة ، وفق نظرتها للتوراة والانجيل واسبقية التوراة على الانجيل حسب الخطة الإلهية ، الى زرع بذور الفتنة والفسـاد . فقد عملت على ربط كل مسيحي ، حتى ولو كان اممياً ، بعجلة اليهودية . ولذا ، كانت تصر على تهويد المسيحي . فلا يحق للأممي ان يتبنى المسيحية ما لم يمر باليهوديـة . فعليـه ان يقتبل موسى اولاً ويكون يهودياً ليصير مسيحياً . وهكذا ، شاعت هذه الفئة التي تركزت في اورشليم ،



وتراسها كل من بطرس ويعقوب ، ان تهود المسيحية . وكان شعارها اليهودية اولاً ، والمسيحية ثانياً . وعلى هذا الأساس ، يتوجب على الأمم ان يخضعوا لليهودية. وسنرى كيف تكون هذه النظرة علة سيطرة اليهودية على المسيحية .

اما الفئة الثالثة ، وهي المسيحية ، فانها كانت تسلك سلوك المسيحي الذي اعتمد التبشير والكرازة . فبولس لم يضع للمسيحيين ناموساً او شريعة ولم يحدهم بنهج معين . وما فعله هو انه حرك ضميرهم باتجاه الرسالة الجديدة . ولذا اقتبلوا المسيحية بدون وساطة التوراة او الأنبياء اليهود ، لأنهم اعتبروا المسيحية فكرة كونية شاملة لا تخضع للزمان والمكان ، ولا تنحصر بتاريخ قوم او بشريعة انسان . فاذا كان الله عالمياً وكونياً ، كانت الديانة الجديدة كونية وعالمية، وتتخطى حدود البلدان الى العالم كله . ووفق هذا المنطق الجديد ، لا ضرورة لشريعة ما دام العقل والوجدان والروح قد تقبلوا الدعوة الجديدة .

— ٣ —

عندما نلقي نظرة على نشأة المسيحية وانتشارها، نجد ان الدعوة قد مرت في مرحلتين :

١ — مرحلة الانتشار في فلسطين .

٢ — مرحلة الانتصار خارج فلسطين .

يمثل انتشار الدعوة في فلسطين شهيدها الأول ستفانوس . فقد كان ستفانوس مسيحياً اممياً يونانياً . ويبدو انه اعتنق المسيحية وليس اليهودية المسيحية . وعلى الرغم من وجوده في فلسطين ، تنكر للتوراة وتبنى الفكرة المسيحية الصافية .

لماذا استشهد ستفانوس ؟ ولماذا لم يستشهد بطرس او غيره في فلسطين في تلك الفترة المبكرة ؟ ومع ان الرجلين كانا يشهدان للمسيح في المجامع ، فان الشهادة الأولى كانت من نصيب ستفانوس .

كان ستفانوس يكرز في المجامع اليهودية متنكراً للتوراة ولناموس موسى ، فكان المسيحي الأول الذي فصل المسيحية عن التوراة. ولما زاد تأثيره في مستمعيه هاجمه اليهود ورجموه بالحجارة حتى الموت . رجموه لأنه الغى العهد القديم ، والقوا بثيابه امام بولس ، المسيحي الثاني الذي سينقل المسيحية من فلسطين الى الأمم .

ماذا تخبرنا هذه الحادثة ؟

انها تخبرنا عن اختلاف وانقسام وقع في صفوف المسيحيين . فاولئك الذين كانوا من اصل يهودي تعلقوا بالتوراة ونادوا بها مع الانجيل ، رغم ان اناجيل الحوار لم تكن قد كتبت بعد ؟ واولئك الذين كانوا من اصل اممي تنكروا للتوراة ، وتبنوا البشارة اي الانجيل . ويبدو ان اليهود ، الرؤساء الدينيون منهم بشكل خاص ، كانوا يصفون الى المسيحيين من اصل يهودي ، ذلك لأنهم كانوا يطورون الدعوة وينطلقون من قاعدة موسوية ، او توراتية ، وعلى الرغم من ان رؤساء التريعة اليهودية اضطهدوا التلاميذ مراراً، فسجنوهم وضربوهم واخرجوهم من منطقة اليهودية ، فانهم لم يصلوا الى درجة الرجم حتى الموت او القتل المباشر . فلم كان الموت من نصيب ستفانوس ؟ لم يكن الانقسام في صفوف التلاميذ قد وصل الى حده الأعلى او الى اللارجوع والانفصال . وكانت الأمور تسير سيراً حثيثا رغم وجود اختلاف بين نوعين للمسيحية : مسيحيون من اصل اممي ، وآخرون من اصل يهودي . ومن الآن فصاعداً سنطلق اسم مسيحي على كل اممي اعتنق المسيحية ، واسم نصراني على كل يهودي او اسرائيلي اعتنق المسيحية .

ان المسيحية لم تكسب شيئاً من تنصر اليهود ذلك لأنها شدت الى قيود اليهودية . فهي يهودية متطورة وليست مسيحية — كان بطرس يعتبر نفسه يهودياً رغم انه اعتنق المسيحية ، راجع اعمال الرسل ١٠:٢٨ . وهي مسيحية في خارجها ويهودية في داخلها. وليس هذا الا لأن الانجيل ظل مرتبطاً بالتوراة . ولما عمل ستفانوس على فصل الانجيل عن التوراة ، ثارت ثائرة اليهود، فقتلوه . وكان ستفانوس المسيحي الأول بعد المسيح . قتل ستفانوس لأنه اممي ، لأنه مسيحي.

واذا كانت خسارة المسيحية كبيرة لتعلقها بالتوراة فانما يعود الى كونها نصرانية . فالذين تنصروا من اليهود زعموا ان عقيدتهم هذه ليست الا استمراراً ليهوديتهم . فالمسيحية اذن هي موضوع يختلف عن النصرانية . انها صرخة الحق ويقظة الضمير التي طوت اليهود لتسير بهم في طريق الحقيقة . ولكن اليهود أخضعوها لمفاهيمهم ، فماتت المسيحية . لذا كانت اليهودية المسيحية ، النصرانية ، مأساة المسيحية الكبرى .

من كان ابطال مسرحية النصرانية بين تلاميذ المسيح ؟

قد يكون التلاميذ جميعهم ، باستثناء يوحنا ، يهوداً مسيحيين ، لكننا لا نستطيع ان نحصر اليهودية



المسيحية الا في شخصين رئيسيين تزعما الموضوع ، هما : بطرس ويعقوب . واننا نجرد يوحنا الانجيلي من صفة اليهودية المسيحية رغم انه كان ، بادىء الأمر ، عضواً من اعضاء كنيسة اورشليم قبل ان ينتقل الى افسس . فلقد ادرك ان المسيحية تتجرد من كل ما سبقها في الفكر اليهودي. لذا اعلن مسيحيته بعد ان راى النزاع بين مسيحيي الأمم ومسيحيي اليهود ، الذي تمثل في مجمع اورشليم . فكتب انجيله الى المسيحيين من اهل الحكمة والفلسفة والغنوص . كتبه الى الأمم الذين تبنوا البشارة صافية ومجردة من كل شائبة اخرى .

قبل ان ناتي الى مجمع أورشليم الذي ظهر الخلاف شديداً اثناء انعقاده ، سنتحدث عن بطرس ويعقوب حديثاً مختصراً .

كان بطرس عميد اليهودية المسيحية . وكان قد جعل من المجمع مقراً لتبشيره . وعلى يده تنصر الكثيرون من بني اسرائيل . وكان بطرس فذاً من الافذاذ ورائداً لليهودية المسيحية . ومع انه كان التلميذ الذي اؤتمن على رعاية اليهود دون غيرهم — رغم أن المسيح جذب انتباهه ، في اكثر من محل ، الى رعاية الخراف كلها دون التمييز بينها — فان اليهود المسيحيين انتخبوا يعقوب الملقب باخ الرب بطريركاً على اورشليم . فلم انتخب يعقوب اسقفاً دون بطرس ؟

كان يعقوب واخواه يوسي ويهودا ، الملقبون باخوة الرب ، من مناهضي المسيح في بدء دعوته . فقد كانوا يتبعونه من مكان الى مكان مع نفر من الأقرباء يبحثون عنه محاولين ردعه عن متابعة رسالته . لكنهم انصاعوا اخيراً لصوت ضميرهم وتبعوه في نهاية الأمر، واصبحوا من الرعاة الذين يعملون لنشر الكلمة في اليهودية ، وبين اليهود ، حيثما كانوا ، خارج فلسطين وداخلها. وكان يعقوب واخواه من المتعصبين ليهوديتهم، وارتبطوا ارتباطاً قوياً بالناموس الموسوي . ولما كان يعقوب اقرب التلاميذ الى المسيح ، فقد عمدوا الى اختياره رئيساً للكنيسة. لقد اختاره اليهود المتنصرون لانه كان من « اهل البيت »(١٠) .

— ٤ —

ننتقل الآن الى مرحلة اخرى من مراحل تطور الدعوة المسيحية :

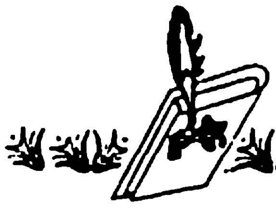
بعد مقتل ستفانوس لم يظهر بين التلاميذ من يستمر في الدعوة المسيحية ، اي فصل الانجيل عن التوراة . لقد قام ستفانوس بهذا الفصل مدفوعاً بأمميته ؛ ذلك لأن الأممي يقبل الانجيل دون التوراة . وبعد ستفانوس ، ظهر بولس . فمن هو بولس ؟

هو طرسوسي من لواء اسكندرون ، فريسي ، درس التوراة . ارسله والده الى اورشليم بعد ان كان قد نال ثقافة يونانية عالية. وفي اورشليم تتلمذ على يد غمالائيل ، معلم الناموس الموسوي . ويبدو ان مرونة غمالائيل وتفتحه ساعداه على تقبل المبادىء بعقل منفتح . ولكنه ، تسلم في عنفوان شبابه مهمة تصفية المسيحيين ، وكان ستفانوس ضحيته الأولى . ولما قتل ستفانوس ارسل نظرته الأخيرة وهو يلفظ الروح باتجاه بولس وتسمرت عيناه في عينيه ، وفي قلبه . واصبح بولس انساناً قلقاً ، وظل طوال حياته يشتهي لو استشهد مثل ستفانوس .

كلف بولس بالذهاب الى دمشق . وفي طريقه ، وهو الروح المعذب والعقل المضطرب الجامح الذي ينشد الاستقرار والحقيقة ، تراءى له المسيح . وكانت الاعجوبة! وفي دمشق زار المجامع اليهودية معلماً بحكمة المسيح ، فعمد اليهود الى قتله . فاضطر الى ترك المدينة ، واتجه شطر العربية ، فكان اول من علم الأمم خارج فلسطين ، وكان العرب اول من تلقوا مبادىء الانجيل .

وفي العربية قضى بولس ثلاثة اعوام ، تعلم خلالها حياكة الخيام وواظب خلالها على التجربة الروحية . ولما كان بولس يقوم بتجربته الروحية فان تعاليمه اقتبسها مباشرة من المسيح، وهنا كانت افضلية بولس على سائر الرسل والتلاميذ. ومن سيرة بولس نستخلص انه كان يفاخر باقتباس انجيله من المسيح مباشرة . ولما كان المسيح رائده ومعلمه فقد اوعز اليه ان ينطلق الى الأمم لأن اليهود لا يقبلون شهادته . وهكذا كان بولس رسول الأمم ، يحمل انجيله ، انجيل المسيح ، ويدعوهم اليه .

وبعد عودة بولس الى اورشليم تنكر له التلاميذ وارتابوا بأمره ، فظل بعيداً عن دائرتهم . فقرر العودة الى طرسوس ، تلك المدينة التي كانت تقع جنوب مصب نهر العاصي . وبقي هناك الى ان تبنه برنابا ، احد رواد الفكرة المسيحية في اورشليم . كان برنابا واحداً من التلاميذ البيض ، يفضل المسيحية على اليهودية المسيحية. وقد استطاع ان يقنع التلاميذ بتجربة بولس الروحية واخلاصه . فمضى الى طرسوس والتقى بولس هناك ، وانطلق الاثنان في ربوع آسيا الصغرى



وجعلا من انطاكية مقراً لهما . وهكذا نرى ان المسيحية الأولى انطلقت من انطاكية حيث سمي المؤمنون مسيحيون .

— ٥ —

لم تنتشر المسيحية بين اليهود في فلسطين وان كان قد آمن بها بعض الأممين . ولم يجرؤ احد على الجهر بها بعد ستفانوس. ولما كان بولس هو ستفانوس الثاني ، فقد علم مسيحيته الصافية وتنكر للتوراة . ويبدو ان اتباع بولس من الأمم اصبحوا يعدون بالالاف. ونجح بولس نجاحاً عظيماً . فكان يعلم الأمم الذين تعمقت فيهم الحكمة والعقل . اذ كان معظمهم من الرواقيين او من الذين تاثروا بالحكمة الاغريقية ، او من اتباع الديانات الايزوتيرية التي تسمى بالنفوحية تارة ، وبالسريانية تارة اخرى . لقد كان الأمم فلاسفة بكل ما في الكلمة من معنى . وكانوا بحاجة الى انسان، كبولس ، عميق في الشريعة وفي الروح وفي الفلسفة والحكمة ، انسان اخذ من الجميع وتثقف بثقافة الكل.

هكذا تبنت الأمم تعاليم المسيحية الصافية ، وليست تعاليم المسيحية الصافية الا البشارة الجديدة التي تخلو من كل اثر للتوراة . بشر بولس ، فسمي تبشيره انجيلاً . فالانجيل الأول المكتوب ، والانجيل يعني البشارة ، هو انجيل بولس ، اي كرازته ، اي تعليمه ، أي بشارته . لقد سبق بولس التلاميذ الآخرين في اعلان المسيحية. وجدير بالذكر ان الاناجيل الأخرى لم تكن قد دونت بعد . الرسالة الى رومية ٢ : ٢١٦ .

كان على بولس ان يواجه امرين :

١ ــ اقناع الأمم بصواب الحقيقة المنشودة والكلمة المعلنة ؟ وقد نجح نجاحاً عظيماً .

٢ ــ اقناع يهود الأمم ــ وهم يهود الشتات ــ الذين نطلق عليهم اسم اسرائيليين . وكان الاسرائيليون الأمم ، والجليل والسامرة ، اقل تعصباً من ذويهم في اورشليم اليهودية الذين دعوا يهوداً .

لقد نجح بولس في اقناع الاسرائيليين. كان يدخل الى مجامعهم ويكلمهم بناموسهم وشريعتهم ، يمجدها ظاهرياً ، ليلعن نهايتهما والغاءهما بمجيء المسيح . هكذا كان اسرائيليو الأمم يتقبلون كلام بولس الذي حدثهم بمنطقهم ونوعية تفكيرهم، فاصبحوا مسيحيين.

— ٦ —

ماذا حدث في اورشليم ؟

تناهى الى جماعة اورشليم ، وعلى راسهم يعقوب وبطرس ، ان الأمم اعتنقوا المسيحية وتنكروا للتوراة على يد بولس ، وادركوا ان الاسرائيليين في الأمم اصغوا الى بولس وتبنوا مسيحيته مجردة من التوراة، او مسيحية لا تتعصب للتوراة . فحين جندتهم ، وارسلوا اناساً يعرقلون بشارة بولس ويشجعون الاسرائيليين على العودة الى التوراة ، ويطلبون من المسيحيين ان يختتنوا ويعودوا الى تقاليد موسى ، والا فان مسيحيتهم كاذبة(١١) . لقد سعى يعقوب وبطرس الى تهويد المسيحيين والقضاء على تبشير بولس . اذن ، فهما زعيما اليهودية المسيحية .

وفي هذه الأثناء مضى بطرس الى انطاكية ، مركز المسيحية . وبوصوله اليها زاد الخلاف بين المسيحيين والنصارى عما كان عليه . فماذا فعل بطرس ؟.

كان بطرس يجلس مع اليهود المسيحيين ويتناول الطعام معهم(١٢) ويتجنب المسيحيين . ونحن نعلم ان تجنب الجلوس وعدم تناول الطعام مع المسيحيين يشيران الى عادة وتقليد يهوديين يتهمان الآخرين بالنجاسة . وعندئذ ، ثارت ثائرة بولس ، فلام بطرس ووبخه على تصرفه وسلوكه(١٣) .

عاد بطرس الى اورشليم ، فعمد الى تحريك الموضوع من هناك . ووافقه يعقوب على ارسال رسل من قبلهما الى الأمم ليقنعوا المسيحيين أمماً واسرائيليين، بالعودة الى التوراة والى تعاليم موسى والختان ، الى الشريعة ، الى حرفة الناموس ، الى اليهودية .

وثائر بولس، فبدا بكتابة رسائله محذراً المسيحيين من قضية الاستماع الى « الاخوة الكذبة »(١٤) . فازداد الخلاف والانشقاق بين كتلتي المسيحية : المسيحية والنصرانية . لقد شاء النصارى في اورشليم اخضاع العالم المسيحي كله لشريعة موسى ، رغم ان المسيح حررهم منها .

ومن هذا الانقسام نشا مجمع اورشليم . انعقد هذا المجمع بعد فترة لم تكن ابعد من ستة عشر عاماً بعد موت المسيح . وقد نتج عن هذا المجمع عودة النفسية اليهودية وانبثاقها في النصرانية مرة اخرى : اليهودية اولاً ، والمسيحية ثانياً .



انعقد المجلس: تكلم بولس، وتكلم يوحنا، وصمت الآخرون . اضطر بطرس الى الكلام ، فاعترف بالأمم . اعترف ان الأمم غير ملزمين بالتوراة او بالشريعة . واقر ان الله وهب الأمم ضميراً ومنحهم موهبة الروح القدس . وجاء دور يعقوب ، فاقر بما اعلنه بطرس بعد الاحتفاظ بأمور تعتبر غاية في السخف يتوجب على الأمم تطبيقها .

— ٧ —

كان مجمع اورشليم في عام ٤٩ نصراً عظيماً لبولس . لقد انتصر بمسيحيته ، واصبح الأمم مسيحيين ، واليهود المتنصرين نصارى . فماذا كانت نتائج هذا المجمع؟

اقر الروح القدس صواب حكمة بولس فافرز للأمم كما افرز بطرس لليهود . لكن المأساة لم تنته .

على الرغم من تدخل الروح القدس في مجمع اورشليم والزام كل الأطراف على قبول قراراته ، لكن النصارى – بطرس ويعقوب ويهودا – عمدوا الى اثارة الفتنة من جديد ، فعادوا يكيدون لبولس ، ويرسلون الرسل لبذر بذور الانشقاق في صفوف المسيحيين .

وكان على بولس ان يجاهد ؛ فكانت حياته سلسلة من المتاعب والآلام . «الاخوة الكذبة» يحاربونه، فيضطر الى كتابة الرسائل الانجيلية ليحذر من مغبة الاستماع اليهم ، لكي لا يعودوا الى الناموس مرة ثانية ، هذا الناموس الذي خلصهم منه المسيح ، وانقذهم من الخطيئة المسيحية فيه .

هكذا ، ارتدت اليهودية المسيحية ثياب اليهودية مرة اخرى ، فعادت الى الشريعة والناموس ، وقتلت الروح ، واحيت الحرف . وهكذا ارتدت النصرانية الى قوقعتها داخل الناموس ، والشريعة . وعملت اليهودية المتلبسة بالنصرانية من اجل اعادة سيطرتها على العالم المسيحي كله . انها رغبت في اخضاع الكنائس كلها ، والمسيحيين في اقطار العالم كله ، لنفوذها ، لتسيطر اليهودية على الفكر الانساني . ولم يقف احد امام هذه الموجة العاتية الا بولس ويوحنا .

— ٢ —

نهاية الناموس

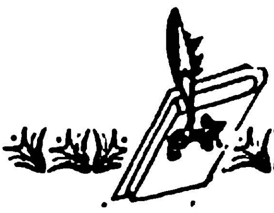
يعد الدخول الى فلسفة بولس امراً صعباً للغاية. فقد كان بولس منظم الفكر المسيحي وفيلسوف العقيدة وحامي الايمان . وان ما يميز بولس عن غيره من رسل المسيح وتلاميذه هو انه كان ضليعاً في اليهودية ومتعمقاً في المسيحية . ففي يهوديته كان فريسياً ، تحت الناموس ، وفي مسيحيته كان مؤتمناً على انجيل النعمة والايمان والضمير ، انجيل الأمم . لذلك جمع بولس بين فهم عميق للناموس والحرف وبين ادراك عظيم للنعمة والروح . ولم يستطع غيره من الرسل القيام بدوره لأنه كان مثقفاً بثقافة يهودية ويونانية وأممية . وكان اناءً مختاراً للمسيح. ولقد ترتب على هذا الرسول العظيم ، رسول الأمم ، ان يتفقه بالروح وان يلم بالحرف . ولم يكن باستطاعة غيره ان يقوم بهذا الدور المزدوج . فاليهود المتنصرون الذين ارادوا ان يجمعوا بين اليهودية والمسيحية لم يستطيعوا ان يفهموا روح المسيحية ولم يدركوا عمقها وسرها ، ولذلك فانهم قضوا على روحانية المسيحية من خلال الاستمرار في تعلقهم بحرفية ناموسهم . وهذا ما جعل بولس يحذر المسيحيين الجدد من الأنبياء الكذبة، ومن الذين يريدون ان يحولوا انظارهم عن المسيح الكوني . وقد استطاع بولس ان يوفق بين الناموس والنعمة ، فاقر بوضع الناموس الى ان يجيء الملء ، وحتى يكون الكل (المسيح) . فللناموس دور في خطة الله يعطيه بترتيب الملائكة ، ويكون شريعة لأمة متمردة ضائعة ، خاضعة للخطيئة . وينتهي هذا الدور بمجيء ملء الزمان . ولا يذكر بولس هذا الأمر الا لليهود الذين جذبهم الى المسيحية . وفي مخاطبته للمسيحيين ينكر ان يكون للناموس قيمة في خطة الله .

ولما كان الناموس قد اعطي لمن سقطوا من النعمة ووقعوا تحت سلطة الخطيئة ، لذلك هو ناقص وغير كامل ، هو بعض . ومتى جاء الكامل ، وهو المسيح ، يبطل الناموس الذي هو بعض . اذن ، فالكمال لا يعني الابقاء على الناموس ، ولا يعني التدرج بالشيء من ادناه الى اعلاه ، لانه متى وجد الأعلى يبطل الادنى ، ومتى كان الكل يبطل الناقص .

كان الناموس دافعاً للخطيئة، لانه رمز للخطيئة، ولذلك عرف اليهودي الخطيئة . ولا يتبرر الانسان بأعمال الناموس . هنا يقف بولس امام معضلة ويتساءل : هل يخضع جميع الناس للناموس ؟ ويجيب بولس :

لم يكن للشعوب الأخرى ، ويسميها الأمم ، ناموس مكتوب . فما هي حالتهم ؟

الأمم محرومون من الناموس المكتوب ، لكنهم يستعيضون عنه بالضمير ، وهو ناموس غير مكتوب . ومتى فعل الأمم بالضمير والطبيعة فانهم ، وليس لهم



ناموس مكتوب ، يكونون ناموساً لأنفسهم ويظهرون عمل الناموس مكتوباً في قلوبهم ، وضميرهم يشهد . وفي اليوم الذي يدين الله سرائر الناس فانهم سيدانون بحسب انجيله بيسوع المسيح .

وهكذا تبدو المسألة سهلة . ليس للأمم ناموس ولكن لليهود ناموساً . واليهود لم يحصلوا على النعمة لأنهم لا يحصلون عليها ما داموا تحت الشريعة والناموس، والأمم يحصلون عليها ، بسبب ناموس ضميرهم ، لأنهم يتبعون ناموس الله فيهم . والايمان يسود الأمم ، كذلك النعمة ، لأنهم لا يخضعون للناموس المكتوب . لذا، يعترف بولس ان الأمم هم ابناء الناموس الروحي.

لذلك يخبرنا بولس ان الأمم يعملون بالناموس الروحي وان اليهود يخضعون للناموس الحرفي. ويعمل بولس على انقاذ اليهود من الشريعة والناموس ، فيعلن انه يريد خلاصهم من ربقة الحرف ، ومن جسد الموت والخطيئة ، وان يدخلهم الى عالم النعمة ، كالأمم ، كما يريد ان يقنعهم ان الانسان لا يتبرر بأعمال الناموس.

واستنتج بولس ان الله اراد ان ينقذ اليهود الذين يرزحون تحت نير الناموس ، فأرسل اليهم يسوع المسيح ، ملء الزمان ، ليفتديهم . فاليهودي كان قبل مجيء المسيح عبداً ، تحت الناموس ، اما بعد مجيء المخلص اصبح وارثاً . ولكن هذه الوراثة لم تعط لمن كانوا تحت الناموس الحرفي لأن الناموس يتعطل ، ويبطل الوعد الذي كان بالايمان ذاته . لذا ، اصبح الجميع، الأمم واليهود ، ابناء الله بالايمان وليس بالناموس .

يقول بولس في رسالته الى اهل كورنثوس: «متى جاء الكامل يبطل ما هو بعض » . ونفهم من قوله ان :

١ ـ المسيح هو ملء الزمان (غلاطية ٤:٤) .

٢ ـ المسيح هو الكمال والكل (متى ٥:١٨) . كما نفهم ان الناموس يزول متى كان الكل ومتى جاء ملء الزمان . ولما كان ملء الزمان قد اتى واكتمل كل شيء بالمسيح فان الناموس قد بطل .

ان مجيء الكل يعني ان الانتقال قد تم من الحرف الى الروح ، من اليهودية الى المسيحية ، من العبودية الى الحرية ، الى النبوة . ولما كان الناموس الحقيقي مكتوباً في القلوب والعقول ، واصبح يعني النعمة المعطاة للانسان من الله ، فقد بطل العمل بالناموس المكتوب . فالأمم لا يحتاجون لناموس مكتوب بالحرف لأنهم تجردوا منه وحققوا ناموس الله مباشرة ، فهم مسيحيون بالطبيعة .

لهذا نرى ان يتم الفصل بين المسيحية واليهودية، ويخطىء المسيحيون اذ يبقون على الصلة بينهما . فقد استغل اليهود نقطة الضعف هذه منذ بداية عصر التبشير المسيحي. وفي القديم حذّر بولس المؤمنين كي لا يستمعوا الى اضاليلهم .

ـ ٣ ـ
عالمية الانجيل و المسيح رجاء الأمم

الأمم الذين تبنوا الضمير المكتوب في الانسان منذ فجر الخليقة سهل عليهم قبول الايمان والنعمة والروح لأن المسيح ايقظ فيهم معطياتهم الوجدانية الأولى . فالى اي حد نوافق اليهود على ادعائهم وتفاخرهم باختيار الله لهم ، وتحقيرهم للأمم الأخرى ؟

لقد ابان بولس نقطتين هامتين :

الأولى ـ ان من نسميهم وثناً ليسوا وثناً بمعنى الكلمة الحرفي . يقول بولس : « ان خليقة الله كلها جيدة » . ويضيف في الرسالة الى اهل كورنثوس ٨:٤ « نعلم ان ليس وثن في العالم وان ليس إله آخر الا واحداً » . فأين فخر اليهودي واختيار الله له ؟ الا يبدو جلياً ان الوثن ، اي الأمم ، عرفوا الله اكثر مما عرفه اليهود ؟ الم يظهر بولس ان الأمم مهيؤون بالضمير وبالناموس المكتوب في صدورهم ، وهو ناموس الله ؟ الم يقر بولس بأنه اخذ من الأمم ومن اليهود وانه مدين للجميع ؟ الم يظهر بولس ان الأمم مهيؤون لتقبل الانجيل، انجيله هو بيسوع المسيح ؟ وكيف نفسر مجيء حكماء الشرق ، ولم يكونوا يهوداً ، الى حيث ولد المسيح في المغارة ؟ وكيف نعلل قول المسيح بأن الكثيرين سيأتون من جهات العالم الأربع ويتكئون في الملكوت ! الا يعني هذا ان الأمم بطبيعتهم كانوا اقرب الى الله من اليهود ؟

لقد اكد بولس ان جميع الناس قبلوا النعمة والايمان منذ الأزل ، وعلم ان المسيح هو في الجميع ، وان الأمم الذين لم يسعوا في اثر البر قد ادركوا البر ، ولكن اسرائيل وهو يسعى في اثر الناموس لم يدرك ناموس البر . فكيف يدرك البر من كان « وثنياً » لا يتبع شريعة ؟ وكيف لا يدركه من كان يهودياً ويتبع شريعة ؟ اليس جلياً ان الله قد فضل الأمم على اليهود ؟ الم يفضل بولس ، في رسالته الى اهل رومية ، الأمم



على اليهود بالرحمة والمحبة ؟ اما اختار الله الأمم منذ الأزل للايمان ولسماع كلمة الانجيل ، وشهد للأمم معطياً لهم الروح القدس ؟ لقد شهد الله للأمم . الم يقل بولس في رسالته الى اهل كورنثوس اننا جميعاً بروح واحد اعتمدنا الى جسد واحد ، يهوداً كنا ام يونانيين ، عبيداً ام احراراً ، وجميعنا سقينا روحاً واحداً ؟ الم يذكر متى الانجيلي انه على اسم المسيح يكون رجاء الأمم ؟ الم يذكر كتاب اعمال الرسل انه في كل امة الذي يتقيه ويصنع البر مقبول عنده ؟ اليس حقيقة ان الله للجميع ، كما يقول بولس في رسالته الى اهل رومية «ام الله لليهود فقط ؟ اليس للأمم ايضاً» ؟ الا يخبرنا سمعان في اعمال الرسل ان الله افتقد الأمم ليأخذ منهم شعباً على اسمه ؟

الثانية – ان من نسميهم يهوداً او شعب الله الخاص ليسوا شعب الله الخاص . فقد ذكر بولس في رسالته الى اهل رومية « واما الآن فقد ظهر برّ الله بدون الناموس ... الى كل وعلى كل الذين يؤمنون لأنه لا فرق » . واضاف بولس « يسوع المسيح الذي به ، لأجل اسمه ، قبلنا نعمته ورسالته لاطاعة الايمان في جميع الأمم » . وكذلك نجد في اعمال الرسل ١٣ ما يلي « لأن هكذا اوصانا الرب : قد اقمتك نوراً – المسيح – للأمم لتكون انت خلاصاً الى اقصى الأرض » . وفي رسالته الى اهل رومية يكتب بولس : « اذاً ، ما فضل اليهودي وما نفع الختان ؟ » .

كيف يكون اليهود اداة خلاص وهم شعب الناموس؟ فما هي الحقيقة التي نسميها الشعب المختار؟ لقد اخطأ اليهود في انهم :

١ – جعلوا الله إلهاً قومياً واخضعوه لنزواتهم.
٢ – ولم يعرفوا الإله الحق ، إله جميع الأمم .
٣ – وتنكروا للأمم الأخرى .

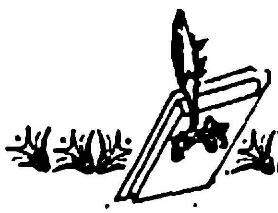
الإله القومي او الخاص ، هو إله مغلق ، لا يعطي لأتباعه الا الشريعة . ولما كان اليهود قد جهلوا الإله الحق ، فقد اخضعوا مفهوم الإله لهم . فهم لا يقوون على رؤية إله آخر غير إلههم ، كما انهم لا يستطيعون ان يعترفوا بغيره . تنكروا للأمم الأخرى واعتبروها رجساً ونجاسة . وهذا ما يفعله كل شعب منغلق ازاء إلهه وازاء إله الأغراب . ولما كان الأمم لا يتبعون شريعة كشريعتهم ، فانهم كانوا غرباء عنهم ومحتقرين منهم . فنشأ عندهم الاعتقاد بالشعب المختار .

اما المسيحية فقد اظهرت لهم الجانب الصالح من الموضوع . لقد اظهرت ان الله ليس إله اليهود فقط بل هو إله الأمم ايضاً ، وان الرجاء والخلاص والنعمة هبات اعطيت لليهود وللأمم على السواء . واظهرت ان اليهود بحاجة لهذا الخلاص قبل غيرهم ، وانه لا افتخار لليهودي ولا فضل له لأن الايمان والضمير موهبتان تشترك فيهما الأمم كلها . ابناء الله بالايمان وبالمسيح الكوني . ولهذا ، لم يستطع اليهود ان يتقبلوا المسيح. هم ارادوه مسيحاً يخضع لناموسهم لا ان يحررهم منه. فلما شاء المسيح ان يخلصهم منه ثاروا عليه وقتلوه . انهم يريدون مسيحهم ، تماماً كما ارادوا إلههم ، مسيحاً لهم وحدهم، مسيحاً ينقاد لهم، يحقق رغباتهم، يسير معهم ، ويعمل من اجلهم .. حتى ولو اقترف الخطأ . ويريدون إلهاً او مسيحاً لا يخص احداً غيرهم . وهكذا نرى ان نبوءة التوراة عن المسيح لا تتعدى كونها رغبة في صميم لا شعور اليهود بمجيء مخلص . والحقيقة تشير الى ان كلمة مسيح لا تتجاوز نطاق مصلحتهم القومية وخلق قائد ينقذهم . فهم يلحون على مجيء مسيح في الوقت الذي تداهمهم الملمات ويقعون فريسة للفوضى والاضطراب ، للنفي او للأسر .

وقد ادى تنكرهم للشعوب الأخرى ان يكونوا اعداء للأمم ، كما ادى الى شعورهم بالعزلة والذاتية شأن من تصيبه عقدة النقص او عقدة العظمة . وقد استغل زعماؤهم هذا الشعور فحافظوا على تكتلهم من خلال انعزالهم ، فازداد شعورهم بانهم شعب الله الخاص . وادت ذاتيتهم الى تفوقهم في مجالات عديدة فاستمروا في اعتقادهم بعنصريتهم .

ولما كان الخلاص قد اعطي لجميع الأمم فانهم فقدوا كل شعور بالمثال وزاد حقدهم اعتقاداً منهم بان الخلاص لا يكون الا لهم وفيهم . اعتقدوا ان إلههم لا يخلص غيرهم ؛ فهو ساعدهم في القديم على اعدائهم وسار معهم في البرية ، وحارب معهم ووعدهم بارض وبمسيح .

في اعمال الرسل نرى ان بولس ، وهو في غيبة، قد امر بالروح القدس ان يترك اليهود وينطلق الى الأمم لأن شهادته مرفوضة في الوسط اليهودي . ولا شك ان اليهود لا يقبلون شهادة بولس لأنه رسول الأمم المنادي بالمسيح الكوني ورجاء الأمم وبنهاية التوراة والناموس .



— ٢ —

لماذا ارسل خلاص الله الى الأمم ؟

« هنالك (في الأمم) يدعون ابناء الله الحي » رومية ٩ : ٢٦

« افتقد الله الأمم اولا ليأخذ منهم شعبنا على اسمه » أعمال الرسل ١٥ : ١٤

يقول بولس انه مدين للجميع لأنه أخذ من الجميع. فما الذي اخذه بولس ؟

عندما حاولت ان اتفهم القرابة الفكرية بين الحكمة اليونانية والمسيحية وجدت ان العقل الكل عند اليونان كان يماثل مفهوم « الكلمة » المسيحية التي وجد الكل بها . وعلى هـذا الأساس ، استطـاع يوستينوس القديس الذي عاش في القرن الثاني الميلادي ان يدرك عمق « الكلمة » بعد قراءة افلاطون وفلاسفة اليونان ، فتقبل المسيحية واعتنقها . اما اليهود فانهم لم يدركوا العقل الكلي او الأول ولم يعرفوا « الكلمة » . ولهذا لم يؤمنوا . فقد فشلت كل عملية تقارب بينهم وبين الفكر اليوناني . اذن ، فالأمم افضل من اليهود واقرب الى الله منهم . لم يتآلف الفكر الأممي مع اليهودية ولكنه تآلف مـع المسيحيـة .

حاول اليهود ، قبل المسيح وبعده ، خاصة في الاسكندرية ، اقامـة علاقة بـين الحكمة اليونانية والتوراة . فادعوا ان موسى التوراة مثله مثل افلاطون طيماوس او فيثاغوروس الرياضي الحكيـم . ولـم يتورعوا عن محاولة البرهان ان معلومات افلاطـون وبعض فلاسفة اليونان مقتبسة بمعظمها من التوراة اي عن الفكر الموسوي . والحقيقة ان فلاسفة اليونان، بالاضافة الى اصالة عبقريتهم ، قد اقتبسوا شيئاً من كلمـة الشرق وبلاد ما بـين النهرين وآسيا الصغرى ومصر . ولكنهم لم ينسجموا مع اليهود . وقـد ظلت الحضارة اليونانية بمنأى عـن اليهودية ، فلم تنسجم معها ، ولم تتآلف ، ولم تجد فيها اي عمق او حقيقة او سـر .

اما الشـرق ، هـذا الشرق المضيء ، فانه لم يشتمل على الحكمة اليونانية فحسب بل تعداها الى الغنوصية ، وهي الحكمة التي تنادي بالمعرفة كوسيلة للوصول الى الحقيقة العليا السامية ، وتجعل الايمان نتاجاً لهـا . وقد ازدهت الغنوصية بالحكمة والمعرفة وشادت للفكر الانساني قاعدة اصيلة . والواقـع ان الغنوصية تنكرت لليهودية ، فاعتبرت موسى التوراة مبتدئاً في مدرسة الحكمة والمعرفة . فهي تتهمه بانه لم يعرف من مفاتيح الحكمة السبعة الا مفتاحـين .

وقبل مجيء المسيح كانت الهلنستية قد تمخضت عن الرواقية التي امتدت من آسيا الصغرى الى روما . كانت الرواقية ، التي تحدث عنها ماركوس اورليوس وابكتتوس ، تنادي بمبدأين رئيسيين :

١ ـ المحبة الانسانية الشاملة ومحبـة الانسان للانسان في كل زمان ومكان .

٢ ـ الإله الكل ، إله المحبة الذي وهب الانسان صورته ومثـاله . فالرواقية آمنت بشمول الانسان والله بالمواطنيـة العـالميـة . ولا ننسى ان الشعوب الفينيقية ـ الكنعانية كانت على درجة عالية من معرفة الله . فقد اعتمدت مبدا الشمول والعالمية في دينها . فترتب عليها مناهضة اليهودية ، مناهضتها اليهودية. لذا ، لم يخرج عن قاعدة الشمول والعالمية والكونية والمحبة في بلدان حوض البحر المتوسط الا اليهود .

في هذه البيئة نشات المسيحية وترعرعت . ولم تكن هذه البيئة الا الأمم . لذلك نرى ان سفر الأعمال ورسائل بولس والأناجيـل تقر بان الله سيجعل مـن الأمم شعباً له ، يسمون بلسمه مسيحيين . فاليونان المهيؤون بالحكمة والمدركون لفلسفة وجود العـالـم ، الذين عرفوا أسرار الكون وعلموها، وعرفوا بالفضيلة، وادركوا اللوغوس ؛ والرواقيون الذين نادوا بالمحبـة والانسانيـة الشاملة ، وبإلـه واحد لجميـع البشر ؛ والمصريون الذين آمنوا بوحدانية الله والحقيقة وعرفوا اسرار الكون العليـا والدنيا ومثلوها في الأهرام التي تعتبر حكمة ايزوتيرية كبرى ؛ والغنوصيون الحكماء الذين توغلوا الى عمق سرية الكون ، ومعرفة سر الله والوجود ... اولئك جميعاً تقبلوا المسيحية وتنكروا لليهوديـة .

اولئك هم الأمم الذين اصبحوا مسيحيين . وقد ناهضوا اليهودية قبل انتشار الدعوة المسيحية . لذلك كانوا اضداداً لليهود ، ووجد اليهود فيهم أعداء بالمثل. فالمسالة تبدو بكليتها مسالة حضارية: حضارة انسانية راقيـة ملقحـة بالعقل والروح ، وامة عنيدة ، هي اليهود ، تحـاول تهديمهـا[١٥] . وعندما انتشـرت المسيحية بـين الأمم ، وبـين اليهود ، حاول اليهود المتنصرون ، بالاضافة الى اليهود انفسهم ، عرقلة سعي الأمم الى الخلاص ، كما حاولوا اخضاعهم . فالمسالة ظلت ذاتها: يهودية لعنت الأمم بلسان موسى في التوراة: أليست هـذه اليهودية صهيونيـة ؟



الأمم المهيؤون بالعقل وفلسفة الشمول والانسانية تقبلوا المسيحية . فالأمم هم الأبناء الحقيقيون ، هم المسيحيون . فكيف ندعوهم الى قبول التوراة ، وكانوا قد رفضوها سابقاً قبل المسيح ، ولم يجدوا فيها الا ما ندر من المعرفة والحكمة ؟ وكيف يصغون الى موسى، وحكماؤهم تجاوزوا بدائيات شريعة موسى ؟ وكيف يقيمون علاقة مع التوراة وهم الذين تساموا بعقولهم الى إله الكون ، بينما غرقت التوراة بالإله يهوه ، العنصري ، الغاضب ؟ وكيف يتبنون الناموس الذي يؤدي الى العرقية والعنصرية ، الى الصهيونية ، وهم فلاسفة المحبة والرحمة والعدل ؟

ــ ٤ ــ
الانسان العتيق والانسان الجديد

نقرا في اماكن عديدة من الأناجيل والرسائل اقوالاً تشير الى العتيق والجديد ، وتتمثل في عبارات او شبه عبارات او كلمات يدل مضمونها على رمز روحي . اننا نجد تعابير كالخميرة العتيقة ، والعجين الجديد ، والخليقة الجديدة ، والأشياء العتيقة ، والانسان العتيق ، والتجدد بروح الذهن ، ولبس الجديد ، ونزع الأول وتثبيت الجديد الذي يشير الى كتابة النواميس في الأذهان ، والولادة من فوق ، من الروح .

ما هي الخميرة العتيقة ؟

نسمع المسيح يحذر اليهود من خميرة الفريسيين والأنبياء الاقدمين . وكانه يقصد في تحذيراته ان يدرك التلاميذ بانهم خميرة جديدة وخمرة جديدة ، نشوة روحية جديدة. وينهاهم عن خمرة القديم او عن خميرة القديم ، وهم الأنبياء . ونحن نرى من خلال الأمثلة الرمزية المعطاة مفهوم الانتقال من العتيق الى الجديد .

في الرسائل تشديد على التنقية من الخميرة العتيقة ، ليكون اتباع المسيح عجيناً جديداً . فهناك اذن خميرة عتيقة وخميرة جديدة . الخميرة العتيقة فاسدة لا تصلح : هي الناموس والأنبياء . الناموس ناقص والأنبياء لم يكتملوا . وقد سادت تلك الخميرة القديمة فترة زمنية طويلة تمتد من آدم الى موسى ، وانتهت بيوحنا المعمدان . فالمسيح ينادي ، بلسان بولس، بالتخلص من الخميرة العتيقة ليكون المسيحيون عجيناً جديداً يعتمرون بفطيرة جديدة هو المسيح .

ونجد كذلك تشديداً قوياً على خلع الانسان القديم الفاسد من جهة التصرف السابق . فما هو الانسان العتيق من جهة التصرف السابق ؟ وما هو التصرف السابق ؟

يشير الانسان الجديد الى الانسان الذي لا يتصرف كما كان يتصرف سابقاً بحسب شهوات الجسد ، بحسب الناموس ، والى الانسان الذي يتجدد للمعرفة حسب صورة الله والمسيح . لذا ينزع العتيق ويثبت الجديد . ويشير ايضاً الى ولادة من فوق ، من الروح، لا تتم الا بالمسيح .

اننا لا نجد فرقاً بين الانسان الجديد والعهد الجديد ، وبين الانسان القديم والعهد القديم ، ذلك لأن العهد الجديد والانسان الجديد يعبران عن دخول حقيقي الى قدس الأقداس . ولهذا السبب ، ما عدنا نرى وجوباً لبقاء القديم والانسان العتيق . فقد انفصل الجديد عن القديم ، وكلاهما يتناقضان ولا يلتقيان .

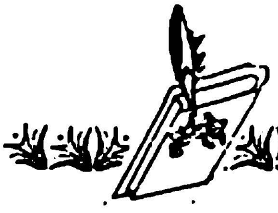
لا صلة للمسيحية باليهودية . القديم انقضى ، وهوذا الكل قد صار جديداً(١٦) . فكيف نمزج الجديد بالقديم . يقول المسيح « لا توضع خمرة جديدة في زقٍ قديم » . ان اجتماعهما يؤدي الى محو الجديد والتعلق بالقديم . هكذا تنفصل المسيحية عن اليهودية، والانجيل عن التوراة . وهكذا يموت الانسان القديم ليحيا الانسان الجديد .

ــ ٥ ــ
الأناجيل اربعة

ماذا قال المسيح لتلاميذه قبل صعوده الى السماء ؟ قال لهم « اذهبوا الى العالم واكرزوا بالانجيل للخليقة كلها » مرقس ١٦:١٥ . ونقرا في لوقا ٢٤-٤٧ ما يلي « وان يكرز باسمه للتوبة ومغفرة الخطايا لجميع الأمم » .

قبل تدوين الأناجيل الأربعة كتب بولس رسائله الى مختلف الاماكن من بلاد الرومان واليونان وآسيا الصغرى وحتى الى العبرانيين انفسهم . فكان بولس سباقاً الى كتابة الانجيل . فما معنى كلمة انجيل ؟

الانجيل كلمة يونانية تعني البشارة . وليست هذه البشارة الا بيسوع المسيح . فهي اذن البشارة الجديدة . ويبدو ان كلمة انجيل ، لأنها يونانية اممية، لم تستعمل الا بعد ان بدأ بولس بالكرازة ، والتبشير . فالكلمة لا تعني كتاباً بقدر ما تعني بشارة وكرازة .



ولذا كانت الكلمة جمعاً وفرداً . فهي تعني البشارة التي ارسلت الى مختلف الجهات .

ومع ان بولس كان السباق لكتابة الانجيل ، اي للتبشير بالمسيح ، فان الكثيرين يجهلون ان الانجيل الأول قد خطه بيده ؛ فهو المبشر الأول بالمسيحية في الامم . وليس تبشيره الا انجيلاً .

نحن نعلم ، كما ذكرنا من قبل ، ان المسيحية انقسمت الى قسمين : مسيحية حقة ، هي مسيحية الأمم لا اثر للتوراة فيها ، ونصرانية تبناها اليهود وحملوا لواءها .

ولما كانت البيئات الأقنية متنوعة في ظل الامبراطورية الرومانية فقد بدأ الرسل بكتابة سيرة المسيح وتعاليمه إليها . فاعتبرت تلك الكتابة انجيلاً اي بشارة . ولما كانت المسيحية تتفرع الى فرعين ، فان كاتبي الأناجيل انقسموا الى قسمين . فاناجيل متى ومرقس ولوقا كتبت لبيئات يهودية او نصرانية ، وانجيل يوحنا كتب للأمم، للمسيحيين في كل اقطارهم.

وان ما يلفت انتباهنا ان الأناجيل الأربعة تتدرج في مجموعتين : اولى ، تجتمع فيها الأناجيل الثلاثة الأولى ، متى ومرقس ولوقا ، وتشتمل على التوراة والانجيل، وتسمى اناجيل الحوار مع العقلية اليهودية. ثانية ، وفيها انجيل يوحنا ، وقد جاء متأخراً عن البشائر الأخرى لأسباب سنذكرها ، ويسمى انجيل المسيحيين ، وانجيل بولس المتمثل برسائله .

اولاً ــ الأناجيل الثلاثة ــ اناجيل الحوار

يعتقد الكثيرون من التقليديين بأن العلاقة القائمة بين الانجيل والتوراة تتلخص في العبارة التالية : اذا كان المسيح قد ولد في فلسطين ، في بيئة يهودية ، فانه يتوجب علينا دراسة التوراة حتى تتوفر لنا دراسة البيئة التي عاش المسيح فيها .

عندما تأملت مضمون هذه العبارة ادركت النتيجة التالية : ان دراسة التوراة لا تقدم لنا شيئاً في البيئة التي عاش المسيح فيها . وبالاضافة الى هذا ، نحن امم مسيحيون لم نتبن التوراة اطلاقاً ، بل اخذنا بشارة المسيح ، انجيله ، من فم بولس الذي اخذها مباشرة من المسيح ، ومن فم يوحنا ، من دون توراة او ناموس . ولما كنا مسيحيين فان التوراة تلغى . ولما كانت البيئة المسيحية في فلسطين وخارجها اشتملت على عدد من اليهود الذين آمنوا بالمسيحية وظلوا متمسكين بتوراتهم ، فان دراستنا لهذه البيئة ، تكون في الحوار الذي نشأ بيننا وبينهم لاستدراجهم الى المسيحية وابطال العهد القديم . ويتلخص هذا الحوار، بل يتمثل في الأناجيل الثلاثة التي تكشف اليهودية وادعياءها واقوال الأنبياء ، واجابات المسيح عليها . فالأناجيل الثلاثة هي حوارنا مع اليهودية . لذلك نستغني عن التوراة برمتها ونتركها لليهود الذين لم يؤمنوا حتى يومنا هذا . اما المسيحية بشقها النصراني فانها تعتمد الأناجيل الثلاثة المذكورة كرد على اليهودية التي لم تؤمن. هكذا تقيم اليهودية التوراة، والنصرانية اناجيل الحوار الثلاثة، والمسيحية انجيل يوحنا وانجيل رسائل بولس . وهكذا تلغى التوراة في البيئتين المسيحية والنصرانية ، وتظل الأناجيل الثلاثة جدلاً مع اليهود لاقناعهم بأن المسيح الذي اتى هو المسيح المنتظر ذاته . اذن ، هي اناجيل حوار ورد والغاء .

علمنا سابقاً ان هذه الأناجيل الثلاثة ، البشائر ، ارسلت الى بيئات سيطرت عليها اليهودية ـ المسيحية ؛ لذلك كانت حواراً بين المسيحية واليهودية . واننا سنأخذ الأناجيل الثلاثة ككل لأنها متشابهة في احاديثها واحداثها وفي سردها للسيرة المسيحية . ولما كانت هذه الأناجيل قد كتبت لبيئات يهودية مسيحية فانها راعت تفكير اليهود ، وكلمتهم بمنطقهم وناموسهم وذلك لكي تؤكد لهم ان اليهودية تنتهي بمجيء المسيح . ولما كانت البيئة اليهودية الأولى ، داخل فلسطين وخارجها ، لا تعرف كتاباً سوى التوراة، وكانت تعتقد ان المسيحية اكمال للموسوية ، لذلك بادر اولئك الحواريون الثلاثة الى وضع كتاب يكون مرجعاً لهم ، واعتبروه بشارة جديدة واجابة على تساؤلاتهم كلها . ولهذا نرى ان الحواريين الثلاثة يراعون العقلية اليهودية مراعاة تامة، فيكلمونها بنوعية تفكيرها ليصلوا الى النتائج التي يبغون الوصول اليها بعد تجاوز ذلك التفكير وابطاله.

كيف كانت صورة العقلية اليهودية السائدة ؟ وماذا كان دور اولئك الحواريين ؟ تتلخص الأناجيل الثلاثة الحوارية في كونها كشفاً لصورة العقلية اليهودية، واجابات على نمط التفكير اليهودي لالغائه وتحويله الى مسيحية صرفة وصافية . ويتلخص التفكير اليهودي بما يلي :

١ ــ يجب ان يكون المسيح ابناً لداود وبانياً لمملكته وباعثاً لها .

٢ ــ يجب ان يكون المسيح لليهود وحدهم .

٣ - يجب ان يكون المسيح مكملاً لموسى ، اي ان تكون المسيحية كمالاً لليهودية .

ذكرنا ان الحواريين عمدوا الى طريقة فذة حاولوا من خلالها اقناع اليهود . انهم عمدوا الى التحدث بعقليتهم التي تميل الى التشبث بالراي والعناد ، نوافقوا معهم على امور كثيرة وفق معطياتهم التوراتية وذلك لكي يستدرجوهم الى الحقيقة . اذاً ، تعتمد الأناجيل الحوارية الثلاثة الطريقة الجدلية التالية : استدراج اليهود الى الأيمان من خلال تفكيرهم . ولذلك عمل الحواريون ، لتحقيق غايتهم ، على مسايرة اليهود في افكارهم ، لتفنيدها وكشف حقيقتها ، ومن ثم لتبديل معتقداتهم . ولم تكن هنالك طريقة اخرى للحوار غير هذه الطريقة . وسنرى الآن كيف تم ذلك .

- ١ -
بنوة المسيح

اعتقد اليهود ان المسيح هو ابن داود ، متحدر من سلالة داود ، وباعث مملكته من جديد .

كان على الحواريين ان يبدلوا مفهوم اليهود من خلال اعتقادهم هذا . فنراهم يحاورونهم في هذا المعتقد ، ويعودون الى تسلسل ذرية المسيح ، فيقولون مع اليهود بأنه من سلالة داود ، ويسردون قصة حبل مريم وظهور الملاك لها ، وولادتها في بيتلحم اليهودية، في مدينة داود . ومن ثم يعمل الحواريون على لفت انتباه اليهود الى هذه العقيدة مرة ثانية ليمعنوا التفكير فيها وليعرفوا مضامينها .

هات نقرا ما كتبه اولئك الحواريون :

متى ٤١:٢٢ وفي ما كان الفريسيون مجتمعين سألهم يسوع قائلاً، ٤٢ - ماذا تظنون في المسيح : ابن من هو ؟ قالوا له : ابن داود ٤٣. - فقال لهم : فكيف يدعوه داود بالروح رباً ؟

مرقس ٣٥:١٢ ثم اجاب يسوع وهو يعلم في الهيكل : كيف يقول الكتبة ان المسيح ابن داود ؟ ٣٦ - لأن داود نفسه قال بالروح القدس ... ٣٧ - فداود نفسه يدعوه رباً . فمن اين هو ابنه ؟

لوقا ٤١:٢ وقال لهم : كيف يقولون ان المسيح ابن داود ؟ ٤٢ - وداود نفسه يقول ... ٤٤ - فاذا داود يدعوه رباً ، فكيف يكون ابنه ؟

نستنتج من هذه المقاطع الحوارية القليلة :

١ - ان المسيح نفسه ينفي علاقته بداود وانه من ذريته .

٢ - ان المسيح أممي ، من الجليل ، جليل الأمم .

٣ - يؤكد الحواريون كون المسيح من ذرية داود ليثبتوا ان هذا النبي الذي ينتظرونه من سلالة داود هو المسيح يسوع الذي يبشرونهم به. لذا، فان عليهم ألا ينتظروا آخر .

٤ - ينفي الحواريون ان يكون المسيح متحدراً من ذرية داود للأسباب التالية :

آ - المسيح كلمة الله ، فلا يكون ابناً لأحد .

ب - من ولد بالروح القدس لا يكون ابناً لأحد .

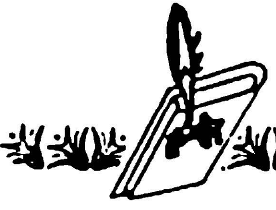
جـ - المسيح رب داود لأنه موجود قبله . واما بالجسد فقد تكوّن في احشاء عذراء بدون رجل .

د - عدم الاعتراف بالبنوة المادية . فالمسيح الذي اتى الى العالم كله لا يكون ابناً لأحد ، ولا ينتمي الى عرقية او عنصرية معينة ، لأنه كل وكمال ، وشامل وعالمي لا ينحصر بعرق او بقوم .

وهكذا نرى كيف عمل الحواريون على تقويض مزاعم اليهود . انهم سايروا الفكر اليهودي ، ثم انقلبوا عليه واظهروا نقيضه . قالوا مع اليهود ببنوة المسيح لداود ، ولكنهم نبهوهم الى ناحية مهمة هي : اعتراف داود ذاته بأن المسيح ربه وليس ابنه. وكأني بالحواريين يسألون اليهود : كيف تؤمنون بعقيدة تعيدونها الى داود ، وداود ذاته يأمر بنقيضها ؟ كيف تقولون ان المسيح ابن لداود ، وداود يقول ان المسيح رب له ؟ فما دمتم ابناء داود واتباعه ، فمن الطبيعي ان تؤمنوا بقوله .

هكذا ابطل الحواريون مزاعم اليهود ومعتقداتهم. ونحن نرى ان طريقتهم الحوارية هذه حسنة وسيئة. هي حسنة ناجعة في اقناع شعب عنيد ، وهي سيئة لأن المسيحيين لم يفهموا الا الشق الأول من الموضوع واساؤوا فهم الآخر .

وفي مشكلة داود وجه آخر ، هو اعتقاد اليهود بان المسيح سيعيد مملكة داود ويبعثها من جديد ، مملكة قوية ، قادرة على تحرير اليهود من كل عدو ،



بل قادرة على وضع الأمم تحت اقدامهم . وقد ادرك الحواريون هذه الناحية ، فأجابوا على تساؤلات اليهود حول مسيحهم المنتظر الذي يزعمونه ملكاً زمنياً ، مسيطراً ، قوياً ، يبني مملكة كبيرة، يسيطر على الممالك الأخرى ، ويعيد المجد المادي لليهود . وتتمثل اجابة الحواريين على تساؤلات من هذا النوع في محادثة جرت يوم فصح اليهود . يدخل المسيح مدينة اورشليم راكباً على حمار صغير ، لنستمع الى ما قالته الجموع والتلاميذ والأطفال :

متى٢١ : ٩ ــ والجموع الذين تبعوا كانوا يصرخون قائلين : اوصنا لابن داود . مبارك الآتي باسم الرب .

مرقس ١١ : ٩ ــ والذين تبعوا كانوا يصرخون قائلين : اوصنا . مبارك الآتي باسم الرب . مباركة مملكة ابينا داود الآتية باسم الرب .

لوقا ١٩ : ٢٧ ــ ولما قرب ، ابتدا كل جمهور التلاميذ يفرحون ويسبحون الله قائلين ، ٣٨ ــ مبارك الملك الآتي باسم الرب .

هنا نتساءل : لماذا اختار المسيح يوم فصح اليهود ليدخل الى اورشليم ؟ لماذا اختار حماراً صغيراً ؟ ولماذا هتف الناس والتلاميذ بالشعارات المذكورة في اناجيل الحوار ؟ (١٧) .

كان اليهود يرغبون بالمسيح ملكاً، فاتحا وقاهراً. وقد تنبه الحواريون الى هذه الناحية ، فجعلوا المسيح ملكاً ، كما اراده اليهود . لكن ملكيته ليست مادية « مملكتي ليست من هذا العالم » . والمسيح ملك كما قال حكماء الشرق « اين هو المولود ملك اليهود » ؟ لكنه ليس ملكاً مادياً على غرار داود وسليمان ، بل هو ملك روحي؛ وقد حاول اليهود اختطاف المسيح ليجعلوا منه ملكاً عليهم ، لكنه رفض ؛ وبرفضه هذا ارشدهم الى طريق الحقيقة : الملكية الروحية الشاملة .

هكذا وافق الحواريون اليهود في اعتقادهم بملكية المسيح؛ لكنهم حولوها من ملكية مادية الى ملكية روحية.

لماذا دخل المسيح اورشليم وهو يركب حماراً ؟

لكي يبرهن المسيح عن ملكيته الروحية، لم يدخل اورشليم دخول الفاتحين او القادة او الملوك الماديين المظفرين ، بل دخل اليها بتواضع جم ، بمحبة فائقة ، بعظمة حقة. وقد استطاع المسيح ، بمحبته وتواضعه، أن يبرهن عن حقيقة جليلة هي انه ملك عظيم ، ملك القلوب والأرواح ، ملك الإنسانية . وهذه هي الملكية الحقة .

ولماذا اختار المسيح يوم فصح اليهود ؟

اختاره المسيح لسببين : اولهما ، لأنه عيد هام عند اليهود ، هو تقدمة الذبيحة . وكان على المسيح أن يقدم نفسه ذبيحة ليكون الانسان هو الذبيحة الحقة . ثانيهما ، لأن ايامه اصبحت معدودة .

نستنتج من هذه الحادثة ان :

١ ــ المسيح ملك ، لكنه ملك روحي .

٢ ــ المسيح يعيد مملكة داود ويبعثها ، ولكن المملكة تأتي الآن من الله . وهذا يعني أن مملكة داود لم تكن من الله .

اذا كان المسيح يعيد مملكة داود ويبعثها ، فانه يعتبر ملكاً ولكن ملكيته روحية وليست مادية . ومملكته تأتي من الله . واذا كانت مملكة المسيح من الله فان اساسانها روحية لا مادية . فما المغزى الذي يلهمه لنا هذا الكلام ؟

ان مملكة داود هي الآن مملكة يسمح بها الله . ولكنها ليست مملكة مادية . واذا كانت المملكة مادية فانها تقوم ضمن حدود وتنظر الى توسعات وتؤلف جيشاً وتبني حكومات . وتكون هذه المملكة محاربة ، معتدية وقوية قوة مادية . اما المملكة التي يبنيها المسيح فهي مملكة روحية ، لا حدود لها ؛ عالمية ، محبة ، لا تحارب ولا تتسلط ، ولا تستعمر ، ولا تنظر الى توسعات . وهكذا تتحول المملكة من مادية الى روحية ، وتلغى مملكة داود وتحل محلها مملكة المسيح . ولما كان اليهود يريدونها مملكة داود بصفة جديدة ، لذلك فقد دعاها الحواريون بمملكة داود مع اختلاف المعنى والمضمون . وهكذا تنتهي مملكة داود المحدودة ، الخاصة باليهود ، التي لم تكن من الله ، المادية ، المسيطرة ، لتحل محلها مملكة المحبة والسلام التي لا تحد بحدود ولا تعرف جيوشاً ولا تعادي ــ بيتي يدعى بيت صلاة لجميع الأمم .

لكن اليهود لم يفهموا ؛ واني اتساءل ان كانوا سيفهمون . فها هم قد اعادوا انباء مملكة مادية ، وينتظرون المسيح ... لكن المسيح لن يأتي اليهم ، اي لن يحضر بينهم ، ما لم يعوا الحقيقة .



ـ ٢ ـ
هـل المسـيح لليهـود ؟

اثار الفكر اليهودي قضيـة اخرى مفـادها ان المسيح لا يأتي الا لهم ومن اجلهـم ، فليس المسيح للأمـم بـل لليهـود .

ماذا كان موقف الحواريين من هـذه الفكرة ؟

عمد الحواريون ، بالحوار ، الى الغاء الفكرة كما فعلوا في فكرة بنـوة المسيح ولكنهم اسـاؤوا بعض الشيء بمراعاتهم للفكر اليهودي . ومـع هذا فقـد توصلوا الى ابطال هذه القضية . ومن جانبي ، اعتبر اناجيل الحوار الثلاثة عقدة صعبة الفهم ، تؤدي الى اثارة اشكالات عند اغلب المسيحيين . فلولاها ، لما وجدت تفرقة او طوائف ، ذلك لأنها ادت الى خلق تفاسير كثيرة . ان هذه الاناجيل الملحقة بالنصرانيـة تعمل على دعم الفكرة ونفيها في آن واحد . انها تدعمها بالسير في تعرجاتها والموافقة على طرحها كمبدأ، وتنفيها في النهاية عندما تشير الى تلاشيها في البشارة الجديدة.

ماذا فعـل الحواريـون ؟

متى ١٠:٥و٦ : هؤلاء الاثنا عشر ارسلهم يسوع واوصاهم قائـلاً : الى طريـق امم لا تمضوا او الى مدينة للسامريين لا تدخلوا ؛ بل اذهبوا بالحرس الى خراف بني اسرائيل الضالة(١٨) .

متى ١٥:٢٤ . فأجاب وقال لهم : لم ارسل الا الى خراف بني اسرائيل الضالة .

مرقس ١٢:١ـ٩ : انسان غرس كرماً وسلمه الى كرامين . ثم ارسل الى الكرامين في الوقت عبداً ليأخذ من ثمر الكرم . فجلدوه وارسلوه فارغاً . فاذا كان له ابن واحـد حبيب اليه ارسله اليهم اخيراً قائلاً انهـم يهابون ابني . لكن الكرامين ... قتلوه واخرجوه خارج الكرم. فماذا يفعل صاحب الكرم: يأتي ويهلك الكرامين ويعطي الكرم الى آخرين .

متى ٢١:٣٣ ـ ٤٣ : ... اولئـك الأرديـاء يهلكهم هلاكاً روياً ويسلم الكرم الى كرامين آخرين يعطون الأثمار في اوقاتها . لذلك اقول لكم ان ملكوت الله ينزع منكم ويعطى لأمة تحمل ثماره .

نستنتج من هذه المقاطع الحواريـة :

١ ـ ان المسيح قد اتى للاسرائيليين فحسب .

٢ ـ قصد المسيح ان يكون الخلاص من اسرائيل . وهـذا يعني ان يتقبل بنـو اسرائيل الرسالة المسيحية ويحملوها الى العـالم .

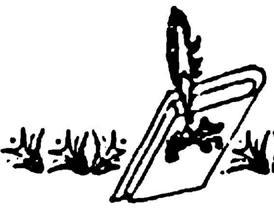
٣ ـ ان المسيح ، وقد لمس رفض اليهود لرسالته ، ينزعها منهم ويسلمها الى امة او امم يعملون بها.

هذه هي النتائج المباشرة وغير المباشرة التي حققها الحواريون في اناجيلهم الثلاثة . انهـم شاهدوا اصرار اليهود على الدور الذي يحبون ان يلعبوه في قدر الأمم ومصيرهم في حمل مشعل الخلاص ، فارادوا ان يكونوا واسطة خـلاص . فكلمهم الحواريون بهذه اللغـة ، وقالوا معهم بأن المسيح جـاء لبني اسرائيل ، وانـه سلمهم رسالة وانهـم رفضوها . فمـن الطبيعي ان تسلم الى الأمم . وهكذا يصل الحواريون ، بالحوار ، الى اقناع اليهود بأن المسيح قد اتى اليهم، كما يزعمون، ليكونوا وسيلة خلاص للأمم ، ولكنهم رفضوا رسالته . ولما كان واجباً ابلاغ الرسالة الى العالم ، فمن الطبيعي ان تعطى الى قـوم آخرين .

كذلك بعض الحواريين ان بني اسرائيل خطـاة ، خراف ضالة ، اتى المسيح لينقذهم ؛ لكنهم رفضـوا الكلمة ، ولم يؤدوا الرسالة الى غيرهم من الأمم ، لأنهم غير مؤهلين بالروح والحق . لقـد قتل اليهود الأنبياء ورجموا بعضهم وطردوا البعض الآخر ، وقتلوا الابن الوريث . ولهذا فقد استحقوا العقوبة ، ولم تكن هذه العقوبـة الا نزع الكرم ، وهو الملكوت ، في ايديهـم ، واعطـاءه للأمـم .

نستنتج من هـذا كله ان الحواريين الثلاثة كانوا ينتقدون اليهودية من خلال معطياتها . فهم عمدوا الى تقويضها بشكل غير مباشر . فقد انطلقوا من معطياتهم ، مقرين اولا ، ثم محاورين ومفسرين ، حتى انتهوا الى الغائها . فالمسيح في راي اليهود قد اتى اليهم ، وعندما زلوا ، ورفضوا رسالته ، حملها الأمم . وبزلتهم صار الخلاص للأمم . الرومية١١:١١). ولا شك ان الحواريين يعطون الأفضلية لبني اسرائيل ، ولكـن بسبب زلتهم ورفضهم ، يصبح الأمم الآخرون اولـين . واما حجر الزاوية (المسيح) الذي رفضـه البناؤون فانه يصبح حجر الزاوية . وهـذا يعني ان المسيح الذي رفضـه اليهود سيصبح راس الزاويـة في بنـاء الأمم . فالأمم يتقبلون البشارة قبل اليهود ويفضلون عليهم .

ولا شك ان الحواريين شاؤوا اظهار حقيقة جوهرية



هي : ان دور اليهود قد انتهى ليحل محله دور الأمم . فالكرم ينتزع من ايديهم ويعطى للأمم . والوراثة ستكون من حظ الأمم ، لأن اليهود قتلوا الوريث (المسيح) . وهكذا يثبت الحواريون الأمم والاسرائيليين ويسقطون اليهود بطريقة حوارية جدلية .

ـ ٣ ـ
هل المسيح يكمل موسى ؟

تعد القضية الثالثة رئيسية في فكر المسيحيين التقليديين ، فهم يعتقدون ، كاليهود والنصارى ، ان المسيح قد اتى ليكمل موسى .

وقد راى الحواريون ، كما ذكرنا سابقاً ، بأن الطريقة الفضلى لجذب اليهود الى المسيحية هي في الحوار معهم من خلال معطياتهم : ناموسهم وتوراتهم . فمن جهة الاكمال ، كان اليهود ينتظرون مسيحاً يكمل موسى ، وكانوا يعتقدون ان الله اعطى الحقيقة على مرتبتين : مرتبة موسى ومرتبة المسيح . فالمسيح ، في رايهم ، يكمل موسى .

هناك آية لم ترد الا في انجيل متى . ربما ذكرت في هذا الانجيل وحده لأنه كتب الى اليهود فقط . في انجيل متى ٥:١٧ يقول المسيح : لا تظنوا اني جئت لأنقض الناموس والأنبياء ، ما جئت لأنقض بل لأكمل . فاني الحق اقول لكم الى ان تزول السماء والأرض لا يزول حرف من الناموس حتى يكون الكل».

فما هو الذي يكمله المسيح ؟ هل هو الناموس ؟ الناموس لم يكمل شيئاً كما يقول بولس في كورنثوس ١٣:١٠ ... (متى جاء الكامل فحينئذ يبطل ما هو بعض . اذن ، هو ناقص ، وكيف يكمل ما دام ناقصاً بجوهره ؟ فالمسيح الذي يملأ الكل (افسس ٨:١٠) والمسيح الذي يتقدم الى الكمال ويحققه (عبرانيين ١٦:١) لا يكمل موسى .

لذا نرى ان كل ما اتى قبل المسيح يلغى . الناموس يلغى ، والكهنوت المادي يلغى ، وملكية داود تلغى ، والحرف يلغى ، واليهودية تلغى ـ وهذا هو الناموس كله . ويكون المسيح الكل في الكل . وقد اظهر المسيح عن اكتمال الكل عندما اسلم الروح . فلما اخذ يسوع الخل ، وهو يسلم الروح ، قال « لقد اكمل » (يوحنا ١٩:٣٠) . كل شيء اكمل لأن الكمال قد تم وملء الزمان قد جاء . فان كان المسيح هو الكل والكامل ، فكيف يكمل الناقص وما هو بعض ؟ متى اتى الكامل تسقط الشريعة ويبطل الناموس وتمضي الأشياء العتيقة ويصير الكل جديد » ، ويكون المسيح الكل ، ويصالحنا مع الله بالبنوة . فلا تعود بنا حاجة لشريعة لأنها تسقط ، ولا تعود تعتبر وسيلة خلاص . ولقد بشر الأمم بالكامل (المسيح) مرة واحدة ، فليسوا هم بحاجة الى توراة . وبشر اليهود بالكامل الذي يلغي التوراة ، فليسوا هم ايضا بحاجة لتوراة .

ماذا فعل الانجيلي متى ؟

١ ـ كتب انجيله لليهود ، فذكر هذه العبارة التي لم يذكرها غيره .

٢ ـ اكد لليهود ان المسيح قد اتى ليكمل الناموس والانبياء .

٣ ـ يثبت الناموس ما دام الكل لم يات او لم يحقق .

٤ ـ يسقط الناموس متى كان الكل ، او اتى ، او تحقق .

٥ ـ وافق متى اليهود في مزاعمهم ، فاقر بمنطق تفكيرهم وطريقة فهمهم .

فقد ظن اليهود ان موسى قد تنبأ بالمسيح ، وان المسيح سيكون مكملاً لموسى . وبناء على هذا الوعد يقر متى بواقعه ، بواقع نقص موسى فيسير مع اليهود في معتقدهم هذا . وبهذه الطريقة يأنس اليهود له ويجدون فيه انساناً يتكلم بلسانهم ويعبر عن فكرهم . ولكن متى يعود ليقول ان المسيح ، الذي يكمل موسى، ينهي الشريعة والناموس ويبطلهما . وهكذا يدرك اليهود ، من خلال بشارة متى ، ان موسى ينتهي لأن تعاليمه تفنى في تعاليم المسيح . فالرسالة تكتمل والقديم ينتهي . ولذا يقول لهم ان ناموسهم قائم حتى يكون الكل .

ان متى الذي يقر بمجيء المسيح ليكمل ، وبكماله يسقط الناموس ، يعود في الفصل ذاته من انجيله ليثبت العكس تماماً ، واعني انه يعود ليتكلم بطريقة مباشرة لا مواربة فيها ولا تورية . واننا نقرا في الفصل ذاته ما قيل للقدماء وما يقوله لهم المسيح (متى ٥:٢١ ـ ٤٤) .

في هذا المجال نلاحظ مسالتين هامتين :

١ ـ متى الانجيلي ، يقر مع اليهود ، باكمال المسيح للانبياء ، ويقر ايضاً بنهاية الناموس والأنبياء بمجيء الكامل . فالكامل لا يكمل غيره لأنه كامل .



٢ ــ متى الانجيلي ، يستمر في البرهان ان المسيح لا يكمل موسى عندما يظهر التناقض بين المسيح وموسى . فالمسيح يناقض موسى تماماً ، كما ورد في انجيل متى ٥:٢١ــ٤٤ ، فكيف يكمله ؟

تلك دقـة ومهارة اظهرها متى . انه يقضي على مزاعم اليهود بطريقة منطقية جدلية . فاذا فهم اليهود او النصارى او المسيحيون التلقيديون ان المسيح يكمل موسى ؛ فانه يستمر بجدل صاعد ليظهر كذب هـذا القول ، يستمر في الفصل ذاته وفي المكان ذاته ليظهر معارضة المسيح لموسى ؛ ونقضه لـه . ومتى ادرك اليهود هـذه الحقيقة ادركوا ايضـاً ان المسيح ينقض موسى ، ولا يكملـه .

ثانيـاً ــ انجيـل يوحنـا

يوحنا ، تلميذ المسيح ؛ الملقب بالتلميذ الحبيب، كان اصغر التلاميذ سنا ، عمر طويلا ، وشاهد الصراع الذي وقع بـين المسيحيين والنصارى . كان يوحنـا مسيحيا صافيا ليس للتوراة اثر فيه . ففي انجيله يندر ان نجد ذكراً لعلاقة مع اليهود الا في مكان او في مكانين ، وحتى انه لا يذكر كلمة يهود بل اسرائيـل . واسرائيل في انجيله دلالة على المؤمنين .

لم يكتب يوحنا انجيله الا في اخريات ايامه بعـد ان كان قد علم الدعوة المسيحية الحقـة في الأمـم . ويعتبر انجيله انجيـل الفلسفة والحكمـة والغنوص والايمان والعقل . فلولا انجيل يوحنا لما علمنا شيئاً عن لاهوت المسيح . وما يهمنا في دراستنا هذه هو تفضيل انجيل يوحنا ، عماد المسيحية ، ومقارنته بالأناجيـل الثـلاثـة .

اولاً ــ في انجيل يوحنا لا نجد ذكراً لولادة المسيح. وحسب هذا الانجيل لا يرتبط نسب المسيح بداود او بأحد غيره ، ولا بأرض او بقوم . المسيح كلمة الله ارسل الى البشر اجمعين . فالعرقية اليهودية تموت وعالمية الدعوة تبـدأ .

ثانيـاً ــ في انجيل يوحنـا لا يأتي المسيح لبني اسرائيل فقط ، بل للأمم اجمعين : خرافة موجودة في كل مكان ــ لا نجدها في اسرائيل وحدها ــ وهي تسمع صوته وتعرفـه .

ثالثـاً ــ في انجيل يوحنا لا يكمل المسيح موسى. فالمسيح لا يكمل احداً ، بل يحقق الله على الأرض ويكمل ارادته عليها . يوحنا هـذا ، وهو الانجيلي ، يعترف بيوحنا المعمدان وحده ، وينطلق منه .

وهذا بعض ما ورد في انجيله :

آ ــ يعترف يوحنا الانجيلي بشهادة يوحنا المعمدان ، فيقول على لسان هذا الآخير : « وانا قد رأيت وشهدت ان هذا هو ابن الله » . يوحنا ١:٣٤ .

ب ــ لم يقبل المسيح شهادة من اي كان قبله لأنه لم يكن محتاجاً لذلك ؛ فمن يشهد لـه ؟ « الروح القدس المنبثق من الله يشهد لي » (يوحنا ١٥:٢٦). « الآب نفسه الذي ارسلني يشهد لي » (يوحنا ٥:٣٧) . « وانا لا أقبل شهادة انسان » ؛ (يوحنا ٥:٣٤) . « ان كنت اشهـد لنفسي فشهـادتي حق ... » (يوحنا ٨:١٤) . « الأعمال التي اعملها تشهد لي » (يوحنا ٥:٣٦) .

هكذا نرى ان المسيح لا يقبل شهادة انبياء اليهود ولا يعترف بنبوءاتهم حسب انجيل يوحنا . فهو يرفض القديم تماماً ولا يقيم له شأناً .

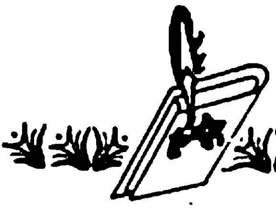
رابعـاً ــ لا اثر لفكرة المجيء في انجيل يوحنا ، ذلك لأن المسيح قد جاء وانتهى : « جـاء المنتهى » . فاكتمل الزمان ، اكتمل بالحكمة والروح والحقيقـة . وتحقق الكل .

خامساً ــ في انجيل يوحنا لا نجد اي ذكر لاعادة مملكة داود او بعثها او ان المسيح يملك على بيت داود ، بل نجد في المسيح ملكاً روحيـاً ، وان الرب هو رب اسرائيل وليس رب اليهود .

سادساً ــ في انجيل يوحنا نجد ان المسيح الكوني هو كلمة الله المعطاة للناس اجمعين . نجـد المسيح في تاريخ العالم وليس في تاريخ اليهـود ، مثـل يهوه .

سابعـاً ــ انجيل يوحنا هو انجيل المسيحيين ، هو البشارة الحقـة .

ثامنـاً ــ يعترف يوحنا الانجيلي بيوحنا المعمدان ويلغي ما سبق. المسيحية هي مسيحية بولس ويوحنا. ولكن ، لما كانت النصرانية هي المسيطرة على المسيحية، فان المسيحيين لا يعرفونهما حق المعرفة . ان اغفال دراسة بولس ويوحنا وعـدم تفهمهما ادى الى اقامة علاقـة مـع التـوراة .



ثالثاً – المجيء

الخطأ الوحيد الذي ارتكبه الحواريون الانجيليون هو طرح موضوع المجيء . فكان واجباً عليهم ان لا يتعرضوا لفكرة المجيء لسببين :

١ – لأن المسيح قد جاء ، وانتهى الأمر ، وصار الكمال ، وانهى .

٢ – لأن البحث في المجيء يطرح سؤالاً جديداً حول امكانية المجيء ثانية ، فيكون مجيئاً اولاً بالنسبة لليهود .

ويبدو للمتعمق في الفكر المسيحي ان التلاميذ انفسهم والرسل اجمعين لم يفهموا فكرة القيامة فهماً جيداً لدى بدء الدعوة المسيحية . وقد وقعوا جميعاً اسرى غموض الفكرة ، فمالوا الى الاعتقاد بمجيء ثان يكون في نهاية الدهور . ولذا ، تغلبت عليهم النزعة اليهودية المسيحية ، فبانت في كتبهم ، وبشكل غامض(١٩) .

القارىء الدقيق يجد ان فكرة المجيء قد اكتملت بمجيء المسيح، خاصة عندما يعيد النظر بالآيات التالية:

مرقس ١٣:٣٢ – اما ذلك اليوم وتلك الساعة فلا يعلم بهما احد ولا الملائكة الذين في السماء ولا الابن الا الآب .

متى ١٠:٢٣ – فاني الحق اقول لكم لا تكملون مدن اسرائيل حتى يأتي (يجيء) ابن الانسان .

لوقا ١٧:٢١ – لا يأتي ملكوت الله بمراقبة ولا يقولون هوذا هنا او هوذا هناك لأن ملكوت الله داخلكم .

متى ٨:١١ – لأن ابن الانسان قد جاء لكي يخلص ما قد هلك .

ما هي ابعاد فكرة المجيء ؟

اولاً – هنالك المجيء الحقيقي الذي اخبر به الرعاة وحكماء الشرق واعلن في الأناجيل والرسائل . هذا المجيء الذي تم بالمسيح حسب الزمان الذي كتب عنه . لذا ، لا تعني عبارة « قد جاء او سيجيء » اي شيء اكثر من انه حاضر ، لانه حضور ، لانه مسيح كوني . فالله لا يجيء ولا يمضي ، والروح لا تكون هنا ولا تكون هناك . ولما كان الله حضوراً تاماً في كل مكان ، فانه لا يجيء .

نستنتج من هذا ان المسيح هو المجيء ، فنعلم انه يجيء ليخلص اليهود الذين هلكوا . كما نعلم انه الكامل ، الذي كمل الوجود فيه وحققه ، الوجود في قطبيه الروحي والمادي ، وكمل دورة الزمان وملأه . ومتى كمل الزمان لا يعود اليه مرة اخرى . فانه كان قد اتى ليخلص ما قد هلك ، فانه لن يأتي ليخلص الخالصين .

ثانياً – واذا نظرنا الى المجيء من ناحية ثانية ، من ناحية علاقته بملكوت السماء ، نرى انه يعني الملكوت .

في انجيل متى : لدى ذكر الصلاة الربية نقرأ « ليأت ملكوتك » . وفي لوقا نقرأ « لا يأتي ملكوت الله بمراقبة... » وفي فيلبي ٤:٥ نقرأ ما يلي « ... الرب قريب » .

ونتساءل : كيف يكون الرب قريباً ان لم يكن فينا؟ فالرب الذي تحمل صورته فينا يعلمنا ان نحققه. فالله دائم الحضور ، وعلى الانسان ان يحقق حضوره فيه . فاذا حقق الانسان حضور الله فيه فانه يحقق ملكوت الله . واما هذا الملكوت فانه لا يأتي بمراقبة . لقد كان اليهود يرقبون مجيء الملكوت مجيئاً مادياً . لكن المسيح نفى هذا المجيء المادي ، وتحدث عنه برموز روحية ، فالملكوت لا يأتي لأنه في الانسان ، ولا يجيء الا اذا تحقق فيه . فالمجيء هو الحضور، هو التحقيق.

لا نستطيع ان نفهم المجيء فهماً مادياً . لكننا نستطيع ان نفهمه فهماً روحياً . فالملكوت فينا وليس علينا الا ان نحققه ، ومتى تحقق فينا ، يأتي الرب . ومن اين يأتي الرب ؟ انه لا يجيء بشكل مادي . انه يجيء الى روحنا ، بل هو روحنا ، لنصبح روح قدس كروح الله ، فيتحقق الله فينا ، ويكون عندئذ في « داخلنا » . فكيف يجيء الملكوت ان كان فينا ؟

ثالثاً – يتحدث الناس عن المجيء الثاني كما ورد في اناجيل الحوار . فما هو هذا المجيء الثاني ؟

اما ان يكون المجيء الثاني مجيئاً في نهاية الأزمنة وانقضاء الدهور ، وهذا موضوع يخرج عن حقل الدراسة والفهم ، واما ان يكون مجيئاً مادياً ثانياً . فالمجيء الثاني ان تم ، لا يمكن ان يكون على الأرض لأن المسيح قد جاء وانهى واكمل . واذا اخذنا من وجهة نظر المجيء الأخير وانقضاء الازمنة ، فلا ينفع لسببين :

اولاً ، لا حاجة لمجيء لأن الأزمنة تكون قد انتهت والدهور قد انقضت .



ثانياً ، لان القيامة تتم لدى موت كل انسان حقق الله ؛ ولا يمكن ان يكون المجيء ، مجيئاً على الأرض اذا اخذناه من وجهة نظر مادية ؛ لأنه يقضي على المجيء الاول الذي تحقق فيه الملء والكل وامتلأ الزمان به ، وحدثت القيامة وجاء المنتهى بالمسيح ، اي ان الكمال قد تحقق[٢٠] .

يستغل اليهود فكرة المجيء في الوقت الحاضر ليؤكدوا ان مجيء المسيح اضحى على الأبواب . انهم ربطوا بين تجمعهم في فلسطين وبين مجيء المسيح[٢١]. ولما كان اليهود لا يؤمنون بالمسيح الذي جاء واكمل فانهم يعلنون ان نهاية العالم قد اقتربت وان المجيء الثاني ليس الا مجيئاً اولاً حقيقياً لهم . ولما كان المسيحيون التقليديون يؤمنون بمجيء في نهاية العالم، فانهم ينساقون لأقاويل اليهود واضاليلهم .

اين يقع الخطأ الأكبر ؟

انه يقع على عاتق الحواريين الذين زجوا انفسهم في موضوع يمت بصلة وثيقة باليهودية . فالمسيح ، بالنسبة للمسيحي قد جاء واكمل وانهى ، وبالنسبة لليهودي لم يأت . واذا استطاع اليهود ان يستغلوا الآيات حرفياً فانهم يتلاعبون بمشاعر المسيحيين التقليديين . ولا يعقل هذا التأثير اليهودي في نفوس المسيحيين الا ان الانجيل يرتبط بالتوراة ، ولأن اناجيل الحوار حبلى بروح اليهودية المسيحية .

اين تقع الحقيقة ؟

لما كان المجيء يشير الى مجيء المسيح الذي اكمل منذ الفيسنة تقريباً والىتحقيقالله في الانسان، فانه يشير الى مجيء معين لليهودي . ولما كان المسيح قد اتى وانهى من خلال كماله وملء زمانه فان المعنى الوحيد للمجيء هو عودة اليهود الى صوابهم والى معرفة الحقيقة .

ولما كانت فكرة المجيء مرتبطة بفكرة العودة ، فان مجيء الرب يعني عودة اليهودي الى الايمان ، الى الله . فالمسيح لا ياتي لأنه ليس في مكان معين ، ولما كانت فكرة انقضاء الدهور تشير الى انقضاء الدور ، اي ازمنة اليهود ليعودوا الى الحقيقة ، فان المجيء يشير الى عودة روحية من قبلهم ومجيء روحي للمسيح ، فيتراجع اليهودي خلالهم .

ما هي فكرة العودة ؟

يعتقد اليهود بدورات زمنية تبنى على مفهوم السبعة . ففي اعتقادهم ان الله خلق العالم في ايام ستة واستراح في اليوم السابع . ويعتبرون كل يوم مساويا لألف سنة . وقد حددوا الأزمنة كما يلي : عام ٤٠٠٤ ق.م هو يوم وجود آدم . ولما كانت هنالك آلاف اربعة قبل ميلاد المسيح والفان بعد ولادته ؛ ويكون المجموع ستة آلاف ، اي ستة ايام ، فان نهاية الألف السادسة ستشهد مجيء المسيح، اي يوم الرب واستراحته[٢٢] .

ولكن اليهود يخطئون . فاليوم السابع ، وقف لاهوت يوحنا ، هو يوم الدخول الى راحة الرب ، اي الى الروحانية . ولما كانت الأدوار الستة ، المتمثلة بالآلاف الستة ، وشيكة الانتهاء ، فان دورهم وشيك الانتهاء ، اي انهم سيدخلون السابع ، المرحلة الروحية الجديدة ومعرفة الله وعودتهم اليه . وليس دخولهم الى اليوم السابع الا عودة الى الله ، وليس هو مجيء المسيح مجيئاً مادياً .

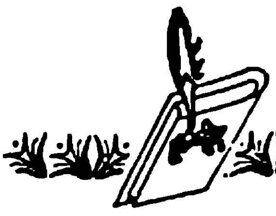
ولما كان اليهود يعتمدون التفسير الحرفي فانهم يعتقدون بمجيء مادي بعد اجتماعهم في فلسطين[٢٣]، فيكون المسيح قائداً مادياً ، يحررهم من الأمم ، ويحكم الف سنة لتنتهي الآلاف السبعة ، اي اليوم السابع ، وتكون النهاية . ولكن ، لما كانت السبعة تشير الى دخول الى عالم الروح ، فانها تشير ايضاً الى نهاية دورهم في الضلال، والىعودتهمالىالحقيقة.

هكذا وجد اليهود لأنفسهم منقذاً في الأناجيل الثلاثة . ولكن هذه الأناجيل لا تعني شيئاً من هذا القبيل . فهي تشير الى دور اليهود في استغلال الأمم وبلبلتهم ، والى نهاية ضلالهم ، والى دخولهم في طور جديد يحكم فيهالضمير لا الناموس، الروح لا الحرف. وبدا خطأ اليهود كما يلي :

١ – عادوا الى ما كانوا عليه قبل المسيح ، الى تلك الأفكار الميسيائية التي دفعتهم الى توقع المسيح ومجيئه . ويؤسفنا القول ان المسيح في زعمهم « مسحاء » .

٢ – ربطوا بين المجيء والأرض . ولكن الدخول لا يتم الى ارض مادية ، بل الى راحة روحية .

٣ – انهم يزرعون بذور الفتنة في المسيحية . فالمؤسسات العديدة التي تعمل في المسيحية ، هي يهودية مسيحية تعمل على تهديم المسيحية.



٤ ـ وقوع المسيحيين اسرى اكاذيبهم . ويعود هذا الى ارتباط الانجيل بالتوراة .

لذا ، يعد التعارض المسيحي اليهودي قضية حضارية بخلفية دينية . فلو انفصلت المسيحية عن التوراة ، لما وجدت قضية ، ولما وجد اليهود اذنا صاغية . لقد اصغى اليهم المسيحيون التقليديون ، نوجد المسيحيون انفسهم امام معضلة كبرى هي الانصياع لأوامر توراتية . فلو ان انفصالاً قام بين التوراة والانجيل ، لما وجد انسان يصغي اليهم ، ولما ساعدتهم الدول غربية كانت ام شرقية .

ان استغلال اليهود للمسيحيين مشكلة حضارية بخلفية دينية . وما كان لهذه الخلفية ان توجد لولا ارتباط الانجيل بالتوراة . فاذا كان الطفل المسيحي يعلم التوراة ، منذ ولادته ، فلا غرو ان يكون يهودياً مسيحياً . ولكن ، لو انه درس المسيحية الحقة من خلال انجيل يوحنا وبولس لأدرك ان كل ما ينادي به اليهود باطل ، ولكان قادراً على انقاذ اليهود انفسهم من الضلال . فكيف ينقذهم وهو عالق في شبكتهم ؟

ـ ٦ ـ
أزمة المسيحية المعاصرة

اعمال الرسل ١٤ : ٢ ـ لكن اليهود غير المؤمنين غروا وافسدوا نفوس الأمم على الأخوة .
اعمال الرسل ٢٠ : ١٩ ـ اخدم الرب بكل تواضع ودموع كثيرة وبتجارب اصابتني بمكايد اليهود .
٢ كورنثوس ٦ : ١٤ ـ لا تكونوا تحت نير مع غير المؤمنين (اليهود) .

يجدر بنا ان نسمي موضوعنا هذا « ازمة المسيحيين المعاصرة » ذلك لأن المسيحية براء من تصرفات المسيحيين التقليديين الذين لا يفهمون المحبة عن حق ، ولا يلمون بمسيحيتهم ، ويعجزون عن القيام بدور فعال ، لأن الأزمة تصدر عن فئات دون فئات . اذن ، فالأزمة ليست ازمة المسيحية بل هي ازمة المسيحيين .

في طرحنا لفكرة من هذا النوع يجدر بنا ان نتساءل :

ماذا حدث في فجر المسيحية ؟

انتصرت فكرة المسيحية ، بعد مجمع اورشليم ، لكن اليهودية المسيحية سيطرت على الأجيال التالية بفعل تدخل اليهود واليهود المتنصرين واندساسهم في صفوف المسيحيين . وقد تفهم بولس هذه الحقيقة وادرك خطرها ، فحذر المسيحيين برسائله التي هي انجيله لهم ، ونبههم الى مغبة السقوط في براثن اليهودية مرة اخرى ، بعد ان تخلصوا من خطيئتهما .

اذا كانت المسيحية قد انتصرت في فجر البشارة بعد مجمع اورشليم ولم يعرف المسيحيون التوراة لأنها ليست من تراثهم ، فمن اين عادت التوراة لتنضم الى الانجيل ؟ كيف اجتمعت التوراة مع الانجيل ، والمسيحيون لا يؤمنون بها ولا يعتقدون بها ؟ وكيف وجدت مع الانجيل ، والمسيحيون لم يعتنقوا مسيحيتهم من خلالها ؟

جوابنا الوحيد هو ان اليهودية المسيحية ، بالاضافة الى اليهودية ، عملت على ادخال التوراة على مر الزمن بسبب مؤامراتهم واضاليلهم التي انساق وراءها المسيحيون وتأثروا بها عن طيبة وبساطة . وماذا كسب اليهود ؟ اصبحت توراتهم بين يدي كل مسيحي يتعلمها قبل الانجيل . لقد حمل المسيحي تراث اليهودي ونشره في العالم كله ، فحمل قضيته وتبناها ودافع عنها ومات في سبيلها . الا يكفي هذا السبب ؟

عندما ندرس التاريخ نجد ان مآسي المسيحية برمتها نتجت عن مؤامرات اليهود ومكايدهم . ففي روما عذب المسيحيون حتى الموت . ولم يتورع نيرون عن احراق المسيحيين وتعذيبهم عذاباً اليماً . وفي رسائل بولس نجد كيف انه كان يطرد من مدينة الى مدينة نظراً لتدخل اليهود وشاياتهم الكاذبة المضللة للسلطات الرومانية . ولقد ساعد اليهود العنصر اليهودي المسيحي الذي ابقى على التوراة وذلك لكي يفسر اناجيل الحوار تفسيراً حرفياً .

وبعد انتشار المسيحية وتضاؤل دور اليهود ، وخاصة بعد خراب اورشليم والهيكل وتشتت اليهود، اصبح اليهود طابوراً خامساً في بلاد فارس وفي كل مكان . ولم يتورعوا عن اثارة الفتن في وجه المسيحية. واما في ما بعد ذلك ، وقد راوا ضعفهم يستفحل ومقاومتهم تتضاءل ، عملوا على الاحتفاظ بتراثهم في المسيحية ذاتها . فاستغلوا فكرة اليهودية المسيحية، ودخلوا المسيحية متنكرين[٢٤]. فظلت التوراة مرتبطة بالانجيل ... فربحوا المعركة .



وانا على يقين من ان العلاقة مع التوراة، حفظت كيان اليهود . فلو ظل المسيحيون مسيحيين ، اي لو انهم رفضوا التوراة، لما سمع العالم المتحضر باليهود، ولما عرفوا شيئاً هاماً عنهم الا انهم اضطهدوا المسيح ورفضوا الكلمة . وعندئذ تنقلب الآية . فعوضاً عن الشعور معهم باسم التوراة ، يقف المسيحي موقف الحق ، واعني ، انه يعتبر اليهودي ضالاً ، بحاجة الى ارشاد وتقويم ، ويبذل جهده ليعود به الى الحقيقة وتقبل الكلمة التي رفضها، ولا يرى فيه قضية.

وفي الأزمنة الأخيرة ، استغل اليهود تفكك العالم المسيحي ، خاصة بعد انهيار الدولة الرومانية المقدسة، وبعد العذاب الذي ذاقوه على يد محاكم التفتيش ، ذلك العذاب الذي سببوه لأنفسهم . وقد رد اليهود على الضربة بمثلها . فما الانقسامات التي حدثت في صفوف الكنيسة الغربية الا نتيجة لمؤامرات اليهود . فكانت حركة لوثر وكالفن عودة الى اليهودية ، ونحن لا نستطيع ان نحكم على هوية الرجلين الا بقدر ما تكشف اعمالهما عن روح يهودية .

لوثر وكالفن دعوة الى اليهودية ورجوع الى التوراة(٢٥) .

ولما كانت حركة الاحتجاج دعوة الى التوراة ، او دعوة للعودة اليها ، فاننا نرى كيف ان اتباعها يدافعون عن التوراة دفاعاً قوياً ويرتكزون بعقيدتهم المسيحية عليها . ان اتباع هذين الرجلين لا يقيمون انجيلاً بدون توراة ، ولا يعتبرون مسيحاً بدون موسى . لذلك فهم يرتكزون بعقيدتهم على التوراة ، او يتغنون بملوك التوراة ومن يدعونهم بأنبيائها . وهكذا تدافع البروتستانتية بفرقها الكثيرة ومذاهبها العديدة عن اليهودية من خلال التوراة .

اما الطوائف المسيحية الأخرى فقد وقعت هي ايضاً تحت سيطرة اليهودية ، لأن اليهودية استطاعت ان تدخل في صفوفها وان تزج نفسها في كل امورها لتزيد في قناعتها بأن اليهودية تخدم مآرب المسيحيين.

ان معارضة لوثر واحتجاجه دليل على ان الطوائف المسيحية كانت تناهض اليهودية . وقد استطاع بعض الباباوات ان يردعوا الناس عن قراءة التوراة من دون مرشد . والحقيقة ان التوراة لم تكن توجد بين يدي العامة ، لكنها كانت مرتبطة بالانجيل وتعلم كجزء من المسيحية . ويبدو ان احبار اليهود والمتنصرين منهم ، استطاعوا ان يدخلوا في روع المسيحيين خرافة اليهودية وارض الميعاد مرة اخرى . وانا اعتقد ان كثيراً من المسيحيين هم يهود ، اعني انهم اعتنقوا المسيحية ليقضوا عليها او ليقوضوها هكذا تقف الطوائف المسيحية الى جانب التوراة ، اعتقاداً منها بأنها كلام منزل ، وترتبط بالمسيحية ارتباطاً وثيقاً . ولما كانت المسيحية ترتبط بالتوراة، وهذا خطأ كبير ، فانها تدافع عنها . والدفاع عن التوراة دفاع عن اليهودية .

هكذا يكون الصراع بين المسيحيين واليهود صراعاً حضارياً بخلفية دينية . فلو لم تكن التوراة تؤخذ بأنها خلفية دينية ، لما وجدت قضية يعتبرها البعض جدلية : يهودية هي فكرة ومسيحية هي نقيضها . ويؤسفنا القول ان هذه الجدلية تؤدي الى تأليف جديد هو النصرانية .

ننتقل الآن الى الحركات اليهودية واليهودية المسيحية في المسيحية :

استطاعت اليهودية ان تضع لكل حالة او وضع او ظرف دراسة شاملة ودقيقة ان تندس في صفوف المسيحيين كما يلي :

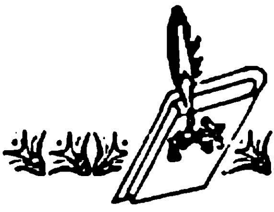
آ - اعتناق المسيحية على نحو ظاهري لتقويضها على نحو باطني .

ب - استغلال عبارات وآيات معينة في اناجيل الحواد الثلاثة ورؤيا يوحنا واقسام من رسائل بولس ومطابقتها على عبارات شبيهة لها في التوراة . ولقد نجح اليهود نجاحاً كبيراً في هذا المضمار ، واستغلوا جهل المسيحيين .

ج - اقامة مؤسسات دينية في قلب البروتستانتية وغيرها من الطوائف تعمل كحركة ميسيائية .

د - زيادة التفاسير في قلب المسيحية من اجل بلبلة صفوفها .

استطاع اليهود الذين دخلوا في المسيحية ان يجتذبوا اليهم، بطرقهم الخاصة ، ملايين المسيحيين ، وارسلوهم الى اقطار المعمورة ، او جعلوا منهم مطية للوصول الى اهدافهم التي تتخذ من اليهودية المسيحية مظهراً للتعبير عن الهوية . وعندما نعلم ان



اولئك « المرتدين » من شهود يهوه والسبتيين والمتجددين والأسماء العديدة للطوائف التي لا حصر لها ، يعدون بالملايين ، نعلم ايضاً شدة سلاح اليهودية الرهيب لمحاربة المسيحية . انهم ينبثون في انحاء العالم المسيحي كله ، يبشرون بهذه الدعوات المضللة التي تخدم اليهود وحدهم : المسيح على الأبواب ، النهاية قريبة ، الله يجمع شعبه ، السبت ، الايمان من اجل الخلاص ، اختطاف المؤمنين الخ . هذه امور يبثها اولئك الأدعياء في قلب العالم المسيحي .

المسيحية تعاني... لا ، المسيحيون يعانون...

هذه دعوة اوجهها الى المسيحيين ،

ليسمعوا ،

ويفهموا ،

ويعوا .

الحـــواشـــي

١ ـ حقيقة الأمر ان اليهودية ليست ديناً . انها نسبة الى اسم هو يهودا ، ابن يعقوب . ومثل هذه النسبة لا تسمح باشتقاق دين من اسم . فالدين الحقيقي هو اسرائيل، نسبة الى إيل ـ ويعني الله . وان ما يؤكد كلامنا هو ان المسيحية دين لا يشتق من يسوع والاسلام دين لا يشتق من محمد .

لم تكن هنالك ديانة تدعى اليهودية او شعب يدعى اليهود . فالشعب الذي خرج من مصر كان يدعى اسرائيل او بني اسرائيل ، وديانته كانت اسرائيلية . وبعد دخول بني اسرائيل الى فلسطين ، شكلوا دولة دعيت باليهودية . حدث هذا لأن الفئة من بني اسرائيل ، تلك التي اسست هذه الدولة ، كانت سبط يهودا ، احد ابناء يعقوب الاثني عشر ، ـ يعقوب المبارك من الله والمسمى اسرائيل ، ويهودا المبارك من يعقوب . ويعتقد ان سبطاً آخر ، قد يكون سبط ساوي الذي يعني الكاهن ، ساهم في هذا التاسيس . وسميت هذه الدولة بعد تاسيسها بدولة يهودا واتخذت مقراً لها مدينة اورشليم . اما الأسباط العشرة الأخرى فقد استوطنت الجليل والسامرة ، وظلت اسرائيلية في صميمها . اذن ، هنالك يهودية تشير الى مملكة يهودا ، وهنالك اسرائيلية تشير الى ديانة .

اليهودية نظرة قومية متعصبة والاسرائيلية عقيدة دينية منفتحة تتقبل مبادىء الأمم ، تنفتح لها ، وتؤمن بحكمة كتاب القبالة . لكن اليهودية اجتهدت ، على مر الزمن ، ان تصبغ الاسرائيلية بصبغتها القومية المتطرفة ، اتخضعها وتتحكم بها . لقد احتقر اليهود الاسرائيليين ووقفوا منهم موقف العداء . اذن ، فاليهودية حركة سياسية عرفت بالصهيونية في وقت لاحق ؛ انها صهيونية اسرائيل .

ثار المسيح على اليهودية ، قوضها وعمل على اسقاطها ، ورفع من شان اسرائيل . ولقد تمثل سقوط اليهودية بسقوط تلميذه يهودا الذي يمثل سبط يهودا ، وثبات تلامذته الآخرين الذين يمثلون اسباط اسرائيل . وبالفعل ، بشر المسيح بني اسرائيل في السامرة والجليل ، فقبلوا بشارته ؛ وبشر المسيح اليهود فرفضوا بشارته ، واعتدوا عليه وقتلوه . هكذا يميز المسيح بني اسرائيل اليهود .

يميز القرآن تمييزاً دقيقاً بين اسرائيل واليهود . في القرآن نجد التكريم لاسرائيل والاتهام لليهود . ففي آيات كثيرة نقرأ ان بني اسرائيل اوتوا الحكمة والنبوة ، وان اليهود ظلموا وحرّفوا وكفروا الخ .

٢ ـ المسيحية التقليدية مسيحية ـ يهودية ؛ هي نصرانية حافظت على الانجيل والتوراة . واليهود المسيحيون هم النصارى الذين اعتنقوا المسيحية من خلال التوراة ؛ هم اليهود او الاسرائيليون الذين وفقوا بين الانجيل والتوراة .

٣ ـ هذا ما يدعوه اليه اسحق دوتشر في كتابه « دراسات في المسألة اليهودية » .

٤ ـ لماذا يشدد اليهود على انهم شعب الله المختار ؟

يزعم اليهود بانهم الشعب الوحيد الذي يمت بصلة وثيقة لآدم . وفي زعمهم هذا يعتقدون بانهم الشعب الوحيد الذي يتحدر من سلالة آدم ، الأمر الذي يدفعهم الى الايمان بانهم ابناؤه . ويعد هذا الزعم تجريداً للأمم من نبوة آدم وحرماناً لهم من علاقة ابوية وثيقة به . انهم يخصون انفسهم وحدهم بهذه النبوة ليتخذوا من آدم اباً لهم .

والسؤال المطروح هو : ما علاقة هذا الزعم بمعتقدهم الذي يشير الى انهم شعب الله المختار ؟

تؤمن الكتب الدينية اليهودية ، كما تشدد التفاسير التي اجتهد بها احبار اليهود ، على وجود نوعين للتطور : تطور نازل من السماء، وتطور صاعد من الأرض . ولما كان آدم قد ولد من الله مباشرة ، وفق زعمهم ، فانه يمثل التطور الهابط من السماء ، من الله . ولما كانوا يجسدون فكرة انهم ابناؤه ، فانهم يجسدون ايضاً معتقداً هو انهم ابناء الله لأنهم ابناء آدم الذي لم يولد من رجل وامراة . اذن ، فعلاقتهم مع الله قائمة عن طريق ابيهم آدم الذي لم يات الى كوكب الأرض عن طريق التناسل والولادة المعهودين . وهم يخصون انفسهم بهذه العلاقة ويحرمون غيرهم منها .

واذا ما تساءلنا عن موقف اليهود من الأمم لأجبنا بما يقول به كتاب التلمود وما تنص عليه التوراة في تضاعيف معتقداتها :

الأمم كلهم ، والشعوب قاطبة ، هم نتاج تطور صاعد من العناصر المادية . انهم ابناء الأرض ، ابناء الناس وبنات الناس ، كما تقول التوراة . اذن ، فالأمم حيوانات اتخذت لذاتها اشكالاً بشرية .

هكذا يفسر اليهود هذين التيارين ضمن نطاق التطور : تيار صاعد من التراب ، من الادنى ، يمثل الأمم ، وتيار هابط من الأعلى ، من الله ، يمثل اليهود . وليست علاقتهم بالله امراً آخر غير علاقة



ابناء • ولم يتورعوا عن تسمية انفسهم في سفر التكوين بمصطلح « ابناء الله او الجبابرة » ، وتسمية الامم بمصطلح « ابناء او بنات الناس »• وهكذا يزعمون بانهم يرتبطون بالله عن طريق آدم•

تلكم هي العرقية اليهودية التي تسعى الصهيونية الى دعمها وتحقيقها • وعلى غير ذلك ، تشير كتب القبالة ، وهي كتب حكماء بني اسرائيل ، ان الشعب المختار هو « المختارون الذين يسعون الى الله ، وهم المريدون » •

٥ ـ يهوه اله غاضب ، هو اله الجبل ، اله البركان والنار • راجع كتاب فرويد « موسى والتوحيد » •

٦ ـ الخطيئة الكبرى التي اقترفها اليهود تتجلى في الحقيقة التالية : محاولة اليهود الاحتفاظ بالحقيقة والرسالة الالهية لانفسهم وحجبها عن العالم • ولما كانت الارادة الالهية تهدف الى استنارة الشعوب برمتها لقد هيات لكل شعب حكيماً او حكماء يعلمون اسرار الحقيقة السامية • ولما كان كل شعب يقوم بدوره في تادية رسالته فان هذه الرسالة تنتقل الى شعب آخر لكي يحمل نبراس ومشعل الحق • وما ان يشرف دور اي شعب من الشعوب على نهايته حتى تهيىء الارادة السامية حكيماً يحمل الحقيقة الى شعب آخر وذلك لكي لا ينطفىء نور الحق • وتعلمنا المبادىء السرية الايزوتيرية ان عظمة شعب تقوم في حمل مشعل النور الى شعب آخر ، كما تعلمنا ان حصر هذه الرسالة به واحتفاظه بها لنفسه خطيئة كبرى • من هذا نستنتج ان لكل شعب دوراً في الخطة الالهية •

عندما اشرف دور الشعوب السامية ـ الكلدان مثلا ـ على الانتهاء هيات الارادة السامية شخصاً تمثل بابراهيم لينتقل الى شعب يقوم بدور حامل مشعل الحقيقة • وكان على الاسرائيليين ، وقد حملوا المشعل ، ان ينقلوا نوره الى اوربا بعد ان اشرف دور الامم السامية على الانتهاء ، وبعد ان كانت الاوضاع العالمية مهياة ـ الامبراطورية الرومانية • ولكن اليهود تعصبوا لدورهم وحالوا دون انتقال الحكمة • ولذا ، حل المسيح بينهم ليضع حداً لدورهم الذي اساؤوا اليه • وقامت رسالته على تحقيق الارادة السامية في حمل هذا المشعل الى الشعوب الاخرى • ولقد نبههم المسيح الى هذه الحقيقة عندما قال لهم ما معناه « اخذتم مفاتيح المعرفة ؛ لم تدخلوا ولم تدعوا الآخرين يدخلون » • « ملكوت الله ينتزع منكم ويعطى لامة ، او لامم ، تؤتي ثماره » •

اذن فخطيئة اليهود الكبرى تمثلت في حرمان الامم من كلمة الحق وفي احتفاظهم بها • وفي تصرفهم هذا اساؤوا للحكمة والكلمة لانهم حالوا دون استمرار المعرفة والحق ليقوما بفاعليتهما في الشعوب كلها • وهكذا نرى ان المسيح يبلغهم الحق ويعلن نهاية دورهم كشعب اعاق تقدم الفكرة في التاريخ العالمي ، ويعلن انهم اساؤوا الى الله عندما حصروه في بوتقة ضيقة هي نطاق تاريخهم القومي • لقد حمل ابراهيم اليهم مشعل النور لكي يحملوه بدورهم الى الشعوب الاخرى • ودعاهم المسيح الى القيام بتادية دورهم ، لكنهم رفضوا ، الامر الذي جعله يستعيد المشعل منهم ويرسله الى الامم ليستنيروا بالحقيقة •

٧ ـ كانت فلسطين تنقسم الى ثلاثة اقسام : اليهودية والجليل والسامرة • اما اليهودية فكانت مقر اليهود المنصبين ، الفريسيين منهم والكهنة والكتبة والصدوقيين ، الذين اضطهدوا المسيح وقتلوه • لذا ، فقد بشر المسيح بني اسرائيل في الجليل والسامرة•

٨ ـ بعد انتشار المسيحية في فلسطين وخارجها ، وبعد تشكيل اليهود للجنتهم السرية في عام ٣٧ ب•م دخل افراد من هذه الفئة المسيحية لكي يقوضوها من الداخل • فاتخذت لها من المجمع مقراً• لذا ، كانت المسيحية تنتشر تحت كنف المجمع اليهودي حتى عام ٦٤ ب•م •

٩ ـ المسيح كلمة عبرية • واليهود لم يعرفوا مسيحاً واحداً انهم نقّبوا كل من ساعدهم او انقذهم بالمسيح ، حتى انهم لم يتورعوا عن اعتبار قورش ، ملك الفرس ، مخلصاً ، فسموه مسيحاً : « هكذا يقول الرب لمسيحه ٠٠٠ » اشعيا ٤٥ : ١ ـ ٤ •

فالمسيح في عقيدة التوراة امرؤ يعمل على تحقيق اليهودية او الاسرائيلية باية طريقة كانت • شاول ، ملكهم الاول ، مسيح؛ داود مسيح ؛ سليمان مسيح الخ • جميع الملوك والاشخاص ، اسرائيليين ، يهوداً كانوا اميين ، الذين تبنوا قضيتهم مسحاء من الرب •

هكذا يتوجب علينا ان نتغاضى عن التعبير اليهودي للمسيح ونتجاوزه الى واحدة من هاتين الكلمتين : كريستوس او عمانوئيل • الاولى كلمة يونانية تعني « من حقق الله » والثانية تعني « الله معنا » •

١٠ـ يبدو ان اليهود حقدوا عليه بعد انعقاد مجمع اورشليم عام ٤٩ ، وبعد ان اضطر الى الاقرار باستقلال الامم عن التوراة وعدم الزامهم بشريعة موسى كلياً •

١١ـ اعمال الرسل ١٥ : ١ • وانحدر قوم من اليهودية وجعلوا يعلمون الاخوة انه ان لم تختتنواحسب عادة موسى لا يمكنم ان تخلصوا»•

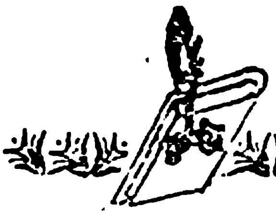
١٢ـ غلاطية ٢ : ١٢ كان بطرس ياكل مع المسيحيين ، لكنه تجنبهم بعد مجيء جماعة يعقوب من اورشليم •

١٣ـ غلاطية ٢ : ١١ « لما اتى بطرس الى انطاكية قاومته مواجهة لانه كان ملوماً ٠٠٠ ١٤ • قلت لبطرس قدام الجميع ان كنت وانت يهودي تعيش اممياً لا يهودياً ، فلماذا تلزم الامم ان يتهودوا ؟ »

١٤ـ غلاطية ٢ : ٤ يسمي بولس التلاميذ والرسل في اورشليم ، وعلى راسهم يعقوب وبطرس ، الذين يرتبطون بالانجيل والتوراة « اخوة كذبة » •

١٥ـ هذا هو السبب الكافي الذيمن اجله تجسد المسيح بين الاسرائيليين لما كان ملكوت الله قد تجمد في وسطهم ، فان المسيح ينتزعه منهم ويطلقه في رحاب العالم ليظل الله الفكرة المضيئة في تاريخه •

١٦ـ يعلق ادعياء الدين التقليدي الذين يودون اقامة علاقة بين الجديد والعتيق اهمية على نبوّات التوراة عن المسيح • فهم يقولون ان التوراة ، في اكثر من سفر ، تنبات بولادة المسيح من عذراء في بيت لحم • ويشددون على قحة هذه النبوءة فيعتمدونها برهاناً على علاقة التوراة بالانجيل • لكن هذا الامر لا يستقيم بسبب التناقض القائم في صلب النبوءة المزعومة • فصورة المسيح التي رسمها السفر تتناقض مع المسيح الذي ولد في بيت لحم



اليهودية . ان مسيح النبوءة قائد حربي يخلص شعبه اسرائيل وليس هو مسيح المحبة ، مخلص الأمم ، الذي يخبرنا عنه الانجيل . ولما كانت نبوءة ولادته في بيت لحم لا تنطبق على صفاته ، فان ولادته من عذراء في بيت لحم قد اقحمت في وقت لاحق في اماكن عديدة من التوراة . وهذا ما فعله اليهود المتنصرون لما رأوا ان الأمر قد افلت من زمامهم ؛ عمدوا الى اقحام قضايا من اجل ربط الانجيل بالتوراة .

ولا يفوتنا ان المسيح في التوراة مصطلح ينطبق على كل ملك ، نبي ، أو انسان ، يهوديا كان ام غير يهودي ، يعمل على تخليص اليهود من ازمة وقعت لهم او مشكلة يبذلون جهدهم للتخلص منها . وكما ذكرت سابقا ان اليهود لم يتورعوا عن تسمية قورش ، ملك الفرس ، مسيحا ، وذلك لأنه ساعدهم في الخلاص من اسرهم والعودة الى فلسطين . اذن ، فالمسيح في رأيهم مسّاء ، ودوره ينحصر في تقديم العون لبني اسرائيل . فهناك اكثر من مسيح . واذا كان الأمر كذلك ، فليس المسيح المذكور في التوراة هو المسيح المنتظر . فاليهود ، وانبياؤهم ، يطرحون قضية المسيح في كل وقت يتعرضون فيه لويلات ، ونكبات ومخاطر ، ويبحثوا عن خلاص منها . اما المسيح المذكور في الانجيل فهو مسيح الأمم واليهود على السواء ، المسيح الذي لا يتصف بأية صفة توخاها اليهود في اي مسيح ينتظرونه لتحقيق رغباتهم وامانيهم القومية .

١٧– أما انجيل يوحنا الذي كتبه للمسيحيين فانه لا يذكر شيئا من هذا القبيل . انه لا يذكر داود او ملكية داود بل يذكر المبارك الآتي باسم الرب ، ملك اسرائيل (يوحنا ١٢ : ١٢ و ١٥) . فالمسيح ملك روحي في راي يوحنا ، ملك اسرائيل وليس هو ملك اليهود كما ورد في أناجيل الحوار . ويطلق يوحنا كلمة اسرائيل على كل مؤمن بالله ، ويشدد على اسرائيل الجديدة ، أي على الايمان الجديد الذي يتصف به المؤمنون الجدد من أبناء الله الذين يعتنقون ديانة اسرائيل .

١٨– يميز المسيح بين الاسرائيليين واليهود « لم ارسل الا الى خراف بني اسرائيل الضالة » . اذن ، لم يرسل المسيح الى اليهود . وعلى النقيض ارسل الى بني اسرائيل الذين اضلهم اليهود لكي ينقذهم من اليهود . فالمسيح يبارك بني اسرائيل ويرفض اليهود . والاسرائيليون لم يقتلوا المسيح ، بل قتله اليهود . اذن ، فالمسيح لم يقاوم بين اسرائيل الذين لم يأخذوا بالحرف ، بل قاوم اليهود الذين اضلوا الاسرائيليين والأمم . قال لهم « بسببكم يجدف على الله في الأمم » . فالمسيح يقضي على اليهودية ، وهي عنصرية اسرائيلية ، ويثبت الاسرائيلية لذلك لا تكون اليهودية دينا او حكمة لأنها صفة لاسم هو يهودا مؤسس دولة وناقض حكمة ودين وحقيقة .

١٩– في انجيل متى ٢٤ : ٣ نقرأ ما يلي : « تقدم اليه التلاميذ على انفراد قائلين ، قل لنا متى يكون هذا او ما هي علامة مجيئك وانقضاء الدهر » . في هذه العبارة خطأ جسيم لا يستقيم حتى نبدل كلمة « مجيئك » لتصحيح « حضورك » وكلمة « انقضاء الدهر » لتصحيح « انقضاء الدور » . عندئذ نقرأ العبارة كما يلي « ما هي علامة حضورك وانقضاء الدور » . يستحيل ان يكون التلاميذ قد سألوا عن مجيء المسيح لأنه معهم وقد جاء واكمل . اما سؤالهم فانه يشير الى نهاية الدور اليهودي وحضوره معهم ، أي عندما يتقبلون الكلمة ويعرفون الحقيقة ويرفضون الضلال .

٢٠– يقول فيلون ان الشتات يشير الى تشتيت الفضائل وضياعها ، والتجمع يشير الى العودة المفضيلة والحقيقة .. لكن اليهود اساؤوا فهم فيلون ، واخذوا الحرف وتركوا الروح .

٢١– مرقس ١٣ : ٣٠ – الحق اقول لكم لا يمضي هذا الجيل حتى يكون هذا كله . متى ١٦ : ٢٨ – ان من القيام ههنا قوما لا يذوقون الموت حتى يروا أن الانسان (المسيح) آتيا في ملكوته . وخاطب المسيح تلاميذه بما يلي « انكم لا تكملون مدن اسرائيل حتى يأتي ابن الانسان » .

من الآيات الثلاث المذكورة نستنتج ما يلي :

١ – لم يذكر موضوع المجيء الا في اناجيل الحوار .
٢ – لا تشمل هذه الآيات معنى المجيء الثاني في نهاية الدهور .
٣ – المجيء والقيامة والمنتهى مرتبطة بالمسيح الذي أتى واكمل .

٢٢– هكذا اشاعوا بين المسيحيين فكرة هي « تؤلف ولا تؤلفان » . لقد اصبحت هذه العبارة فكرة شائعة وقولا على لسان كل مسيحي . قصدوا ان الألف الأولى تنقضي ، وان تنقضي الألف الثانية على مجيء المسيح . اذن ، نهاية الألف الثانية تشهد المجيء ، ويتحقق ملكهم ، وينتهي العالم بعد الحكم الالفي . لقد نسي اليهود ان التفسير لا يفيدهم بشيء . فلوا علموا الحقيقة الروحية لادركوا أن نهاية الألف الثانية ستشهد عودتهم الى الروح ، الى الله ، الأمر الذي يعني نهاية ضلالهم .

٢٣– نشأت عقيدة المجيء ، مجيء مخلص ، عند اليهود عندما كانوا في اسر بابل وقبل ذلك ، اثناء تيههم في صحراء سيناء . واخذ انبياؤهم ينشدون الخلاص ويأملون بارض ووطن . وان ما حققوه بعودتهم بعد سبي بابل ، يستمرون بادعائه في الوقت الحاضر ، وذلك لأنهم يعتقدون بانهم لا يزالون في عالم « النفي والشتات » .

٢٤– بدخولهم في المسيحية ، بدلوا امورا عديدة في التوراة واضافوا امورا اخرى ، كنبوءة التوراة بالمسيح . هذا ليظن المسيحيون ان علاقة الانجيل بالتوراة امر محتم . وهنالك مصادر تذكر كيف انهم اسسوا لجنة سرية عام ٣٧ ، دعيت القوة الخفية ، تعمل على تقويض المسيحية بطرق عديدة ، أولها ، دخولهم في الدين الجديد . لذا ، كانت المسيحية تنتشر تحت كنف المجمع اليهودي حتى عام ٦٤ .

٢٥– الحركات اليهودية المسيحية التي تعمل على تقويض المسيحية في الوقت الحاضر تعتمد كثيراً على حركة هذين الرجلين ، لوثر وكالفن .

★ ★ ★

الغزو الفكري الصهيوني في التراث المسيحي

الدكتور مروان فارس

إنّ عملية الاختراق التي حاول الفكر الصهيوني العبور بها الى التراث المسيحي تعود اساساً الى الالتباس التاريخي الذي احدث بين مسالتين غير متلازمتين . فلقد تم الايهام عبر مراحل متاخرة من الزمن المسيحي بأن التوراة والانجيل كتابان متصلان يمثلان نهجاً متكاملاً في النظر الى امور الما وراء وكل المسائل التي هي على صلة وثيقة بمآل الانسان الفرد في صيرورته .

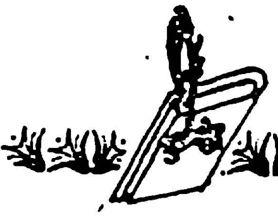
انطلاقاً من هذا المعطى يصح العنوان الذي يتقدم هذا البحث خاصة وان غزواً فعلياً قد حصل للتراث المسيحي من قبل الفكر الصهيوني في فترات متاخرة من التاريخ الوسيط . وان تجلى هذا الغزو في اعتبار المسيحية استكمالاً لليهودية في اذهان شرائح واسعة من البشرية لدرجة اصبح النقاش فيها ممنوعاً بهذه المسالة، لا بد في البدء من التساؤل حول هذه المسلّمة . وللتساؤل هذا اسناد طويل وهام على مسافة طويلة من الزمن المسيحي . وان هذا الاسناد يتكىء اساساً على الفصل بين المسيحية واليهودية وكتابيهما من قبل المؤسستين .

ولكي يفي البحث بعض غرضه لا بد من تبيان السمات العامة للفكر الصهيوني من ناحية وتلك التي تخص التراث المسيحي من جهة ثانية للتوصل الى رسم شبكة اختراق الغزو واقتراح البدائل المكنة للمواجهة في سياق النضال المتعاظم دولياً وعربياً ضد الصهيونية بجميع اشكالها وادوات سيطرتها .

١ ـ السمات العامة للفكر الصهيوني :

أ) ان حركة الصهيونية هي حركة عصيان ضد المحور الطبيعي لحركة التاريخ . فهي معاندة ملحوظة للقوانين التي يخضع لها الوجود التاريخي في تمظهراته المجتمعية المتعددة وفي نموه وتطوره . « فبينما تتوجد الدولة للتعبير عن مجتمع مما يفرض وجود المجتمع اولا ومن ثم وجود دولته نلاحظ ان عكس ذلك قد تم فعلاً فيما يختص بالصهيونية وانجازاتها ، اذ اوجدت الدولة اولاً وهي ساعية الآن الى انجاز مشروع المجتمع الموحد الذي قد لا تستطيع على الاطلاق تحقيقه خاصة وان الأمر معاد للسياق التاريخي الصحيح ولقوانين الطبيعة والاجتماع »(١) .

ان هذه المواصفة الأولى تتاكد على امتداد قرون طويلة من الزمن تعود لجوهر الوصية التوراتية التي اتى بها معظم الأنبياء اليهود في دعواهم المستمرة لمنع جماعاتهم من الانخراط في المسار الطبيعي لحركة التاريخ والمجتمع .



ويرى المؤرخ الفرنسي جاك ـ هنري بيريك ذلك على ما يلي :

« ان تاريخ الشعب اليهودي يسيطر عليه الصراع بين الملوك الذين حاولوا دمج فلسطين في سياق الحياة الدولية والأنبياء الذين ، خوفاً من عدوى الأفكار الدينية الغربية ، حاولوا اغلاقها بوجه كل تأثير خارجي، بوجه كل حياة اقتصادية، كل ذلك للحفاظ على الشعب اليهودي مجتمعاً كطائفة من الفلاحين متحلقين حول إله لهم منفرد هـو يهوه » .

سمة التميز والانفراد هذه هي التي انتصرت في مسار الصراع . ولغـة الأنبياء التي انتصرت في حلبة الصراع مـع الملوك لا تزال منتصرة في تحـول الملوك الى انبياء مـع رئيس الحكومـة الصهيونية الحالي مناحيم بيغن الذي لا يعترف الا بلغة الأنبياء لغـة له ولسياسته التي ترتسم توراتيـاً كـل يوم .

ب) ان هذا الرجل يحسم كثيراً من الجدل حول الهامش بين اليهودية والصهيونية فتتجلى الصهيونية كقضية قومية لليهودية . ما يضفي على الصهيونية صفة اقتصادية سياسية اجتماعية متمحورة حول ارض فلسطين . فالقضية القومية معنية بأن تقوم على ارض ، والجماعة البشرية معنية بأن تتفاعل مع هذه الأرض .

ولما كانت اليهودية لا تقوم كدين دون قيام الأرض « ارض الميعاد » التي تدعو اليها . وكون الدين لا يتحقق الا على هـذه الأرض بالذات ، ارض فلسطين ، فانه هنا بالتحديد صهيوني او بكلام آخر عدواني استيطاني » .

ديفيس تريتش ١٨٧٠ـ١٩٣٥ اليهودي الألماني والصهيوني المتحمس نادى بمشروع فلسطين الكبرى التي تضم برأيـه فلسطين المعروفـة وقبرص وسيناء وكان مـن انشط الصهيونيين في بث المعلومات عن جغرافية « فلسطين الكبرى » التي نادى بها من خلال المجلات والنشرات التي قام باعدادها ونشرها . وقد تركز نشاطه منذ ان حضر المؤتمر الصهيوني الأول ، في محاولات شتى، رمى منها الى حمـل الحركة الصهيونيـة على تبني مفهومه الخاص عن « فلسطين الكبرى » . ففي ٢٩ تشـرين الأول ١٨٩٩ كتب الى هرتزل يقـول : « اقترح عليك ان تنظر باهتمـام الى برنامج (فلسطين الكبرى) قبل فوات الأوان . وينبغي ان يتضمن برنامج بال عبـارة (فلسطين الكبرى) ، او (فلسطين والبلاد المجاورة لها) . فليس في وسعكم ان تحشروا عشرة ملايين يهودي في رقعة مـن الأرض ، لا تتجاوز مساحتها ٢٥ الف كيلو متر مربع »(٣) .

« ارض الميعـاد » هذه جزء اساسي مـن الدعوة الدينية . ولما كانت هذه الدعوة عدوانية فان حدود هذه الأرض غير دقيقة فهي تارة من الفرات الى النيل ، وتارة حيث يتحقق امـن اسرائيل ، وطوراً ممتدة حسب استراتيجيـة شارون الى الباكستان .

لكن الأثبت في هذا المجال، والمرجع هو تلك الحدود التي يرسمها عام ١٩١٨ بن غوريون وبن زفي في نشرة «فلسطين» الصادرة عـن « لجنـة فلسطين البريطانية » ، انها تمتد من جبل لبنان شمالاً وبادية الشام شرقاً الى شبه جزيرة سيناء جنوباً والبحر الأبيض المتوسط غرباً .

باختصار ان فلسطين كما وردت في التوراة لا تزال ارض الميعـاد للشعب اليهـودي . وفي الإحتلال « تتحقق رؤيا انبياء اسرائيل » ، كما ورد على لسان بن غوريون في خطابه بالضباط المتخرجين في ٧ حزيران ١٩٤٩ . وهكذا تصح عبـارة ماكس نوردو السـاعـد الأيمن لهرتزل : «اليهودية، اما ان تكون صهيونية او لا تكون» .

ج) ان الصهيونية ظاهرة استعمارية لجهة نشوئهـا في سياق التكون الاستعمـاري وهي مستعمرة لجهة علاقتها بالتكون الديني . وابرز شاهد على هذه الحقيقة اقوال التوراة وخاصة تلك التي لأشعيا ، يقول الرب مخاطباً شعبه المختـار :

« ترضعون وعلى الأيـدي تحملون ، وعلى الركبتين تدللون ـ سفر اشعيا ٦٦/٢٢ » . او « ويقف الأجانب ويرعون غنمكم . ويكون بنـو الغريب حراثيكم وكراميكم . اما انتم فتدعون كهنة الرب . تاكلون ثروة الأمم ، وعلى مجدهم تتآمرون. اشعيا ٦١/٥ » . وقال الرب لاسرائيل « بالوجوه الى الأرض يسجدون لك ، ويلحسون غبـار رجليك ـ (سفر اشعيا ٤٩/٢٢ » .

هذه الأقوال الواردة في التوراة تشير الى الطبيعة الخاصة بما يسمى « شعب الله المختار »

الذي له بحكم هذا الامتياز الذي تقرره الخرافة حق استعباد الشعوب والسيطرة على خيراتها وثرواتها . ففي الأساس الديني اذن منطلق استعماري مبرر اخلاقياً خاصة وان اليهودية تعتبر نفسها بهذا النموذج من القرارات الدينية صاحبة « وصايا اخلاقية عظيمة » على حد قول بن غوريون .

من هنا يمكن استنتاج بعض الملاحظات الخاصة بالطبيعة العدوانية للصهيونية وما تحمله من زخم هائل يعود لارتكازها الى اللاوعي التاريخي المتكون والمتراكم دينياً . كما يعود الى مفاهيم اكتسبت بحكم الانغلاق عليها واعتبارها « تؤدي رسالة رائدة » (بن غوريون) ، نمطاً من الثبات الذهني عليه ان يتحقق في واقع التطور التاريخي .

وعلى هذا الأساس فان ترافق الظاهرة الصهيونية مع الظاهرة الاستعمارية الحديثة لا يبدو مستغرباً ، فلقد حضنت بريطانيا العظمى والولايات المتحدة اعظم دولتين استعماريتين مشروع الحركة الصهيونية وحملتاه رويداً رويداً الى التحقق . واذا كان للاستعمار القديم مصلحة بنشوء الدولة الصهيونية لتامين جسر له في عبوره الى مستعمراته في الهند فان الامبريالية لها نفس المصلحة بوجود هذه الدولة على شريان النفط العربي الذي يشكل في هذه المرحلة من الزمن مصدراً للطاقة اساسها لبقاء الهيمنة الامبريالية واستمرارها .

ولكنه انسجاماً مع المعطى التوراتي فان المشروع الصهيوني لا يعمل فقط لحساب الاستعمار انما ينحو بحكم بنيته الى مشروع استعماري لحسابه الخاص لأنه على اليهود ، كما يقول اشعيا ان ياكلوا ثروة الأمم « وعلى مجدهم يتآمرون » .

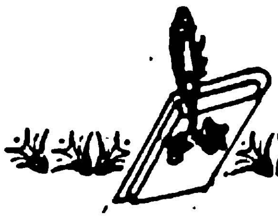
ان الداعين لبناء الدولة الصهيونية هم الصهاينة انفسهم وان كان الاستعمار البريطاني يفكر بالأمر ويسعى اليه منذ مطلع القرن السابع عشر . ان عدم انصهارهم في المجتمعات التي تواجدوا فيها بناء على دعوة انبيائهم قادهم الى حل المشكلة اليهودية بحل مشكلتهم الدينية . فكان الحافز الديني وراء العدوان وكانت نزعة السيطرة والاستغلال وراء الاستيطان والتوسع. ما يؤكد على ارتباط المشروع الصهيوني بالاستعمار من جهة وبذاته من جهة اخرى ، وعلى سعيه للاستقلالية لاقامة دولته الكاملة على ارض ميعاده الكاملة فتنشأ دولة استعمارية كبرى في المنطقة .

ان اعتبار الصهيونية قضية اليهودية القومية ينهي جدل التحديدات الآحادية الجانب ويعبر عن حقيقة الحركة الصهيونية وواقعها بجميع جوانبه المركبة متيحاً بذلك وضع استراتيجية متكاملة للنضال ضدها . فالتاريخ اليهودي الذي تتكىء اليه كان وما يزال مقدمة لفعاليتها التاريخية بانتصاره خاصة في الغرب ، على حساب التراث المسيحي الذي له سمات متعارضة مع تلك التي سبق ذكرها .

٢ ـ مع السمات الخاصة بالتراث المسيحي :

ان اعتراف ملك انطاكيا عام ١٤٢ قبل الميلاد بمملكة القدس ادى الى انفتاح هذه المملكة للأفكار القادمة من الخارج، وخاصة تلك المتصلة بالحياة الأبدية ، بالعقاب والثواب ، بالجنة والجحيم ، بثنائية الخير والشر ، وبفكرة القيامة وفكرة مجيء المسيح . وان هذه القناعات التي كانت سائدة في كل المناطق السورية كغيرها من القناعات التوحيدية حسب اغلب المؤرخين تشير الى صلة المسيحية بجوهرها بالانجازات الحضارية التي اتى اليهود اليها متاخرين والتي هي نتاج التفاعلات الهامة الحاصلة في اطر منفتحة. ففي الأساس يتضح الارتباط المسيحي بالتراث السوري القديم الذي اخذت اليهودية منه متاخرة. وتتضح معالم المسيحية متمايزة شديدة التمايز عن اليهودية ومتناقضة معها شديد التناقض .

أ) لقد ولد المسيح في مكان متواضع من فلسطين وتعمد على يدي يوحنا الذي كان يبشر باقتراب موعد مجيء مملكة السماء . منذ البداية اتسمت رسالة المسيح بطابعها السماوي دون الأرض . « ان مملكتي ليست من هذا العالم » . « اعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله » . في هذه الأقوال ايضاح للفصل التام بين الدين والدولة ، بين الأرض والسماء . وعظة الجبل التي حددت اطر المناقبية المسيحية تدعو دون اي التباس المساكين بالروح والرحماء



والمساكين والجائعين والمتعطشين للعدل للفرح لأن لهؤلاء ملكوت السموات .

ان هذه الدعوة تتناقض في الجوهر مع الدين اليهودي الذي لا يكتمل الا في ((ارض الميعاد))، واذ تنبري المسيحية رسالة سماوية، تتبين معالم اليهودية بوضوح كرسالة ارضية. وتبتعد الأخلاق المسيحية بعداً كبيراً عن الأخلاق اليهودية المنغلقة لتتصل بالارث العالمي فلا تدعي الهيمنة على المؤسسات البشرية التي ترعى شؤون الاجتماع البشري .

ويظهر بجلاء اعتبار المسيح للأخلاق وللدين كمسائل فردية خاصة واعتباره الفضيلة امراً يعود للضمير وليس للجماعة . في محيطه التجاري يدعو الانسان لاعطاء ما هو روحي اولوية بالنسبة للضمير الفردي . ويبين البعد الالهي الخارج عن المواصفات والقواعد التي وضعت الألوهة في شبكاتها الدوغماتية .

هذه الرسائل السماوية بابتعادها عن الأرض تدعو الناس على الأرض الى المحبة والتسامح وحل المشاكل سلمياً كقاعدة اساسية للفصل في الاشتباكات الممكنة . وهنا يبرز الوجه المناقض لليهودية بدعواها لتملك الأرض بالقوة والسيطرة على خيرات الشعوب .

في السلم الأخلاقي وفي اساس الدعوة اذن افتراق من خلاله يفهم قول المسيح : « بنقض الناموس » وهو يقصد الناموس اليهودي ليحل محله ناموس جديد يهتدي به المؤمنون به .

ب) نتيجة ذلك لقي صوت المسيح دوياً هائلاً في العالم كله وامتدت دعوته على ايدي رسله الى اطراف الأرض . وذلك لأن شعوب الارض لم تجد فيها رسالة للأرض وللصراع على تملكها ، بل رسالة للوصول الى عالم الروح الذي يتم الوصول اليه بفعل الخير . وبينما انحصرت اليهودية كدين لشعب واحد هو « شعب الله المختار » يمتاز عن غيره بالعنصر ، اتسعت المسيحية لتطال العدد الغفير من شعوب الأرض لأنها اعلنت المساواة بين هذه الشعوب وبين افرادها . اتسعت المسيحية لانها اتت بحصيلة جهد اخلاقي يعود تاريخه الى ثلاثة آلاف من السنوات ابتدأ في مصر بأعمال الرحمة والتسامح . ولأن القانون اليهودي كان يفرض شريعة دوغماتية حكم على المسيح بالموت بالرغم من نصائح التسامح التي اسداها الوثني الروماني بيلاطس لليهود نفذ حكم الاعدام به على الصليب وصلب . ما يظهر البون الشاسع في السلم الأخلاقي ليس فقط بين المسيحية واليهودية اما ايضاً بين هذه الأخيرة والوثنية المشبعة بالمد الحضاري السوري الاغريقي القديم والمتقدم .

ان قتل المسيح يحمل دلالات هامة ليس اقلها الاعتداء على كل اولئك الرجال ذوي النوايا الطيبة الذين دعاهم الى الايمان والأمل والمحبة . ولذلك كان انتصاره بعد استشهاده ادانة صارخة من قبل البشرية جمعاء لليهود ولشريعتهم غير المتسامحة الآمرة بالقتل لداعية سلام ومحبة .

بقتل المسيح ثم قتل فكرة الفداء الإلهي، وثم سقوط اليهودية بمواجهتها للرسالة الجديدة ، تماماً كما سقطت في معركتها مع الحضارة اليونانية التي اعتبرتها مجحفة غير متسامحة . واذ تتابعت الحملة بعد المسيح على اتباعه ذهبوا في الأرض وحسم بولس الرسول مع اليهودية لجهة الختان والأوهام الفدائية ، ومع ما اثر بالمسيحية من طابع يهودي لتظهر كرسالة كونية فتأسست في انطاكية اول كنيسة ميسيحية ومن ثم في قبرص وفي آسيا الصغرى وفي تسالونيا ، وكورنثوس وافسس ، في عواصم الشرق المتفاعل مع الحضارة اليونانية والرومانية بينما بقيت اليهودية لليهود تنغلق بانغلاقهم حيثما حلوا . بذلك تاخذ المسيحية سمة الانفتاح والتفاعل مع كل شعوب الأرض بينما تبقى اليهودية متسمة بالانغلاق والتعصب لشعب واحد متعال على غيره من الشعوب .

ج) ان القمع الذي جوبه به اليهود خلال انتفاضة اعوام ١٣٢ ــ ١٣٦ ادى الى تفرقهم في الشتات وانغلاقهم في غيتوات متمايزة شديدة التمايز عن محيطها . بينما ادى اضطهاد المسيحيين من قبل الأباطرة الرومان الى تحول هؤلاء الأباطرة الى مسيحيين فيما بعد وانتصار المسيحية كديانة توحيد على وثنيتهم . هذه الديانة تحولت الى مؤسسة ناهضة خاصة في الشرق حيث اضطلعت بسهام ديمقراطية بارزة بوجه الممارسة الامبراطورية القمعية . فلعبت



بذلك الكنيسة المحلية المشرقية دوراً معبراً عن النمط السياسي السائد في البلاد بوجه النمط العسكري المفروض عليه . فبوجه نظرية سيطرة الدولة ومؤسستها انتصرت الكنيسة للفرد لجهة انتخابه ممثله الديني (المطران) ودور هذا في اداء العدالة بين المؤمنين . بذلك اخذت الكنيسة طابع الحياة السياسية السائدة في تقاليد التراث السوري وبقيت مستمرة فترة طويلة في الشرق على هذا النهج بينما اتسمت في الغرب بطابع النمط السياسي السائد ذوي الوجه السلطوي فقامت حروب التحرر بوجهها ووجه ادواتها دون ان تعرف نماذج مشابهة لذلك في الشرق .

وعلى السواء في الجهتين برهنت الكنيسة عن كونها قوة عظمى في المجال الفكري اذ استوعبت الفلسفة القديمة وجددتها بمنطلقاتها الاساسية مشكلة بذلك تراثاً غنياً فيه من انجازات الشرق ما فيه ، وفيه من معطيات الغرب ما فيه . مما افسح في المجال امام الاجتهاد الكبير والاغناء والتكثيف . لكنه نتيجة لهذا الانفتاح واتساعه لاحتواء التجارب البشرية المتعددة حاولت اليهودية كما فعلت مع الاغريقية والصهيونية بالتالي العبور الى هذا التراث الرحب فاخترقته خاصة في الغرب حيث استطاعت تسجيل نجاحات ملحوظة .

٣ ـ سمات الاختراق الصهيوني :

ان حصر الاختراقات الصهيونية للتراث المسيحي امر يحتاج وقتاً طويلاً وعناية خاصة . لكنه من الممكن التوقف امام بعض السمات الاساسية للفكر اليهودي ـ الصهيوني في محاولته العبور الى المسيحية بتراثها المتعدد الجوانب والكثير الخصوبة .

ا) لقد التبست العلاقة بين اليهودية والمسيحية منذ البدء لدى بعض تلامذة المسيح وبشكل خاص لدى بطرس الرسول ، الذي كان داعية للاحتفاظ ببعض التقاليد اليهودية كالختان وببعض المحرمات الغذائية وما الى ذلك من اشكال ومظاهر خارجية لا علاقة لها بالجوهر الروحاني للمسيحية . ومنذ البداية وضع بولس الرسول حداً لهذا الالتباس وحسم الخلاف بين بطرس وبولس لصالح الأخير للبون الشاسع في الثقافة بين الرجلين . ومنذ عام ١٨٠ وتأسيس مدرسة الاسكندرية وظهور المسيحية كتتويج للفلسفة القديمة ، حصل الانفصال التام عن اليهودية وتم الانتشار المسيحي على القواعد التي اعطاها لنفسه او اكتسبها بتفاعله مع الشعوب وحضاراتها المختلفة .

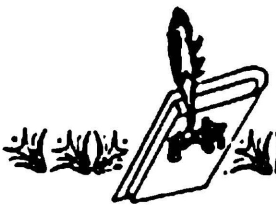
ب) ان الفصل بين المسيحية والامبراطوريات يعني فصل الدين عن الدولة الذي لعب فيه الافريقي اغسطينوس دوراً بارزاً حال دون انهيار المسيحية مع انهيار الامبراطورية . بذلك حصل عكس ما وقعت به اليهودية التي كانت تنهار بانهيار دولتها . وفي فترات هذا الانهيار الطويلة حاولت ان تفعل بغيرها ايديولوجياً فتكررت مع المسيحية التجربة الاغريقية ففشلت في امكنة ونجحت في اخرى .

ج) احدى هذه النجاحات الكبرى تتمثل في استطاعة اليهود وخاصة بعد تغلغلهم الكثيف في جهاز الكنيسة الرومانية ، فرض التوراة كعهد قديم واعتبار الانجيل بالتالي عهداً جديداً باحتواء الكتاب المقدس على العهدين معاً .

بهذا الاختراق استطاعت اليهودية ان تعيد ما انقطع من صلة مع المسيحية في القرنين الأول والثاني ، فالتصق التراث المسيحي بالتراث اليهودي التصاقاً دينياً وطقسياً لدرجة اصبح فيها تاريخ اليهود معروفاً لدى الشعوب المسيحية اكثر من تاريخ هذه الشعوب نفسها . وليس ادل على ذلك من تصريح لويد جورج رئيس وزراء بريطانيا اذ قال :

« لقد تربيت في مدرسة تعلمت فيها عن تاريخ اليهود اكثر بكثير مما تعلمته من تاريخ بلادي ، وفي وسعي ان اخبركم بجميع ملوك اسرائيل ، ولكني اشك في مقدرتي على ان اسمي لكم ستة من ملوك انكلترا . لقد تشبعنا كل التشبع بتاريخ الجنس العبري »[٤] .

عبر التوراة اذن استطاعت اليهودية كأساس قوي للصهيونية ان تدخل الى عقل كل مسيحي في تربيته الدينية في العائلة والمدرسة . كما استطاعت عبر الطقوس الكنسية باناشيدها واسرارها ورهبتها ان تؤثر على اللاوعي الفردي لدرجة طالت فيها كامل البنية الفردية .



هذه الأمور جميعها تفسر التأييد الهام الذي لقيته الصهيونية في الغرب في دعواها للعودة الى فلسطين « ارض الميعاد » . ففلسطين هي بالنسبة للأغلبية الساحقة من المسيحيين الغربيين ارض الميعاد ، لا يشكون بالأمر لأنه يواكب تربيتهم العميقة عبر الأجيال والعصور المتلاحقة .

ولقد حاول الغرب كثيراً تبرير موقفه مع الصهيونية ، على قاعدة الاضطهاد الذي نال اليهود من قبل النازية ، وذلك ليظهر هذا الموقف منطلقاً من حوافز انسانية لا غير . ان في المسألة تبسيطاً غير مقنع خاصة وان الغرب المسيحي بجناحيه الكاثوليكي والبروتستانتي ينطلق في مساندته للصهيونية من اعتباره اليهودية اساساً ومنطلقاً لجوهر ديانته .

في هذا المجال يتميز موقف مسيحيي الشرق لعدة اسباب اهمها ان كنيسة الشرق كانت ادرى باليهودية ، كونها كانت تعرف الأساس الأول لسلم القيم الذي تبنته من محيطها دون ان يكون لليهودية . وان هذه الكنيسة وان تأثرت قبل الانشقاق عن الغرب بالتوراة واستعادت الكثير من صوره واحداثه وملامحه في طقوسها بقيت حذرة للغاية من العهد القديم . وهذا الحذر يتمثل في اجتزاء بعضه ، ومنع التداول ببعضه الآخر في المعابد والأديرة ، وتغطية اقسام منه بالصفائح السوداء . وموقف الكنيسة الشرقية من الصهيونية موقفاً حازماً يعود بالأساس لموقفها الحذر من التاريخ اليهودي واعتباره تاريخاً مقدساً .

د) ان هذا التاريخ نفذ الى التراث المسيحي عبر التوراة وعبر المدرسة خاصة وان الصهيونية اعتمدت بشكل اساسي على حقل التربية والتعليم ، ان في تنشئة جماعتها وان في تنشئة الجماعات المسيحية الأخرى .

« كنت - يقول موشيه منوحن - من خريجي عام ١٩١٣ في معهد هرتزليا في يافا . هذا المعهد كان المهد الذي ترعرع فيه ما سمي بالقومية اليهودية ... ان ما اذهلني خلال تلك الفترة هو ما كان يتسرب الى اذهاننا من خلال التعليم . اذ كان هناك بيت شعر معين يحشر في الدروس ويلقن لنا بمناسبة وغير مناسبة ... كانوا يلقوننا **« عمينو » اي امتنا ، « ارتسينو » اي ارضنا ، « مولادتينو » اي وطننا ومسقط راسنا ...** وكانوا يتوخون من هذا الوعظ المتكرر تسميم افكارنا لننقلب الى يهود قوميين . حتى اصبح الجمنازيوم الذي تخرجت منه بؤرة للأفكار القومية السياسية المتطرفة المجنونة »(٥) .

عبر المدرسة الصهيونية التي تعلم فيها موشيه منوحن، والمدرسة المسيحية التي درس فيها لويد جورج ، زرع المبدأ الصهيوني ، والفكر الصهيوني في عقول الناشئة اليهود والمسيحيين الغربيين على السواء . وان عدم التمايز في النشأة ادى الى عدم التمايز في الموقف طالما بقيت الحقائق مندثرة في بطون التاريخ دون كشف علمي وموضوعي لها .

هـ) على هامش المدرسة دخل الفكر الصهيوني الى التراث المسيحي بواسطة عملية الاستقطاب الهائلة للكتاب والمفكرين المتشربين بالتراث الصهيوني ، فقاد هؤلاء حملات التحمس للكيان الصهيوني وللخطة الصهيونية عن الصهيونيين انفسهم . مما اعطى لهذه الخطة مصداقية اكبر تجاه المتوجسين من اجراء تغيير في خريطة المنطقة. ولقد وصل الأمر الى حد القى فيه احد ابرز مفكري الاسبانية جورج لويس بورخيس محاضرة في الأرجنتين قال فيها :

« ان اسرائيل تشكل جزءاً عميقاً منا جميعاً وأشد عمقاً من الانتساب برابطة الدم او التحدر العنصري ... لقد رافقتني اسرائيل دوماً منذ كانت جدتي الانكليزية تقرا علي التوراة. اعني انني كنت دوماً متشبعاً باسرائيل »(٦) .

و) هذا التشبع اتى ايضاً عن طريق الصحف والمجلات والاذاعات الصهيونية المباشرة ام المتصهينة ام المتأثرة بالحركة الصهيونية . واذ ركزت الصهيونية جهداً كبيراً في هذا المجال عرفت كيف تنشىء اجهزتها الدعائية الايديولوجية الخاصة ، كما عرفت بشكل افضل تشغيل المؤمنين بدعواها التوراتية لخدمة دعواها الصهيونية. ويعبر عن ذلك الأب فورست بقوله: « اعتقد انني في عدائي للعرب كنت صورة عن الغربيين قارئي الصحف والمجلات الذين يؤمنون بالكنيسة وتعاليمها عن حسن نية . فكان لي نزعاتي الموالية لاسرائيل والمناهضة للعرب. . فاليهود كانوا برايي شعب الله المختار،



والقدس مدينتهم المقدسة وفلسطين ارضهم . وبدا لي واضحاً ان اليهود بعد قرون من النفي والتشرد ، استطاعوا العودة الى ارض آبائهم .. لقد ورثت هذه الإفكار من تربيتي في البيت والكنيسة ومدرسة يوم الأحد »(٧) .

ز) لقد لعب المسيحيون المتصهينون دوراً كبيراً في الدعاية للصهيونية بأهدافها ومطامعها افراداً ومؤسسات . والأمثلة على ذلك متعددة ليس اقلها « لجنة فلسطين البريطانية » وغيرها من المؤسسات والمؤتمرات المنعقدة في اوروبا الغربية واميركا اللاتينية والولايات المتحدة بشكل خاص. لقد قاتل الصهاينة بأسلحة الفكر الديني والسياسي والأدبي والاعلامي قتالاً دون حدود واستغلوا الكنائس والجمعيات والنوادي والطوائف في سبيل غرس مفاهيمهم وتعميقها بغية اقناع العالم بصحة دعواهم .

ح) اكثر من ذلك فلقد انشأوا طوائف او نشأت شيع كالانجيليين والسبتيين وشهود يهوه والمتجددين وشيع البروتستانتية والتي باعتمادها الأساسي على التوراة كادت ان تنسى الانجيل . فتم بذلك الانحراف الخطير من المسيحية الى اليهودية بعد انزلاق المسيحية الى كنف اليهودية. وان الحروب الدينية المهلكة التي حصلت داخل الكنيسة المسيحية دارت بجزء منها تحت شعار الدور الذي يجب ان تلعبه التوراة في الحياة الدينية المسيحية ، حتى تغلبت لدى بعض الفرق البروتستانتية على الانجيل . ما يعني تغلب العهد القديم على العهد الجديد والحاق الجديد بالقديم بدل السياق السابق بالحاق القديم بالجديد .

ط) ولم ينج بعض الفكر العربي من الوقوع في تلك الدعوات الصهيونية المستترة بستار اليهودية وموقف المسيحية الشرقية والمحمدية المتسامح معها ، فاستغلت هذه الوسيلة ايضاً للوصول الى غاياتها بالكتب والمنشورات والاعلام وما الى ذلك .

في المحصلة نستطيع الاستنتاج بان غزواً حقيقياً حصل للتراث المسيحي من قبل الفكر اليهودي ـ الصهيوني عبر بوابة اعتماد التوراة في صلب الكتاب المسيحي المقدس . وهذا الغزو حقق نجاحات عديدة في اميركا اللاتينية التي شكلت « لجان نصرة فلسطين » برموزها وشخصياتها المسيحية الكبيرة. كما حقق نجاحات هائلة في الغرب الأووربي الذي انشأ دولة اسرائيل بموجب وعد بلفور ومعاهدة سايكس بيكو والانتداب البريطاني على فلسطين . واننا نراه بقوة في الدعم الذي لا حدود له من قبل الولايات المتحدة لدولة الصهيونية عبر « المؤتمر الدولي المسيحي لنصرة فلسطين » المنعقد عام ١٩٤٥ في واشنطن ، وعبر الطائرات الأمريكية المخيفة التي تخوض حروباً صليبية جديدة ضد شعبنا في نهاية القرن العشرين. لقد غزا الصهاينة الفكر الغربي وسيطروا عليه ولا يزالون يمارسون سيطرتهم هذه بثبات ليس من السهل زعزعته .

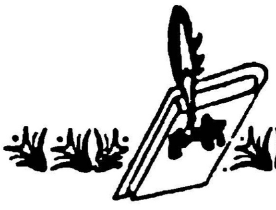
٤ ـ وسائل المواجهة :

امام هذا الواقع يتعين علينا خوض معركة مواجهة محتدمة مع هذه المعطيات الأساسية وفي ذات الملعب الذي تدفع الصهيونية بقوتها عليه. وان النجاح في هذا المجال ليس مستبعداً وان اقتضى كثيراً من الصبر نتيجة للغفلة التاريخية عن الأخذ بأسباب المواجهة . ذلك لأن الخطة النظامية الصهيونية الدقيقة لا بد وان تواجه بخطة نظامية قومية ادق. واسباب النجاح عديدة ومهيأة لاتسام حضارتنا العربية بسمة الانفتاح التي هي سمة المسيحية ذاتها . فعلى قاعدة الاشتراك في التوجه الحضاري يمكن مقاومة التناقض مع الحضارة .

ا) في البداية لا بد من كشف الحقائق التي خضعت لعملية تزوير هائلة في التاريخ . والحقيقة الأولى في هذا المجال تتمثل في اعادة التاريخ اليهودي الى حجمه التاريخي دون اعتباره كتاباً مقدساً ، ام بالأحرى ، جزءاً اساسياً من الرسالة المسيحية .

ب) ان الكنيسة الشرقية على وجه التخصيص معنية بخوض هذه المعركة الهامة التي بنتيجتها يعود للمسيحية البريق الذي هو لها . انها معنية بأن تلعب دور بولس الرسول بالنسبة لما الحق بها من تاريخ لا علاقة لها به ، وباعتمادها هذا المسار تضع الغرب المسيحي امام مسؤولياته التاريخية بالكشف عن حقيقة العملية القيصرية التي اجريت لحركة التاريخ .

ج) ان معاهدة الابحاث والدراسات العربية



الفقيرة والمتواجدة في مجمل الأقطار العربية مطالبة بأن تلقي الضوء بقوة على مسألة الغزو الصهيوني للتراث المسيحي وتقديم النتائج العملية الدقيقة للغرب الذي ليس باستطاعته بحكم تربيته التاريخية ان يكون على ذات السوية في التجرد على هذا الصعيد .

د) يقتضي عقد مؤتمرات في كل بلدان الغرب للمتنورين من المسيحيين وللجان دعم نضال الشعب الفلسطيني ، لنقاش موضوع حق الشعب الفلسطيني بالعودة الى وطنه . ما يقود الى نقاش مسالة الحقوق التاريخية وفصلها عما يسمى بحقوق دينية ، وان ايجاد حركة من هذا النوع سيكون بمثابة كرة الثلج التي تكبر بحكم سقوطها ، خاصة وان العقل الغربي يتسم بسمة البحث عن الحقائق والتدقيق بالمعطيات على قاعدة تحكيم العقل بجميع المسلمات . المهم في هذا الوقت هو توظيف الامكانات العربية الهائلة لاستثارة البحث في هذا المجال .

هـ) ان خوض معركة الاعلام والمدرسة ليس امراً متعذراً على الحضارة العربية ولا على الامكانات المتوفرة راهناً . ما يقتضي تحولاً اساسياً في خطط الجامعة العربية في هذه المرحلة لجهة عملها لكسب الراي العام المسيحي الغربي على قاعدة انفتاحه على الحضارات وعلى قاعدة انفتاح الحضارة العربية عليه . لقد حصل تفسير كبير في هذا المجال ولكنه يمكن اختصار الوقت بفضل ما يتوفر من زخم حضاري وقوى مادية ومعنوية كبيرة في مختلف الأقطار العربية.

في النهاية لا بد من الاقرار بأن غزواً صهيونياً حقيقياً وقوياً في رسوخه قد عبر الى بنية التراث المسيحي . واذ تمثل هذا الغزو في التوصل لتبرئة اليهود من قتل المسيح ، فانه يتتابع في التسامح الغربي اللامحدود بقبول استلاب الحقوق والأرض والانسان في فلسطين، ما يتناقض مع جوهر المناقبية المسيحية ، ودعواها القائمة على المحبة ، ما يضع البشرية في الربع الأخير من القرن العشرين امام تساؤلات حادة حول حجم التشويه الصهيوني الذي طال سلم قيمها الأساسي الذي يعود لألوف من السنوات . ما يحفزنا نحن لخوض معركتنا مع الصهيونية ليس باسمنا فقط ، انما باسم البشرية جمعاء .

* * *

الحواشي

١ - مقالات في المنهج - للكاتب - منشورات مجلة فكر - بيروت ١٩٨٠ .

٢ - سقوط الامبراطورية الاسرائيلية - د. جورجي كنعان - دار الطليعة ١٩٨٠ .

٤-٥- أمجاد اسرائيل - د. جورجي كنعان - دار الطليعة - بيروت ١٩٧٨ .

٦-٧- المصدر السابق .

* * *

اسرائيليات

« ... كل ثوري مقدر له أن
يصبح إما ضحية أو جلاداً »
البير كامو

رمزية اللاهوت المتوقف على القرينة

بقلم : د. فيلافيسنسيو

ترجمة : رفيق ابراهيم جبور

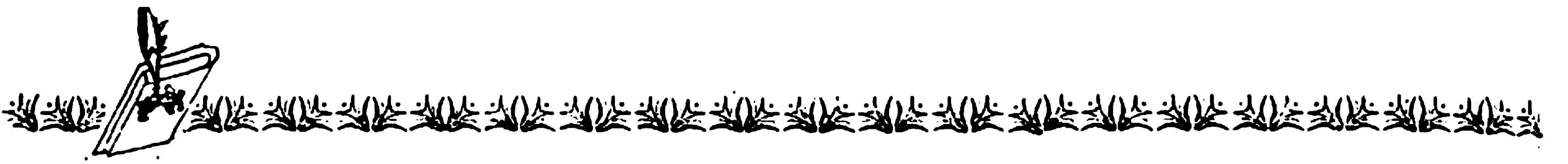
يمكن دراسة قصة اسرائيل الواردة في التوراة باحدى طريقتين مختلفتين : إما كقصة شعب صغير مضطهد ناضل ضد المحاباة الأكثر قهراً وبقي على قيد الحياة كشعب جليل يعي ذاته ، أو كقصة شعب متغطرس متعصب يعتقد ان الله اختاره للسيطرة على الأرض . ومن الواضح ان قراءة انتقادية للتوراة من شأنها ان تظهر تميز التفسيرين كليهما . ومع ذلك ، فقد اشتهر علماء اللاهوت كما ورجال السياسة ومكونو الرأي العام المدعون باستخدامهم غير الانتقادي للكتاب المقدس وبميلهم الى الاستفادة من الرموز التوراتية دعماً لرأي أو ايديولوجية مكونين قبلاً .

أولاً ــ استخدام فكرة « اسرائيل » في النظرية اللاهوتية الغربية :

تستخدم فكرة « اسرائيل » بطرق مختلفة ولأغراض مختلفة في انواع مختلفة من الفكر الغربي . وقد جرى ، في هذا البحث ، التعليق بملاحظة مقتضبة على استخدام حافز اسرائيل في النظريات اللاهوتية من **النوع الامبريالي** ، ثم اوضح استعمال شائع بخاصة للفكرة (المذكورة) في ما يمكن وصفه على نطاق واسع بالأنظمة اللاهوتية من **نوع التحرير**[1] .

١ ــ ١ ــ النظريات اللاهوتية الامبريالية :

عندما يفكر المرء ملياً في تاريخ الامبريالية البريطانية ، يصادف اعتقاداً قوياً بتفوق الحضارة والثقافة البريطانيتين . وقد عبر اللورد دورهام عن ذلك خلال القرن الماضي ، في تقرير عن الوجود البريطاني في كندا ، بقوله : « ليس من مزايا العرق الانكليزي في اي مكان ان ينظر برضى الى اية مسائل او عادات او قوانين تبدو غريبة بالنسبة اليه . وبما انه معتاد على اجراء تقييم عال لتعوقه ، فهو لا يبذل



اي جهد لاخفاء احتقاره وعدم احتماله لاعرافها»(٢). وقد جرى التعبير بوضوح عن هذا الموقف في افتراض «-سيسيل جون رودس » المسبق بأن العرق الانغلوسكسوني كان لديه نداء باطني ديني خاص يتطلب التنفيذ في حلمه بالامبراطورية البريطانية الممتدة من راس الرجاء الصالح الى القاهرة . وهو يرى ان : « عرقاً واحداً فحسب ... قد اقترب من صورة الله المثالية ، هو عرقه الانغلو سكسوني . كان هدف الله عندئذ ان يجعل الانغلو سكسوني سائداً ، وكانت افضل طريقة لمساعدة الله وتحقيق هدفه في العالم هي الاسهام في سيادة العرق الأنغلوسكسوني وبالتالي تقريب سلطان العدل والحرية والسلام »(٣) . واعتبر الامبرياليون البريطانيون انفسهم ذروة خليقة الله المكلفة بمهمة خاصة هي ايصال الحضارة الى الكائنات الأقل شأناً في العالم . وتعطي الرايات العسكرية والنصب التذكارية في الكنائس في جميع أنحاء جنوب افريقيا الدليل على الافتراض الذي لا جدال فيه تقريباً في ما مضى لدى الكثير من الانكليز بوجود علاقة متلازمة بين الله والكنيسة والامبراطورية البريطانية . وكانت النتيجة الطبيعية لذلك سياسة اضفاء الصفة الانكليزية بطريقة « اللورد ميلنار » في فترة ما بعد حرب الانكليز ـ البوير التي حاولت حرمان الافريقانيين من ثقافتهم وفرض اللغة الانكليزية على اولادهم . وجرى تعليم الأفارقة العادات الانكليزية والباس الخدم والجنود السود ملابس المجتمع الفكتوري والقوات المسلحة البريطانية . كان هذا جزءاً من المهمة المقدسة لاضفاء الصفة الانكليزية على العالم .

ومع ذلك امتدت هذه النظرية اللاهوتية من النوع الامبريالي الى نطاق ابعد بكثير من البريطانيين. وما قد يشار اليه بصفة المسيحية كما وردت في سفر « الرؤيا » يمكن ربطه بالنشاط الاستعماري الى ابعد حد . وقد فسر الاسبان فتحهم لجنوب افريقيا بلغة توراتية وتحدثوا عن « هيرمان كورتيس » بصفته موسى جديد يقود شعبه الى بلاد كنعان بتوحيد قوي للحماسة الصليبية والترسيخ النظامي للكاثوليكية . وكانت جنوب افريقيا تعتبر خاصة بدولة اسبانيا الملكية المسيحية كما طالب « يشوع » بأريحا ، بينما كان نهر « اورينوكو » الغنزويلي يعتبر واحداً من انهر عدن الأربعة . واعتبر الاسبان فتحهم لأميركا الجنوبية بمثابة امتثال ورسالة دينيين(٤) .

والتوراة مكشوفة وطيعة بحيث يمكن إفرادها لقضايا مختلفة والاستفادة منها لتعزيز اية ايديولوجية سياسية . لكن البعض يحاولون ان يبرهنوا ان الاستفادة من الحواجز التوراتية والجديرة بالتصديق بدرجة اكبر قليلاً تتعلق **بنضال الشعب المضطهد للتحرير** ـ ونحسن صنعاً اذ نأخذ بعين الاعتبار الاستفادة من هذه المفاهيم في النظرية اللاهوتية للتحرير .

ا ـ ٢ ـ النظريات اللاهوتية للتحرير :

تُذكَر بالمناسبة ثلاث من هذه النظريات اللاهوتية :

ا ـ ١ ـ الدين المدني الأميركي :

نشأ الدين المدني الأميركي للمرة الأولى لدى وصول المستوطنين البيض الى ما يدعى العالم الجديد. وقد انتهى الأمر الى اعتبارهم بمثابة الأجداد المؤسسين للولايات المتحدة ، على الرغم من اجيال الشعب الأصلي الذي كان يسكن هنالك قبلهم . وقد ولّدوا في داخلهم شعوراً بمصير خاص بين شعوب الأرض وكانت تحثهم داخلياً افكار رئيسية هي « ارض الميعاد » و « اسرائيل جديدة » و « شعب مقدر عليه ان يكون مصدراً للنور بين الأمم »(٥) . ومنذ ذلك الحين أعد المسرح للأميركيين البيض لا لغزو الاراضي الأميركية الهندية وتدمير ثقافتها وتراثها واقعياً فحسب بل واخيراً لتشكيل ومعالجة مساحات ابعد تماماً من الحدود الجغرافية للعالم الغربي ـ في جنوب شرق آسيا واميركا الجنوبية والشرق الأوسط .

ان قصة هذا الارتقاء الأميركي للسلطة هي قصة مشوقة وغريبة . وقد الهبت قصة اسرائيل ـ وهي قصة شعب كان في ما مضى عبيداً في مصر يحتقرهم مضطهدوهم ـ قلوب الفقراء والمحرومين في بريطانيا واوروبا عندما فروا بسبب الاضطهاد والظلم الديني والاجتماعي والسياسي برحيلهم هم من العالم القديم الى العالم الجديد . هذه هي القصة البطولية لشعب وجد نفسه « كالغرباء » السياسيين « عن مواثيق



الميعـاد (و) بلا امـل » الذين « لم يعودوا » الآن- سياسياً أيضـاً - « غرباء ونزلاً ، بل رعية مـع القديسين واهل بيت الله » (رسالة بولس الرسول الى اهل افسس : الاصحاح الثاني : ١٣-٢٠) . وبدافع من فهم الذات المذكورة ، تزدهر **الراسمالية** الاميركية (**انظر علم الاخلاق البروتستانتي** بقلم ماكس ويبر) ، وتتسع **السيطرة الثقافيـة** وتتطور **القوةالعسكرية** بنسب مخيفـة .

ان مفاهيم « اسرائيل الجديدة » و «الخروج» و « ارض الميعـاد » في الدين المدني الأميركي والتي كانت قد رفعت منفيي اوروبا الذين بلا مأوى بحلمهم الأميركي قـد تحولت اخيراً الى تصميم عـدواني للسيطرة على العـالم .

١ - ٢ - سياسة التمييز العنصري - اللاهوت :

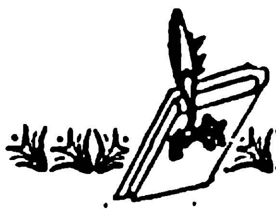
تبنت النظرية اللاهوتية للمستوطنين الافريقانيين البيض الأوائل افكار التوراة عن اسرائيل كاساس لفهم ذاتهـا - فقـد انشغل هؤلاء ، بصفتهم مزارعين على الحدود ومهاجرين جماعيين الى المنطقة النائيـة عـن المدن ، في نزاع مع سكان البلاد السود ومع سلطـة الامبراطورية البريطانية . وتوجـه زعيـم « مهاجري فـور » « م. و. بريتوريوس » بالكلام الى اهل بلاده المتقدمين بالسن بصفتهم « اجداداً لاسرائيل » وقارنهم بـ « مختاري المولى » الذين فروا من الانكليز في راس الرجاء الصالح كما هرب الاسرائيليون من فرعون مصر . فكانوا ينظرون الى هؤلاء السكان بصفتهم كنعانيين غير مؤمنين ويعتبرون انهم يدخلون الى ارض الميعاد كمـا فعل اسرائيل قبلهم . وادركوا انهم « وسائل في يد الله لوضع حـد للسلب والقتـل والعنف بينهـم (اي بين الوثنيين !) ... ولتشجيع امتداد الحضارة المسيحية بين الألوف الذين كان قد ترسخ وجودهم في الظـلام حتى الآن »(٦) .

وقد حصلت مرحلة حاسمة في تاريخ الافريقانيين عنـدما الحـق ما يقارب الـ ٤٧٠ مهاجراً - بعـد ان عاهدوا الله - الهزيمة بجيش زولوي قوي قدره حوالي ١٠٠٠٠ رجـل . وعلى الرغـم مـن محاولات بعض المفكرين ان ينسبوا هذا النصر الى الأسلحة المتفوقة اوما اشبه ؛ فلا يزال اعتقـاد الافريقانيين الشعبي بأن الله قد تدخل في ذلك اليوم لصالح شعبه المختار في افريقيـا . وهذا الاعتقاد العميق بتهمة محددة للرب ، والمدعوم بنصوص التوراة التي تشير الى اسرائيل في الماضي ، قـد دعم الافريقاني في بعض احلك لحظـاته - وعندما توصل الى الاستقلال عـن بريطانيا وكانت الجمهورية في فجرها تقريبـاً ، لم يستطع الدكتـور « هـ. ف. فيروورد » - مخطط سياسـة التمييـز العنصري - الا ان يستنتج قائلاً : « ربما كان مقصوداً ان ننشأ في هذا المكان - ان ينبعث النصر من هنا وان تتم بذلك المحافظة على كل ما نشأ منـذ ايام المسيح لخير الجنس البشري كله »(٧) .

وهذا النوع مـن الدين المـدني الافريقاني الذي اصبـح اساس سيطرة البيض والنظريـة اللاهوتيـة لسياسة التمييز العنصري له ايضـاً ، كالدين المدني الأميركي ، أطره التاريخية الخـادعة ؛ ولا يمكن اثارة مشاعر المرء الا بفعـل نضـال الافريقاني المبكر ضـد الامبريالية الشوفينية والاستغلال الاقتصادي . ولكن عندئذ حصل الانعطاف السافر وكان (الافريقاني) عـن طريق التشريع المتصلب يرمي الى حرمان السـود في البلاد من الحرية نفسها التي حققها لنفسـه . وقد ذكر الافريقانيون الأفراد تكراراً زملاءهم الافريقانيين بأوجه الشبه بـين نضال السود الحالي من اجـل التحرير والنضـال الذي خاضوه هم مع انعطاف القرن - وانما على غير طائـل . فما كان في ما مضى نظرية لاهوتيـة للتحرير قـد اصبح ايديولوجية اضطهـاد .

١ - ٣ - نظريـة السـود اللاهوتيـة :

استخدمت ايضا نظرية السود اللاهوتية ، من الصنف الأميركي خاصة ، وعن طريق الأنصار امثـال « جيمس كون » و « البيرت كليـج » و « واشنطن » وغيرهم ، رموز اسرائيـل التوراتية في ممارساتهـا اللاهوتية . وينظر كل من علماء اللاهوت المذكورين ، بطريقة او بأخرى ، الى السود ان لهم بالله علاقة خاصة او مختارة . ومعاناة السود هي لغرض معـين - لكي يتحرروا من العبودية ويلاقوا الخلاص الاجتماعي كمـا والشخصي ويتوصلوا الى التحرير السياسي والاقتصادي معاً . ونقرأ عن السود بانهم « الخادم المعذب » للرب ، وعن « خروج السـود » و « المسيح الأسود » و « العذراء السوداء » و « ارض الميعـاد » و « وطـن اسرائيـل



الأسود » . ومن الممتع ايضاً ان نلاحظ ان علماءاللاهوت السود يميلون الى استخدام نصوص التوراة الأساسية نفسها لدعم مناقشاتهم كما يفعل علماءاللاهوت الافريقانيون ومؤيدو الدين المدني الأميركي .

ودون الايحاء بأن علم اللاهوت الأسود (اي الخاص بالزنوج) مطابق للانواع الاخرى من علم اللاهوت المذكورة آنفاً ، فان اوجه الشبه كافية لمؤيدي علم لاهوت التحرير ـ من السود والبيض على السواء ـ للانذار ضد الوقوع في الشرك الذي حول الديانات الأميركية والافريقانية الى شيء اقل من التحرير .

ثانياً ـ التأثير الباقي لعقلية « اسرائيل » في الفكر السياسي المعاصر :

وفي الأزمنة الاقرب جرد الدين المدني الاميركي وفهم الذات الافريقاني نفسيهما معاً الى حد ما من الاستفادة الصريحة من هذه الأفكار التوراتية المحددة اعلاه . ومع ذلك بالامكان على الأرجح ، من مقدار المساعدة والدعم المتبادلين القائم بين الولايات المتحدة واسرائيل من جهة وجنوب افريقيا واسرائيل من جهة ثانية ، ان نتبين ان عقلية « اسرائيل » الأساسية قد بقيت . فطبيعة هذا التعاون المتبادل معروفة اكثر مما ينبغي لايضاح اي تفصيل منها . وقد اختفت عملياً وقفة الافريقانية الأولى المضادة لليهود في ما مضى ـ عندما كان المستغل الراسمالي للعمال الافريقانيين برسم بازدراء في الصور الكاريكاتورية كشخصية تجارية مرموقة يهودية كبيرة ومترفة تدعى السيد « هوغنهايمر » تلتهم العمال الفقراء في ذلك العهد . ولا يزال الحديث عن مؤامرة عالمية بمناصرة اليهود للسيطرة على العالم عن طريق المؤسسات المالية يرتفع من حين الى حين ، لكنه لا يتمتع بدعم الحكومة بالتأكيد . وتستمر مشاهدة مزحات الباحثين المناصرين للنازية والمقاومين لليهود ، لكنها تستهجن بشدة ، وتعزل باحكام عن السمع والبصر وقفة بعض الافريقانيين المناصرين لهتلر في الثلاثينات .

هذه هي عوائق الماضي . واليوم يجري دعم اسرائيل بصفتها مثالاً يحتذى . ويحظى تصميمها على مقاومة العالم العربي بالاعجاب ، وتمتدح مهارتها العسكرة ، ويمجد الاستقلال اليهودي ، وتؤكد الحماسة الصهيونية كشكل صحيح للقومية والاعتداد بالنفس . ولهذه كلها نظائرها في مقاومة جنوب افريقيا البيض ـ وهي تصميم على مقاومة افريقيا ، وضرورة استقلال البيض ، وهوية البيض والاعتداد بالنفس مع القوة العسكرية لضمان المحافظة على هذا كله لأطول مدة ممكنة . ولا تزال تلقى المواعظ ، كما لا تزال تلقى المواعظ السياسية التي باشارة ماهرة ، تذكر الافارقة الجنوبيين بانهم ، مثل اسرائيل العصور الماضية ، بحاجة الى اتخاذ موقف صلب ضد قوى التغيير والجيشان العالمي . وباختصار تلقى جنوب افريقيا البيض ، في تصميمها للمقاومة ، مساندة « جماعة ابليا » التي تقول : « لقد تخلوا عني في النهاية وهم جادون في طلب حياتي لازهاقها » . ومن شأن اية حقيقة قد يجدها البعض في هذا الموقف ان تضيع عاجلاً في الافادة الايديولوجية منها لمقاومة التغيير الأساسي من جانب البيض . وهكذا فبعض البيض قادرون على اقناع انفسهم بأن تمردهم هو بصورة جوهرية من الله وبأن مطالب السود الشرعية هي المعادل العصري لعبادة « بعل » ـ اعني الشيوعية . ويمكن رواية قصة مشابهة حول علاقات الأميركيين والاسرائيليين وتُعيّن المناقشة المستمرة للدين المدني الأميركي الدور الذي تستمر في لعبه رموز اسرائيل التوراتية علانية او سراً في السياسة الأميركية .

ان رموز المهمة المقدسة ، التي استخدمها البيض في ما مضى للايحاء بضالتهم المنشودة في التحرير ، قد اصبحت الآن بالنسبة للبعض وسيلة لمقاومة التغيير الجديد واضفاء للشرعية على سياسة تهدف الى تقليص مطالب السود في الحقوق الانسانية الأساسية في ارض مولدهم . وبالامكان ايضاً تطوير فكرة اسرائيل ـ وعندئذ تصبح اوجه الشبه بين اسرائيل العصور الماضية وجنوب افريقيا البيض في الأيام الحاضرة مثيرة للسخرية تماماً . وكما اصبح شعب « الخروج » هدفاً للعقاب الإلهي مع سقوط « اورشليم » عام ٥٨٦ ق.م وذهب اخيراً الى المنفى ، كذلك فالافارقة الجنوبيون البيض ـ كما هم مدربون في دين اسرائيل ـ يبدون انهم قد بدأوا ببطء يتبينون الشقوق في اسوار « اورشليم » .

ومن الأدب المسرحي الافريقي الجنوبي ، يبدو واضحاً وجود اخطار متاصلة جائزة على الاستفادة من مثال اسرائيل في النظرية اللاهوتية السياسية . ومع ذلك تستخدم نظرية السود اللاهوتية هذه الفكرة



ايضاً . وهكذا يبرز سؤال منطقي ، وهو ، الا يجدر بنظرية السود اللاهوتية ان تتطهر من استخدام صور اسرائيل . ويصبح السؤال بصيغة جديدة : اليست نظرية السود اللاهوتية عرضة من الناحية النبوية لأخطار مشابهة على امتداد النطاق الذي تستخدم فيه هذه الصور ؟

ثالثاً ــ اليس من الواجب تطهير نظرية التحرير اللاهوتية من المفاهيم العاطفية مثل « اسرائيل » :

السؤال هو : الم يشر التاريخ الافريقاني الى ان النظرية اللاهوتية ، عندما تبنى على مقولات التوراة العاطفية ، تتنازل حتماً عن ديناميكية تحريرها ؟

فالمفاهيم مثل « اسرائيل » و « ارض الميعاد » و « الخروج » بها اغراء وتشجيع عاطفيان واضحان للمضطهدين (في الثقافات التي يسودها العرف اليهودي ــ المسيحي) المتورطين في نضال سعياً وراء الحرية السياسية . ومع ذلك يبدو ان التاريخ يشير الى ان هذه المقولات نفسها تميل غالباً الى تبني قناعة مختلفة وتصبح وسيلة لاضطهاد الآخرين حالما يتم التوصل الى الحرية السياسية .

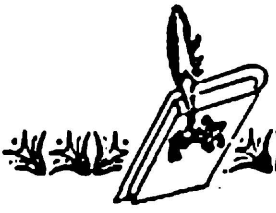
٢ ــ ١ ــ الاغراء العاطفي لرموز التوراة :

يمكن على كل حال اقامة البرهان بان هنالك سلطاناً سياسياً متأصلاً وحقيقة لاهوتية تشتمل عليها هذه المقولات التي ليس بالامكان اللامبالاة بها بسهولة .

ليس المرء بحاجة ، مثلاً ، الا ان يقرأ كتاب **إله المضطهدين** بقلم « جيمس كون » لكي يقدر المغزى الاجتماعي كما والسياسي واللاهوتي لرموز اسرائيل في تجربة السود حق قدره . ويكفي ادراك اولي الى ابعد حد لعلم اجتماع المعرفة لاقناع المرء بان فكر السود القريني الأميركي لا بد له بالضرورة الا ان يعكس هذه الرموز بان يعبر عن فهم الذات في سعيهم وراء التحرير . وقد اصبحت هذه الرموز مصدراً ديناميكياً للتحريض الاجتماعي وللرجاء الأخروي بالنسبة لتلك الجماعة . وفي القرينة الافريقية الجنوبية اصبحت رموز التوراة ايضاً ، في بعض مجالات تجربة السود ، مصدراً للتحدي والتحريض السياسيين . وليس لي بالتأكيد ، بما انها ليست لدي تجربة كتجربة من يتصفون بالسواد ، ان انتقد فهم الذات المذكور . وانا القى التحدي بشدة ايضاً من اقتراح « فريدريك هيرزوغ » القائل ان على البيض ان يدركوا ان « **الميتانوا** » الأساسية تعني بأن عليهم ان « يصبحوا سوداً »(٨) . ومن الواضح مع ذلك ان من الغطرسة (والعرقية) من جانبي ان احاول الاجابة بدافع تجربة ليست تجربتي . وبتعبير آخر : ليس بامكاني ان اكتب بموضوع النظرية اللاهوتية للسود ــ لكنني مضطر ، بسبب تورطي باللاهوت العالمي كما والقريني ، الى الاستجابة باحترام بل وبطريقة انتقادية ايضاً الى نظرية السود اللاهوتية ازاء التماسي القريني للمغزى والتحرير . ومن هذه الزاوية وفي ضوء التأثير السائد لرموز التوراة في الفكر السياسي الغربي ــ ويصبح سؤالي : كيف نمكن جماعة من الناس ان تعيش مسؤولة انسانياً وسياسياً وبأصالة في وضع معين ؟

٢ ــ ٢ ــ طبيعة الرموز الدينية :

مهما يكن تعريف الرمز ضيقاً او واسعاً فهو يعتبر محتوياً على معنى مزدوج او مضاعف . ويعرف « ريكير » بطريقة مفيدة ثلاثة اشكال من الرمزية : رمزية **لغة الأقداس** التي توضح علاقة بالواقع او اظهاراً له ، ورمزية **رغبة الأحلام** المتعلقة باحلام المرء ورغباته ، ورمزية **الخيال الشعري** التي تشير الى سلطان الرغبات والمثل العليا والتماس تحقيقها(٩) . وانا استخدم رموزاً دينية في هذا البحث ككيان متحد معقد يوحد اشكال « ريكير » الثلاثة المذكورة : اي ادراك المرء لعلاقته الشخصية المتحدة بالواقع الجوهري ، واحلام المرء الشخصية المتحدة ، واستخدام آماله وطموحاته المسيرة من اجل تحقيق هذه العلاقة وتلك الاحلام . وبلغة « بول تيليتش » ، يساهم الرمز في الواقع الذي هو يمثله . وهو مطلق كالوجود نفسه(١٠) . وهو ، في حد ذاته ، اغنى من اللغة العادية ذات الالتباس بدرجة اقل ، وفهمه اصعب من فهم الأسطورة المرتبطة بالزمن والمقيدة للتفسير . ويتحدث « ريكير » عن « الرمز » بان له ، من جهة ، « معنى حرفياً اولياً مباشراً » ، ومن جهة ثانية « معنى مجازياً ثانوياً لا مباشراً » . وهذا



المعنى الأخير « لا يمكن فهمه الا عن طريق المعنى الأول » و « التفسير هو من عمل الفكر الذي يشتمل على حل رموز المعنى المستتر في المعنى الظاهر ـ على اظهار مستويات المعنى الضمني في المعنى الحرفي »(١١).

٣ ـ ٣ ـ اللاهوت بصفته فرعاً من فروع المعرفة مقاوماً للمعتقدات التقليدية :

ويبرز الآن السؤال القائل : هل مهمة اللاهوت مهمة **تحليلية** بصورة رئيسية ام مهمة **ايديولوجية** ؟ هل من واجب عالم اللاهوت ان يخلل ويفكك الرموز ويشرحها ـ وان يطهر مضمونها اللامنطقي او الشرير ايضاً متيحاً لها ان تعمل كقوى شافية وايجابية في المجتمع ؟ ام هل يترتب على اللاهوتي ان يبدع ويعزز بعض رموز الجماعات في محاولة لرفع شان ايديولوجية جماعة معينة ؟ ففي حين حاول علماء اللاهوت من الطراز التقليدي ان يتصوروا انفسهم كأنهم يختارون الدور الأول (بينما يوجه اليهم الانتقاد غالباً لتشجيعهم ضمناً ايديولوجية الوضع الراهن) ، اختار لاهوتيو « التحرير » الدور الأخير ، بتشجيع ايديولوجية وتحرير جماعة خاصة من الناس . ولكن يبدو لي ان لا اولئك ولا هؤلاء ينجزون في الواقع ما يسعون الى تحقيقه . ومن الجراة الاقتراح ان بامكان المرء ان يتخلص من رمز ديني او يطهره او يبدعه . فالرموز تصل الينا كجزء من تراثنا الاجتماعي الجماعي . واقتراح امكان تطهير هذه الرموز او قولبتها او تغييرها بفعل ممارسة انتقادية من عالم لاهوتي هو الاستخفاف بطريقة خادعة بسلطان القوى الاجتماعية والسياسية التي ابدعت رموز الجماعات وتساندها . ولربما كانت القوى الاجتماعية السياسية المضادة وحدها هي التي تستطيع ان تغير هذه القوى ـ بتحطيم المضمون « اللامباشر الثانوي المجازي » للرمز واتاحة حلول مضمون جديد محله . ان رفع شان ايديولوجية جماعة ما عن طريق تشجيع ودعم رموز الجماعة هو التعرض للخطر الشديد لمجرد تعزيز ايديولوجية سياسية خاصة دون اخضاعها لنقد الحقيقة المطلقة (الانجيل) .

ومهمة اللاهوت في ما يتعلق بالمجتمع والسياسة هي ، كما يبدو لي ، خلاقة ومسؤولة وجذرية اكثر ما يكون اذاً عندما لا تكون تحليلية وانتقادية بالمعنى التقليدي فحسب ولا ايديولوجية بمعنى لاهوت التحرير ـ بل مقاومة للمعتقدات بمعنى تحطيم الرموز . وبالعمل على هذا النحو ، يفسح مجال يتمكن فيه المجتمع ان يسأل من جديد عما يجري نقله تماماً في الرمز ـ من المغزى والأهمية اللاهوتيين ومن اللاشرعية اللاهوتية والعبودية الايديولوجية على حد سواء . وباختصار ، ان مهمة عالم اللاهوت السياسي هي ان يعرف ويوضح بطريقة منطقية ما يجري نقله في الرموز الدينية لجماعة ما ـ وان يمكن المجتمع بالتالي من الوصول الى فهم افضل للذات .

٣ ـ ٤ ـ مناقشة ضمن نطاق لاهوت التحرير :

من شان هذه المناقشة ان تثير مباشرة المناقشة القوية التي احتدمت تواً لفترة ما بين علماء اللاهوت المؤيدين للتحرير بجلاء كما ولنظرية السود اللاهوتية امثال « جورجان مولتمان » و « شوبيرت أوغدين » من جهة ، وعلماء اللاهوت السود في اميركا اللاتينية واميركا الشمالية من جهة اخرى . ففي حين لا يمكن بحث هذه المناقشة هنا تماماً ، ارغب في ان اشير الى اجابتين نموذجيتين من قبل علماء اللاهوت السود عن الأسئلة الانتقادية المؤيدة التي اثارها « مولتمان » و « اوغدين » وغيرهما . وينتهي « نويل ليو ايرسكين » وهو عالم لاهوت قريني كاريبي ، الى مقطع تقديري عن تطبيق « مولتمان » لنظرية انتقادية للاهوت التحرير ، في منشوره **لاهوت التخلي عن الاستعمار** ، كما يلي :

> **لذلك ، استنتج ان « مولتملن » ذو عون لا يثمّن في مساعدتنا لتوضيح فهم التوراة والمبادىء اللاهوتية التي يجب ان تبلغ عن تاملنا في الموضوعات اللاهوتية اليوم . بيد انه من المفيد ان نتجلوز هذا التقيد للاهوت الى دنيا المبادىء الانتقادية الشاملة وان نعلم من اجل جميع الناس ، ان الله قد جعل من منزلة السود منزلة له . فهنا بين الزنوج ، نستطيع القول ان روحه منهمكة في العمل الى ابعد حد من غير ريب . وكنيسة الزنوج هي الباب المفتوح الذي من خلاله يستطيع جميع الداخلين ان يعلموا ما يجب رجاؤه وان يكتشفوا بانفسهم الى اي مدى يحرر الرجاء(١٢) .**



يستجيب « جيمس كون » بدوره الى « **الايمان والحرية: نحو لاهوت تحرير** » بقلم «شوبيرت اوغدين» بطريقة مشابهة . فمع الاعتراف بوجود بعض الصحة في انتقادات «اوغدين» للتحرير ولاهوت الزنوج — بأن المواضيع الأخلاقية المطروحة بحاجة ان تكون لاهوتيا ذات جذور اوفى بالمراد — هو يعبر عن القلق بأن نقد « اوغدين » قد يؤدي عملا غير مقصود في كنائس البيض بأميركا الشمالية ومعاهدهم اللاهوتية هو الدفاع عن اللاهوت التقليدي واضعاف لاهوت التحرير. وانتقاده لأوغدين هو بصورة رئيسية انه يخفق في الارتباط بنضال والم الفقراء وهذا الأمر يتركه غير قادر على ابداء اعجابه بالطبيعة المميزة لنضال السود من اجل الكرامة الانسانية والتحرير في اميركا الشمالية . ونظريته اللاهوتية شاملة ومجردة في حد ذاتها لا محددة وملموسة في ما يتعلق بخلافات ومشاكل الزمن الراهن(١٣) .

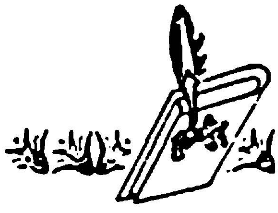
وهكذا يبدي « ارسكين » و « كون » على الأقل ارتيابهما في النقد الذي يوجهه علماء اللاهوت امثال « مولتمان » و « اوغدين » الى التحرير ونظرية السود اللاهوتية ، لا بسبب الطبيعة الانتقادية للأسئلة المطروحة بل بسبب الطبيعة الشاملة لانتقادهم وفقدان الارتباط **القريني** المحدد في نظريتهم اللاهوتية وبصرف النظر عن كثير من الأسئلة المطروحة في هذا البحث ، فان ضالتي المنشودة هي **النظرية اللاهوتية القرينية** الانتقادية . فهي من النظريات اللاهوتية التي تحتاج الرموز فيها — والتي غالباً ما تنقل الظلامية اللاهوتية (اي النزعة الى اعاقة التقدم وانتشار المعرفة) مع اهم دافع اجتماعي للتغيير الاجتماعي — الى التحطيم من اجل تحدي انصار هذا النوع من اللاهوت لكي يفصحوا بطريقة منطقية وصريحة ودقيقة تماماً عما تهدف مثل رموزهم اللاهوتية العليا الى نقله .

٣ — ٥ — تحطيم الرموز وحفظ المعنى :

وهذا يثير مناقشة اخرى — بين واضعي النظرية الانتقادية في علم اجتماع المعرفة مثل « كارل مانهايم » و « بيتر بيرجر » و « توماس لوكمان » و « انتون سيء زيجدير فيلد » من جهة والماركسيين الجدد من جهة ثانية . وليس بالامكان الاستخفاف بأهمية الأسطورة والرمز بالنسبة الى البرامج الاجتماعية للعمل والاصلاح التي يعرفها الماركسيون الجدد تعريفاً واضحاً . وقد شهد بذلك اغراء لاهوت التحرير الهائل في اميركا اللاتينية . ومع ذلك ، فهذا الاغراء غير كاف في حد ذاته وهو يحتاج ان يرافقه التقييم الانتقادي الداخلي الذي تعززه النظريات اللاهوتية من النوع المهاجم للمعتقدات التقليدية .

لنعد الآن الى «بول ريكير» . فهو يقترح امكان تفسير الرموز باحدى طريقتين . الطريقة الأولى هي تجريد الرمز ودياً من الصفة الأسطورية في محاولة لاسترداد الرسالة الجوهرية المقيدة بالرمز او الأسطورة او ربما الضائعة فيهما . هذا هو التفسير التقليدي للرموز . والطريقة الأخرى هي التي يمكن ان ننسبها الى «ماركس» و «نيتشيه» و «فرويد» وغيرهم — وهي ابادة الأسطورة او الرمز . وقناعتي هي ان هذا الاجراء ليس ابادة للرسالة اللاهوتية المتأصلة في الرمز بل هو عمل لتحرير جوهر الانجيل بالذات الذي يضيع غالباً في تشوش الايديولوجية وعلى السياسة والتراث الثقافي وعلم اللاهوت الذي يشكل الرمز . ولنلجأ الآن الى النظرية اللاهوتية التقليدية بدرجة اكبر : فقد تحدث « بونهوفر » عن الحاجة الى تحمل بعض العناء في الحصول على الماء النقي ، ولو من آنية غير ملائمة يصعب التعامل معها، مفضلا ذلك على الاقتناع بالماء الملوث من كاس ، او- يمكن القول — من رمز شعبي ؟(١٤) ولم يكل « بارث » بدوره ابداً من رفض الدين لصالح الايمان. وغرضي غرض بسيط : فالرموز — مهما تكن شعبية وعاطفية ومحرضة لقضية عادلة — بحاجة الى اختبارها لاهوتيا وتحليل الايديولوجية التي تشجعها تحليلا انتقادياً وتفسيرها بصراحة . والنضال من اجل التحرير السياسي وخلق مجتمع عادل ذي اهمية اكثر مما ينبغي لاتاحة تعقيدهما ايضاً بفعل الظلامية الدينية.

واقتراحي هو ان اختيار تجريد رمز ما من الصفة الأسطورية ليس جذرياً من الناحية اللاهوتية بما يكفي لتحرير حقيقة التوراة الجوهرية من التقوى وعلم الأساطير الذي اخفى الحقيقة وعرضها للشبهة على مدى القرون . اذا لم نقض على التأثير الكنسي المهدئ لهذه الرموز ، بل اعدنا تفسيرها او شرحناها بطريقة مختلفة فحسب ، فانها تميل في وضع اكثر استقراراً الى العودة لأسر الذين يستخدمونها . في تلك



اللحظة تتعرض نظرية التحرير اللاهوتية الى خطر التحول الى ايديولوجية ثقيلة الوطاة . وبكلمة اخرى ، فان ما كان في ما مضى قوة محررة بين جماعة معينة يصبح مصدراً للسيطرة على الاخرين . وهذا يعني ان الذين يستخدمون هذه الرموز مثل « الخروج » يغرب عن بالهم ان شعب « الخروج » قد اصبح شعباً مبعداً وان شعب « العودة من بابل » قد اصبح « فريسيي » العهد الجديد .

ان القضاء على الاستخدام الانفعالي السياسي للرموز التوراتية هو انقاذ لرسالة تحريرها من اجل كل جيل جديد. وهذا يجب تحقيقه، في ضوء الموضوع الذي نحن بصدده ، بالعودة الى ابسط الأسباب التي كانت وراء مساندة الله لاسرائيل في الكتاب المقدس .ويميل البعض ، بلغة العقيدة ، الى تفسير هذا الأمر بلغة مبدأ الاختيار ، ومع ذلك فالجواب اللاهوتي اكثر تورطاً على الأرجح وابسط من ذلك ايضاً مع ذلك . وتشير القراءة المتانية للكتاب المقدس الى ان اختيار الله لاسرائيل يشتمل على علاقتين مختلفتين . فعندما تضطهد اسرائيل وتذل ، وعندما ترنو الى الله في نضالها من اجل التحرير ، تصبح العلاقة علاقة رجاء ومساندة . ولكن عندما تعربد بالنصر والنجاح ، وتثق بالموارد الخاصة بها ، تصبح العلاقة علاقة دينونة وعقاب . فاسرائيل المضطهدة والمستعبدة تضمنها معونة الله ، واسرائيل الظافرة ، في قمة سلطانها السياسي ، تنذرها دينونة الله الآتية . وموقف رسالة التوراة موقف بسيط جداً - اي ان الله يساعد الفقراء والمهزومين والمستبعدين الذين يثقون به . وبقدر ما تكون اسرائيل فقيرة ومهزومة ومستعبدة فهي مباركة من قبل الله بطريقة خاصة .

وبالقضاء على الرمز على هذا النحو، ليس بامكان اسرائيل ان تضمن رحمة الله ومعونته . فالفقراء بالأحرى والجياع والمحرومون والمحتقرون ، واولئك الذين يندبون موتاهم ، والذين يناضلون من اجل العدالة ، والسجناء واليتامى والأرامل والمرضى والمعتلون والمحتقرون في الأرض هم موضع الحظوة الخاصة عند الله ، لا لأنهم فقراء ومحتقرون - مخافة ان نفاخر بالفقر ! - بل لأنه هو الله المشارك في نضال الانسان من اجل العدل والمعرف عن نفسه بأفعاله القادرة على الخلاص البشري . هذه هي الرسالة النبوية للكتاب المقدس - وهي ليست رسالة تحافظ على الرموز وتمجد الغايات بل رسالة ترفضها وتحتقرها . وإله النبوءات هو القاضي على الرموز والتدين المتكلف والأساطير « ليجري الحق كالمياه والبر كنهر دائم » (عاموس - الاصحاح ، ٥ الآية ٢٤) .

٣ - ٦ - الاختيار الأميركي اللاتيني :

اقترح اذاً ان على النظرية اللاهوتية للتحرير في اميركا اللاتينية ان تقوم على الأرجح باسهام في المناقشة اللاهوتية وفي قضية العدل اكبر من (اسهام) نظرية السود اللاهوتية في اميركا الشمالية لأنها ببساطة لا تحافظ على رموز الفكر التوراتي المقدسة الكثيرة بل تقضي عليها من اجل المحافظة على رسالة التوراة بشكلها الأساسي اكثر ما يكون . وعن طريق عملية تحليل متأن سياسي واقتصادي ، تكشف النظرية اللاهوتية الأميركية اللاتينية عن وضع الاضطهاد والاستغلال - سعياً وراء الاستجابة الى وجود الله ضمن الحالة القرينية المعينة - بتفضيل ذلك على التحدث عن الله بطريقة عامة . في نطاق هذه النظرية اللاهوتية ، يعرَّف الله لا على وجه التخصيص كإله اسرائيل او اليهود او الزنوج بذاتهم ، بل كالإله الذي يبدي مساندة خاصة لأولئك الزنوج والعرب واليهود والفلسطينيين البائسين في الأرض والمنشغلين في نضال من اجل قيمة الانسان الأخلاقية والحشمة الإلهية .

قد يصرف البعض النظر عن هذا الاختلاف بين النظرية اللاهوتية الأميركية الجنوبية وبعض مظاهر اشكال من نظرية السود اللاهوتية بصفته مجرد اختلاف لا مكان له في وطيس النضال السياسي . ان يكون المرء زنجياً ، او ان يكون فلسطينياً ، او واحداً من سكان استراليا الأصليين القدماء ، او « ماووريا » من « نيوزيلندة » ، او « تاميلياً » من « سري لانكا » - هو ان يكون فقيراً ومضطهداً ، ذلك ما يمكن الالحاح عليه بحق . واجابتي الوحيدة هي ان الأميركيين اللاتينيين (وعلماء اللاهوت الآخرين في العالم الثالث) يذكروننا بسبب امكان طمأنة هؤلاء الزنوج والفلسطينيين بان الله يشاركهم حياتهم ، لا لأنهم زنوج او فلسينيون (كما ظن اليهودي في العهد القديم بان الأمر كان كذلك لأنه يهودي) بل لكونهم فقراء ومضطهدين . ونحن في هذه الأيام بحاجة الى هذا التاكيد الدقيق الموضح اكثر مما كانوا بحاجة اليه



من قبل على وجه الافتراض . والوضع هو على هذاالنحو بخاصة.في جنوب افريقيا بوجود طبقة متوسطة ناشئة من الزنوج ، مستعدة للتعاون مع بنية سلطة البيض . وبما ان الله كلي الوجود وبالتالي موجود دائماً في الدينونة والرحمة على حد سواء ، فهو ،وفقاً لقصة التوراة ، موجود على الأخص مع الفقراء والمحتقرين . فهم جزء من عمله المعاصر المنظورالافتدائي الالهامي في التاريخ .

ولكي تحقق نظرية التحرير اللاهوتية هدفهاعليها ان تواجه حقائق المجتمع الانساني الاجتماعية والسياسية . واحدى هذه الحقائق هي ان الجماعاتالبشرية كيانات محافظة دينية بصورة جوهرية . فالشخص البشري يخلق بنية معنى لنفسه يجدضمنها الأمن ولا يرغب في الحركة خارج نطاقها . وعندما تخلق نظرية لاهوتية هذه البنى باستخدامالرموز العاطفية الفعالة مثل « اسرائيل » و « الشعب المختار » ـ او حتى « الانصاف بالسواد » ـ منالصعب الى ابعد حد على هؤلاء الأشخاص الذين تبنوا هذه التحويلات (اي التحويلات الى بنية المعنى)ان يجردوا انفسهم من هذه البنية في وقت لاحق . وهذا يعني ، عند اقتناع شخص او جماعة منالأشخاص بأن الله يناصرهم لأنهم بيض او سود ، او عرب او فلسطينيون او يهود ، انهم يقاومون الى ابعدحد مواجهة امكانية هذا الأمر الذي لم يعد هو الوضع الراهن حتى عندما يصبحون ، بفعل حادث تاريخي،جزءاً من وارثي الأرض بينما يبقى الآخرون محرومين. فيهودي العهد الجديد ، على الرغم من تاريخاضطهاده ومعاناته ، والذي انتهى الى احتقار السامريين وشارك في اضطهاد الفقراء ، لم يكف عن التماس العزاء فياعتقاده بأنه ابن مفضل من ابناء « ابراهيم » حتى عندما اعلن له المسيح نفسه عن بشارة الخلاص .وبهذا المعنى كان رأي « كارل ماركس » صحيحاً بالطبع عندما عرّف الدين بانه افيون الشعوب ،لا كافيون للشعوب خلقه حكامها ، بل كافيون للشعوب خلقته الشعوب نفسها وساندته . ومن اجل اعطاءالمجتمع شكلا جديداً بصورة جذرية وتحويل الشعب تماماً ، لا بد من تحطيم وابادة رموزه الدينية الخاصةبفهم ذاته . وهذه الرموز قوية الى حد يحول دون اعطائها ببساطة مضموناً جديداً . ومن شأن مضمونهاالواقي والمجدد ان يرفع رأسها تكراراً . وهكذا فقد تحولت الرموز المعتقة القوية للنضال الديني فيالماضي كله وفياغلب الأحيان الىرموز واقية ومحافظة سياسياً في هذه الأيام .

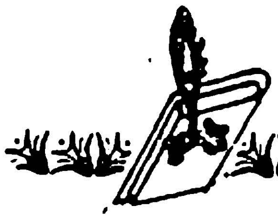
ان تعاليم العهد الجديد عن تجربة الولادةالجديدة الجذرية والعلاجية بصفتها المرحلة الأولية من تورط جديد في الحياة هي كل ما يتعلق بابادةوتحطيم رموز المعنى السابقة . فنحن بحاجة الى ازقاق خمر جديدة ورموز جديدة لعصر جديد .

رابعاً ـ بحثاً عن فهم مسيحي جديد للتحرير :

من الواضح ان فهم ذات جماعة ما يتعلق دائماًبماضيها . وعلى علم اللاهوت ان يؤكد هذا ، وان يعرف الجذور الثقافية لشعب ما ، وان يفسر رسالةالتوراة بلغة هذا الماضي . وبهذا المعنى ، على اللاهوت كله ان يكون متصلا ثقافياً وذا هدف قرينياً . وهكذافلدينا اشكال افريقية وآسيوية واميركية لاتينية وفلسطينية وغيرها من اللاهوت .

ومع ذلك ، اذا كانت هذه النظريات ترغب فيان تكوننظريات لاهوتية قرينية للتحرير لا رحلات ثقافية او مجازفات معنى فحسب التماساً «للجذور»، فلا بد لها ان تكون متصلة بخاصة بمشكلات اليوم السياسية والاجتماعية والاقتصادية العاجلة الى ابعدحد . وليس كافياً سياسياً ان نؤكد ماضي شخص ما وان نؤكد هويته في الرموز التوراتية و/او الفطرية .وفي الواقع ، يجب تحطيم هذه وابادتها عند الضرورة، من اجل الوصول الى التشبث بوقائع الحاضر . وهنايحتاج علماء لاهوت التحرير الى الاعتماد بصورة جوهرية على علماء الاجتماع والعلماء السياسيينوعلماء الاقتصاد ـ كما والمعذبين العاديين ـ سعياً وراء فهم اوضح لما يعنيه التحرير في المعاني الملموسةالى ابعد حد لوضع معين في هذه الايام . هذا هو ما يعنيه تعاطي علم اللاهوت منالأسفل ـ في مستوىجذور العشب .

ولا يكفي بالتاكيد اللجوء الى الرموز والمقولاتالعامة لما له صفة الزنوج او الفلسطينيين ـ بقدر ما قد تكون تلك الرموز قوية عاطفياً وسياسياً .وعلينا تعريف هذه التعابير . ففي الوضع الجنوب



افريقي ساهم علماء اللاهوت مساهمة كبيرة بقيامهم بذلك . وتخطر على بالي بصورة خاصة مساهمة « الان بوزاك » و « بونغا نجالو غوبا » و « ماناس بوثيليزي » و « ديسموند توتو » وغيرهم بهذا الصدد . ففي خطاب موجه الى المؤتمر الوطني لمجلس الكنائس الجنوب افريقي ، وصف « بوزاك » مثلا « الاتصاف بالسواد » على انه **حالة من الاضطهاد** ،وعرف اولئك البيض المتورطين في النضال من اجل التحرير بأنهم يتبنون الوضع الاجتماعي « للاتصاف بالسواد » في جنوب افريقيا . ومن الواضح ان علماء اللاهوت السود في جنوب افريقيا ينكبون على اوضاع معينة من الاضطهاد وهم ، بصورة عامة ، اقل ميلا الى اللجوء الى مفاهيم مجردة مما هم اقرانهم الاميركيون الشماليون . والاستثناء الوحيد هو استخدام الأسطورة القوية « للاتصاف بالسواد » التي يستعملونها بطريقة ديناميكية وابداعية الى ابعد حد . **لكن سؤالي هو ما اذا كانت مقولة « الاتصاف بالسواد » هذه لم تبدأ في الصيرورة مقولة مربكة متزايدة في وضعنا المعاصر .**

ففي الوضع الجنوب افريقي المتغير بدأ بعض السود يقبلون « الفتات » (ويحصلون ايضا على قطعة صغيرة من « الهبر الظريف » !) من مائدة سياسة التمييز العنصري . وفي العالم على نطاق واسع ، حيث اصبح النضال من غير ريب تماماً نضالا بين بلدان العالم الأول والعالم الثالث ، وعلى المستوى الفردي بين الأغنياء والفقراء ، ليس من الواضح دائماً متى يكون السود (اذا قبلنا بتعريف الدكتور « بوزاك ») بيضاً بالفعل ومتى قد يكون لدى بعض البيض الأفراد اثر من «الاتصاف بالسواد». وفي النهاية يصبح المفهوم مربكاً الى ابعد حد ونجد الى ذلك المدى حلا وسطاً لنوعيته الأسطورية كرمز سياسي .

والسؤال اذاً هو ما اذا كانت هذه المفاهيم العامة كـ « وطن اسرائيل » و « شعب الله المختار » . وحتى « الاتصاف بالسواد » لم تصبح عوائق في نضالات شعوب العالم من اجل التحرير . اليس هنالك خطر الا يكون تخليد هذه الرموز التوراتية واسطورية الأخرى مماثلا لايديولوجية اسرائيل في العهد القديم وخلاف العهد الجديد حول من هو « المطهّر روحيا » ومن هو « غير المطهّر » .

اخيراً ان مهمة الكنيسة هي المشاركة في عمل الله الاعتاقي والالهامي . وهذا عمل ابعد في اغلب الأحيان من حدود الكنائس التنظيمية في جنوب افريقيا . ويمكن التمييز بين باحثي « سويتو » ، ونقابات العمال الزنوج الناشئة والحركات السياسية المدنية الى ابعد حد – كما وداخل الكنائس والمنظمات المتصلة بها . وليست مهمة الكنيسة بالتأكيد فرض رموز معانيها على النضال – بل مجرد السعي الى ادراك وجود الله في النضال – بين الفقراء والمحرومين . وهذه نظرية لاهوتية مجردة غالباً جداً من افكار المفاهيم الغربية – هي ارتباط مكشوف الأطراف في نضال للفلاحين الذين لا يدركون مفاهيمنا اللاهوتية ويبدون اهتماماً بسيطاً بدقائق هذا البحث – . وللكنيسة مهمة تقوم بها نحو عامة الشعب وتستجيب الى مبادرة الله بينهم . هذا ما عليها ان تقوم به حتى عندما لا تستطيع التمسك تماماً بهذا الوجود او تعريفه لاهوتياً . ومهمة جميع المكوّنين المحتملين لراي التحرير والأكاديميين وغيرهم هي ان يتعلموا التحدث بلغة الفقراء وتقييم حالتهم النفسية . فسكان اميركا اللاتينية وعلماء اللاهوت في العالم الثالث لا اقرانهم الغربيون هم الذين يفهمون كأفضل ما يكون إله المضطهدين والفقراء . وهم بحاجة الى ان يُسمعوا في العالم الغربي ، نظراً لأنه ليس بمقدور علم لاهوتي للفقراء والمحرومين الا ان ينشأ عن احياء الأقليات (التي تعاني) الفقر والاضطهاد . ومن الجراة التحدث بالنيابة عنهم ومن الأبوية فرض مقولات لاهوتية على نضالهم . وعلى علماء اللاهوت ورجال الكنيسة الذين لا يعرفون واقع الفقر والاضطهاد ، بهذا الصدد ، مسؤولية فحص فرضياتهم المسبقة ورموزهم اللاهوتية من جديد . ومن واجبهم ان يكونوا اكثر تقبلا لمبادرة الله بين الفقراء عند اصغائهم الى الفقراء انفسهم ، والسعي لاظهار تضامنهم معهم وادراك هذه المبادرة وهذا الوجود لدى قيامهم بذلك .

ورايي هو ببساطة ان المناقشة الرسمية لنظرية التحرير اللاهوتية في البلدان الغربية لم تدرك بعد تماماً قوة الاحساس بالنضال واحلام التحرير الموجودة بين ادنى الناس في المجتمعات والعالم . ولادراك هذا الأمر ، لا بد ان تنشأ نظرية لاهوتية جماعية من بين الفقراء والمضطهدين في ايامنا الحاضرة . ومن المفترض ان تؤدي هذه الى مفاهيم اسطورية وثيقة الصلة بالثقافة المعينة التي تنشأ عنها ،



ومتأصلة في الجذور الطبيعية للجماعة ، ومتجهة مباشرة ايضاً نحو اهداف العصر السياسية المحددة والمباشرة . وهي تصبح ، على هذا النحو ، نظرية لاهوتية متطورة متغيرة ذاتية التقويم كما ونظرية لاهوتية جريئة ذات مخاطرة ومغالاة . ومن المفترض ان يكون مفهوم « الاتصاف بالسواد » ، في جنوب افريقيا ، جزءاً من هذه النظرية اللاهوتية القرينية الحالية . لكنه قد يحتاج في النهاية الى افساح المجال امام تحليل محدد وملموس بدرجة اكبر للمشكلات في شبه القارة المذكورة . والتحرك في نطاق ابعد من هذه المفاهيم هو بالضبط كل ما تدور حوله النظرية اللاهوتية القرينية المتطورة وذاتية التقويم .

وفي الواقع ، قد يكون علماء اللاهوت السود على صواب في الاجابة ببساطة عن مقالتي بأن يشيروا الى ان « الاتصاف بالسواد » لا يزال في الوقت الحاضر مقولة قوية ذات مغزى . واجابتي هي بدورها ان الفت الانتباه من جديد الى الأخطار المحتملة ضمن المفهوم . واعتقد ان هنالك وضعاً جديداً آخذاً في الظهور في جنوب افريقيا حيث لم يعد النزاع بين السود والبيض فحسب بل بين جماعة من السود والبيض ضد جماعة اخرى من السود وربما عدد قليل من البيض . والنزاع الناشىء هو بين تقييمين مختلفين للحياة ــ بين التحاليل الاجتماعية والسياسية والاقتصادية المختلفة ذات الأحلام والأهداف والحلول المختلفة . ويبدو لي ان وضوح وواقعية المفاهيم اللاهوتية ضروريان في هذا الوضع . والأساطير العامة بحاجة الى تجريدها من الاستبدادية ، ومن الجائز ان تكون المصطلحات السياسية والاقتصادية المدنية البسيطة ترياقاً للرموز من النوع الديني العاطفي بدرجة أكبر والتي تسود مناقشة اللاهوت السياسية الحالية في العالم الغربي . والتحرير عملية مكشوفة الأطراف وعلى هذا النحو لا بد من المحافظة على البعد الأخروي . وما من نظرية لاهوتية للتحرير بامكانها ابداً ان تكون كاملة ــ ويبدو لي ان هذه العملية لا يمكن ابقاؤها مكشوفة الا بالكشف عما يعنيه القضاء لى رموزنا الدينية .

يونيسيا ، بريتوريا

الدكتور تشارلز ڤيلا ــ فيسانسيو

★ ★ ★

الهوامش :

١ ـ في هذه المقالة ، يجري تفريق النظريات اللاهوتية من النوع **الامبريالي** ومن **نوع التحرير** على أسس الهدف الموضوعي الأصلي: فقد كان فهم الذات لدى البريطانيين والاسبان فهماً للذات في ضوء التوسعية والسيطرة ، حيث طوّر الافريقانيون (أي الأشخاص الجنوب افريقيون من أصل اوروبي) والمستوطنون الاميركيون أصلا . والزنوج الآن . فهماً لاهوتياً للتحرير والهوية الذاتيين ازاء مضطهديهم. وحقيقة كون البعض يحاولون ان يقيموا البرهان على أن الأفريقاني ـ لدى تلك المحاولة ـ قد سيطر منذ البداية فعلياً على الزنوج وأن المستوطنين الاميركيين قد أبادوا الهنود الأميركيين بالفعل ـ تلك الحقيقة لا تلقى الاجابة بشكل حاسم وذلك بسبب نيّة المرتكبين التي هي تحرير الذات على مستوى فهم الذات على الأقل . ولم يكن هذا هو الحال بالنسبة للبريطانيين والاسبان .

٢ ـ اقتبسها « دافيد ويلش » في « البيض الناطقتين بالانكليزية وا لمشكلة العرقية » ، **جنوب افريقيا الناطق بالانكليزية اليوم** ، للناشر « اندريه دي فيلييه » (كيب تاون : مطبعة جامعة اكسفورد ، ١٩٧٦) ، ص ٢١٧ .

٣ ـ اقتبسها «ف. ا. فان جارسفيلد» . «مرآة تاريخية عن نهر الدم»، **مغزى التاريخ** ، للناشرين « آ. كوينخ » و « هـ . كين » (بريتوريا : جامعة جنوب افريقيا . ١٩٨٠) ، ص ٤٩ .

٤ ـ « ادوارد نورمان » ، **المسيحية في نصف الكرة الجنوبي** (اكسفورد : مطبعة كلاريندون ، ١٩٨١) ، ص ٥١ ـ ٥٢ .

٥ ـ انظر ، مثلا . مقالة « روبيرت ن. بيلاه » التكوينية ، « الدين المدني في اميركا » . **ديدالوس ، صحيفة الاكاديمية الأميركية للفنون والعلوم** . شتاء عام ١٩٦٧ .

٦ ـ « ف. ا. فان جارسفيلد » ، **تفسير الافريقاني للتاريخ الجنوب افريقي** (كيب تاون : الناشرون «سيمو نديوم» المحدودة، ١٩٦٤)، ص ١٦ .

٧ ـ (الناشر) « ا. ن. بيلسر » ، « **فيرويرد** » **يتكلم** « جوهانسبورج: « بيرسكور » ، ١٩٦٦) ، ص ٢١ .

٨ ـ « فريديريك هيرزوغ » ، **نظرية التحرير اللاهوتية : اعتاق في ضوء الانجيل الرابع** (نيويورك : مطبعة سيبوري ، ١٩٧٢) .، ص ٧ .

٩ ـ « بول ريكير » ، **فرويد والفلسفة** (نيو هافين ولندن : مطبعة جامعة ييل ، ١٩٧٠) ، ص ١٤ .

١٠ـ « « بول تيليتش » ، **النظرية اللاهوتية النظامية ـ ثلاث مجلدات في مجلد واحد** . (نيويورك وايفانستون : « هارير » و « رو » ، ١٩٦٧) المجلد الأول ، ص ٢٣٩ .

١١ـ « بول ريكير » ، **نزاع التفسير . مقالات في علم التفسير** (ايفانستون : مطبعة الجامعة الغربية الشمالية ، ١٩٧٤) . ص ١٢ ـ ١٣ . انظر أيضاً ص ٢٨ .

١٢ـ « نويل ليو ايرسكين » ، **النظرية اللاهوتية المناقضة للاستعمار : وجة نظر كاريبية** (نيويورك : مارينول ، ١٩٨١) ص ٦٦ .

١٣ـ « جونز هـ . كون » ، مراجعة كتاب عن **الايمان والحرية : نحو نظرية لاهوتية في التحرير** بقلم « سوبيرت اوغدين » ايسروب ، المجلد ٣٥، الأعداد ٢ و ٣ . ربيع وشتاء ١٩٨٠، ص ٢٩٦ ـ ٣٠٠ .

١٤ـ « ديتيريتش بونهوفر » . **لا سيوف صدئة** (**نيويورك** : « هاربر و « رو » ، ١٩٦٥) ، ص ٣١٠ .

المسيحيون العرب
والغزو الثقافي الأمبريالي الصهيوني

سركيس أبوزيد

لدراسة الغزو الامبريالي الصهيوني على التراث المسيحي لا بد من معرفة العلاقات التاريخية ودراستها ، والتي سببت الاغتراب وأدت الى اشكال من التبعية الثقافية .

وأبادر أولاً الى القول الى انني في مداخلتي هذه ، افصل بين اللاهوتي والاجتماعي ، اي انني ساعتمد منهج البحث التاريخي والنشوء الاجتماعي للظواهر بعيداً عن كل تفسير ديني او غيبي .

١ ـ المسيح هو ابن البيئة العربية ، والمسيحية المشرقية هي جزء من التراث العربي : نشأ المسيح في فلسطين . وقد جاءت تعاليمه مناقضة للانعزالية اليهودية ومتجاوبة مع الحضارة الكنعانية الآرامية ومعبرة عن التململ الاجتماعي عند المحرومين والمعذبين من عبيد وفقراء :

أ ـ المسيح ثورة على الانغلاق اليهودي ولا تقتصر الرسالة الدينية في المسيحية على جماعة بشرية معينة بل تتوجه الى الانسانية عبر واقع معين دون ان تنعزل فيه ، فصار الله في المسيحية إله جميع البشر بعد ان كان في اليهودية إله « الشعب المختار » .

ب ـ كانت تعاليم المسيح متأثرة بحضارة المشرق العربي : ان « ابن » الإله الأول في الديانة الكنعانية ، الإله الخالق كان يتمتع بصفات التسامح والمحبة ، وهي اقرب الى المسيحية من مواصفات يهوه الإله الظالم .

تشبه المسيحية في كثير من جوانبها الفلسفة الرواقية التي « صابت » الجو للمسيحية .

قامت في المشرق العربي عدة ثورات استقلالية وطنية في العصر الهلنستي والروماني . ولقد باءت جميعها « بالفشل » فتخلى الشعب عن الاهتمام بالتنظيم السياسي ووجه كل اهتمامه الى تركيز الفكرة الودية على العبادة وعلى مظاهر طقوسها .

وهكذا تغلبت المسيحية الودية العربية حضارياً « على وثنية روما المتسلطة سياسياً » .

اذاً « المسيحية في نشأتها هي النقيض للانعزالية اليهودية والاستعمار الروماني ولأنها كذلك حكم على المسيح بالموت صلباً » . المسيحية تعبر عن حضارتنا وأوضاع شعبنا في المشرق العربي في تلك المرحلة . ولذلك هي جزء لا يتجزأ من تراثنا العربي .

٢ ـ واجهت المسيحية منذ نشأتها خطرين : الأول « محاولات تهويد المسيحية » والثاني « غزو استعماري تمثل بروما وبيزنطية والصليبيين والغرب » .

أ ـ تهويد المسيحية :

بعد ان فشل اليهود في القضاء على التعاليم الجديدة التي حملها المسيح حاولوا الهيمنة على الديانة الجديدة عبر حصر التبشير بالمسيحية في الأوساط اليهودية فقط ، اي الزموا الوثنية ان يدخل اليهودية

قبل ان يتنصّر . مما اوجب عقد اول مجمع في القدس سنة ٤٢ ـ ٤٤ تمكن فيه ابناء الكنيسة وخاصة بولس من « تحرير المسيحية من قيود التقليد اليهودي المتعنت » .

ب ـ المسيحيون العرب وروما :

انطلق النصارى من فلسطين ليبشروا العالم بالدين الجديد . فتكاثروا وانتشروا فاصبحوا يشكلون نقيضاً « للايديولوجية المسيطرة ، اي الوثنية ، خاصة وانهم برفضهم لعبادة الامبراطور التي كانت تعتبر دليل طاعة ، جعلت الأباطرة يرون فيهم خطراً «سياسياً» فمارسوا ضدهم اضطهادات مختلفة .

حكمت روما على المسيح بالموت ثم تابعت اضطهادها للنصارى ، ولما فشلت في القضاء عليهم تبنى قسطنطين وخلفاؤه المسيحية علماً تجدد شباب الامبراطورية وتحافظ على وحدتها ، فجعلوا منها دين الدولة الرسمي . وهكذا تحولت المسيحية من ثورة قومية اجتماعية تسلح بها الفقراء والمعذبون في الشرق الى دين الدولة الرسمي يستغلها الحكام والأسياد في الغرب لفرض هيمنتهم . الدين تاريخياً «هو ايديولوجيا» اذا تسلح به الفقراء ثاروا على اسيادهم ، واذا استغله الحكام جعلوه وسيلة اغتراب واداة قمع شرسة .

رغم تنصر روما لم يزل التناقض القومي ، بل اتخذ اشكالاً اخرى من التحرر والاستقلالية .

تمسك الوطنيون في المشرق العربي باستقلالية الكنيسة الأنطاكية ، وقامت عدة حركات استقلالية عن روما ، نذكر منها ثورة زينب التدمرية التي اعلنت استقلالها عن روما سنة ٢٧١ وكان يعاونها ويدعمها بولس السمباطي اسقف انطاكية . فانشقت الكنيسة الأنطاكية الى معسكرين . الى وطنيين سريان وعرب من بدو ساسانيين ، ورومانيين ومتهلنين . اما اليهود باكثريتهم فقد آثروا رومة على مساندة الدولة العربية. وقد راى المعسكر الأول بزينب العربية زعيمة وطنية تحاول التحرر من روما والغرب . وقاوم بولس السمباطي كل من ايد رومة والحضارة اليونانية الرومانية .

المسيحيون العرب وبيزنطية :

تبنت الدولة البيزنطية المسيحية ديناً رسمياً . وكان الامبراطور هو الراس الديني والدنيوي واتخذ مفاهيم خاصة للايمان اعتبرت كل من خرج عنها هرطوقياً يحارب وحدة الامبراطورية فاستباحت اضطهاده . فنشأ تناقض ظاهره ديني: تمثل بالخلافات العقائدية اللاصونية لكنه في العمق تناقض قومي بين بيزنطية وعالم عربي آرامي قبطي . فبرز صراع دام بين المذهب الرسمي الذي تبنته بيزنطة ورعته وبين طوائف مسيحية مشرقية تعبر بخلافها اللاصوني عن توقيها القومي للتحرر والاستقلال عن الحكم الأجنبي .

ولقد واجهت بيزنطة هذه الحركات الاستقلالية المذهبية في الشكل والقومية بالمضمون بحمامات من الدم . نذكر منها المجزرة التي ارتكبتها بيزنطية ضد اقباط مصر وراح ضحيتها حوالي ٢٠٠ الف قبطي ، ومذبحة اخرى ارتكبت ضد رهبان بنت هارون سنة ٥١٧ ذهب ضحيتها ٢٥٠٠ راهباً . على اثر هذه المجزرة وجهت عدة رسائل احتجاج توضح صراحة ان الذين نفذوا الجريمة هم من اليهود الأشرار بدعم من الامبراطور البيزنطي .

وفي الفترة نفسها تقريباً « تعرض المسيحيون في اليمن الى ابادة جماعية على ايدي اليهود ايضاً » .

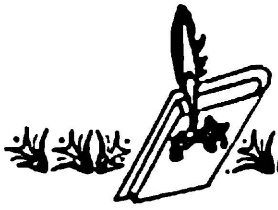
هذه الاضطهادات كرست وجود كنيسة وطنية في سورية وكنيسة وطنية في مصر وعمقت العداء للسلطة البيزنطية مما مهد الدروب للفتح العربي الذي رحب به المسيحيون العرب لأنه خلصهم من نير الاستعمار الأجنبي وان كان من ابناء دينهم .

المسيحيون العرب والصليبيون :

كثيرة هي الدراسات التي تتجنى على موقف المسيحيين فتتهمهم بأنهم كانوا خلفاء الصليبيين ضد شركائهم المسلمين . عودة سريعة الى حقائق التاريخ تفضح هذه المزاعم .

عندما اقترب الصليبيون في القدس هرب من فيها من السريان اليعاقبة الى مصر . اما الذين بقوا في القدس فقد رزحوا تحت الاحتلال الصليبي مرغمين . وعندما حرر صلاح الدين الأيوبي القدس عام ١١٨٧ عامل مسيحيها العرب معاملة المواطنين لأنهم ظلوا عرباً «وظل ولاؤهم القومي لأمتهم» . وكانوا في عوامل خذلان الصليبيين لمساعدتهم لصلاح الدين وهذا ما يذكره المؤرخ مكسيم موفرود ومحمد عمارة .

لقد حالف قسم من المسيحيين الصليبيين وهذا صحيح وثابت تاريخياً ، لكن الصحيح ايضاً هو ان قسماً اكبر من المسلمين حالف وقاتل مع الصليبيين ضد اخوانهم في الدين ، وقد واجه صلاح الدين حلفاً قوامه ريموند الثالث واسماعيل بن نور الدين وبعض



الفرق الاسلامية المخالفة مع الطليبيين (الشيخ محسن تميم) .

المسيحيون العرب والغرب :

انقسم المسيحيون العرب حول موقعهم في الغرب منهم في تمثله وطلب الحماية وتغرب منهم من كان في طليعة حركات التحرر العربية وفي اكثر المدافعين عن اللغة العربية وآدابها وكانوا في اساس الحركات الاستقلالية ضد الاستراب وفي صلب الثورات ضد الصهيونية والاستيعاب ، واكبر دليل ما نشهده اليوم حيث يسيل الدم المسيحي والاسلامي في فلسطين المحتلة وفي جنوب لبنان حيث لا تميز العصا الاسرائيلية والقذيفة الاسرائيلية بين مسيحي ومسلم . كما ان فئات واسعة اسلامية ليست متحالفة مع الغرب فحسب بل ومتواطئة . فالفرز السليم ليس على اساس اديان وطوائف بل على قاعدة الموقف من القوى المعادية لأمتنا وشعبنا .

بعد ان استعرضنا موقف المسيحيين العرب من التهديد ومن القوى الاستعمارية في مختلف المراحل التاريخية لا بد من طرح سؤال ما هو الحل وكيف نقف بوجه الغزو الاستعماري الصهيوني .

١ - التأكيد على ان المسيحية هي جزء من التراث العربي لأن المسيحيين جميعهم عرب والعروبة ليست ديناً ولا عرقاً بل هي منطقة حضارية .

٢ - التميز بين الغرب المسيحي والمسيحيين العرب . ولقد ذكرنا بالشواهد التاريخية كيف ان الغرب المسيحي اضطهد المسيحيين العرب، فالتناقض ليس بين الأديان بل على اساس ندب وطبقي .

فالاستعمار لا دين له بل مصالح . فالاستعمار العثماني تحكم بالعرب سنوات طويلة باسم الدين مما أوجب التحرر منه والعلة لم تكن باسلام الأتراك بل بعثمانيتهم المتسلطة ، والصلة في الغرب ليست في مسيحيته بل بامبرياليته التي تتأذى منها الشعوب العربية والاسلامية فضلاً عن مختلف شعوب اقطار العالم المسيحية ، كامريكا اللاتينية الكاثوليكية والبوذية كالهند وغيرها .

٣ - ضرورة اخذ الواقع الاجتماعي والتركيب السكاني بعين الاعتبار : ففي المغرب العربي مثلا يوحد تجانس كبير على المستوى الديني الطائفي بينهما في المشرق العربي اقليات دينية وعربية وقومية ، وبالتالي لا يمكن تجاهل هذه الوضعية ، والا فاننا نفسح المجال أمام الاستعمار والصهيونية باختراق مجتمعنا . وذلك يتطلب خاصة في المشرق قيام دولة قومية ديمقراطية على اساس وحدة الشعب والأرض والتراب والمساواة بين المواطنين ، ذلك لا يتم الا بتطبيق العلمانية وفصل الدين عن الدولة .

٤ - ان صراعنا مع العدو الاسرائيلي صراع قومي حضاري بين العرب والصهيونية المدعومة من الاستعمار وأي وجه ديني يعطي لطبيعة هذا الصراع يقدم لاسرائيل خدمة مجانية لأن جوهر وجودها قائم على اساس ربط القومية بالدين .

٥ - لا يوجد مشكلة دينية اسمها الاسلام او المسيحية او غيرها لأن الأديان اصبحت طوائف والطوائف ليست كتلا تاريخية متماسكة بنجاعة بل في داخلها قوى سياسية وطبقية واتجاهات ، فالانعزالية ليست مقتصرة على طائفة دون اخرى ، ففي معظم الطوائف اتجاهات انعزالية سلفية مغلقة واتجاهات وطنية محررة منفتحة . وعلينا ان نتعامل مع الطوائف والأقليات على اساس واقعها الاجتماعي وليس اللاهوتي. لأن المشكلة ليست من المعتقدات الدينية بل بالسلطة السياسية الحاكمة بحيث تسود الدولة القومية الديمقراطية القائمة على وحدة الأمة تنتفي حدة العصبيات وحيث يسود التسلط تنتعش الأقليات . والأقليات ليست دينية لأن في كل دين طوائف واعراقاً واقواماً فلا تحل على اساس ديني محض بل بقيام سلطة توحد ما تفرق . وبقيام الدولة القومية الديمقراطية نحصن ذاتنا ونقف بوجه الغزو الاستعماري الصهيوني ثقافياً كان او عسكرياً والا يصبح العالم العربي مجموعة كيانات على عدد الطوائف والقبائل والأعراق ، وهذا هو المخطط الاسرائيلي الاستعماري لتفتيت المنطقة العربية الى دويلات على اساس الدين مما يبرر دولتها ويجعلها قادرة على الهيمنة والتسلط .

* * *

محمد كرد علي

وأثره في الحركة الأدبيّة ببلاد الشام

الدكتور عبد الكريم اليافي

محمد كرد علي من ابرز رواد الحركة الأدبية ببلاد الشام ، ومن أشهر الذين أرّخوا لهذه البلاد ومن اهم الذين عُنُوا باحياء التراث العربي مع الدعوة لترسم خطا الغربيين في العلم والفن وسائر شؤون الحضارة ، ومن أبكر الأبناء اولى الأساليب المترسلة المشرقة البليغة في الأدب العربي ومن اوائل الذين اهتموا باللغة العربية مفرداتها وبيانها اهتماماً كبيراً . لقد كان اثره الأدبي مقترناً بمراحل حياته التي مرّ بها وبالأعمال الصحافية التي زاولها ، والمناصب الحكومية التي شغلها او التي اقترح انشاءها وراسها .

ولذلك لا بد في بيان أثره الأدبي هذا من تتبع تلك الأطوار . فنحن نعمد اول الأمر الى ترجمة حياته مع مقارنتها بالأحداث السياسية والاجتماعية العامة التي طرات على سورية إذ ذاك ، ولا سيما أنها متصلة بالكفاح الشعبي المتواصل في سبيل تحرير البلاد من الحكم الأجنبي ، ثم نعقب على ذلك بايضاح طبيعة بيانه وتطور هذا البيان وميادينه .

واذا تبسطنا في ايراد الأحداث فلكي نؤكد ذكراها في سجل نضال البلاد الدائب .

□ حياته والأحداث المقترنة بها :

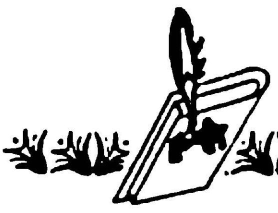
ولد بدمشق في اواخر صفر سنة ١٢٩٣ وهي توافق اواخر آذار سنة ١٨٧٦ ، اي في السنة التي نودي فيها بعبد الحميد سلطاناً (٣٠ آب) . وفي السنة نفسها في ٢٣ كانون الأول أعلن دستور مدحة باشا للاصلاحات وعطله السلطان في اوائل آذار من العام التالي وبقي معطلا طوال حكمه . امه شركسية . ابوه من سلالة الأكراد الأيوبية . هاجر جدّه من السليمانية في شمالي العراق وهي احد مواطن الأكراد . فقدم دمشق للعمل في التجارة وخلفه ابنه فاشتغل بالخياطة ثم بالتجارة وابتاع في آخر امره مزرعة بجسرين احدى قرى الغوطة . وقد ترك جو القرية وبيئتها الطبيعية والاجتماعية في نفس الطفل محمد أثراً عميقاً وصفه في مذكراته ؛ جعله يرتبط بالغوطة وبأرض الشام ارتباطاً متيناً مكيناً .

وقد شهد عصره التنويه بالتفريق بين الآريين وغيرهم والدعاوة الباطلة لتميز الآريين بسبب تقدم اوربة إذ ذاك . فهو يفتخر بنسبه فيقول : « فانا على رغم من آمن وكفر من جنس آريّ لا يقبل النزاع . وليس للغربي ولا للشرقي ما يقول في دمي » .

وقد مات لأبويه ولدان قبل ولادته فأحاطته اسرته بالعناية وحفّته بالرعاية .

في سنة ١٨٧٧ نشبت الحرب الروسية التركية . ووصلت الجيوش الروسية الى مشارف القسطنطينية ، وفرضت معاهدة سان ستيفانو ولكن تدخل بريطانية حمل روسية على ان تعدل شروطها وان تستبدل بها معاهدة برلين سنة ١٨٧٨ ، وبدا حكم عبد الحميد الاستبدادي .

في السادسة من عمره حسب ترجمته لنفسه في آخر كتابه « خطط الشام » او الخامسة حسب



مذكراته شرع الطفل يتلقى القراءة والكتابة ومبادىء العلوم الاسلامية والحساب والطبيعيات في مدرسة « كافل سيباي » الابتدائية . ولتلك الفترة من صباه الغض ذكريات متعددة متباينة تهمنا وذلك ان الأثر العميق الأول في نفس الناشىء قد يقرر ميوله وسلوكه . من تلك الذكريات ان والدته استصحبته في زيارتها لأسرة الشيخ محمد الطنطاوي فوقع نظره في القاعة التي جلسا فيها على رفوف في الحيطان مصفوف عليها مجلدات وكتب كثيرة ، فتعجب مما راى وسأل والدته عن هذه الأشياء فقالت : هذه كتب يقرأ فيها العلماء . فأعجبه ذلك المنظر الطريف ولهجة امه المشتملة على التعظيم فقال لها : انا احب ان اتعلم هذه الصنعة .

ولما بلغ السابعة من عمره توفي في دمشق الأمير عبد القادر الجزائري سنة ١٣٠٠ هـ = ١٨٨٣ م وكان يعطف على الفتى ويتعهد نشأته في جملة من يتعهدهم صغاراً وكباراً إبان حياته الحافلة ، فشعر بالأسى يخامر نفوس الناس تجاه وفاة رجل عظيم .

في سنة ١٨٨٧ قسمت بلاد الشام الى ثلاث ولايات وسنجقين وهي ولاية حلب وولاية بيروت وولاية سورية وسنجق جبل لبنان الذي فصل عن ولاية بيروت وسنجق القدس وله كيان اداري متميز . وفي ذلك الوقت نشأت حركة جمال الدين الأفغاني في مصر واتسعت في البلاد العربية ، وكانت تدعو الى تحرير البلاد وشب نار الثورة والأخذ بأسباب التقدم حسب مقتضيات العصر .

ولما انهى اليافع المدرسة الابتدائية دخل المكتب الرشدي العسكري فدرس فيه مبادىء اللغتين التركية والفرنسية ، واتاه ابوه شبه الأمي الذي كان حريصاً على تعليمه بمعلم الى الدار ليزيد معرفته بالفرنسية مدة ثلاث سنين ، وبرع على حد تعبيره بالترجمة من الفرنسية الى العربية وبالعكس (!) . وتخرج في المدرسة الرشدية بدرجة متوسطة لأنه لم يكن متمكناً من الرياضيات بسبب الحسر وضعف البصر اللذين اصيب بهما لكثرة مطالعته وسمي موظفاً في قلم الأمور الأجنبية مدة ست سنين، فقويت معرفته باللغة التركية ، واختلف حولين كاملين الى مدرسة اللعازاريين للاضطلاع بآداب اللغة الفرنسية . وطفق يهتم بدراسة الآداب العربية والعلوم الاسلامية . فهو يتصل بثلاثة من الأساتذة الشيوخ كان لهم القسط الأوفر في توجيهه وتنشئته . وهم طاهر الجزائري ومحمد المبارك وسليم البخاري وبغيرهم من الشيوخ.

ويحفظ افضل الذكرى للشيخ طاهر الجزائري ويفخر باتصاله به في الحين بعد الحين ، ولا غرو فقد كان ركناً من اركان النهضة الفكرية إذ ذاك . وهو يقول في هذه الصلة : « كان العامل الأكبر في توجيه ارادتي نحو الاصلاح الاجتماعي والاقدام على التأليف والنشر واشرابي محبة الأجداد والتناغي بآثارهم والحرص على تراث حضارتهم استاذي الأكبر الشيخ طاهر الجزائري . فما زلت الزمه منذ اتصلت به الى ان ذهب الى ربه سنة ١٣٣٨ حميد الأثر» . كان كرد علي قد صافح الخامسة والأربعين من عمره عند وفاة شيخه . وذكره اشرابه محبة الأجداد ، يعني الأجداد الروحيين . فقد رأيناه يفخر بالسلالة الآرية مع انه لو قرأ مادة الكرد في « تاج العروس » مثلا لألحقهم بالعرب . وكأنه حين يعتزي للآريين ينشد ما نقل للشريف المرتضى ابي القاسم علي بن الحسين :

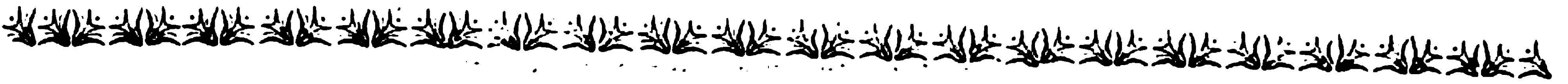
أحِبُّ ثرى نجدٍ ونجدٌ بعيدةٌ
ألا حبذا نجدٌ وإن لم تُفِدْ قربا

يقولون نجدٌ لستَ من شعب أهلها
وقد صدقوا لكنني منهم حبّا

كأني وقد فارقت نجداً شقاوةً
فتى ضلَّ عنه قلبه ينشد القلبا

وقد اعتذر من عجزه عن نظم الشعر اذ نهاه عن تعاطيه استاذه المبارك لئلا يشغله الشعر عن طلب العلم ولكنه اراده على اتقان الانشاء فقط فخرّجه فيه وفي اللغة ، ونصح له والده تحامي الموسيقى لأنها كانت تعتبر شيئاً وضيعاً . ولكن هذا الوالد ابتاع له خزانة كتب كانت تعد في ذلك العهد ذات شأن في البلد . وقد درس المطبوع من كتب الأدب العربي وجانباً من المخطوط الذي عثر عليه واولع بمطالعة كتب الفلاسفة وعلماء الاجتماع واصول الشعوب ومدنياتهم باللغة الفرنسية ، ويذكر اسماء المؤلفين الذين طالع اهم ما كتبوه(١) .

في سنة ١٨٩٣ ذهب الحسين بن علي الى القسطنطينية مع اسرته وسكن فيها خمسة عشر عاماً مع اولاده علي (الذي اصبح ملك الحجاز) وعبد الله (الذي اصبح اميراً على شرقي الأردن) وفيصل (الذي راس الدولة العربية التي تأسست في الشام غِبَّ الحرب العالمية فترة قصيرة ثم امسى ملكاً على العراق).



وكان احمد عزة باشا العابد عربياً من الشام قد اتقن التركية والفرنسية واجاد الكتابة فيهما ، ونظر في القوانين نوعاها ودخل في خدمة الدولة واستطاع ان يشق طريقه الى السلطان عبدالحميد فصار «قرينا» ، ثم كاتبا ثانيا في المابين(*) وكان خادم السلطان الأمين نحو ثلاث عشرة سنة وما سقط الا بسقوطه» . عرض له كرد علي في مذكراته كما تحدث عن ابنه محمد علي بك الذي صار اول رئيس للجمهورية السورية ، واشار الى اجتماعاته الطويلة معه واعجابه به ومودته له .

في سنة ١٣١٥ هـ = ١٨٩٧ م وهي السنة التي توفي فيها جمال الدين الأفغاني يسلك كرد علي وهو في الحادية والعشرين اول السبيل الذي يحقق فيه مواهبه ويفتح له باب الشهرة ، الا وهو الصحافة اذ يعهد اليه في تحرير جريدة «الشام» الأسبوعية : فحررها ثلاث سنين وكانت على حد تعبيره مدرسته الأولى في الصحافة ، وساعده فيها إلمامه بالتركية والفرنسية . ثم دعي الى المؤازرة في مجلة المقتطف المصرية ، وكانت ذائعة الصيت ، فنشر فيها ابحاثاً جمّة في التاريخ والاجتماع والأدب مدة خمس سنين ، وشرع يشتهر في عالم الأدب العربي .

في عام ١٩٠١ (يؤرخ صاحب الترجمة التاريخ الميلادي تارة والتاريخ الهجري اخرى وهو يقابل ١٣١٩ هـ) هبط مصر للسياحة بقصد الذهاب الى باريس للدرس ولكنه لم يكمل رحلته بل اقام بالقاهرة عشرة شهور حرّر خلالها في جريدة «الرائد المصري» نصف اسبوعية ، واختلف الى مجالس الشيخ محمد عبده وافاد منها .

في عام ١٩٠٢ وفاة عبدالرحمن الكواكبي الحلبي الأصل ، صاحب كتاب « طبائع الاستبداد » و « ام القرى » . وكان يكره التعصب والظلم ويدعو الى الحرية ويحامي عن الضعفاء حتى لقب ابا الضعفاء .

في شتاء (١٣٢٣ هـ - ١٩٠٥ م) فتشت الحكومة العثمانية دار كرد علي بحجة منشورات علقت في شوارع البلدة مكتوبة بلغة سلسة تطعن في الوالي وفي احد الأعيان ظنّ انه كاتبها . فخشي بطش الوالي وتشرد في الغوطة مدة حتى ظهر افتراء المدعي. وشاع الخبر فنظم صديقه الأمير شكيب ارسلان قصيدة داعبه فيها وجسم تشرده يوردها في ترجمته لنفسه اولها :

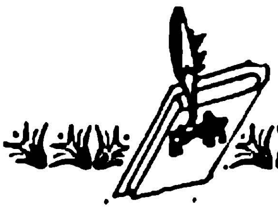
ألا قل لمن في الدجى لم ينم
طلاب المعالي سمير الألم(٢)

في سنة (١٣٢٤ هـ - ١٩٠٦ م) اشتد تضييق الحكومة عليه فهاجر الى مصر ، واصدر مجلة « المقتبس » ، وتولى معها رئاسة تحرير جريدة « الظاهر » و « المؤيد » ، وانشأ علاقات وصداقات مع رجال مصر الوطنيين واحب مصر وعدها وطنه الثاني .

وحدث الانقلاب العثماني سنة ١٩٠٨ فاعلن الدستور العثماني وهو عبارة عن عودة دستور مدحة باشا بشكل جديد تآخى بموجبه الأتراك والعرب ونشأت بعده جمعية الإخاء العربي العثماني ، واحتفل رسمياً بافتتاح خط الحجاز الحديدي ، وكذلك عين الشريف حسين اميراً على مكة . وقد رجع كرد علي الى دمشق واصدر في ١٧ كانون الأول من العام نفسه جريدة المقتبس يومية سياسية (٢٣ ذي القعدة ١٣٢٩) وذلك بعد ان اصدر المقتبس ثلاث سنين في القاهرة مجلة شهرية . وكذلك عمد الى اصدار المجلة ايضا في دمشق . ويعتبر صاحب الجريدة «المقتبس السياسي معتدلا بلهجته وطنياً بمسلكه ينتقد ما يمكن نقده من مواطن الخلل في الادارة العثمانية . وما رمى الى الانفصال عن الترك قط . بل كان يرمي الى استحصال حقوق العرب ضمن الجامعة العثمانية الكبرى . فلم يرق هذا ايضاً بعض رجال الدور الحميدي ، واخذوا يقاومون المقتبس وصاحبه ويقيمون عليه الدعاوى المزورة ، يصدرها الظالمون المرتشون من الموظفين ممن دابنا على الكيد لهم والعمل على تنحيتهم(٣) » . فاضطر إخيراً الى مغادرة الشام والهرب الى لبنان ثم ركوب البحر الى فرنسة ، فقصد باريس واقام بها ثلاثة شهور تعرف خلالها الى ثلة من مثقفيها ومفكريها ومستشرقيها كما اطلع على طائفة لا بأس بها من الكتب التاريخية والاجتماعية غدا يطالعها . وكان إميل بوترو في ذلك العهد ذا شهرة واسعة في الفلسفة ، فاتصل به ايضا ، وهو الذي هيأ له جريدة بعنوانات تلك الكتب . وفي مقامه هذا لم يهدأ قلمه فكتب خمساً وثلاثين مقالة ومحاضرة في وصف سياحته وطبع هذه المقالات في كتاب سماه « غرائب الغرب » . وقد اعجب فيما اعجب به بالمجمع العلمي الفرنسي حين حضر احدى جلساته . ثم عاد بعد ثلاثة اشهر الى الآستانة على طريق فيينا مبرأً مما نسب اليه .

في سنة ١٩٠٩ عزل السلطان عبد الحميد ونصب السلطان محمد رشاد .

★ لفظ عربي دخل التركية ومعناه ما بين السلاملك والحرملك ويطلق عامة على الباب العالي .



بين عامي ١٩٠٩ و ١٩١٤ انشئت عدة جمعيات بعضها علني ، وبعضها سري . غايتها الدعوة الى اللامركزية في الادارة العثمانية او تحرير البلاد العربية من السيطرة التركية والأجنبية ، اهمها جمعية العربية الفتاة .

في عام ١٩١١ سقطت ولايتا طرابلس وبنغازي في قبضة ايطالية .

في عام ١٩١٢ اقام الوالي الحميدي بدمشق دعوى على جريدة المقتبس فقبض على مديرها احمد كرد علي ، اخي محمد . وتمكن محمد من الفرار الى مصر على طريق البر مع تجار الجمال . ولما برئت ساحته مما نسب اليه عاد الى دمشق بعد ستة اشهر فاستقبل كما يستقبل العظماء .

في سنة ١٩١٣ زار ايطالية وسويسرة وفرنسة والمجر والآستانة وكتب ٢٣ مقالة في وصف مدنية تلك البلاد . وكان الداعي الى هذه الرحلة البحث عن المخطوطات العربية التاريخية .

وجاء سورية قبيل الحرب العالمية الأولى بأشهر وال عاقل عادل يحب الشام عرف لكرد علي اعتداله فبرأه من التهم، ونشأت بينهما صداقة . وكانت خطة صاحب المقتبس ان يكون دائماً الى جانب خدمة العرب دون الميل الى الخروج على الترك ودون الاسفاف الى خدمة غيرهم .

في سنة ١٩١٤ نشبت الحرب العالمية الأولى . وفي خلالها وعد الحلفاء الشريف حسيناً مساعدتهم للعرب في نيل استقلالهم . وجاء دمشق احمد جمال باشا ناظر الحربية والقائد العام للجيش الرابع . وعرف الوالي خلوصي القائد العام بكرد علي . ثم دفع له هذا ما على جريدة المقتبس من ديون بسبب توقفها عن الصدور على ان تعود الى الظهور ، فعهد الى اخيه في تولي سياسة الجريدة ، ثم اضطر الى كتابة مقالات افتتاحية ترشح اضطراراً من افكار القائد العام مباشرة او بالواسطة .

في ٢٦ آذار ١٩١٥ وصل الأمير فيصل الى دمشق وباحث جمعية العربية الفتاة ، ثم زار تركية ، ولما عاد فيصل من القسطنطينية اخذ الميثاق الذي هيأه السوريون اساساً لتعاونهم هم والبريطانيين على العثمانيين . وتأكيداً للميثاق اعطى الشيخ بدر الدين الحسني اكبر علماء دمشق خاتمه فيصلاً ليسلمه الشريف حسيناً رمزاً لثقة اهل الشام به .

في كانون الثاني ١٩١٥ تسلم مكماهون عمله مندوباً سامياً في مصر والسودان، وجرت مراسلات بينه وبين الشريف حسين .

في ٢١ آب ١٩١٥ نفّذ حكم الاعدام بأحد عشر شهيداً من الوطنيين العرب ببيروت .

في ايلول ١٩١٥ اشترك كرد علي في الوفد السوري الفلسطيني الى الآستانة فجناق قلعة . والغرض من تأليف القائد العام جمال باشا ذلك الوفد مشاهدة عظمة الدولة العلية (!) واستعدادها الحربي ، وتقصي الحقائق في الاشاعات التي ترامت عن سير المعارك ، ولما رجع الوفد القى بعض الموفدين خطبا ، وكان كرد علي من الخطباء . ثم اوعز القائد بانشاء رحلة هذه البعثة ، فظهر كتاب « البعثة العلمية الى دار الخلافة الاسلامية » سنة ١٩١٦ ، بقلم محمد الباقر صاحب جريدة البلاغ ، ومحمد كرد علي صاحب جريدة المقتبس ، وحسين حبال صاحب جريدة أبابيل ، وعبد الباسط الأنسي صاحب جريدة الاقبال . وكذلك وضع كرد علي في السنة نفسها ١٩١٦ كتاباً في رحلة انور باشا وكيل القائد العام الى الشام والحجاز .

في ربيع ١٩١٦ جرت معاهدة سايكس ـ بيكو بين بريطانيا وفرنسة لتقاسم مناطق النفوذ .

في ٦ ايار ١٩١٦ نفّذ حكم الاعدام بواحد وعشرين شهيداً في دمشق .

في ٥ حزيران ١٩١٦ نشبت الثورة العربية بقيادة الشريف حسين ، وقد وقعت في ذلك العهد مجاعة رهيبة في بلاد الشام .

سافر كرد علي خلال الحرب الى الآستانة ليشتغل بالتجارة . وفي اثناء غيابه وقعت دمشق بأيدي الحلفاء وتحررت من السيادة التركية في ١ تشرين الأول ١٩١٨ وانقطعت الطريق بين الآستانة ودمشق ، فعاد الى بلده بعد ثلاثة اشهر من تحررها ليعاود اصدار المقتبس .

ولكن الحاكم العسكري العربي كان من اصدقائه فولاه رئاسة ديوان المعارف . اخذ في درس حالة المدارس لاصلاحها وبدأ بانشاء دار للآثار ، كما سنرى عما قليل حين نعرض لتاسيسه المجمع العلمي العربي.

في ٨ حزيران ١٩١٩ استجابت الحكومة العربية لاقتراح محمد كرد علي تأسيس المجمع العلمي العربي.

في ٢٤ تموز ١٩٢٠ موقعة ميسلون واستشهاد يوسف العظمـة .

في ١٩١٩ – ١٩٢٠ على اثر احتلال الفرنسيين المناطق الساحلية من سورية اشتعلت في شماليهـا ثورات تهاجم مراكز الجيوش الفرنسية . ومن اهمها ثورة الشيخ صالح العلي ، وثورة ابراهيم هنـانو . ونشبت معـارك أصلى المجاهـدون الفرنسيين فيهـا نـيرانا حاميـة .

وتوالت النكبات على سورية في ظل الانتداب .

في بـداية شهر ايلول سنة ١٩٢٠ ، اي بعـد مرور خمسة اسابيع وثلاثة ايام على معركة ميسلون اعلن غورو المندوب السامي لفرنسة انشاء دولة لبنان الكبير تضم بيروت ومتصرفية جبـل لبنان القديمـة وقضاءي صور وصيدا جنوباً ، ومتصرفيـة طرابلس شمالاً ، واقضية بعلبك والبقـاع وحاصبيا وراشيا غرباً . وكانت صور وصيدا وطرابلس الشام من اجزاء ولاية بيروت القديمة ، على حين كانت الاقضية الأربعة ضمن ولاية سورية في العهد العثماني ، وبقيت ضمنها ابان الحكومة السورية الذي كـان عهدها قصـيراً .

ثم جزئت سورية الى عـدة دويلات وحكومات فأصبحت سورية الطبيعيـة التي كان عـدد سكانها لا يتجاوز ثلاثـة ملايين ونصف المليـون مجزاة الى حكومة فلسطين وإمارة شرقي الأردن (تحت الانتـداب البريطاني) ، ولبنان الكبير ودولة دمشق ودولة حلب وحكومـة العلويين وحكومة جبـل الدروز وسنجق الاسكندرون (تحقيقاً لمبدأ الاستعمار : فرق تسد) .

وقد الزم الفرنسيون غبَّ دخولهم دمشق تداول الأوراق النقدية التي اصدرها المصرف الذي اسموه مصرف سورية ولبنان، فاضطر الناس الى استبدالها بالليرات الذهبية (ليرات عثمانية واسترلينية ومصرية) وادى ذلك الى جرف ذهب سورية. كذلك فرض غورو على الحكومة السورية غرامة باهظة قدرها مائتا الف ليرة ذهب الى جانب دفع رواتب الموظفين الفرنسيين المدنيين والعسكريين، وهكذا تدهور الاقتصاد السوري وافتقرت البلاد، وزاد الطين بلة اطلاق ايدي الشركات الأجنبيـة في توجيـه الاقتصـاد السوري .

في ٧ ايلول ١٩٢٠ عهد الى كرد علي في وزارة المعارف بظل اوائل الانتداب فزار فرنسة للمرة الثالثة وكتب رحلته هذه في احدى وخمسين مقالة ، واعاد طبع « غرائب الغرب » وادخل فيه الرحلات الثلاث .

لقد نوه شفيق جبري في محاضراته التي القاها عن محمد كرد علي بكثير من كتاباته القومية ودفاعه عن العرب والاسلام ، ولكنه ذكر ايضاً انه كان يتقلد وزارة المعارف لمـا قسّم الفرنسيون سوريـة ، فلم ينكر ذلك بل كتب في بعض المناسبات « كيف نظم الانتداب البلاد فقسمها الى اربع دول »، وذهب جبري الى ان « الناس يسكتون عن شعور كرد علي القومي الذي ملأ كتبه ومحاضراته ومقالاته في كل حياته ، ويحاسبونه على هفوة يهفوهـا فلا يغفرونهـا له » . ولكن مؤلف المذكرات يفصح فيها عن معارضته لتقسيم سورية ، وعن ألمه منه ، ولكن بعد خروج الفرنسيين مـن البـلاد .

في بداية سنة ١٩٢٥ اصدر المفوض السامي تلقـاء الضغط الشعبي قراراً بتوحيد دولتي دمشق وحلب باسم الدولة السورية .

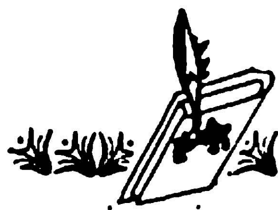
وفي السنة نفسها اتقدت ثورة سورية الكبرى وقـد اشتعل شرارها في جبـل الدروز ، ثم اشتد وقـدها ووصل الى ضواحي دمشق وبعض المـدن الأخرى . وامر المندوب السامي الجنرال ساراي بقصف مدينة دمشق بالمدافع والطائرات والدبابات ، واستمر التدمير ثلاثة ايام فأدى الى احتراق احد احياء دمشق بكامله ، والى انهيار عدد من البيوت ، واحترق سقف قاعة قصر العظم المشهورة ، وكان من انفس آثار الزخرفة والعمارة العربية ، فلم يبق منه اثر غير الصورة الملونة المذهبة التي كان نشرها غستاف لوبون في كتابه « حضـارة العرب » .

في ١٥ شباط ١٩٢٨ دخل كرد علي في حكومة الشيخ تاج الأولى وزيراً للمعارف للمرة الثانية . وفي اواسط تموز مـن هذه السنة ندبتـه دولة سورية والمجمـع العلمي لتمثيلهمـا في مؤتمر المستشرقـين السابع عشر بمدينـة اكسفورد ، فسـاح في انكلترة وبلجيكة وفرنسة ، وكانت زيارته هذه لأوربة الرابعة .

في سنة ١٩٣٦ بعد اضطرابات واضرابات شديدة وطويلة ، ابرمت المعاهدة السورية الفرنسية ، ولكنها بقيت حبراً على ورق .

في سنة ١٩٣٩ سلخ لواء اسكندرون والحـق بتركيـة .

في ايلول من السنة نفسها اشتعلت نيران الحرب العالميـة الثانيـة .



في ٢٢ آذار ١٩٤٥ انشئت الجامعة العربية، وينصح كرد علي في مذكراته ان تشغل الجامعة نفسها « بما يدخل في الصميم من برنامجها تأخذ اللباب وتطرح القشور » .

في ٢٩ ايار ١٩٤٥ الساعة السادسة مساءً امر القائد العام للجيوش الفرنسية « اوليفاروجي » ازاء نضال الشعب السوري بقصف العاصمة دمشق بالقنابل المدمرة من المدافع والطائرات والدبابات والرشاشات ، واستمر القصف ليل نهار مدة تزيد على ستة وثلاثين ساعة . وكان اهم اهداف القصف المجلس النيابي الذي كان سيعقد الساعة الخامسة لولا ان النواب اتجهوا الى دوائرهم الانتخابية بغية تنظيم المقاومة الشعبية .

ولقد ندد كرد علي بقصف دمشق في مذكراته.

في السابع عشر من نيسان ١٩٤٦ تم جلاء القوات الأجنبية عن سورية واعتبر ذلك اليوم عيداً وطنياً . ونوه كرد علي بهذا العيد في مذكراته .

في ٢٩ تشرين الثاني ١٩٤٧ قرار هيئة الأمم بتقسيم فلسطين .

في ٣٠ آذار ١٩٤٩ انقلاب حسني الزعيم . وقد اسرع كرد علي فباركه في مذكراته .

في ١٤ آب ١٩٤٩ انقلاب سامي الحناوي . وقد دوّن كرد علي في مذكراته ما جاء في « بيان » هذا الانقلاب . ولكنه تحرج بعض الشيء مما ورد في البيان من ثلب حسني الزعيم ، فاعتبر معظم الثلب غير صحيح .

في ١٩٥١/١٢/٢ انقلاب اديب الشيشكلي .

كان كرد علي خلال هذه الانقلابات والأحداث في أواخر سني حياته . ولم يفتر قلمه عن الكتابة والنشر والتحقيق، ولا عن تسجيل خواطره ازاء تلك الصروف كما يميل مزاجه ويملي هواه ، ومع ذلك فان مذكراته تحمل في اطوائها صوراً ناطقة بالأحوال السياسية والاجتماعية والأخلاقية والاقتصادية في تلك الحقبة ، وكان منصرفاً ايضاً الى عمله في المجمع .

في ٢ نيسان ١٩٥٣ دنا الموت من فريسته وهو في السابعة والسبعين من عمره .

☐ بيانه وأثره :

أثر كرد علي تأثيراً كبيراً ببيانه في اسلوب الكتابة العربية وذلك على طريق مجلته وجريدته والكتب التي حققها ونشرها ، والكتب التي ألفها ، والألفاظ اللغوية التي احياها واستعملها . ثم كان تأثيره كبيراً بادارة المجمع العلمي العربي الذي أسسه ، ونشاط هذا المجمع منذ الربع الأول من هذا القرن .

لقد نشأ في عصر غلبت على الناس فيه الأمية . حتى ان والده « كان عامياً يقرب من الامية » كما ذكر هو ذلك في ترجمته لنفسه في آخر خطط الشام(٤) . ولكنه على عاميته كان يقدر العلم والعلماء . وقد « انفق عن سعة » ليعلّم ابنه . وقد نقل كرد علي عن مخطوط « كتاب الباشات والقضاة » ما يصف احوال العصر الذي ترعرع فيه . وذلك في اواخر الحكم العثماني . فقد كان الولاة « يتعاقبون ابداً في دمشق . والسعيد منهم من كان يحول عليه الحول فيها . واكثرهم يقيمون فيها اشهراً ثم يصرفون ويستبدل غيرهم بهم ، ومنهم من كان يقيم اياماً ، ومنهم سبعة ايام ، ومنهم ثلاثة . فكان الوالي من ثمّ لا يتمكن من الاصلاح ان اراده . وفي الغالب انه لا يتوفر على غير النهب والسلب ليوفي ما عليه من المقرر لجماعة الآستانة من الأموال » .

هذا وقد لخص كرد علي في مذكراته بمناسبة الاحتفال بعيد جلاء الجيش الفرنسي (١٦ جمادى ١٣٦٥ ــ ١٧ نيسان ١٩٤٦) احوال البلاد في العصور المتأخرة قال : « وظللنا في ايام هذه الدولة (دولة المماليك) وفي ايام الترك العثمانيين ، ثم في عهد الانتداب الفرنسي امة محكومة يتولى امرنا ولاة من غير جنسنا ، واحياناً من غير نحلتنا ، ويسنُّ قوانيننا غيرنا . وقد يسنون ما لا يلائمنا . وضعف فينا خلال هذه القرون الطويلة ملكة الحكم وملكة العلم، وانحططنا في اخلاقنا وبياننا وتفكيرنا وصناعاتنا ، وانفرجت مسافة الخلف بين الطبقات ، وابتعدت كل طبقة عن اختها ، لا تشاركها في غير الهواء والماء . وكان من الطبيعي في هذا المجتمع المنحط ان يأكل القوي الضعيف ، ويغدو رجال الدين ورجال الدنيا اشبه بالعامة في أفكارهم ، وان تغرق البلدان في تبهور الجهل المركب ، وكانت اذا هبت تتلمس سبل النجاة لا تهتدي الى سلوكها . فحقٌ للأمة ان تبالغ بالاحتفال لهذا العيد ، عيد الأعياد ، ومبدأ سعادة الأبناء والأحفاد » .



اما المتعلمون فكانوا يلمّون بالقراءة والكتابة ، وبيسير من الحساب الهندي . واذا ازداد تعلمهم مرزوا بعض المتون وشروحها وحواشيها في علوم الالات (اللغة والنحو والصرف والبلاغة والمنطق) وعلوم الفقه ، ومن كانت عنده موهبة الكتابة جرى على اسلوب المتاخرين من رصف الألفاظ وتحسين الديباجة وتوخي السجع وبعض المحسنات البديعية ، ولو ادى ذلك الى التكلف والثقل .

ولم يكن لكرد علي في ريعان امره بدٌ من سلوك هذا السبيل مسايرة لبعض شيوخه ، واتباعا لاذواقهم . وقد ذكر في بحثه « كيف وضعت تاليفي » ان اول ما نثره كان رواية ترجمها وعرضها على استاذه فما راقته ، وفضل ان تكون مسجوعة على طريقته ، فنثر بعضها ، ونثر استاذه اكثرها ، فجاءت قطعة منسوجة كلها بالسجع . « هكذا كان الأستاذ يرى الانشاء ، وعلى هذه الطريقة تخرجت به اولاً » كما روى . ولكنه لم يلبث وهو فتى ان نزع قيود السجع نزعا على حد تعبيره ، وعمد الى الكتابة المرسله بدون تكلف الأسجاع والازدواج .

رصف الألفاظ وتوخى السجع ، بقيا يخامرانه حينا من الزمان .

لنقرأ ما جاء في مقدمة الجزء الأول من المجلد الأول من مجلة المقتبس بعد البسملة والدعاء :

« وبعد ، فهذه نشرة تصدر على رأس كل شهر تقتبس ما تتمثل فيه فائدة صالحة من كلام الثقات الاثبات من مشارقة ومغاربة وقدماء ومحدثين . ولقد سميت « المقتبس » ولكل شيء من اسمه نصيب . وستتنكب في مسطورها مذاهب المذاهب والنحل ، وتتجافى عن طُرَقِ طُرَقِ السياسات والدول . حتى تصفو مواردها من النزعات والنزغات ، ولا يستهويها في جانب ما تعتقده وازع ولا منازع ، تتمحض للعلم المحض فلا يتحرج من تلاوتها الموافق والمخالف ، ولا يتبرم بها العارف والعازف ، وتنطلق في الفكر ، وتتجوز في الاقتباس والنشر ، وتدرج في مطاويها ما يوافق اغراضها ومغازيها ... » .

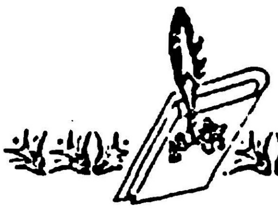
ومن المناسب ان نشير زيادة على السجع الى المحسنات البديعية التي كلف المؤلف نفسه الاتيان بها وهي واضحة . فالطباق ظاهر بين مشارقة ومغاربة وقدماء ومحدثين ، والموافق والمخالف . وكذلك الجناس التام في قوله مذاهب المذاهب ، والجناس المحرف في طُرَق طُرَق ، والمصحّف في النزعات والنزغات ، والعارف والعازف ، وجناس الاشتقاق في قوله تتمحض للعلم المحض . هذا الى المجاز في أسناد الفعل الى النشرة : تقتبس ، تتمثل ، ستتنكب ، والاستعارة التخييلية في تصفو مواردها الخ .

ويبدو في اسلوب المؤلف انه كان احرص على هذه المحسنات منه على صحة بعض الألفاظ مثل قوله تتمحّض اذ لم ترد صيغة هذا اللفظ السماعية في المعجمات ، ولو قال تتمخض لكان له وجه .

ويشتمل المقتبس في كلّ جزء منه على ترجمة علم من اعلام الفكر والأدب في الشرق والغرب . ونجده يترجم في الجزء الخامس من المجلد الأول للقاضي الفاضل البيساني نسبة لبيسان مدينة معروفة بفلسطين . ويتضح أنه كان معجباً ببيانه اول الأمر . فقد جاء في الترجمة : « وكثيراً ما يقع للفاضل عبارات تكاد تكون من دلائل الاعجاز على بيانه ، ومن اسرار البلاغة التي يسمو بها على اقرانه مثل قوله في صفة قلعة شاهقة ، ويقال انها قلعة كوكب : وهذه القلعة عقاب في عقاب ، ونجم في سحاب ، وهامة لها الغمامة عمامة ، وانملة اذا خضبها الاصيل كان الهلال لها قلامة(٥) » .

ويصف صاحب المقتبس طريقة القاضي الفاضل فيقول : « وهي كطريقة العماد الكاتب في الأسجاع المنمقة المحبَّرة . ولقد استحكمت هذه الطريقة في القاضي حتى صار يكتب فيها كأنها فيه طبع لا مسحة عليها من التكلف والتعمل » .

بيد ان صاحب المقتبس كان قد خرج على هذه الطريقة حين اطلع على كتابات المترسلين من الأدباء والبلغاء . فهو يكره القيود التي تغل حرية القلم ، وانما يدع القلم يجري رخاءً كنسيم البحر ، ونراه يندد بالسجع والتكلف كلما عنَّ له ذلك . يورد في مذكراته تحت عنوان « ملكة الانشاء » التي يفتخر بأنه كان متمكناً منها ما يفيدنا بتبدل اسلوبه وبتعرف اساتذته الأبيناء الذين تأثر بكتبهم ورسائلهم : « واستظهرت اشياء كادت تفسد علي ملكتي مثل بعض مقامات الحريري ، ورسائل الهمذاني ومقاماته ، ورسائل الخوارزمي ، وبديعية النابلسي . وما اخرجني من تكلف السجع على منوال المتاخرين كالقاضي الفاضل والصابي وابن الأثير الا الولوع بعد حين برسائل عبدالحميد الكاتب وابن المقفع والجاحظ والتوحيدي . اما ما وصل اليَّ مما كتبوه وكتبه امثالهم من السهل الممتنع ، فقد قراته مرات ولا ازال



اقرؤه . ولا يتيسر هنا سرد اسماء ما طالعت من الكتب والرسائل المطبوعة والمخطوطة ، وما نظرت فيه من اسفار العلماء الذين كانت لهم يد باسطة في الكتابة الرشيقة امثال ابن حزم والغزالي وابن قتيبة والطبري والمسعودي والدينوري والباقلاني والماوردي والزمخشري والراغب الأصبهاني والميداني وابي الفرج الأصفهاني وابن تيمية وابن قيم الجوزية وابن خلدون.

هذا اجمال ما يقال في المادة التي تخرجت بها لتقوية ملكة البيان . ولطالما سمعت بعض اساتذتي يقول ان اسلوب المرء يخترعه صاحبه ولا يقتبسه عن غيره ، ولا ينقله من كتاب ، فهو ابن مزاجه وتربيته وبيئته وذوقه وفنّه . وهذه المادة التي درستها يصل اليها كل مجتهد ، ويتمثلها الذكي الأديب . بيد انها لا تعدو الألفاظ غالباً. والعبرة بالتراكيب. والتراكيب ابنة من يصوغها . ويزيدها جمالاً علم الكاتب ووفرة اطلاعه . ولا تجود الكتابة بما تحمل من الألفاظ ، بل بما تنطوي عليه من المعاني والتلطف في ادائها واطراح التكلف . واهم ما تتوقف عليه الاجادة في الانشاء عدم الخوض في موضوع لم يدرسه الكاتب ، ولم يأخذ من نفسه . والمعاني اذا تجمعت في الذهن لا تعدم قالباً مقبولاً تظهر به . وهذا من السهل على من كان له نصيب وافر من اللغة » .

واول ما نلاحظ انه ذكر الزمخشري بين المترسلين من الكتاب والمؤلفين . ونحسب انه طالع تفسيره «الكشاف» ولم يقع بين يديه كتابه «اطواق الذهب» ، ولاتأمل الأسجاع التي نثرها كالدرر في معجمه « أساس البلاغة » . وليس هذا غضاً من انشاء مؤلف « المفصّل » جار الله . فانا على خلاف صاحب المقتبس نقدر الأسلوب المرسل تقديرنا الأسلوب المسجوع كلاً في موضعه وفي اطار عصره ، ونعتبرهما كليهما من اطوار البيان في اطواء الزمان . ولكننا لا نستطيع ان نمر بهذا النص الذي كتبه مؤسس المجمع العلمي دون ان نشير الى الفقرات الأخيرة البديعة في حقيقة البلاغة. لم يكن كرد علي فيلسوفاً، غير انا حين نقرأ هذه الفقرات يتوارد الى الخاطر كلام الفيلسوف الايطالي الحديث بندتو كروتشي حين يعرف الفن بانه حدس مقرون بالتعبير . فلا فنّ بالحدس وحده ولا بالتعبير وحده ، وانما هو بهما ضنوين ملتحمين . واذا حصل في نفس المرء حدس مكتمل تجاه امر من الأمور فلا اسهل من ان يواتيه التعبير عنه. ومثله قول صاحب المذكرات : « والمعاني اذا تجمعت في الذهن لا تعدم قالباً مقبولاً تظهر به » .

وحقاً اذا طالعنا ما كتبه نجده على الأغلب يترك فيه قلمه الحر المطواع على سجيته يشف عن دقائق افكاره وهواجس نفسه وخواطر احساسه . وبقي يؤثر الترسل في القول ويترسم الأساليب القديمة البليغة مناهضاً كل قيد في التعبير وتكلف في البيان . واذا كان الشيخ محمد عبده بمصر واحمد فارس الشدياق في لبنان في المرحلة الأولى من النهضة البيانية قد أطلقا التعبير من قيوده ، ثم تلاهما في العصر الحديث ، امثال الأمير شكيب ارسلان ، ومصطفى صادق الرافعي ، وطه حسين ، والعقاد، والمازني واشباههم ممن تفتّقوا بالقول وبرعوا في سهولة الأسلوب وانسجام التراكيب واطراد السياق ونصوع البيان وعذوبة المشرب ، فان صاحب المقتبس قد اوتي حسن السبك وسلامة الملكة ، والعلم بمواقع الكلم ، والحرص على المعاني والتخير لها من الألفاظ اقربها مفهوماً ، واليقها بمنزلها، واشكلها بما يجاورها فهو من رصفائهم وانداهم ونظرائهم .

ولما تهيأ له هذا الأسلوب المترسل الطليق غدا ينافح عن طريقته هذه ويعيب كل من لم يجر على غراره ولا اقتدح بناره ، ولو كان يكنّ له عميق الاحترام ، ويعده ذروة في الأدب والاخلاص والوطنية ، الا وهو الأمير شكيب ارسلان .

تساجل كرد علي وشكيب ارسلان في قضية السجع .

اورد كرد علي في مذكراته فصلا قصيراً عنوانه مساجلة بين صديقين . لا بأس ان نعرض اطرافاً من هذه المساجلة ونذكر نصوصاً منها ولو تطاولت ، لأنها تشرح جانباً من الجدال الذي يدور بين السجع والترسل لعلَمين كبيرين في ابان النهضة الأدبية الحديثة . فقد كتب الأمير :

« ثم إن هناك غمزاً بالسجع . وليس الأخ كرد علي وحده الذي بدأ بهذا الغمز ، بل كان احد الأصحاب اطلعني على كتاب للدكتور زكي مبارك لمحت فيه كلاماً يشبه ان يكون استصغاراً للسجع واستكباراً لاتيانه . وهذا باب جديد عجيب اذا اردنا ان ندخل فيه يطول بنا الأمر . فنكتفي بالقول : ان السجع وجد بالجاهلية ، وجاءت منه امثلة لأفصح فصحائها . ثم جاء في القرآن الكريم . بل القرآن الكريم كله سجع . وهو ابلغ الكلام العربي وغير العربي . وجاء في كلام الصحابة والمخضرمين ، ثم في الطبقة التي تليهم ، ثم في التي تليهم ، ثم في التي تليهم الى يومنا هذا .



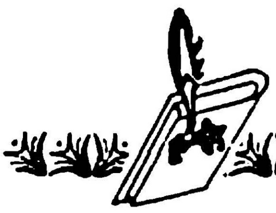
ولم نعلم احداً عاب السجع من حيث هو . وانما يعاب السجع بالنسبة الى المقام الذي يستعمله فيه الكاتب . اي انه لما كان السجع تقييداً بفواصل كما هو الشعر تقييد بقواف ، فلم يكن السجع مستحسناً في المواطن التي يجب ان ينطلق عقال القلم لكمال تادية المعاني على وجهها . واما في المواطن التي هي اقرب الى الشعر منها الى المباحث العلمية الصرفة فليس السجع بالذي يعد سُبَّةً على العربية ، بل هو من محاسن هذه اللغة . وان كان يجب حذفه من هذه اللغة من اجل كونه طريقة قديمة ومن اجل انه عبارة عن زينة كلامية، فان هذا يؤدي بنا الى اقتراح حذف الشعر ايضاً ؛ فان الشعر هو من قبيل السجع طريقة قديمة وزينة كلام تتوخى فيها المحاسن اللفظية كما تتوخى المحاسن المعنوية ، ويراعى فيه الوزن والقافية وهو من قبيل الموسيقى . والموسيقى هي ايضاً قديمة ، والطبيعة البشرية تألفها بل تحتاج اليها ، بل تهتف بها . والشعر ضرب من الموسيقى . فهو اذن من مقتضيات الطبيعة البشرية. والسجع وان لم يكن مقيداً بكل تقييد الشعر ، فهو مقيد ايضاً بقيود لها مواقع في النفوس . وهي في محلها مطربة مستعذبة ، ولا غبار عليها . ولا يقدر احد ان يقول انني مفرط في هذا المذهب لأنه ليس لأحد من الكلام المرسل اكثر مما لي . ولكني لا ازال ارى السجع حلية الكلام العربي عندما يكون في محله ، وذلك مثل مقدمات الكتب ، ومثل الخطب التي تلقى على الجماهير . وان العرب قد اصطلحوا على السجع في اسماء الكتب ولم يخطئوا في ذلك ، لأن الكلام المسجع اعلق في الذهن من غيره . وعسى كلامي هذا يكون مقبولا عند اخي الأستاذ كرد علي » .

نقاش السجع هذا جاء عارضاً في المساجلة . ذلك ان موضوع المساجلة الحكم على كتاب جيّد ألفه الشيخ جمال الدين القاسمي ، وهو « قواعد التحديث من فنون مصطلح الحديث » فيه اربع مقدمات احداها للأمير شكيب كتبها تقريظاً للكتاب . وقد راى كرد علي ان المؤلف الأصلي اقتصر على الجمع وتجويد النقل دون ان يثبت له فكراً او يرجح قولاً ، وغمز ما جاء في مقدمة الأمير من سجع دون ان يسميه ، فرد عليه الأمير رداً رفيقاً ناعماً كما رايت ، فأجاب كرد علي عن الرد جواباً رقيقاً ايضاً جاء فيه بصدد السجع :

« واكتفي الآن بجملة من مقدمتك ، وقد بداتها بقولك : (لا يخفى على اهل الأدب، ان الجمال والقسام في العربي (؟)(٦) واحد ، وان معنى القاسم هو الجميل ، فلا يوجد اذن لتادية هذا المعنى احسن من قولنا « الجمال القاسمي » الذي جاء اسماً على مسمى، مع العلم بأن الجمال الحقيقي هو الجمال المعنوي ، لا الجمال الصوري ، الذي هو جمال زائل ، فالجمال المعنوي هو الذي ورد به الحديث الشريف : « ان الله جميل ويحب الجمال » ، وعلى هذا يمكنني ان اقول إنه لم يعط احد شطر الجمال المعنوي الذي يحبه الله تعالى ، ويشغف به عباد الله تعالى ، بدرجة المرحوم الشيخ جمال الدين القاسمي الدمشقي، الذي كان في هذه الحقبة الأخيرة جمال دمشق ، وجمال القطر الشامي بأسره ، في غزارة فضله ، وسعة علمه، وشفوف حسه ، وذكاء نفسه، وكرم اخلاقه، وشرف منازعه ، وجمعه بين الشمائل الباهية ، والمعارف المتناهية ، بحيث ان كل من كان يدخل دمشق ، ويتعرف الى ذاك الحبر الفاضل ، والجهبذ الكامل ، كان يرى انه لو لم يكن فيها الا تلك الذات البهية ، المتحلية بتلك الشمائل السَّريّة ، والعلوم العبقرية ، لكان ذلك كافياً في اظهار مزيتها على سائر البلاد ، واثبات ان احاديث مجدها موصولة الأسناد .. الخ ».

بأبي انت وامي يا شكيب ! هل هذا بيانك الذي عرفته وعرفه فيك قومك ؟ انا لا اطلب غير حكمك ، فلا احتكم الا اليك . اهذا كلام ترضاه لنفسك في كتاب يبقى ؟ وما هذا القلق في المعاني والمباني ؟ ربما اغتفر صدور مثل هذا الكلام من فتى يشدو في الأدب ، ولكن من شيخ كتاب العرب لا ثمّ لا ! وحديث السجع انت عرفت رايي فيه ، ولعلك تذكر اني كنت لفتُّ نظرك الى ما اسميتَ به كتاب رحلتك الى الحجاز : « الارتسامات اللطاف ، في خاطر الحاج الى اسمى مطاف » وقلت لك يومئذ ان القارىء مهما بلغ من ثقوب ذهنه لا يدرك لأول وهلة معنى هذا العنوان المسجوع ، الا بكثير من إجهاد الفكر ، وهكذا كدت باستحسانك السجع في بعض المقامات والغلو في تقريظ من ترى تقريظه، ان تنسينا حسناتك علينا في كلامك المرسل الكثير ، وانا على ما تعلم من احرص الناس على تخليده وتابيده .

بحقك ، هل رايت لأحد من بلغاء القرون الأولى سجعاً في شيء من اسماء كتبهم ؟ وهذا الجاحظ وابن المقفع ، وهذه اسماء كتبهما ورسائلهما ، هل وجدت لهما سجعاً تتقزز منه كصاحبك أبي اسحاق الصابي الذي افسد اللغة على علو مكانته في الأدب بما سجع ورصع واظنك موافقي على رايي في ان التسجيع اضعف ملكات المؤلفين من عهد ابن العميد



الى زمن استاذنا الإمام الشيخ محمد عبده الذي قضى بقوة حكومته على استعمال السجع في الصحف والرسائل الرسمية ، فعدٌ عمله هذا اكبر حسنة من حسناته ، ولولا عمله ما دخلت اللغة في هذا الأسلوب الممتع الذي نقرؤه اليوم للمنشئين والمؤلفين، ونرجو ان تعود به اللغة الى رونقها السالف من الرشاقة والجزالة ، على نحو ما كانت على عهد سهل بن هرون والجاحظ وعمرو بن مسعدة واحمد بن يوسف الكاتب وابن المقفع واضرابهم . وما اظنك تنكر عليَّ ان رصف ابي حيان التوحيدي في القرن الرابع ، وابن خلدون في القرن التاسع ، ارفع وامتع من تعسف الصابي والصاحب بن عباد وابي بكر الخوارزمي والقاضي الفاضل والعماد الكاتب وابن الأثير الى آخر اعيان ذاك المذهب المتكلف . واظنك موافقي ان في قولك: « وإن كان يجب حذفه (السجع) من هذه اللغة من اجل كونه طريقة قديمة ، ومن اجل انه عبارة عن زينة كلامية ، فان هذا يؤدي بنا الى اقتراح حذف الشعر ايضاً » ـ إن في قولك هذا مغالطة لطيفة ، وفي علمك اكرمك الله ان النثر غير الشعر ، والكراهة آتية من التزيد والتكلف .

لو كنت على مقربة منك ما تركتك تقول في مقدمة الديوان الذي نشرته بآخَرةٍ ودعوته : « روض الشقيق ، في الجزل الرقيق » ما قلته في فاتحته : « ... الذي لا اجد لشعره وصفاً اوفى من عرضه على الأنظار ، ولا لديوانه حلية اجمل من نشره في الأقطار ، وخير وصف الحسناء جلاؤها ، والجواد عينه تغني عن الفرار . ولعمري لو وصفته بأزهار الربيع ، وانواع البديع ، وشققت في تحليته اصناف الأساجيع ، وكان هو في الواقع دون ما اصف لما اغنيته فتيلاً ، ولا رفعته عن درجته كثيراً ولا قليلاً ، كما اني لو قدمته للقراء فريدة معطالاً ، لا يرن له حجل ولا سوار ، ولا يتلألأ عليه ياقوت ولا نضار ، وكان هو في نفسه دراً نظيماً ، وامراً عظيماً ، وديواناً تتأرَّج ارجاؤه ندّاً ولطيما ، لما خفي امره على ذوي الوجدان ، ولا تعامى عن سبقه احد ممن له عينان .. » ولو كنت مكانك لقلت وما باليت : « .. الذي لا اجد لشعره وصفاً اوفى من عرضه على الأنظار ، ولو وصفته بأزهار الربيع ، وكان هو في الواقع دون ما اصف لما اغنيته فتيلا ، ولو قدمته للقراء فريدة معطالا ، وكان هو في نفسه دراً نظيما ، لما خفي امره .. » اليس هذا الايجاز اوقع في النفس ، واجمل في اداء المعنى ، وادعى الى الافهام من اسجاع تثقل على الطباع ونحن انما نكتب لنُفهِم ، لا لنعجم ونبهم . وبعد فمالنا والتقيد بما قاله بعض المتأخرين في معنىالتعلق بأهداب السجع، ولدينا في اقوال المتقدمين والمأثور في كتاباتهم ما يحملنا على تقليدهم فياساليبهم، يوم لا هذا الترصيع والتسجيع، ولا ذاك الضرب المستكره من انواع البديع » .

وقد اجاب الأمير شكيب اجابة موجزة تعرض فيها ايضاً للسجع فكتب :

اما السجع وما ادراك ما السجع، فالكلام العربي ينقسم الى مرسل ، ومسجع ، وموزون مقفى ، ولكل نوع من هذه الأنواع الثلاثة مقام يحسن فيه اكثر من غيره ، والمرسل هو الكلام المعتاد الطبيعي الذي به اكثر تفاهم الناطقين بالضاد. والموزون المقفى هو الشعر الذي لا رونق للغات بدونه . والسجع وسط بين المرسل والموزون ، وله وقع في النفوس لا جدال فيه ، ويكفيه من الشرف ان كتاب الله قد نزل بهذه الطريقة . وان نهج البلاغة وكثيراً من كلام افصح العرب هو من النوع المسجع . ولا يقال في بديع الزمان والخوارزمي والصاحب والصابي والقاضي الفاضل وامثالهم إنهم لم يحسنوا القول . فان كانت اللغات الأوربية ليس فيها سجع الا ما ندر ، فليس هذا بحجة على اللغة العربية، فلكل لغة خواص تمتاز هي بها ، وقد خلق الله الناس اذواقاً مختلفة ، وجعل لكل اناس مشربهم » .

جرى هذا التساجل على صفحات مجلة الرسالة فيميعةالصبا بعُيَيْدَ ان تحرر الأديبالصحافيالناشىء من قيود السجع وتحري المحسنات البديعية بتأثير شيخه طاهر الجزائري وتاثير الشيخ محمد عبده . ولما اصدر مجلة المقتبس واستهلها بالديباجة التي قدمناها استغرب الأمير شكيب هذا النمط من الكتابة الذيكانصحافينا قد برم به وانكره فكتب اليهيداعبه:

« متى كنت يا محمد مولعاً بالسجع ؟ عهدي بك لا تطيقه ، واذا مررت بالجناس ولو تمثل لك واقفاً رفسته برجلك واكببته على وجهه . وطالما نقمت علينا التسجيع ، واقمت علينا من النكير بعدد انواع البديع، وعددت سجع الحَمام من قبل فجع الحِمام . ولا حرج عليَّ منك ولا تثريب ، واجنس وانت ساكت ساكن وهذا امر غريب . فهل هداك الله الى الصواب الآن حتى صرت في مذاهب المذاهب وطرق الطرق ؟ او هل نزغت بك نزعات جداد ، وجدت بك اهواءٌ لم تكن تعتاد ؟ او لعلك حصرت السجع والجناس في فاتحة المجلة لأنها من المجلة كقاعة الاستقبال ؟ فلا بدَّ فيها من مراعاة الأمور الرسمية . والسجع رسمي في المقدمات ...

ولا عيب في هـذه المقدمة الا هذا السعْدان الذي في آخـرهـا(٢) .

هذا وفي راينا ان اساليب البيـان تتطور لدى كل امـة من الأمم . فهي تمر بأطوار متعددة . اذا تم طور واكتمل افضى الى طور آخر يليه . ينشأ الأسلوب البياني اول الأمر وينهض فهو طور النهوض والنشوء . ويليه طور يمتاز بكمال الاداء ودقـة المعـاني ومطابقة الالفاظ لهـا مطابقة تامـة ، ونحن نطلق عليـه الطور الاتباعي (بالمعنى الخاص) . ولكن دلالـة الالفاظ قـد تفيض عن المعاني الموضوعة لها فينشأ المجاز والتشبيه والاستعارة ويشعر الكاتب بما بين الألفاظ من ازدواج وتناظر واتساق ، وما بين المعاني من تقارب او تباين او تضاد ، فيسترعي فكره ذلك كلـه ويسـاق الـى الزخرفة الشكليـة والمعنوية ويتفتق بالكلام ويتفنن في مراعاة الوشائج الظاهرة والباطنة فيه ، فينشأ ما يدعى بالبديع والمحسنات المعنوية واللفظية من جناس وطباق ومقابلة وسجع ومراعاة النظـير وغير ذلك مما هـو معروف في كتب البلاغة . وقد دعونا نحن هذا الطور المزخرف المتالق بالطور البراق موازاة لأسلوب العمارة العالمية المدعو باللغة الاجنبية Baroque ورجعنـاه الى الأصل العربي الذي نظن انه تحدر منه خلافاً لما تذكره المعجمات الاجنبيـة . ومن ادلتنا على ذلك ان اللفظ في اللغتين الاسبانية والبرتغالية يشتمل على راء مضاعفة كما هو في العربيـة .

وقد ينقسم كل طور منهذه الأطوار الىمراحل. وقيمة كل مرحلة منها في مدى بلوغها الامتاع الفني . اما الحكم السريع على كل مرحلة مـن مراحل كل طور دون الانتباه للاطار الزمني والتاريخي فهو تنكب عـن المنهج العلمي السليم وغمط لتلك المرحلة . وقد تستمر آثار مرحلة مـن تلك المراحل في ثنايا مرحلة اخرى او طور آخر ، لأن ذلك متصل بثقافـة الكاتب وذوقـه وتنشئته الادبيـة والعلمية وتمرسه بالآثار التالدة .

هذا وينبغي التفريق بين الكتابة الفنية والكتابة العلمية . وكلامنا الذي سلف يتناول الكتابة الفنيـة فحسب ، لأن الكتابة العلمية يلزمها ان تكون معصحتها دقيقـة واضحة لا لبس فيها بعيدة مـن كل زخرفة وزينـة . وكمالها هو التعبير الرياضي الذي يفيـد بالأرقام ما لا تفيده الالفاظ . ولكل جزء منها اصطلاح ودلالة . وهكذا قـد نسمع او نقرأ بعض من ينددون بالسجع والتعابير المزخرفة مما هو مـن شان البيان الفني دون ان ينتبهوا لطبيعة الفن واشكاله واطواره .

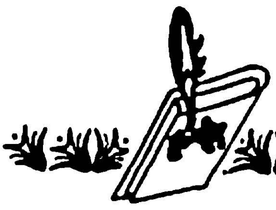
وقد حاول الأمير شكيب ان يدافع ما استطاع عنالبيان المسجوع اذا كان في محله . والأمير الى جانب ترساه الواسع مارس الشعر ممارسة طويلة على حين كرد علي ابتعد عـن الشعر منـذ نعومة سنه ، وان جرى اول الأمر على الكتابة المسجوعة . وطبعه لا يألف التقيد . ان السجع ضرب مـن الايقاع . والايقـاع على مزاياه يستلزم سلامة الصوغ وبداعة المعاني ولطافة الايحاء وكل ذلك من اسرار البيان ، ولذلك يلزم الا ينظر في البيان الى عنصر دون بقيـة العناصر المواكبـة . فهو صيغة عليا تأتلف في لحمتها عناصر مختلفة . وائتلافها الجميل المتقن الموفق هو الذي يهب لها صفة الجمال ويورثها المتـاع الفني .

هذا وقد يكون النثر المسجوع تافهاً سخيفاً كما قـد يكون النثر المرسل سخيفاً تافهـاً . والعبرة في الكتابة للصيغة النهائية الفوقية العليا المتالفة من عناصر متعددة سواء كانت الكتـابة نثراً مرسلاً او سـجعاً او شـعراً .

□ عـودة الى بيـان كرد علي :

ان الترسل والانطلاق وانسجام التراكيب وحسن الدلالة ليست وحدها خصائص بيان كرد علي . بل كـان كاتبنا يرغب في ان يسكب في انشائـه روح عصبه وحرارة قلبـه وحصيلة افكاره . ولقـد عقد فصلا في مذكراته بعنوان « الكتابة الباردة » نعى فيه « الكتابة التي تجردت من الحرارة بحيث لا تفعل في نفس قارئها ولا تبقي فيها اقـل اثر نافـع . فالكلام البارد قليـل الفائدة . وحرام اتعاب القارىء بفـك حروفه ... ثم اي فائدة مـن كلام فاتر لا يهيج له عصب ولا يلقي في روع تاليه ما يخـرج معـه بشيء ينفعـه ؟ » .

ثم يقول موضحاً رسالة الكتابة : « واي نفـع يرجى مـن كلام لا يصور حقيقة صادرة عـن نفس ملتهبة مقتنعة بما تقول ، ماخوذة بحب الحق ؟ وما الفائدة من تاليف لا ينم عن الزمن الذي وضع فيـه ولا يصف اهله ولا يعرض لما يسوؤهم وما يسـرهم ؟ وأضر الناشرين من يتوخون ابقاء الناس في عماية ، ويحاولون اقرارهم على ما هم فيه ، ولو كان ظاهر الضرر ملموس التفاهة ... وليت شعري ما الفائدة المتوقعة من اغفال الحق في موقف يتحتم فيه الجد ؟ اللهم ان كان مقصود المؤلف من تاليفه ان يقال فقط: انـه التف وربح مـن تاليفه كـذا من النقود ، اكان المقصد الاول من التاليف كسب المال . والعجب ان



يسالني بعض معارفي عما اجدت علي كتبي من فائدة مادية، وقلَّ ان سالني سائل ماذا كان من اثرها في افكار من كتبت لهم ؟ » .

يسمو كرد علي في هذا النص سمواً واضحاً حين ينوه بلزوم المؤلف قول الحق وخدمة الناس وتحريك الضمائر للتخلص من السوء والتفاهة والضرر والعماية ، وهو وان لم يكن اشتراكياً يقترب في هذه الدعوة من فكرة الالتزام ومن الواقعية الاشتراكية في الأدب التي تعلي شأن الكاتب وتحمله مسؤولية خدمة الجماهير فيما كتب ، والمنافحة عن القضايا القومية والانسانية .

وهذا يقودنا الى استشفاف محاور الموضوعات التي ترجح بينها كرد علي وعمل في مضمارها .

ننتبه اولاً لهذه الرغبة الجامحة في العلم والقراءة والنشر وهي التي رافقته مدى حياته ، وكونت منه علماً من اعلام النهضة الفكرية والأدبية وجعلته يربي على كثير من اترابه ومعاصريه . لقد شدا شيئاً من علوم اللغة العربية واطلع على اللغتين التركية والفرنسية ، وقرأ بعض المؤلفين والكتاب فيهما وترجم عنهما ، ودخل الصحافة من اوسع ابوابها نشراً وتأسيساً ، صحافة يومية وصحافة شهرية . وغدت الصحافة بالنظر الى ثقافته الأولى مدرسة كبرى، بل جامعة من الجامعات تخرج فيها كما يتخرج المجازون الناجحون .

ولقد دعا مجلته وجريدته كلتيهما باسم واحد وهو « المقتبس » . « ولكل شيء من اسمه نصيب » كما ذكر هو ذلك .

وقد جاء في اللغة « اقتبس العلم ومن العلم استفاده ، كذلك اقتبس منه ناراً . وقال الكسائي : اقتبست منه علماًوناراً سواءً . قال : وقبست ايضاً فيهما » وللاقتباس معنى خاص في علم البلاغة ليس هنا موضعه .

فالمقتبس هنا مكان الاقتباس ، وقد يدل على زمان الاقتباس كما يقع اللفظ على المصدر الميمي من الفعل . وذلك كله متعارف في النحو .

فكانت كتابات صاحب المقتبس مستندة الى الاقتباس من وجوه عدة اهمها :

١ ـ الاقتباس من التراث العربي الاسلامي لافادة الحاضر العربي الواهن ورفعه .

٢ ـ الاقتباس من الغرب المتقدم للنهوض بالشرق المتاخر .

٣ ـ الاقتباس من خزائن اللغة العربية وآدابها القديمة لتحرير الأدب العربي الحديث وتخليصه من قيوده واحياء طائفة من الألفاظ اللغوية المناسبة في عصر فشت فيه الأمية وطفت اللغة التركية .

٤ ـ الاقتباس من مزايا اللغات الاجنبية الحديثة وخصائص التاليف والنقد فيها ، والرغبة في الترجمة عنها لرفد اللغة والأدب العربيين الحديثين .

بل ان الاقتباس عند كرد علي يتجاوز ذلك كله الى الاستعانة والاستيحاء والبناء من اجل التقدم والعمران والعطاء .

ولقد غدت كتاباته ومقالاته في المقتبس وفي غيره فصولاً جمعها او وسعها في كتب ثم نشرها فيما بعد كغرائب الغرب ، والقديم والحديث ، وامراء البيان ، وكنوز الأجداد .

وكان من حرصه على النشر ايضاً ورغبته في تحسين اساليب الكتاب الحديثين ، وفي افادة المثقفين ، ان ضم ما حقق من رسائل البلغاء ونشر متفرقاً في المقتبس وغيره في كتاب غدا مصدراً اصيلاً لقراءة اولئك البلغاء . طبع ثلاث مرات ، كل طبعة فيها زيادة .

كذلك عمد الى تحقيق بعض المخطوطات في التاريخ والأدب والحكمة وغيرها كسيرة احمد بن طولون ، والمستجاد من فعلات الأجواد، وتاريخ حكماء الاسلام وكتاب الأشربة والبيزرة ، على ان اهم كتبه التي الفها هو « خطط الشام » في ستة اجزاء ، وهو كتاب حافل في تاريخ بلاد الشام ، ثم « المذكرات » في اربعة اجزاء كتبها وسنه تزيد على الستين ، نجد فيها اصداءً للحوادث التي مرَّ بها في حياته العريضة الواسعة . يقول في مستهلها : « أصور بهذا التقييد طائفة ممن عشته بينهم صورة صادقة ، وأدوّن كل حق عرفته ، ليشاركني ابناء هذا الجيل والذي بعده في الانكار على من اضجروني بقصورهم ، وآلموني بغرورهم .

كتبت كتباً كان الجد سداها ولحمتها ، وما جوزت لنفسي الحياد عن قوانين المؤلفين ، ولا الصدود عن آيين المتقدمين والمتاخرين ، وأريد هنا



ان انزع قيوداً اثقلتني وانا اراعيها ، وان ابعد عن ذاك الطراز المقيّد ، واخرج الى هـذا الأسلوب المطلق .

احاول اليوم وقـد رايت الدنيا مهزلة ، وذقت حلوها ومرّها ، وكرعت خلّها وخمرها ، ان اهزل احياناً ، واسخر احياناً ، واضحك احياناً ، وابكي احياناً ، لأن نفسي سئمت التزام الجد ، وتبرمت من الاضطراب فيه زمنـاً طويلاً ، وطبيعتي تعصي على العيش الرتيب » .

الا انه ينبغي ان ننظر الى تلك الصور المقيّدة في المذكرات على انهـا انمـا تتبـدى في مرآة نفس المؤلف . اي لا بد من دخول عنصر الذاتية الى جانب عنصر الموضوعية ، لأن كل مرآة مشروطة بخصائصها من حيث الصفاء والتضخيم والتصغير وهيئة ارتسام الصور فيها . والعنصر الذاتي في مرآة مؤلفنا كبير .

وهنا لا بد من ان نتطرق الى بعض الهفوات او الزلات التي لابست حيـاته ، والتي يحاول جهده ان يخفف من وطأتها في مذكراته وفي ترجمته لنفسه . فقـد شارك في « البعثـة العلمية الى دار الخلافة الاسلاميـة » سنة ١٩١٦ ، كمـا شارك في كتـابة هـذه المرحلـة .

وكتب «الرحلة الأنورية الى الأصقاع الحجازية» سنة ١٩١٦ .

وكـلا الكتـابـين دعـاوة للـدولـة العثمانيـة الحاكمة ، وقد اشرنا الى ذلك آنفاً . وهو يقول في الكتابين انهما « من كتب الدعاية السمجة » (ترجمته لنفسـه) .

كذلك ذكرنا انـه اشترك في وزارتـين لعهـد الانتداب . وقد نشر د. وجيه كوثراني في كتـابه « بلاد الشام » الصادر عن معهد الانماء العربي ، وثيقة عـن « الموقف الفرنسي مـن محمد كرد علي ودور المقتبس » ماخوذة عـن سجلات الخارجية الفرنسية ، نقتصر منها على ما جاء في اولها « ان هذا الصحفي الذي اظهرنا نحـوه عطفاً وادينا له خـدمات إن في القسطنطينية او في باريس ، قد عاد منذ فترة مـن الزمن يبدي لنا اسمى عواطفه » .

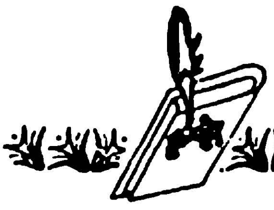
هذا وقد كتب مؤلف المذكرات في « المذكرات » بعض الفصول وهي ليست مؤرخـة يظهر فيها حبـه لفرنسة واعجابه بحضارتهـا ، ولكنـه يندد بظلمها واستعمارها واعمالها الشنيعة في سورية والجزائر وفي بـلاد الاسلام عامـة جـاء في إحداها : « سـار الفرنسيس في حكمهم المسلمين على خطة واحدة في الظلم لم يغيروها منـذ هبّوا يعتـدون على الشعوب الضعيفة يزهقون ارواح السكان بلا رحمة، ويغتصبون ارضهم بغير الحـق ، ويمنعون التعليم عنهم ليبقوهم بهائم في صور آدمية . ومن هنا اتت كراهية المسلمين للاستعمار ولعنهم زبانيته في السر والجهر ، ومتى احب المظلوم ظالمـه ، ومتى صفـا قلب المستعبد لمستعبده ! » .

وفي هذا الاتجاه كتب شفيق جبري في كتـابه « محاضرات عـن محمد كرد علي » هـذه العبارات الشعرية التي تمحو كدورة المرآة بما عرف عن الشرق مـن تسامـح : « على انه لا تلهينا ظلمة من الظلمات في سيرة رجل من الرجال عن ضياء هـذه السيرة ، ولا يشغلنا الشوك في بعض الحدائق عن فائح وردها وناضر زهرها . فالأستاذ محمد كرد علي كان صاحب الأثر الأحمد في جرائده ومجلاته ومحاضراته وكتبه. فقد علم اهل وطنـه ما لم يعلموه من معاني الحرية والاستقلال والوطنية والقومية ، ومن معاني حضارة العرب في القـديم ، وحضارة العصـر الحديث . علمهم هـذا كلـه في عصر تراكبت ظلماته وتعاظمت اوهامـه ، واستفحلت خرافاته واضاليله ، وبلـغ الاستبداد كل مبلغ ، وثار الظلم كل مثار . فاذا اردنا ان نذكر بعض انحرافاته فلا ينبغي لنا ان ننسى حسنـاتـه » .

على ان افضـل عمـل عمله صاحب المقتبس تأسيسه للمجمع العلمي العربي . وقد غدت دمشـق تذكر به سبقاً وريادة وقومية وحرصاً على نقاء اللغة العربية وسلامتها وتقدمها اكثر مما تذكر بمعهد او هيئة مـن سائر الهيئات والمعاهد الثقافية فيها . ثم ان الأفراد مهمـا عملوا وعلموا ماضـون والهيئات القائمة التي تتعهد العلم والمعرفة اذا احسنت التعهد باقية مكتوب لها الرقي والنمو والازدهار .

☐ كرد علي والمجمع العلمي العربي :

لقد خامرت نفس الفتى كرد علي وهو في صباه امنيـة وهو ان يسافر الى فرنسة ليشاهد معالمهـا الحضارية ويطلع على معاهدها الثقافية ، وليستفيد من سياحته فيها « ويقتبس » ما يستطيع . ولما هرب من دمشق ازاء الضغط والتهديد اللذين لقيهما مـن الوالي (عام ١٩٠٩) وصل الى لبنان فركب البحر الى فرنسة ، وبلغ باريس وهو في الرابعة والثلاثين مـن عمره ، فاتصل بطائفة من مثقفيها وكتابها ومفكريها .



وكما استهواه وهو في السادسة من عمره مشهد الكتب صفوفاً على جدران القاعة في بيت الشيخ محمد الطنطاوي ، فقال انه يحب ان يتعلم هذه الصنعة ، كذلك اول ما استهواه في باريس المجمع العلمي الفرنسي حين حضر جلسة رائعة من جلساته وقد عقب على حضوره في غرائب الغرب: « وحدثتني النفس ببلادنا الشرقية ، وقلت لها : هل يكتب لها في المستقبل تأليف مثل هذه المجامع ، فنعمل فرادى ومجتمعين كالغربيين او نظل كما نحن لا نعمل فرادى ولا مجتمعين ونكتفي بالتفاخر بأجدادنا نجعله عدتنا في شدتنا ، ومثالنا في نهضتنا ، ونحن عن اقتصاص آثارهم غافلون ! » .

ولما قامت الحكومة العسكرية العربية غِبَّ الحرب العالمية الأولى وانزياح الحكم العثماني عن البلاد تفتحت الآمال ونشطت الجهود وتضافرت الأعمال ودبّت في الأفئدة العزائم . فانشات الحكومة شعبة الترجمة والتأليف بتاريخ ٢٨ تشرين الثاني ١٩١٨ ، وعهدت اليها في تدبّر امر اللغة العربية الرسمية واستبدال المصطلحات العربية بالتركية ونشر الثقافة. فاستعانت الشعبة برجال الفكر والأدب والصحافة القائمين على تدريس اللغة العربية وعلومها في المدارس الرسمية والجوامع .

بيد ان الحكومة سرعان ما رات ان تضم الى شعبة الترجمة شعباً اخرى تتعلق بالثقافة والتعليم والفن . فجمعت امور المعارف الى شعبة الترجمة وكونت بذلك ما اسمته « ديوان المعارف » بتاريخ ١٢ شباط ١٩١٩ واسندت رئاسة الديوان الى محمد كرد علي . فاخذ في درس حالة المدارس لاصلاحها على ما يلائم روح الأمة العربية . وبدأ بانشاء دار للآثار وتجهيز دار الكتب الظاهرية بجهاز حديث . ثم حصل خلاف بينه وبين الحكومة ، فاراد التنحي عن رئاسة ديوان المعارف ، فالحت عليه الحكومة بالبقاء فقال : ان كان ولا بد فينقلب ديوان المعارف باعضائه ورئيسه الى مجمع علمي ، وتكون علاقته برئيس الحكومة مباشرة . فقبل هذا الاقتراح وشرع في تأسيس المجمع العلمي العربي في ٨ حزيران سنة ١٩١٩ وذلك على نسق المجمع العلمي الفرنسي وتحققت تلك الأمنية الخفية التي اعتلجت في قلبه ابان زيارته لباريس .

اما الحكومة فرات إذ ذاك قسمة ديوان المعارف قسمين : قسم يختص باعمال المعارف ، وآخر يختص بأمور اللغة والمكتبات والآثار . وكذلك تشكلت وزارة المعارف كما تشكل المجمع العلمي العربي . ومنذئذ استقل المجمع العلمي العربي .

وللمجمع العلمي منذ نشوئه تاريخ قد قصّه احمد الفتيّح في كتابه « تاريخ المجمع العلمي العربي بدمشق » من عام ١٩١٩ الى ١٩٥٦ لا حاجة الى تتبعه في هذه العجالة . ولكن لا بد من بيان اغراض المجمع لدى تأسيسه اذ حددت بأربعة اهداف تدعم فيما نحن بصدد ايضاحه ، وهي :

١ – النظر في اللغة العربية واحتياجاتها .

٢ – جمع الكتب المخطوطة والمطبوعة لتاسيس دار كتب عامة .

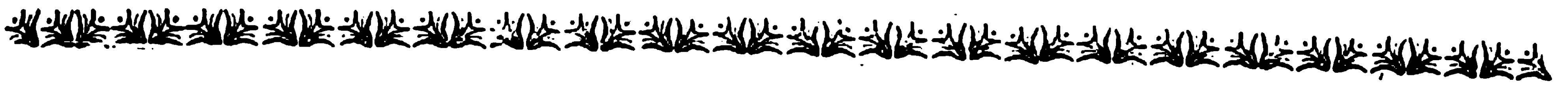
٣ – جمع الآثار القديمة عربية او غير عربية .

٤ – اصدار مجلة خاصة بالمجمع .

وينضم الى هذه الأهداف احياء التراث ونشر المطبوعات .

وعمل المجمع على بلوغ اهدافه ، فقام باعداد الموظفين للكتابة العربية ، وذلك باعطاء دروس خاصة كما هيأ المصطلحات الادارية على طريق الترجمة والوضع والتعريب ، وترجم بعض القوانين ، وصحح بعضها الآخر ، كما وضع اسماء الرتب والألقاب الحكومية والعسكرية ، مستعيناً برسالة « الرتب والألقاب » لأحمد تيمور باشا ، وفرض رقابة لغوية على الكتب المدرسية والمجلات والروايات التمثيلية ، ونظم محاضرات لغوية وادبية على اساتذة المدارس ، ونشطت حركة تعريب قوية ، ووفق المجمع الى استبدال الألفاظ العربية بالمصطلحات التركية والأجنبية .

وليسمح لنا القارىء الكريم ان ننسخ له ثبتاً ببعض الألفاظ العربية الجديدة إذ ذاك ، مما حل محل المصطلحات الأعجمية . وليست إلا غيضاً من فيض :



الكلمة القديمة	الكلمة الجديدة
البوليس	الشرطة
الطابو	ديوان التمليك
سرقوميسر	مفوض اول
سفيل قوميسيري	مفوض تحرٍ
نوبتجي	آذن
اودهجي	فراش
نومرو	رقم او عدد
دركنار	حاشية
خرجراه	نفقات السفر
دوسيه	إضبارة
رابور	تقرير
بول	طابع
قوجان	قسيمة
مامور الاجراء	التنفيذ
اوراق موردودة	الرسائل الواردة
اوراق مرسولة	الرسائل الصادرة
ماصه	مكتب
قاصه	خزانة
باس باس	ممسحة
صوبا	مدفأة

ولم يكن عمل المجمع مقصوراً على المجال الحكومي. فقد اتجه الى اصلاح اللغة لدى ابناء الشعب كما سعى جاهداً لنشر المصطلحات العربية بين الناس ، كالهاتف بدلاً من التلفون، والسيارة مكان الأتوموبيل وهلم جرا.

كذلك عمد الى تنظيم محاضرات عامة بدات تلقى كل اسبوعين ، ثم شرعت تلقى كل اسبوع . واهتم بحفلات تأبين العلماء والكتّاب والشعراء ، وبحفلات تكريم الأحياء منهم ، كما عمل على تشجيع الشبان منهم . واقام مهرجان المتنبي الألفي ، ومهرجان المعري الألفي . كل ذلك الى جانب اهتمامه بدار الكتب الظاهرية وتزويدها بالمخطوطات والكتب .

واهتم المجمع وعلى راسه كرد علي بالآثار، واشرف على حفظها وصيانتها الى عام ١٩٣٧ حين انشىء المتحف الحديث .

وكانما وجد كرد علي في المجمع ضالته المنشودة او الفى فيه مجال عمله الحقيقي فانصرف له انصرافا كليا ، الا في فترات قصيرة كان فيها على خلاف مع بعض الحكومات السورية لم يكن يلبث ان يزول . ولما انشئت مجلة المجمع العلمي العربي في اول كانون الثاني سنة ١٩٢١ — ٢١ ربيع الثاني ١٣٣٩ غدت وكانها بالنسبة له خلف لمجلة المقتبس .

كذلك داب المجمع منذ نشاته على احياء التراث العربي القديم ، وقد تولى رئيسه تحقيق بعض المخطوطات .

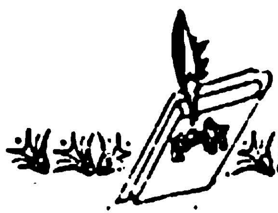
وايا كان الأمر فقد غدا رئيس المجمع الموجّه لأعمال المجمع والحافز على نشاطه والساهر على شؤونه . لقد غدا السادن الأمين له . فكان المجمع كان كعبته يسدنها ويعتكف في حماها خلال ما يقرب من خمسة وثلاثين عاماً الى ان دنا منه الموت يوم الخميس في ٢ نيسان ١٩٥٣ وهو في السابعة والسبعين من عمره .

ولسنا نريد هنا ان نتتبع اعمال المجمع منذ تاسيسه ولا ان نستقصي وجوه نشاطه المختلفة ، ولا ننوه بشانه في مجال اللغة والأدب ونشر التراث ، ولكننا نشير الى ان اسمه اصبح في ظلال وحدة القطرين الشقيقين مجمع اللغة العربية . ونسمح لأنفسنا أن نورد هنا أسماء اللجان التي تعمل بمبناه الجديد في الوقت الحاضر ، وهي اللجنة الادارية ولجنة اصول اللغة، ولجنة المصطلحات، ولجنة الفاظ الحضارة ، ولجنة المجلة والمطبوعات ، ولجنة المخطوطات واحياء التراث ، ولجنة دراسة اللهجات العربية المعاصرة .

خاتمة

محمد كرد علي مثال العصامي الذي نذر نفسه للصحافة والادب والفكر . داب على ممارسة هذه الشؤون وتخرّج في هذه الممارسة . فاسس المجمع العلمي العربي الذي يعرف اليوم بمجمع اللغة العربية واداره حقبة من الزمان ، وتسنّم وزارة المعارف مرتين ، ورسم بيراعه البليغ الطلق نبضات انفاسه وومضات قريحته وخوالج نفسه على عشرات الوف الصفحات . وهو على الرغم من بعض الهفوات في اللغة وفي السياسة علَم من ابرز اعلام النهضة الفكرية والادبية والصحافية في بلاد الشام ، ومن اعمقهم تاثيراً في مضمارها الواسع .

عبد الكريم اليافي



الهوامش :

١ ـ ترجمته لنفسه في آخر خطط الشام . وقد ذكر بين الفلاسفة الفرنسيين الذين طالع كتبهم فولبه . وانما هو فولني وفي كتابة الاسم الذي اختارها بعد عن واقع اللفظ .

٢ ـ من القصيدة هذا البيت :

وان تشـد ورقاء في ايكـة　　تـزرقـه في صـوتها والنغـم

وشطره الثاني مكسور صوابه يؤرقه صوتها والنغم . وقد سلف ان صاحب الترجمة تعاطى الشعر . وقد نقل البيت على علته جمال الدين الآلوسي في كتابه الجيد عن كرد علي . ويذهب الظن الى ان التحريف وقع من المطبعة . والا كان الأمر اعلى من ان يعتور قلمه المبين مثل هـذه الهنة . وفي القصيدة على رأينا بعض التصحيف السوافي جاءت محل السواقي والعنم محل العتم ، هـذا والسوافي جمع سافية صفة للريح التي تذرو التراب وليست المرادة هنا اذ لا يقتضيها السياق . انما المراد السواقي جمع ساقية بمعنى الجدول الجاري من كثرة الأمطار .

٣ ـ ترجمته لنفسه في آخر خطط الشام . طفق كردعلي يقتصر منذتاريخه اصدار جريدة المقتبس عام ١٩٠٨ على التقويم الميلادي .

٤ ـ كلامه على ابيه بهذا التعبير يشف عن قلة لباقة ، ولكنه سليم من الناحية الموضوعية .

٥ ـ كوكب قلعة على الجبل المطل على مدينة طبرية حصينة رصينة تشرف على الأردن افتتحها صلاح الدين فيما افتتحه من البلاد ثم خربت بعد (عن معجم البلدان) قوله عقاب في عقاب الأول هوالطائر الجارح وهو بضم العين والثاني بكسر العين جمع عقبة وهي مرقى صعب من الجبال . وفيها جناس التحريف .

٦ ـ وضع كرد علي علامة استفهام . ونرى نحن انه لا حاجة اليها لأن المراد بالعربي اللسان العربي او الكلام العربي . وهو من قبيل اقامة الصفة مقام الموصوف . وفي اللغة الدارجة نقول : بالعربي الفصيح وهو من القبيل نفسه .

٧ ـ المقتبس ج ٣ المجلد الأول ص ١٦٨ وكان كرد علي ختم المقدمة بقوله : « سبحانه وسعدانه » . وقد ورد في اللغة السعدان اسم للاسعاد . ويقال سبحانه وسعدانه اي اسبحه واطيعه . وهو لفظ قل استعماله وكانما يريد كرد علي باستعماله اظهار معرفته اللغوية .

★　★　★

مؤلفات محمد كرد علي

العنوان	الصفحات	مكان الطبع	سنة الطبع
١ ـ يتيمة الزمان في قبعة ليفمان	٤٠	مصر	١٨٩٤
٢ ـ الفضيلة والرذيلة	٢٦٧	مصر	١٩٠٧
٣ ـ المجرم البريء (اربعة اجزاء)	٨٠٠	مصر	١٩٠٧
٤ ـ تاريخ الحضارة (شارل سنيوبوس)	٢٢٠	مصر	١٩٠٨
٥ ـ رسائل البلغاء (جمع وتحقيق)	٥٢٢	مصر	١٩٠٨
			١٩١٣ طبعة ثانية
			١٩٤٦ طبعة ثالثة
٦ ـ غرائب الغرب (جزءان)	٦٤٠	مصر	١٩١٠ ، ١٩٢٣
٧ ـ البعثة العلمية الى دار الخلافة الاسلامية (مع مؤلفين آخرين)	٢٩٦	بيروت	١٩١٦
٨ ـ الرحلة الأنورية الى الأصقاع الحجازية	٣٠٠	بيروت	١٩١٦
٩ ـ غابر الأندلس وحاضرها	١٩٠	مصر	١٩٢٣
١٠ ـ خطط الشام (ستة اجزاء)	١٩٤٠	دمشق	١٩٢٥ ، ١٩٢٨
			١٩٦٩ طبعة ثانية

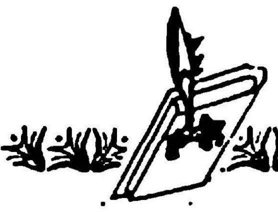


العنـــوان	الصفحات	مكان الطبع	سنة الطبع	
١١ـ القديم والحديث	٣٤٦	مصر	١٩٢٥	
١٢ـ الإسلام والحضارة العربية	٩٤١	مصر	١٩٣٤	
			١٩٥٠	طبعةثانيةمزيدةومنقحة
١٣ـ امراء البيان (جزءان)	٥٧٨	مصر	١٩٣٧	
			١٩٤٠	طبعة ثانية
			١٩٦٩	طبعة ثالثة في جزء واحد
١٤ـ سيرة أحمد بن طولون لأبي محمد عبدالله البلوي (تحقيق)	٤٠٠	دمشق	١٩٣٩	
١٥ـ دمشق مدينة السحر والشعر	١٥٢	مصر	١٩٤٤	(سلسلة اقرا)
١٦ـ المستجاد من فعلات الأجواد للمحسّن التنوخي	٣٨٤	دمشق	١٩٤٦	
١٧ـ تاريخ حكماء الاسلام لظهيرالدين البيهقي (تحقيق) وعنوانه الأصلي (تتمة صوان الحكمة) وقد طبع في الهند بهذا العنوان الأخير	٢٠٤	دمشق	١٩٤٦	
١٨ـ اقوالنا وافعالنا	٤٢٧	مصر	١٩٤٦	
١٩ـ الأشربة لابن قتيبة (تحقيق)	١٢٧	دمشق	١٩٤٧	
٢٠ـ المذكرات (اربعة اجزاء)	١٢٢٠	دمشق	١٩٤٨ ـ ١٩٥١	
٢١ـ غوطة دمشق	٣٥٨	دمشق	١٩٤٩	
٢٢ـ كنوز الأجداد	٤٣٦	دمشق	١٩٥٠	
٢٣ـ البيزرة ـ منسوب الى كشاجم والى بازيار العزيز بالله الفاطمي (تحقيق)	٢١٢	دمشق	١٩٥٣	

كتب عن محمد كرد علي

اسم الكتاب	المؤلف			
محمد كرد علي	عثمان الكعاك	تونس	جمعية الاتحاد الثقافي	١٩٥٤
محمد كرد علي (حياته وآثاره)	د. سامي الدهان	دمشق		١٩٥٥
محاضرات عن محمد كرد علي (ألقيت على طلبة قسم الدراسات الأدبية في معهد الدراسات العربية العالية)	شفيق جبري	القاهرة		١٩٥٧
محمد كرد علي	جمال الدين الآلوسي	بغداد	وزارة الثقافة والارشاد	١٩٦٦
محمد كرد على	(مؤسس المجمع العلمي العربي)	كتاب يضم البحوث التي القيت في المهرجان المئوي لذكرى ولادته ، اقيم بدمشق خلال أسبوع العلم السادس عشر سنة ١٣٩٦ـ١٩٧٦ وصدر الكتاب بدمشق عام ١٩٧٧ .		

هذا وقد حركت مقالاته وكتبه كثيراً من اقلام معاصريه بالتقريظ او النقد على صفحات المجلات العربية المتعددة كمجلة المجمع العلمي ، والعرفان ، ولغة العرب ، والكلية ، والثقافة ، والرسالة ، والمقتبس ، والمقتطف ، والحسناء ، والمنار .



نصوص من كتابات محمد كرد علي

كيف وضعت تاليفي

سالني الاستاذ منير الشريف اذا كنت اشرت في مذكراتي الى الاسباب التي دعتني الى وضع تاليفي ، فقلت له : انك لفت نظري الى امر ما جال في بالي ، فسأكتبه ففيه فائدة وتعليم . فكتبت هذا :

كان أول ما نشرته ترجمة رواية قبعة اليهودي ليفمان سميتها (يتيمة الزمان في قبعة ليفمان) (١٣١٢ هـ) وكنت يومئذ اخذ الادب عن استاذي السيد محمد المبارك ، فترجمت الرواية كما يترجم المترجمون بعبارة سهلة مع المحافظة على الأصل ، وعرضتها على استاذي ينظر فيها ، فما راقته ، وفضل ان تكون مسجوعة على طريقته ، فنشرت بعضها ونثر هو اكثرها، فجاءت قطعة منسوجة كلها بالسجع. هكذا كان الاستاذ يرى الانشاء ، وعلى هذه الطريقة تخرجت به اولاً ، وادرك هو ضعف طريقته بعد اعوام. وقال لي، وانا قد نزعت قيود السجع نزعا : ما اسعدك تخليت عن السجع ، وعمدت الى الكتابة المرسلة ، بدون تكلف الاسجاع والازدواج ، وانا ما زلت محافظا على الطريقة القديمة ، ما قدرت ان اتخلى عن الملكة العقيمة التي غلبت علي ، واذا اردت اليوم ان اكتب كتاباً خاصا في غرض من الأغراض ، يتعاصى علي تسطيره ، ذلك لأني اريده مسجوعاً وقريحتي لا تواتيني ، والسجع مستحكم في رضيت ام كرهت ، وهو لا يحسن في كل موضوع وفي كل موضع .

وكتبت بعد ذلك كتباً كانت لي بمثابة تمرين على التاليف ، ولم اطبعها ، منها ترجمة الأسماء التركية لرضا باشا نقلتها الى العربية والفرنسية (١٨٩٣) ومنها تعريب بعض فصول من ثلاثة كتب في الحرية ، وهي حرية الوجدان ، والحرية المدنية ، والحرية السياسية لجول سيمون ، ولما رجعت الى ما نقلت لم يرقني ، وقلت ان القراء من باب اولى لا يستسيغونه. ونشرت بعض فصول في جريدة المؤيد من كتاب الحرية السياسية .

وكنت احب ان اضع تاليفاً في حرية العرب ، فكتبت فيها دفاتر لم استحسنها بعد سنين ، ورايتني لم احكم الموضوع ، وكانت معلوماتي التاريخية فيه ضئيلة لم تكف لتصوير البحث ، ولم اعطه كليتي وما درسته على ما يجب كما درست اكثر الموضوعات التي عالجتها بعد . ولما اعدت النظر فيما كتبت لم ار احسن له من طرحه في سلة المهملات ، وليتني ايضاً نبذت « رواية يتيمة الزمان » في زنبيل سقط المتاع ايضا ، ولكن الشباب وحب الظهور يومئذ حفزاني الى طبعها ، على انها كانت لي بمثابة الخطوة الأولى نحو التاليف، ما خلت من فائدة وتدريب عليه . وكانت معلمة لي ، على صغر حجمها ، الا اعاود طريقة الاسجاع التي بطل زيها في هذا العصر .

ولما نشرت مجلة المقتبس حاولت ان اضع بعض التآليف التي كنت ارى فيها نفعاً ، فاستغرقت الجرائد السياسية ومجلة المقتبس العلمية كل وقتي وجهدي، وصرفت في ذلك بضع سنين (١٩٠٦-١٩١٤) منها ثلاث سنين في مصر اخرجت خلالها من المقتبس العلمي ثلاثة مجلدات ، واخرجت في دمشق خمسة مجلدات وعددين اثنين من السنة التاسعة . وما وفقت خلال هذه المدة الا لطبع جزء من ترجمة «تاريخ الحضارة» لشارل سنيوبوس ، نشرته في المجلة أولاً كما نشرت « رسائل البلغاء » وطبعتها تباعاً في اجزاء المجلة وجعلتها بعد كتاباً براسه طبعته مرتين . ثم طبع طبعة ثالثة ، وقد نقحته وزدته زيادات كثيرة ، واصبحت هذه الرسائل النادرة مرجعاً للمتأدبين والباحثين ، لما حوت من نصوص لا اثر لها في الكتب المطبوعة ، وكانت مما اعان بعض ناشري المخطوطات في الأدب والتاريخ فعارضوا عليها بعض نصوصهم ، واجمل ما فيها رسائل عبدالله بن المقفع، وعبدالحميد بن يحيى الكاتب ، واستفاد منها كثير من الأدباء الذين عرفتهم في مصر والشام ، وتأدبوا بادب هذين الكاتبين العظيمين، ومنهم اليوم اساتذة ورؤساء في الجامعتين المصريتين، ودار العلوم والأزهر، والمجمع العلمي العربي.

وطبع لي صاحب مجلة مسامرات الشعب روايتين عربتهما عن الفرنسية ، وهما « الفضيلة والرذيلة » و « المجرم البريء » نقلتهما بسرعة وطبعتهما بسرعة، ولم انظر في المسودات ولا في التجارب نظرة ثانية ، فتسللت اليهما هفوات مطبعية وغيرها ، مضافة الى رداءة الترجمة ، على ان القراء يومئذ قرؤوهما وربما استحسنوهما ، وما هما في الواقع غير كتابين لم يدخل موضوعهما قلبي ، وكتبتهما لغيري ، وكانت الغاية من نشرهما مادية صرفة ، والمادة شيء ، والأدب شيء آخر .

استخرجت (١٤٣٤ هـ) بعض ما نشرت من المقالات في مجلة المقتبس، ومجلة المقتطف، وجريدتي المؤيد والظاهر وغيرهما ، وسميته «القديم والحديث» وطبعته في مصر ، ولم ارض عن طبعته لأنها حملت

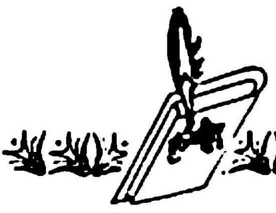
اغلاطاً فاحشة ، ولم ينظر احد في تجاربه .. وكان صديقي الأستاذ محمد لطفي جمعه كثيرا ما يحثني على جمع هذه المقالات مخافة ان تضيع في الصحف اليوميه والمجلات العلمية ، وهذه المقالات او اكثرها لا ترضيني اليوم ، وكانت شيئا في عهد كتابتها ، وفي ذلك دليل على ضعف ابن ادم . يستهجن اليوم ما كان استحسنه بالأمس .

وشعرت بالحاجة الى وضع تاليف صورت في نفسي موضوعاتها، وبحثت قليلا عن مراجع للاستعانة بها . لم يساعدني الوقت في البداءة بها . وتبرمت بما كان يضيع من وقتي في تحرير المجلة وفي اشغالي الاخرى . فعزاني استاذي الشيخ طاهر الجزائري بقوله . « ان المجلة تاليف وزيادة » ، وكان لا يرى تكبير حجم مجلة المقتبس . ويوثر تجويد المقالات ، ويوصي بكتابة مختصرة ، وعنده ان بضع ورقات جيدة التاليف افضل من مئة صفحة مملوءة حشوا وتطويلا . وبذلك كنت اصرف جهودا في تاليف المجلة استقصي ابحاثها ، وانقل اراء العلماء المحدثين والقدماء . وتاليف مجلد كل سنة من مجلة مختلفة الموضوعات اصعب في الحقيقة من وضع كتاب ذي موضوع معين ، خصوصا اذا كان منشئها يكتب اكثر صفحاتها ، وينظر في مقالات موازريه نظرا بليغا ، ويتوخى ان تكون موضوعاتها من الطريف المفيد . ومن اين لصاحب المجلة ان يضع كتابا ويجود فيه يومئذ ، والابحاث تعرض له بالعشرات ، وهو مضطر الى قراءة اكثر من ثلاثة الاف صفحة بالعربية والفرنسية والتركية كل شهر ، عدا الجرائد السيارة ويكتب كل يوم بضعة اعمدة في موضوعات شتى ، ويصحح مقالات واخبارا لا يقع عليها العد .

كان صديقي الاستاذ رفيق بك العظم كثيراً ما يحثني على وضع التآليف الممتعة ، وقد كتب لي مرة من القاهرة (١٣٢٢ هـ) ، يقول : « وبودي الا توزع قواك التي وهبت لك في اجزاء منثورة وفصول مبتورة ، وان توجه نفسك الى تاليف كبير يكون لك ذخراً ، وللأمة نافعاً ، وافضل ما يحتاجه قومك الآن التاريخ .. اقترح عليك هذا حرصاً مني على ملكتك العلمية ان تعفو في مستقبل الأيام آثارها بين متفرق الجرائد وفي ثنايا المجلات ، والله موفقك وهاديك » .

كنت منذ القديم افكر في موضوع مشتت المادة، متنوع الأبحاث ، وهو وضع تاريخ سياسي ومدني مطول للديار الشامية ، فان ما كتب في هذا الباب ، لم يجم إصحابه حول الموضوع كثيراً ، واخذت ابحث عن الكتب وأزور المعالم والمجاهل في هذا القطر ، واستكثر من اقتناء الأسفار النادرة باللغات الثلاث العربية والفرنسية والتركية ، ولا سيما الأسفار العربية القديمة التي احياها علماء المشرقيات من الغربيين .. وكنت اطالع كل ذلك مطالعة تدبر، والتقط جواهرها : ولما استوفيت البحث في خزائن مصر والشام ، وبعض خزائن الآستانة ، تعلقت همتي ان ارحل الى اوربا ليتسع معي مجال النظر في خزائن كتبها العربية والأفرنجية ، فعرضت فكرتي على السيد مارتين هارتمان ، من علماء المشرقيات الالمان ، وكان جاء دمشق ، وقلت له اني مزمع الرحيل الى باريز ولندن وأكسفورد وكمبردج وليدن وبرلين ومونيخ وليبسيك وغوتا وفينا ورومية والأسكوريال ومجريط ، للبحث في خزائنها عن مخطوطات العرب في التاريخ ، فقال : ان الفكرة حسنة ولكنها غير عملية ، وتنفيذها يستغرق من وقتك حولين على الأقل ، تحتاج فيهما الى نفقات طائلة ، فالأولى ان تذهب الى رومية ، وفي خزانة الامير كايتاني صاحب كتاب تاريخ الاسلام صور صورها بالتصوير الشمسي من خزائن العالم ، فيها ما خلفه الثقات من مؤرخي العرب في تاريخ الاسلام ، مما لم يطبع حتى الآن ، فاذا زرت خزانته في التاريخ ، فكانك رايت جميع تواريخ العرب المحفوظة الى اليوم في خزائن الغرب . فقصدت مصر ، وزودني صديقي احمد زكي باشا بوصاة منه الى صديقه الأمير ليوني كايتاني في رومية، فقدمت عليه فرحّب بي وسهل عليَّ مهمتي، فكنت كل يوم ابحث ثلاث ساعات في الصباح في خزانته مدة شهر.

ولما نشبت الحرب العامة كانت بعض فصول الكتاب قد نسجت ، وانا حائر في وضع التاريخ السياسي ، اأجعله على الدول ، ام على السنين ؟ وحائر ايضاً في الكلام على كل اقليم باقليمه على النحو الذي عرفته العرب ، ويدخل الكلام على جغرافيته وطوبوغرافيته، وتاريخه السياسي والمدني ، ثم عدلت عن الطريقة التي اتبعتها في تاليفه بعد ان الفت جانباً منه على الأقاليم ، واطلع اصدقائي عثمان مردم وخليل مردم ، وبدر الداغستاني على مسودات « خطط الشام » وما جمعت له من المواد واعددت له من الفصول والأبواب . فألحّوا عليَّ بانجازه وطبعه ، وارجانا الأمر الى ما بعد الحرب . ولما وضعت اوزارها اخذ السيد الداغستاني يحثني كثيراً على طبع الكتاب ، وكان هو مثلي ومثل رفاقي الذين كاشفتهم بالموضوع يخشون



ضياع التعاليق التي علقتها ، والمواد التي جمعتها بطول السهر والدؤوب ، وكنا كلنا نقول : ان شعباً يطالب باستقلاله حري؟ ان يكون له تاريخ يرجع اليه ، ويقول للأمم: هذا ما كنت عليه ، وهذا ما صرت اليه.

★ ★ ★

استطراد : اراد عزمي بك والي بيروت خلال الحرب الكبرى ان اؤلف له كتاباً في سورية الداخلية كما ألف له مجلدان في سورية الساحلية (الوية اللاذقية ، وطرابلس ، ونابلس ، وعكا) فطلبت للقيام بهذا التاليف الف ليرة عثمانية ذهبية ، فاستعظم ما طلبت ، وقال : ان تأليف الجزئين الخاصين بولاية بيروت لم يكلف الواحد منهما ثلاثمائة ليرة عثمانية ورقية، وكان من وضعوهما وترجموهما من الشبان المبتدئين، اخذوا من المواد التي وقعت لهم من الكتب المتداولة ، وما عنّ لهم الخوض فيه من المباحث بادىء الراي . فقلت له : اني في صدد تأليف تاريخ مطول في الديار الشامية ، وقد جمعت له مواد وقعت عليَّ غالية جداً، فقد انفقت على سياحتين لي الى اوروبا للبحث في الخزائن ، وعليَّ ابتياع ما اضطررت الى ابتياعه من كتب علماء المشرقيات في التاريخ والجغرافيا والرحلات والأدب وغيرها لا يقل عن الف وخمسمائة ليرة عثمانية ذهبـاً ، صرفتها مجزاة على اعوام ، فاذا نزلت عن هـذه المواد ، وكتبت كتاب سورية الرسمي لا يبقى للمواد التي جمعتها ، وانفقت عليها هذا الانفاق طلاوة ولا جدة ، فلم يقع اتفاق بيننـا .

واجتمعت بعزمي بك في الآستانـة ، بعـد ان تنحى عن ولايته ــ وكان من اذكياء الاتحاديين ، يغلب عليه الجدّ ، ويحرص على انهاض المسلمين ــ فقال لي إنه آسف ، لاني لم اجب طلبه الى تأليف كتاب عن سورية الداخلية ، فاجبته وانا كذلك آسف لعدم انفاذ امرك . انت استكثرت المبلغ الذي طلبته ، مع انه دون ما صرفت ، وما كنت اتوقع من ذلك تجارة اتربح بهـا ، وربما لم تنس كيف وصلت الى تلك المواد التي جنيتها بالمجهود العظيم، ثم خاطبته متهكماً: هل ألفت يا سيدي كتاباً قط ؟ قال : لا ، قلت : اذاً هذه صناعتي ، وانت اسمح لي ان اقول لك انك لا تميز بين المؤلفين وما يؤلفون . قلت لي : انك انفقت على ما ألف لك لولاية بيروت مبلغاً زهيداً على التاليف والترجمـة ، وتقترح ان اجري على ما جرى عليـه غيري ، وربما كان بعضهم يكتب لك هذا بدون اجر ، لانه لم ينفق قرشاً على موضوعه من قبل ، ولا استعد له وهو منـه خالي الذهن ، ويتطال في هـذه الحرب الزبون ان يصون نفسه عن الدخول في الجنـدية ، ويتخذ من انقطاعه الى التاليف حجة لاعفائه منهـا ، والاروح لنفسه ان يكتب كتـاباً ، وما كتب حياته كتابا ولا رسالة ، وهو جالس في حجرته ياكل الاكل الجيـد ، ويلبس اللباس الجيـد ، وينام النـوم الهادىء ، على فراش وثير ، بعيداً عن الخطر في سـاحات الوغى .

وقلت له : ان من طبعي ألاّ أهين العلم ، وما سبق لي ان اسقطت قيمته ، بـل رفعت من شانـه ما استطعت ، ولقـد انفقت في سبيل التعلم اولاً ، ثم التعليم ثانيـا ، ثم نشر ما علمت ثالثا ، نفقات لم ينفقها فيما احسب انسان ممن عرفت من ابناء وطني، وارجو الاّ تعد ذلك تبجحاً ، وان توقن ان هذا هو الحق . وبذلك لا اواخـذ على رفض طلبك ، وطلبك ما كنت اعده تفضلاً عليّ ، بل سخرة من سخرات الحرب الممقوتة ، حمدت الله على ان نجوت منهـا .

وكان عزمي بك يحاذرني ويعتقد اني من جماعة جمال باشا ! واذكر اني كتبت مقالات في الحملة على المحتكرين البيروتيين في جريدة الشرق ، فما وسعه الا ان شكرني عليها ، واستزادني منها ، وان كانت ضمنا موجهة اليـه ، وتشير من طرف خفي الى انه ضعيف الادارة ، يتلاعب المحتكرون بالأسواق ، وهو ساكت لا يبـدي ولا يعيـد .

واذا صحّ ان يكون لي تاليف زمـن الحـرب الكبرى ، فكتابان من كتب الدعاية : احدهما رحلة الوفد الشامي الى الآستانة وجناق قلعه ، والثـاني رحلـة انور باشا الى المدينـة ، وهما كتابان كتبتهما وطبعتهما على نفقة الجيش ، وانا غير راض عن اكثر ما فيهما ، وهما كتابان لغيري لا لي ، وفيهما صورة من سياسة تلك الأعوام، وما كتبه الكاتبون والشعراء في معاونة الدولة العثمانية ، وهي في احرج اوقاتها. وبحثت في الحرب في عدة خزائن عن الكتب النادرة، ولا سيما خزائن دا رالسلطنة ، فالتقطت منها فوائد عظيمـة .

وبعد الحرب عاد السيدان خليل مردم ، وبدر الداغستاني ، وقـد فجعنا بحبيبنا عثمان بك يحثان على نشر (خطط الشام) ويسهلان عليَّ امر طبعـه ، وانا أحجم مخافة ان انكب بطبعه اذا طبعته على نفقتي كما نكبت بتاليفه . فاستقر الراي على تأليف لجنة مـن أصدقائي : خليـل مردم ، بدر الداغستاني ،



فوزي الغزي ، فخري البارودي ، لطفي الحفار ، سامي العظم . جمعت نفقات طبع الكتاب بالاشتراك، فورد عليها من اشتراكات الشام ومصر وغيرهما ما طبعت به الأجزاء الستة ، اي نحو الف ليرة عثمانية ذهبية . وندر طبع كتاب في الشام على هذه الصورة، ودلّ طبعه على روح التساند بين ابناء الوطن الواحد ، وكان من النادر ان يثق القوم بانجاز كتب تطبع بالاكتتاب ، وايقنوا لثقتهم بهذه اللجنة ان الكتاب يطبع لا محالة ، فدفعوا الاشتراكات عن طيب خاطر . طبع من الكتاب الفان ، وما بقي من نسخه بعد الاشتراكات ، وهي نحو الف نسخة أهديت منها للمجامع العلمية والخزائن العامة والمجلات والاصحاب والفقراء نحو ثلاثمائة نسخة ، وبيع الباقي ، ولم يرد عليّ من ربع الكتاب مائتا ليرة ، اي نحو ثمن ما انفقت على تأليفه ، وعلى ثلاث رحلات رحلتها الى اوربا ، وعلى شراء الكتب النادرة ، واشتغلت خمسا وعشرين سنة مغتبطاً بوضع كتاب كبير في تاريخ بلادي وحضارتها ، قراه قومي وتعلموا فيه تاريخهم ، واصبح مرجعا للباحثين من العرب والأفرنج .

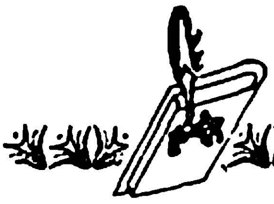
كان صديقي الأستاذ عارف النكدي يستبعد وضع تاريخ الديار الشامية ويقول ، انه ضائع في تضاعيف التواريخ العامة، مندمج فيها، فمن الصعب استخراجه ، ولما انتشر الكتاب وراى توفيقي في وضعه ، أعجب مما وقفت اليه ، فطلبت منه ان يكتب نقده في التأليف الجديد في مجلة المجمع العلمي العربي ، فكان ينتقد كل جزء عند صدوره ، وانتفعت ببعض نقداته ، ونشرتها في آخر الكتاب ، أسوة ما جاءني من نقد الباحثين والعلماء. ولم انشر تقريظاً مع ان التقاريظ التي كتبت في الكتاب غير قليلة . ومن طبعي ان يتدرب الناس على حب النقد للفائدة المتوقعة منه ، للمؤلف وللناس وللعلم . ولذلك لم انشر في كتبي قط ولا في المجلات والجرائد التي كتبتها تقريظاً ، او شيئاً يشبه المدح في عملي ، بل كنت انشر النقد فقط . وهذا ما كان صديقي العلاّمة الأب انستاس ماري الكرملي يستغربه مني ، ولطالما قال لي انه ما راى مؤلفاً في الشرق يتطلب النقد تطلباً وينشره .

نشرت (خطط الشام) في دمشق ، وكنت افضل طبعها في مصر ، لعلمي بأن الكتاب الصادر عن القطر المصري يلقى قبولاً في العالم العربي ، لا يكون مثله لكتاب يطبع في الأقطار العربية الأخرى ، وعاقت عن طبعه في وادي النيل مسألة التصحيح ، ومن الصعب ان اقضي فيه اشهراً للنظر في تجارب الطبع .

وطبعت في القاهرة كتابي (غرائب الغرب) وكانت الطبعة الأولى منه في دمشق ، وزادت هذه الغرائب ضعفين في الطبعة الثانية ، وهو في مجلدين فيهما ما كتبته في المقتبس من مقالات في وصف المدنية الاوربية ، ومنها مقالات ايطاليا وسويسرا ، كتبتها في لوزان في ايام قليلة ، وكنت اكتب ثلاثاً او اربعاً منها في الجلسة الواحدة ، وتدخل كل مقالة في نحو خمسة اعمدة في الجريدة ، وكتبت بنشاط غريب ، وقلما كنت أعاود النظر فيها ثانية . ووقع لي مثل هذه السرعة في الكتابة في مصر ، وقد قضيت فيها مدة ستة اشهر ، والحكومة تنظر في قضية سياسية على المقتبس بدمشق . وصدرت الجريدة خلال تلك المدة ، وكان لزاماً عليَّ ان اكتب على الأقل مقالاتها الافتتاحية ، فكنت اجمع في ذهني الموضوعات التي اريد معالجتها ، واجلس يوم البريد صباحاً الى مكتبي فأكتب حتى الظهر ست مقالات افتتاحية دفعة واحدة ، وارسلها لتنشر في جريدتي على اسبوع .

وكثيراً ما كنت اقضي أشهراً لا تنشط نفسي لكتابة شيء ، وقد اكتب في شهر واحد ما لا يخرج من قلمي في سنة . وقلما كتبت غير كتابة الهواة ، وما اضطررت الى الكتابة التجارية الا في الصحف السياسية على الأغلب . ولهذا النشاط والفتور عوامل نفسية كثيرة يعرفها من يكتب ويؤلف . وقد لاحظ بعض العارفين ان كتابي « غرائب الغرب » (الطبعة الأولى منه) كان في اوله رائقاً ، وفي نصفه الأخير جافاً . والسبب في ذلك ان الجزء الأول من هذا الكتاب كتب في بيئة حافلة بالمسرات ، كتب في باريز في غفلة الدهر ، والقسم الثاني كتب في داري القديمة في دمشق ، وكنت اذا احببت ان اسرح نظري لا اجد امامي غير جدار من الطين لا جمال فيه ، ولا شيء مما ينعش الروح والصدر .

دعيت الى مؤتمر المستشرقين في ليدن من بلاد القاع في صيف سنة ١٩٣١ ، وسألت رصفائي اعضاء المجمع العلمي العربي عن الموضوع الذي يرون ان اخوض فيه هناك ، وقلت لهم ان كل عضو لا يسمح له الكلام اكثر من عشرين دقيقة ، على ما رايت في مؤتمر المستشرقين في اكسفورد سنة ١٩٢٨ ، وقد تكلمت فيه على نهضة العربية الأخيرة ، وتعاون العرب والمستعربين على النهوض بها ، وعلى



نشر دفائنها المخطوطة . فقال احد الاعضاء صديقي الدكتور اسعد الحكيم : قل لهم ان الاسلام اصبح معروفا عند الأمم بما نقل الى لغاتهم من كتبه ، فليس من اللائق بعد الآن ببعض المؤلفين ان يطلقوا السنتهم فيه بما لا يليق ، ولا ان يطعن بالمسلمين والعرب الطعن الذي لم ينشأ الا عن احقاد قديمة وتعصبات رديئة . فقال الأعضاء : هذا هو الموضوع. وقلت لهم : ليتني كنت قيدت اشياء عرضت لي ولها صله بما نريد، فقالوا: تكلم بقدر ما عندك من المادة، ولا يطلب منك الزيادة . فاخذت بدرس الموضوع درساً خفيفاً لأكتب فيه سبع صفحات. ولما ازمعت الرحيل حددت الحكومة لي مدة الرحلة اربعين يوما فاستقللتها، وعدلت من تلقاء نفسي عن السفر ، وفرح رئيس الوزراء لأنه كان يود ان يذهب الى باريز ، وكذلك وزير المالية . فابت المفوضية ان تجيبهما الى رغبتهما اذ لا غاية ترجى من سياحتهما .

ولما عدلت عن الذهاب الى ليدن انصرفت الى درس الموضوع الذي اقترح عليّ ان اعرض له في جلسات المؤتمر ، واتفق ان تركت الوزارة بعد حين فسيطرت على وقتي كما اشتهي ، وما زال الأفق يتسع ويمتد ، وانا تحدثني نفسي اني سآخذ مما كتبت محاضرات للمجمع العلمي حتى كتبت اكثر من تسعمائة صفحة ، كان منها « كتاب الاسلام والحضارة العربية » طبع في مجلدين في مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة ، على نفقة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، وقد سلخت في تأليفه ثلاث سنين لم انقطع فيها يوماً واحداً عن التأليف ، ومدة اشتغالي كل يوم ثماني ساعات فاكثر . وشاهدت تيسيراً في التقاط مادته ما وقع لي في تأليف كتاب غيره . فكنت اذكر ما تلوته من ثلاثين او اربعين سنة في هذا المبحث او المباحث فأسقط في الحال على ما اتوخى ، وقرات ورجعت الى اكثر من خمسمائة مصنف باللغات الثلاث وقال بعض العارفين انه اجود كتبي تأليفاً ، وذلك لأن موضوعه عام جذاب ، يحتاج الى الرجوع اليه الموافق والمخالف . والكبير والصغير ، والعربي والأفرنجي . ومما كتب اليَّ الأمير شكيب ارسلان فيه : « انا معتقد انك وفقت فيه توفيقاً كبيراً ، وانه خير ما كتبت ، بل من خير ما اخرج من الكتب في هذا العصر ، ولعمري ان هذا الموضوع كان يعوزه كتاب جامع محيط باطرافه كهذا الكتاب سدَّ هذا العوز ، وكفى الناس مؤونة نشدان الأدلة من هنا ومن هنالك ومن هناك . الى ان قال : ولذلك مست الحاجة الى وضع كتاب يضيق معه مجال المغالطة في فضل العرب، ويأخذ على المكابرين او المتجاهلين افواه الطرق ، فكان هذا الكتاب الذي ارجوه ان ينقل الى لغة مشهورة من اللغات الأوربية ، فاننا في حاجة الى ان يعلموا هم عنا اكثر مما نحن في حاجة الى ان نعلم نحن عن انفسنا » .

وكتاب « الاسلام والحضارة العربية » صورة من حالة العرب قبل الاسلام ، وحالتهم بعده ، فيه اشارات الى تاثيرات الاسلام ولغته في الاقطار المغلوبة، ومناقشة من نالوا من الاسلام والعرب وكتبوا فيهما بالهوى ، والاستدلال على نقض اقوالهم بكلام علماء منهم تخلموا نازعين ربقة التعصب الديني . وقد رددت فيه امهات الشبه التي اوردها الشعوبيون اعداء العرب والاسلام ، وعرضته لما اثر الاسلام في اوربا من طريق الأندلس وصقلية ، وما كان من الخير لهاتين الجزيرتين وما والاهما من حضارة العرب ، وعرضت ما كان من تخريب التتار من الشرق والبربر والصليبيين من الغرب في كيان العرب والاسلام ، وما كان من غارات المستعمرين على ديار الاسلام والشرق عامة ؛ وما اخذه الأفرنج من علوم العرب ، وما اخذه هؤلاء عن الأمم الحديثة لما حاولوا النهوض في العصر الماضي ، وذكرت ما اتى به الاسلام من علوم خاصة به ، وما عبث به العابثون في هذا الشأن في العصور التالية ، مما كان فيه تدلي اهله . وافضت في سياسة الأمة العربية والأمم التي خلفتها كالترك والبربر والشراكسة والأكراد والفرس والهنود . وتوسعت في ادارة الحكومات التي توالت على ارض المسلمين من عهد صاحب الشريعة عليه الصلاة والسلام الى يوم الناس هذا. فكان من هذين الفصلين الأخيرين موجز من تاريخنا فيه زبدة ما يجب حفظه من تاريخ الاسلام والعرب .

وحاضرت ببعض فصول هذا الكتاب في الادارة الاسلامية في دار الجمعية الجغرافية الملكية بمصر ، فتصدت السيدة قوت هانم الدمرداشية في مصر لطبعها فطبعتها باسم «الادارة الاسلامية في عز العرب» وهذه المحاضرات دخلت منقحة في الكتاب وهي مقتطعة منه عندما كان تحت الطبع . كما فعل طابع كتابي « غرائب الغرب » اقتطع منه مقالات « غابر الأندلس وحاضرها » ونشرها على حدة بعد نشرها في « غرائب الغرب » وكذلك رسالة « الحكومة المصرية في الشام » فانها محاضرة دخلت في كتابي « خطط الشام » .

وقضيت عاماً وبعض عام في وضع كتاب (امراء البيان) وكنت كتبت بعض فصول منه حاضرت بها في



ردهة المجمع العلمي ، ونشرتها في مجلته ، ثم رجعت اليها وحذفت منها وزدت . وهذا الكتاب من الكتب التي جمعت مادته في نحو عشرين سنة ، اي منذ تخيلت موضوعه . وجاء في مجلدين ايضاً ، وطبعته كصنوه لجنة التاليف في مطبعتها بالقاهرة ، وكان الداعي الأكبر الى تاليفه بيان فضل المنشئين على البلاغة وعلى الأفكار ، وذلك على الطريقة الغربية الحديثة في التحليل والنقد . هذا بعد ان رايت المؤلفين من القديم يعنون بالشعر والشعراء فقط ، ولم يعنوا العناية المطلوبة بالكتابة والكتاب ، وهم الذين خلفوا لنا مؤلفاتهم ورسائلهم ، وعلمونا اكثر من الشعراء . والشعراء على الأغلب ما عرفوا غير المديح والهجاء والرثاء والاستجداء ، وزادوا الناس من بضاعة الكذب ، وعلموهم المبالغات والغلو . وهذا الكتاب تقرر في دراسة السنة الخامسة التوجيهية في المدارس المصرية العالية ، وكان بذلك اول كتاب عربي لمؤلف غير مصري الجنسية يدرس في وادي النيل على ما اظن ، وكذلك درس في كلية الآداب كتاب الاسلام والحضارة العربية.

وفي خلال هذه الفترة نظرت نظرة ثانية في ترجمة (تاريخ الحضارة) وكنت نشرته تباعاً في المجلة واخرجت منه الجزء الأول (١٩٠٨) واتممت ترجمة الجزءين الأخيرين منه ولم يطبعا ، كما لم يطبع كتاب محاضراتي الأخيرة في مصر والشام ، وهي تبلغ نحو ثمانين محاضرة . وكتبت جانباً من (كنوز الأجداد) ولم اتمه. واحييت بالطبع كتاب سيرة احمد بن طولون للبلوي من اهل القرن الرابع ، وعلقت عليه شروحاً وتقاييد ، وطبعته في دمشق . وبهذا الكتاب تجلت لنا نواح كانت غامضة من سيرة هذا الرجل العظيم، ومن تاريخ مصر والشام في القرن الثالث وما اليهما، من علاقة مصر ببغداد ، والخلافة العباسية يومئذ ، وفيه قصص جميلة يتمثل بها ابن طولون للاعين بادارته وسياسته ، وذكائه ودهائه ، ولينه وشدته . وقال صديقي العلامة كرتكو : « ان هذا الكتاب فتح باباً جديداً لمعرفة ذاك الدور الطولوني العظيم الذي تقل الأخبار الأكيدة عنه ، لأن الطبري على جلالة قدره في التاريخ ، كان على ما يظهر مقلاً من حوادث مصر والشام في عهده » .

ومن التآليف التي وضعتها زمن الحرب الأخيرة ولا تزال في المخطوطة كتاب المذكرات ، وكتاب سميته اقوالنا وافعالنا (طبع في مصر) وهو في بعض مشاكلنا الاجتماعية والسياسية . وكتاب المذكرات اشبه بجريدة يومية ، وكتاب الأقوال والأفعال يشبه مقالات المجلات العلمية ، وفيه ما طرأ عليّ منذ وعيت الى الآن . كان الفضل في تاليفه لصديقي عالم تونس سيدي حسن حسني عبدالوهاب ، ولطالما حثني على تدوين ما كنت اقص عليه مما وقع لي ، ويقول ان في تدوينها كل فائدة لقراء العربية . وعنيت بتاريخ حكماء الاسلام للبيهقي علقت عليه وخدمته (طبع) ، ومن التآليف التي وضعت بعض اقسامها وهيأت لها موادها « معجم القرى الشامية » ثم مللت منه ولم اتمه بعد ان اضعت فيه وقتاً ، وهو كتاب مفيد ، لكنني اصبحت احب ان اكتب ما فيه فكر اكثر من الكتب التي لا يتطلب فيها غير تصحيح النقل ، وقد مزقت الجزازات التي اتممتها منه حتى لا اعود الى البحث فيه ، واقترح عليّ في خريف سنة ١٩٤٣ ان اكتب لسلسلة اقرا مختصراً في وصف مدينة دمشق وتاريخها واقتصادياتها وغوطتها ، فكتبته في ١٥٠ صفحة صغيرة . ونشرت كتاب المستجاد في فعلات الاجواد للقاضي التنوخي ، وانا اعد للطبع كتاب (البيزرة) لبازيار العزيز بالله الفاطمي . وطبعت كتاب الأشربة لابن قتيبة ، وعلقت عليه ، وعنيت بوضع تاريخ غوطة دمشق ، مزجت فيه الزراعة والادارة والأدب ، وهو يطبع الآن في جملة ما يطبعه المجمع العلمي العربي من مطبوعاته .

هذه تآليفي والدواعي الى وضعها ، ولو كنت خصصت اوقاتي كلها للتاليف ، ولم اصرف أعواماً في السياسة ، لكانت مجموعة ما كتبت اكثر ولو كنت احسن الدعاية لتآليفي لصادفت رواجاً اكثر مما صادفت ، ومع هذا انتشرت في اقطار بعيدة ما كان يجول في الخاطر انها وصلت اليها . والعزاء الوحيد في الكتب ان لها قراء في الأمصار تتناولها السنة بعد السنة اذا كانت مفيدة وصالحة للبقاء ، وربما كانت شهرتها بعد مؤلفها اكثر من شهرتها في حياته. وبعد ذهاب المؤلف من الارض يقدر بقيمته الحقيقية. ورجائي ان يكون ما كتبت خالصاً لخدمة الأمة العربية، والا يكون ما خطته يميني مما يسود الوجه يوم تبيض وجوه وتسود وجوه .

★ ★ ★

مساهمة اتحاد الكتاب اللبنانيين لمجلة اتحاد الكتاب والأدباء في محورها الخاص عن « الأمير شكيب ارسلان » .

الراهنية

في فكر الأمير شكيب أرسلان السياسي

سليمان تقي الدين

... لأن ((ما كان من صنع العقل غدا ((مخالفاً)) للعقل ، وما كان نعمة غدا ((عذاباً)))) (غوته) ، يمثل فكر الأمير شكيب ارسلان السياسي لاعادة محاكمة نقدية تاريخية يفترضها او يبررها قصور الادعاء الأصلي عن الاحاطة بظروف القضية وملابساتها ويستنطق الحاضر السياسي فيها كشاهد عيان .

ليس صدفة ابداً ان يغيب ذكر الأمير شكيب ارسلان في الزمن الذي ساد التوهم فيه ان حضارة الغرب تجتاح الشرق الراكد فيأخذ قانون الاصطفاء الطبيعي مجراه على الكون البشري فتنحسر عن الشرق وطأة «الاستبداد» ! او يوم كانت الكوسموبوليتية(١) مرادفاً موهوماً للدخول في عصر التاريخ العالمي الواحد الموحد فتحقق الرأسمالية الجامحة رسالة العقلانية الغربية في العالم،.. او يوم كان «التأورب» طريق العالم الوحيد للمرور «بالمحرقة الثورية» ! (٢)

كما ليس صدفة ان يستحضر هذا الفكر (ارسلان) زمن يعلن فيه شاعر حداثة عريق مع هبوب رياح الشرق الدافئة من جديد «وجهك يا غرب مات» (ادونيس) .

. . . . . .

لا شك ان هيغل كان محقاً ان يرى المؤرخ المفكر يقرأ نهايات حاضره في الماضي(٣) . لأننا ما زلنا في ((زمن الثورات التي تستعير شعارها من الماضي فتعود الدولة الى اقدم اشكالها البدائية ولا يظفر المجتمع لنفسه بمحتوى جديد(٤) . ودولة الشرق المشادة في عصر الامبريالية الظافرة بحجر ملون ، لم تبق على ازدواجية الانسان بوصفه كائناً اجتماعياً فرداً ومواطناً بنفس الوقت ، لتقوم تجاهه مقام الإلهي او تختزله ، بل انها دولة ((تختلط فيها الأرض بالسماء))(٥) على صورة ومثال المجتمع الذي انبثقت منه(٦) . وتركز سلطانها على تخوم علاقاته الاجتماعية وليس في قلبها .

. . . . . .

منذ اقتحام جيش نابوليون في مطلع القرن التاسع عشر (١٧٩٨-١٨٠١) ارض مصر وبلاد الشام وتداعي الهجوم الأوروبي الغربي على عرين الأسد العثماني العجوز و ((المسالة الشرقية)) مطروحة بحدة وباستمرار لكنها مطروحة ((كمسالة شرقية)) من باب التقليد والعادة ، في حين انها باتت مسالة ((غربية)) بالقياس الى انقلاب الدور التاريخي .



كانت دوافع المسألة الشرقية حتى القرن الثامن عشر تكمن في « الصاعقة العثمانية » التي اشاعت الرعب في اوروبا كلها وغرست قوة الاسلام السياسية في جسم اوروبا الحي(٧) . فيصف فريدريك هرتز سيطرة الأتراك على القسطنطينية وعلى جزء من شرق اوروبا بانه كارثة من اكبر كوارث التاريخ » ويرى ان معظم الصراعات القديمة التي اقلقت السلام في اوروبا ترتبت على قيام الامبراطورية العثمانية وانهيارها(٨). وكثيراً ما اثيرت فكرة التضامن بين جميع الأقطار الأوروبية بخاصة في مواجهة الخطر التركي(٩) .

لكن المسألة الشرقية منذ مطلع القرن التاسع عشر باتت تعني بالنسبة للدولة العثمانية على حد تعبير المنشور السلطاني الداعي للجهاد الديني في وجه غزوة نابوليون تهديد قوة الاسلام والقضاء عليه وامحاء قواعده ورسومه واقتسام دياره واملاكه(١٠).

على كل حال كان التاريخ العالمي يجدد ثنائية الشرق والغرب ـ الاسلام والمسيحية ، ويغذي الفكرة الدينية التي وصفها فوستل دي كولانج بانها « المبدأ الملهم والمنظم للمجتمع(١١) ولا سيما في اطار صراع الامبراطوريات القديمة والحديثة على الهيمنة العالمية(١٢) .

كان الدين كممارسة اجتماعية « يقولب ملايين البشر ويضبطها في نظام معين يطال حياتها وموتها وتقاليدها اليومية ، كما يقول غبزيل لوبرا . وكانت الحكومات تدرك قيمة هذا « الشرطي » وتوظفه افضل توظيف(١٣) . وعلى الدوام اقترن الدين بنزعة الى التخصيص اباح لرعاياه فيها قيماً وحقوقاً لا يبيحها لمخالفيه ، الى حد اعتباره ان نهب أمة غريبة لا يعد عملاً جائراً بل فريضة إلهية صريحة(١٤) . وشكل باستمرار ناظماً جماعياً ومعبراً عن مصالح اجتماعية وقومية ومحدداً اساسياً لهويتها(١٥) .

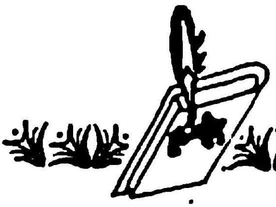
وكان البابوات لأمد طويل من الزمن من اشد المتحمسين للحملات الاستعمارية الكبرى . منذ الحملات الصليبية وصاعداً . وكان الملوك يجمعون باستمرار بين الفتح والتبشير الانجيلي ، واقترنت هذه وتلك بنزعة التفوق الأوروبية(١٦) التي استمرت الى ما قبل « اللينينية » تطبع الفكر التقدمي الغربي وتتسلل الى الماركسية نفسها من مصادرها الثقافية عن الشرق .

من هنا لم تكن هذه الثنائية (الغرب والشرق ـ الاسلام والمسيحية) تعني تجاوراً بين مجتمعين منفصلين متصارعين او متنافسين في فراغ عازل لآثار الخصومة على بنى تلك المجتمعات ، كما لم تكن تعني اندماجاً يؤدي الى تماثل او تطابق كما اراد بعض مثقفي عصر النهضة العربية وتمنوا ، او كما رفض بعضهم وصد خوفاً من تبديد الهوية في الانسجام ،ومن هؤلاء الأخيرين الأمير شكيب ارسلان(١٧) .

كانت هذه الثنائية وما تزال تجدد قسمة التاريخ العالمي الى تاريخين اوربي او غربي ، تتكشف حضارته تجاه الآخر عن بربرية ، وشرقي او اسلامي ، تشكل عوامل تقليديته عناصر مقاومة للسيطرة الامبريالية بالمعنى الذي وصف فيه لينين « اوروبا بالمتأخرة وآسيا بالمتقدمة »(١٨) .

ففي هذه الثنائية العالمية تنجلي نزعة «تحضير» العالم بادخاله لجهة الراسمالية ـ كما كانت المزاعم ـ عن كوسموبوليتية تجعل العالم واحداً كمدى حيوي للاستغلال الامبريالي (المركز) عبر وحدة السوق . وتشكل حاجزاً منيعاً في وجه الأممية العالمية التي لا تقوم بغير امم حرة متساوية متكافئة . لذا كانت اللينينية واسطة الماركسية الى الشرق بتاكيدها فكرة « الأمم الظالمة والأمم المظلومة » كعنصر رئيسي في الصراع العالمي واطلقت شعارها المعروف « يا عمال العالم وشعوبه المضطهدة اتحدوا » الذي اجتمعت من حوله مؤتمرات شعوب الشرق في الاتحاد السوفياتي والتقت راية الشيوعية مع راية الاسلام المكافح ضد النهب والسيطرة الامبرياليين . ومن بين ممثلي الشرق والاسلام المكافح كان الأمير شكيب ارسلان .

ان الانطلاق من « تقليدية « المجتمعات الشرقية كعامل مقاومة ثوري للهيمنة الامبريالية هو ما كانت له بذور في الماركسية الأوروبية نفسها لدى اتصالها الحي بمشكلات الشرق كما تتجلى في المراسلات حول روسيا(٢٠) . وكان تطورها النوعي من لينين . كما ان ماركس تترى مسلم معاصر للينين هو سلطان عليف كان قد ذهب في تشديده على مفهوم « الأمم الفقيرة » وعلى القيمة الثورية لعناصر تماسكها



التقليدية الى الحد الأقصى ، متجاوزاً حتى مفهوم لينين عن تبرجز البروليتاريا الأوروبية واثره في تعزيز اتجاهات الحروب الامبريالية والقومية(٢١) .

ففي تضاعيف هذه الثنائية العالمية تنتصب باستمرار وتتجدد كل عوامل التخصيص والهوية والذاتية وتستحضر عناصر اخصابها لمقاومة التهجين والتشويه الامبريالي الطارىء والدخيل والغازي والمتغلب . وهنا بالذات يتبدى ان النظرتين التي انشق عنهما العقل الشرقي ـ العربي في مواجهة الغرب لم يصمدا للتاريخ . فالتماثل ليس قدر الالتقاء الالحاقي ، وليس هو بحاصل كي يطلب او يرد .

الم يكن حوار الفكر العربي قائماً بين تيار يحاول تمثل نتاج الغرب واعادة اكتشافه في الأصالة والموروث كما يفعل الأمير شكيب ارسلان وغيره كثيرون في تأويل الاسلام بموازاة عناصر قوة الغرب(٢٢) ، منتضياً عوامل وحدة المجتمع الغالبة (الاسلامية) (والتي على ايه حال لا بد لها من استثناء العناصر المغايرة)(٢٣) وتيار يدعو الى القطيعة مع الماضي بشكل عام أو رد ايجابيات الماضي الى اتصال ما بالغرب كما كانت حال الاتجاهات القومية الفرعونية والفينيقية المتوسطيتين سواء جاءت على لسان مثقف مسلم كطه حسين او قبطي كسلامة موسى او لدى تيارات الفكر السياسي اللبناني كميشال شيحا وسواه .

ينجلي هذا الاختلاف عن غرب هو الذي يحدد على صعيدي الانتاج المادي والمعنوي ما هو بضاعة قابلة للتصدير وما هو اداة الانتاج المادية والمعنوية او عقلها ، وهو غير قابل للتصدير . وفي سياسة فرنسا العلمانية في الداخل والتبشيرية الدينية في الخارج ما يجعل الأمير شكيب يشهره حجة في وجه القوميين العلمانيين(٢٤) . ونبقى ازاء الغرب على « مسافة تاريخية » يحددها هو في الغالب ، وعلى اقتباس لاشكال وعيه المتخطات كما يقول عبدالله العروي(٢٥) . ولا اخلص من هذا كله للايحاء بأن التاريخ يراوح عند المسائل التي طرحها الفكر العربي ـ وكانت مطروحة في كل مكان تقريباً واجهت فيه المجتمعات تحدي خلخلة بناها وتلاحمها او اثبات هويتها . بل لا قول مع عبدالله العروي ، ان الفكر نادراً ما يتجدد الا ما تأمل في السياسة المعاصرة(٢٦) . هذه السياسة التي تدهم مرة اخرى الفكر العربي وتلح مسائلة اياه عن عناصر وحدته وقوته وهويته . وليس ادعى من هذا السياق لاستعادة نشيد (غوته) : « وحده يستحق الحرية والحياة من يستطيع ان يكسبهما في معركة تتكرر كل يوم » .

فهذا الهزيع الأخير من القرن العشرين يحفل بحزكات دينية وقومية وبتجديد الحديث عن طريق « شرقي » ليهز احساساً عاماً ـ سوّدته بلادة سياسية ـ كان واهماً ان الطريق الراسمالي ـ اقتصاداً وسياسة ومؤسسات ـ قد انفرز تحت الجلد وفي العظم واختلط بالدم ولم يعد « شعوبياً » أو « اعجمياً » أو « مستورداً » . واذا بهذا الحس العام يفاجأ بانه لا يمكن تغيير نظام المجتمع بنفس السهولة التي يمكن معها استبدال القوس والنشاب بالمدفعية . وان الدولة التي تشد اجزاء الأمة الى بعضها وتسورها بالقشرة قد ظلت « دولة مضافة الى الأمة وليست دولة الأمة »(٢٧) .

واذا كان هيغل يعتقد بان دولة المجتمع البرجوازي تحقق الإلهي والعقلي بصفاء القسيمة بين السياسة والمجتمع وبسيادة الدولة ، في حين رأى ماركس ان التحرر الانساني لا يتحقق الا حين لا تعود قوى الانسان الاجتماعية مفصولة عنه كقوة سياسية غريبة ، اي حين يمتص الاجتماعي السياسي ويلغيه(٢٨) . فدولة « الشرق » لم تحتكر لنفسها ما هو سياسي في العلاقات الاجتماعية محررة المجتمع القديم من طابعه السياسي المباشر وعناصر الدولة فيه(٢٩) بل ابقت على السياسة اذا جاز التعبير قطاعاً مختلطاً .

كانت الامبراطورية العثمانية المتشكلة من حول نخبة عسكرية حربية فتية وفاعلة ، دولة مركزية من حيث الشكل ، عمادها الجيش والبيروقراطية(٣٠) واقتصادها التجارة والنهب والقرصنة، غلافاً شفافاً لتجزئة تقوم على نظام من الاقطاع العسكري يتحصن ويترسخ وراء تخلف المواصلات(٣١) وتفتت السوق، وتعدد مراكز الحكم ، وعدم تجانس في التكوين الاجتماعي والسياسي . تعزز بذلك التفاوت الاجتماعي في التطور وحفزه في قنوات اقليمية وطائفية وقومية وسمح لحيز وافر من الاستقلال السياسي ان يتحول الى مشاريع انفصالية ، وكانت ركيزة هذا التفاوت شبكة من متعهدي الضرائب ، تنامى دور العصبيات

المحلية فيها ، وسلطات كاسحة للأمراء والاقطاع ،واستقلال ذاتي جوهري للملل التي قاربت ان توافق الجماعات الاثنيـة(٣٢) .

كان المجتمع العثماني اشبه بهيئات اقليميةتربطها الانساب وتمتد جذورها في آلاف المراكز المنعزلة ، ومعظمها في القرى والوحدات يحظى باكتفاءذاتي ديني اجتماعي اقتصادي وسياسي(٣٣) . وقامت سياسة الأتراك على استيفاء الخراج والموازنةالقلقة بين الأتباع والترخيص باستثمار الأرض(٣٤) . والتسلط على القيمة الزائدة للتجار المحليين والانتقامالسياسي بتدمير قوى الانتاج بالهدم والاحراق(٣٥) واعطاء امتيازات وبراءات للأجانب والتخليالتدريجيعن ميدان التجارة والسيطرة على البحار والممرات الدولية الى اسلوب استنزاف القوى المنتجة المحلية،وتولى الأجانب السيطرة على الاقتصاد الحديث(٣٦). واحتكار العنصر التركي للبيروقراطية والجيشواقصاءفعاليات الشعوب الأخرى عن المشاركة في السلطة فتتضاعف عوامل النبذ القومي .

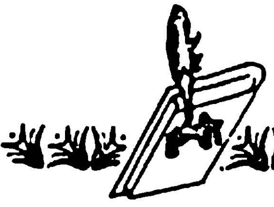
يتصدع المجتمع العثماني منذ مطلع القرنالتاسع عشر ، وتلعب الضغوط الأوروبية بداية في الميدان الاوروبي الشرقي من الدولة ثم في آسيا وافريقيا مـع حملة نابوليون وتبرز حركةالتجديد العثمانيةـالاسلامية في الحركات الدينية كالوهابية أواخر القرن الثامنعشراو الحركات التي تناسلت آنذاك كالمهدية في السودان (١٨٨٠ ـ ١٨٨٥) والانتفاضة الفلاحية في مصر عام١٨٢٢ والبهائية (١٨١٧ـ١٨٩٢) والبابيةوالسنوسية والادريسية في المغرب والحركات الفلاحية في بلادالشام واصطراع الأقليات الطائفية(٣٧) وفي الطرق الصوفية واخيراً في حركة محمد علي باشا وفتوحهالشام او في حركة التنظيمات في ثلاثينات القرن ١٩ . (٣٨) .

لكن من بين جميع هذه الحركات والتياراتيشكل مشروع محمد علي في مصر وسورية المخطط الملموس الفعلي لتجديد تركيا تحاشياً لسياسةالتقسيم التدريجية التي كانت اوروبا المسيحية تريدها وتشرع في تنفيذها(٣٩) . فالأجوبة عديدةومتباينة على التحدي الذي تطرحه المقارنة بين واقع الامبراطورية العثمانية وصيرورة النفوذ والسيطرةالغربيين . لكن التباين بين الأجوبة المذكورة اعلاه على اهميته بفعل التكوين والموقع الاجتماعي والجغرافيالمختلف ، يندرج في تيار المقاومة الاسلامي لمحاولات تفكيك المجتمع العثماني وتنفرد حركة محمد عليبوصفها الامكان الفعلي آنذاك لتجديد الدولة الشرقية العثمانية ـ الاسلامية واقامة خلافة اسلاميةمكانها(٤٠) «باستبدال العمامة الفاخرة براس كبير» .

عشية انتقال مشروع السيطرة المباشرة علىالدولة العثمانية الى جدول الأعمال ، كان المجتمع العثماني قد اسس في رحم نظامه ادارات سلطوية شبهمدنية من بيروقراطية مركبة من ملاك الأرض الجدد والتجارة ومن فئات اجتماعية حديثة الانتماء الىالموقع السلطوي بارتقائها الاجتماعي من خلال ارتباطها بالاقتصاد الحديث والغربي ، غير منسجمة التكوينالاجتماعي والسياسي والثقافي(٤١). شكلت تلك الفئات ركيزة المشاريع الانفصالية المنسقة مع المشروعالاستعماري . واذا كانت بوادر معارضتها قد تركزت على رفض السيطرة العثمانية لم تكن موحدة فيتصورهاللمشروع السياسي المستقل . بل ان تجزئة المشاريع السياسية التخريبية التي كانت قائمة آنذاك امتصتها التكوينات الاجتماعية والسياسية والطائفية والقومية والثقافية في جسم المجتمع العربي وجذبتها الى قعرهفي تكوينه التعددي المذكور .

ولعل ابرز اسباب ذلك التفكك تكمن في تفاوتتلك الحركات زمناً و مكاناً وتكويناً اجتماعياً وسياسياً وعلاقات(٤٢) .

نجحت القوى الاجتماعية والسياسية الأشد تمايزاً داخل المجتمع العثماني في بلورة آليات دولة وكيانات سياسية محصنة سابقة تاريخاً على الحركةالتومية العربية (نموذجها الصارخ المشروع المسيحي في جبل لبنان ١٨٤٠ـ١٨٦١) بينما فشلت القيادةالاجتماعية والسياسية العربية الاسلامية عن بلورة مشروع دولة واحدة عربية مستقلة لم يكن لها ايةجذور تاريخية . ففي الوقت الذي كان فيه الرابط الديني ـ الطائفي المسيحي في جبل لبنان يؤسس علىتمايز في الدور الاجتماعي ارتباطا باقتصاد الغرب الحديث ، وثقافي ، ونواة دولة في الكنيسة ـ الحزبوالمؤسسات التمثيلية الشعبية في الروابط الطائفية



والعاميات ، الخ . . . كان الطرف الاسلامي لا يملك بعد انهيار « دولته » الاسلامية ، من مقومات الدولة الا رباطها الاديولوجي المتكسر على تكوين تعددي طوائفي اسلامي(٤٣) .

وعلى المفترق بين الامبراطورية الاسلامية والدولة العربية الحديثة ، يبرز اسم الأمير شكيب ارسلان ، ويرتبط بدفاعه عن وحدة الكيان السياسي الاسلامي مجسماً في الدولة العثمانية مع كل التشديد على تجديد وحدتها وعوامل قوتها ونهضتها ذهاباً الى استرجاع اصداء الحركات التجديدية الاسلامية مع الأفغاني ومحمد عبده . وصولاً الى تجديد الخلافة نفسها والعربية اذا امكن رمزاً جامعاً لوحدة المسلمين(٤٤) .

وتشكل نزعة الأمير « العثمانية » كما وصفت تجسيماً لهذا المشروع دون ان تعني تجاوزاً على العروبة .

وبحق يؤكد البرت حوراني ان لا تناقض منذ البدء بين الاسلامية والعروبة في فكر شكيب ارسلان . « فهو حين يتحدث عن قضية الاسلام يفكر بالاسلام العربي وينظر الى المسلمين الآخرين كتلامذة للعرب . بل ان مكانة العرب الخاصة في الأمة الاسلامية تمكن من التوفيق بين القومية العربية والوحدة الاسلامية توفيقاً يستحيل في غيرها من القوميات . بل ان نهضة الأمة الاسلامية رهن بنهضة العرب »(٤٥) .

ولعل تسمية نزوعه الاسلامي هذا « بالعثمانية » التي لم تكن تعني لديه اكثر من حلف سياسي يتسع حتى يشمل الشرق كله ، من قبيل التهجمات التي رماه بها خصومه وردها في غير مناسبة كرده على مزاعم « المسيو دي جوفنيل » حول دعواه تبعية الأمير لجمال باشا(٤٦) . او حين يؤكد في مناسبات اخرى الطابع العملي لسياسته مبرراً علاقاته وتحالفاته . بوصفه السياسة كتبادل منافع بين الأمم(٤٧) .

كانت سياسة الأمير الاسلامية في مواجهة الحركات القومية « العلمانية » !!؟ مقاومة لمشروع السيطرة الغربية الضارب على وتر القومية الذاهب الى حدود مشاريع كيانات طائفية . فأرسلان عارض كلا الدعوتين الطورانية والعربية(٤٨) ولم يعارض القومية العربية لحساب الطورانية العثمانية .

فالحوار القومي هذا لم يات منفصلاً عن التحدي الغربي الذي نحى الدولة العثمانية عن مركز صدارتها الدولية واناخ عليها بثقل تبعية اقتصادية ، وخلخل بنيتها وتقاسم معها السيادة على رعاياها ، وبعث الشك في عناصر وحدتها الدينية والثقافية والسياسية وبحضارة شعوبها . وتاريخ الصراع هذا يمكن استذكاره بدءاً من مطالب الدول الغربية بامتيازات خاصة لجالياتها ، ومن ثم الارتقاء بهذا الطلب للتعميم على الطوائف المسيحية وصولاً الى دعم الحركات الاستقلالية القومية والدينية في اوروبا ومن ثم في الشرق العربي .

لكن الموقع الذي يجيب منه الأمير شكيب ارسلان على هذه الأحداث والوقائع السياسية يقرر الى حد بعيد نوع تلك الاجابة .

فهو ابن اسرة عربية عريقة مندمجة في تاريخ الاسلام ، فاعلة فيه ، حافظة لتراثه ، وحافظاً لها مكانتها الاجتماعية والسياسية . وهو ابن بيئة ثقافية اسرية وعلمية وعلاقات وصداقات شديدة الارتباط بالثقافة الاسلامية وعلوم الدين وهو ابن اسرة (ولعله الأهم) خبرت نتائج المشروع الغربي باكراً في جبل لبنان.

آل الصراع المقاطعجي في جبل لبنان منذ مطلع القرن الثامن عشر على فائض الجباية المتزامن مع التراكم الراسمالي الداخلي والتغلغل الراسمالي الغربي والتفكك الاجتماعي الذي اصاب البنية المقاطعجية ، آل الى بلورة انقسام طائفي ارتكز الى قسمة عمل اجتماعية وتضافر على تكوين نمطين من العلاقات الاجتماعية ـ السياسية طائفيين(٤٩). وانتهى هذا الصراع (١٨٤٠ـ١٨٦١) الى بلورة مشروع قومي طائفي في كيان سياسي خاص ، احتلت فيه الكنيسة دور القيادة والتوحيد ، وتشكل اتصاله المتعدد الأوجه والمستويات بالغرب عنصر قوته الأول .

لم تنتج الحركة الديمقراطية القومية في جبل لبنان نظاماً علمانياً . انتجت نظاماً طائفياً استبدل على حد التعبير الشعبي (لفة الشيخ بطاقية الخوري) وكانت لحمته في وعيه لنفسه وللآخرين لحمة دينية وطائفية



غلب فيها اعتباره كمشروع تحرر اجتماعي ديني ـ طائفي ـ قومي . وآل في نهاية المطاف الى تكوين ادبولوجية مشابهة لتلك التي كانت قائمة في ذهن المثقفين المسلمين تجاه اخوة الدين الاسلامية مع العثمانيين . فنحى هذا المشروع الى اعتبار الدولة العثمانية استعماراً وعدواً دينياً ولم يرَ في الاستعمار الفرنسي الا صديقاً واخاً .

هذه الصيرورة للمشروع القومي بركائزه المحلية وصلته بالغرب كما تبدت في جبل لبنان كانت شديدة الوطأة على الموقع الذي يمثله للأمير شكيب ارسلان . الموقع الدرزي ـ الاسلامي الأقلي الذي عاش تجربة استبدال سيطرة طائفية بأخرى مشابهة . وهو ما سوف يؤثر بشكل حاسم على اتجاهات هذا الموقع الى حد عزوفه الفعلي عن المشاركة في الحركة العربية بداية . وليس صدفة ان من تعرضوا لمحاكمات جمال باشا في جبل لبنان ليس بينهم درزي واحد(٥٠).

كان لهذا الموقع المختلف عن مثقفي الحركة لعربية ابناء جبل لبنان المسيحيين وابناء ولاية بيروت المسيحيين والمسلمين على السواء ، ذوي الارتباطات الاقتصادية والثقافية والسياسية بالغرب وبمصر تحت السيطرة البريطانية ، كان لهذا الموقع المختلف اثره وضغوطه . وهو ما يلاحظه مؤرخو الفكر السياسي لتلك الحقبة(٥١) .

. . . .

لكن الأمير شكيب ارسلان يطل على المشروع لغربي من موقع اعم واشمل ، ليرى في الغرب صورة مغايرة لادعاءات الغرب عن نفسه ، وللصورة المطبوعة في اذهان مثقفي عصره . فهو يرى تعصب الأوروبيين لدينهم . وافتراءاتهم على حضارة الاسلام . ويرى شروعات « صليبية » جديدة تتجلى في سياسة التبشير الهادفة الى تنصير المسلمين . ويرى اتحاداً بين الأوروبيين جميعهم في وجه الشرق والمسلمين . بل ويرى ان هذا الغرب ليس عزيزاً وقوياً وغنياً الا بسبب نهبه للشرق(٥٢) .

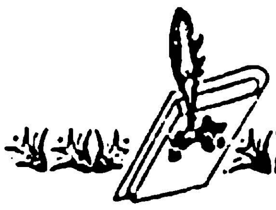
فالغرب كما يصفه الامير ، هذا المتجبر الغريب عني الآتي لبلادي ليتحكم بامورها ويستغل خيراتها ويضرب على سكانها الذل والمسكنة . لانه لا يقدر ان يعتز الا بذلهم ، ولا ان يثرى الا بفقرهم ، ولا ان يقوى الا بضعفهم ، وسياتي يوم نقول فيه : ولا يحيا الا بموتهم(٥٣) .

بل يذهب الى التشكيك بعلمانية الغرب نفسه . فيرى في فرنسا « وان كانت حكومتها ذات صفة لا دينية في القانون ، فانها تظهر في كل فرصة بمظهر ديني مسيحي ... ولولا النعرة المسيحية ما كانت الحكومة الفرنسية تعضد ... سائر المبشرين الجائلين في : الجزائر وتونس والحصراء والسودان ..(٥٤) . وهذا يصدق على الدول الأوربية جميعها .

فالغرب اذاً لا يسعى الى تماثل وانسجام ومساواة بين الأمم وتكافؤ . بل الى تشويه وتهجين الآخر لضرب مقاومته وشل قوته ، وتبديد هويته .

واذا تقرر ان هناك تضامناً بين جميع الأوروبيين في وجه الاسلام والشرق بأسره ، يقول الأمير شكيب، لا عجب أن يكون هناك تضامن بين الشرقيين عموماً والمسلمين خصوصاً لا سيما ان بين هؤلاء رابطة دينية... وعلى هذا عارض الحركات القومية العلمانية لتي فرقت شمل المسلمين . فنقم على الطورانية التركية ... والحركة الوطنية المصرية ... والقومية العربية بداية .. واعتبرها حركات من وحي الدول المستعمرة لأنها رمت الى « تشظية عصا الجامعة لاسلامية(٥٥) . وما موقفه السلبي من الحركة العربية قبل واثناء الحرب العالمية الأولى الا لاعتقاده فيما يشبه اليقين كما يقول ، بان البلاد العربية ستكون نهباً مقسماً بين انجلترا وفرنسا(٥٦) . ودافع فيما بعد عن محاولاته الاتصال بايطاليا بهدف مواجهة السيطرة الانكليزية ـ الفرنسية . ليؤكد ان معارضة الدعم الفرنسي ـ الانكليزي للحركة العربية كان مصدره المطامع الفرنسية ـ الانكليزية في البلاد العربية(٥٧) . ولعل قوله الشعري الذي يأتي يلخص وجهة نظره خير تلخيص :

وكيد على الأتراك قيل مصوب ولكن لصيد الامتين حبائله



في سجاله مع هـذا المشروع الغربي الخـارجي(كما يقـدم نفسه) والداخلي (كمـا يتصوره البعض) عنصـران : السلبي والايجابي . سلبياً يبين الأمير شكيب المفارقة بين الادعاء والحقيقة كما اشرنا اعلاه. ايجابيـاً ، يستظهر ما هو عناصـر قوة الغرب كمـا يتصورها مثقفو عصـره ويستولـدها مـن التـراث الاسلامي نفسه او يحاول اكتشافها فيه . فاذا كان لا بـد من عناصر قوة الغرب فلنبحث عنها كمقومات داخلية . لا شك ان التحدي الغربي هو الذي يحدد عناصر القـوة لنظرة الأمير وهو الذي يعـين مصادر اشباهها ونظائرها في التـاريخ الاسلامي . فيؤكـد الأمير شكيب انه ليس فيما يعتبر عناصر قوة للغرب منزعاً اوروبياً جديداً . الاسلام لا يرضى اهتضـام الحرية واوروبا لا تجيزه . وفي الاسلام سنن المساواة والإخاء والحرية . ويؤكد « ان اصل الولاية في الاسلام هو ولاية الأمة ... وان الاختيار هو الشرط الأول لا الارث خلافاً لما يظن من ان استمداد الحكم مـن الأمة منزع اوروبي جديد(٥٨). اما العلماء « المسلمون فهم بمثابة مجلس النواب الذي يسدد خطوات الملك ويرد طغيان الدولة ، رغم تحول هؤلاء بمرور الزمن الى جعل العلم مهنة للتعيش ، وجعلوا الدين مصيدة للدنيـا ، فسوّغوا للفاسقـين مـن الأمراء اشنـع موبقاتهم(٥٩) . ويرى في مسلك الخليفـة عمر منزعاً اشتراكياً .. وفي الشريعة الاسلامية مبادىء اشتراكية عظيمة وهي اوامر إلهية بينما هي في الغرب اوضاع بشـريـة »(٦٠) .

وبالرغم من هـذا الاصطراع للرابطتين الدينية والقومية العلمانية في فكرة يتنامى انحيـازه النهـائي والحاسم للقومية العربية، وللوحدة العربية، وللرابطة العربية ، « اللغة والدم والمصالح المادية المشتركة » ويدعو ويناضل طوال فترة ما بعـد الحرب العالمية الأولى الى اقامـة الكيان العربي الواحد على قاعـدة المساواة التامة بـين ابنـائه . وشمول الوحدة كـل اقطاره ، وشعوبه ، مؤكـداً نزعتـه الديمقراطيـة ، مدافعاً عن الحرية الدينية معلنـاً استعداده للدفاع عنها حتى لمائتي سامري بـين مسلمي نابلس حسب تعبـيره . مشدداً على الاخوة التي تجمع ابناء الأمـة العربيـة مسلميها ومسيحييها وحتى بعض فروعهـا الاثنيـة العرقيـة التي اندمجت في التـاريخ العربي والاسـلامي(٦١) .

اشرنا فيما سبق بحدود ما يتيحه هذا المقال ، الى الأسئلة التي طرحها التحدي الغربي على الشرق الاسلامي العربي . واشـرنا الى ان الشرق كانت له على صعيد الفكر السياسي اجابات متباينة تراوحت بين انتضاء عناصر اللحمة الدينية العامة وبين الدعوة الى القطع مع كل عناصر التوحيد السابقة واستقبال الهجوم الغربي برؤية للغرب من داخله لا من داخـل المجتمعات التي يسعى لالحاقها به .

لكن اذا صح بحدود ما يزعمه البعض من قراءة لتاريخ الفكر السياسي غير تاريخيـة ، بأن الجواب العربي الذي ردد اصداء الفكر الغربي وحملته قـوى اقلية مرتبطة به وكان في جملة الأسباب الرئيسية التي ادّت الى استتباب التبعية وتبديد الهوية الحضارية ، فالسؤال الذي يتداعى الى الذهن فوراً عن مدى جدارة المشروع « الاسلامي » الأكثري عـن مقاومـة هـذا المشروع وصـده ؟.

هنـا تبـدو اعادة القراءة المنصفة التاريخيـة النقدية العلمية لفكر الأمير شكيب ارسلان ضروريـة ومفيدة . ومن ذلك تنبع راهنية فكر الأمير شكيب ارسلان في استكشاف تاريخية هذا الفكر والشروط التي انتجتـه والظروف التي حالت دون تحقيقـه .

لا شك ان التيار الديني السياسي كان احـد التيارات البارزة في مقاومة المشروع الغربي . ولا شك ان الدين لعب دوراً اعتراضياً اساسياً في هذه المقاومة. فكأن اللغـة التي استوعبت بشكل اساسي تجليـات المقاومة الوطنية والشعبية العـامة . وكانت رموزه الجماعية ومثالاته تؤكد الانتساب العام الى الجماعة ووحدتها . لكن هذا التيار الديني حمل في طياته وعبر عن نزاعات ومصالح فعلية متباينة واحياناً متنابذة متنافرة . بل ان هـذا التيار الديني المقـاوم خضع لتأويلات فقهيـة جعلت من اعادة التوحد ضرباً مـن الاستحالة . فالاسلام لم يبـق واحـداً . بل تعددت لهجاته لتوافق مصالح الكتل الاجتماعية التي دخلت مسرح التاريخ السياسي آنـذاك .

لم تتخل الدولة العثمانية نفسها عن اسلاميتها في مواجهة الحركة العربية حتى لمدى ارتقاء النزعة الطورانية . واخضعت الدين والرابطة الدينية والرموز الدينية مـن الخلافة والأمـة حتى سلك المشايخ ،

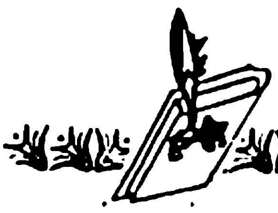
اخضعتها لمصالح الفئة الشوفينية القومية. فمحاكمات الحركة العربية تمت تحت شعار مسالة خيانة «الوطن» الذي لم تتنازل النزعة العثمانية عن اعتبار العرب جزءاً منه (٦٢) .

وحين قامت الحركات الانفصالية العربية (الوهابية ، السنوسية ، الادريسية ، المهدية الخ) . لم تبارح ارضية الاسلام او تخرج من تحت مظلته . والاسلامية السياسية التي رمز اليها الامير شكيب كانت ذات اتجاه ديني واضح وقد اسبغ عليها دلالات ومضامين جديدة . (ضرورة الاصلاح الديني لاظهار مرونة الاسلام ونفي جموده ، واثبات انه دين العقل ، والنهوض به من مرض التقليد الخ) (٦٣) .

اذن . لم تتصدع الوحدة الاسلامية بفعل النظرية القومية الغربية والمثال السياسي الذي اوحت به . كان هذا ولا شك عنصراً في تكوين بعض التيارات السياسية ، لكنها تيارات ذات اصول اجتماعية واحياناً مذهبية دينية ودوائر ثقافية لا يوحدها الاطار الديني العام السني الذي كان يسود الدولة العثمانية. ان اغفال هذا العامل في دراسة الفكر السياسي لتلك الحقبة التاريخية هو الذي يطمس عملية التعرف الحقيقية للاسباب التي اودت بالامبراطورية العثمانية ورابطتها الاسلامية . وهو الذي يسمح الآن للبعض في ان يحمل الغرب و « التغريب » كل النتائج التي ترتبت على انهيار الدولة العثمانية . ويدعو الى اسلامية جديدة تسترد الهوية والوحدة ، وتسترد الاستقلال. وهو اتجاه يستعير خطأ تاريخياً شوفينياً عربياً نما في مواجهة مشكلات الدولة ـ الاسلامية العربية التي كانت اطاراً مركباً لتراتب اجتماعي وقومي مزدوج يرتكز الى التعبيرات السياسية المباشرة للحياة الاجتماعية ـ المدنية في تكوينها العشائري والسلالي وما طرا عليها في الاسلام من تراتب نتج عن ادوار الجماعات في انتصاره . لذا كان المجتمع الاسلامي ـ العربي كلما اصابه غليان عام او محلي ولد مشاريع دول او دويلات في حواشيه وعلى اطرافه ، واذا تضافرت على الأزمة عناصر تجعلها شاملة طالت المركز نفسه واصابته بشروخ . لذا كان تاريخ الاسلام تاريخ هذا الاصطراع بين الفرق الدينية التي انتقلت وتطورت كي تصير مذاهب سياسية ودويلات ولذا كان التاريخ الاسلامي ـ العربي الذي يرى فيها تجاوزاً على سلطانه وعلى نصاب غلبته المستقر خلافة وإمارة ، اشراف وغير اشراف ، من سلالة النبي ام يشارك فقط في اخوة الدين. المهاجرون والانصار . الخ .. ويكافحها باسم اسلامه الخاص هو ويصفها بالشعوبية والأعجمية والمغولية والمملوكية والتركية واخيراً الغربية الأوروبية. كما تطالعنا بعض كتب التاريخ والفكر السياسي (٦٤) .

واذا كانت الراسمالية الأوروبية الكوسموبوليتية قد حملت معها فكرها السياسي الخاص في التمهيد لسيطرتها الاقتصادية ، او في حماية تلك السيطرة فذلك حملت شعوب الامبراطوريات الفارسية والبيزنطية والأحباشية معها فكرها السياسي وفرضته عنصراً حتى في ثقافة الدولة الفاتحة (الاسلامية) أثر على الفكر السياسي الاسلامي بشكل عام والنظام الاسلامي كما كان له الأثر الأكبر على الفرق الدينية والتيارات الاجتماعية والسياسية والثقافية . مما يدل على صعوبة هضم حضارة لحضارة اخرى في إطار نظام غلبة واحدة على اخرى . وهو ما لا حظه الأمير شكيب ارسلان نفسه حين يؤكد بعد العهد في علاقة الشرق بالغرب والتفاعل الحضاري بينهما والتاثير المتبادل بينهما . ليخلص من ذلك الى ان المقاومة التي يبديها الشرق تجاه الغرب مقاتلاً اياه بالسلاح كارهاً الأخذ بما يمليه على الشرق بسبب وطاة الغرب السياسية الهادفة الى الغاء الهوية فضلاً عن الاستغلال والسيطرة (٦٥) .

واذا جاز القول ان بعض عناصر « تقليدية » المجتمعات تشكل ركيزة لمقاومة السيطرة الامبريالية اليوم ، فانه لا يجوز تجاهل ان للسيطرة الامبريالية ركائزها الداخلية ، او نظامها الاجتماعي السياسي الذي تشكل عماده كتل اجتماعية سياسية وثقافية . وان المجتمعات هذه منقسمة على طبيعية ومضمون عناصر وحدتها ودور هذه الوحدة وان الأصولية او التقليدية بمعنى من المعاني او الثقافة القومية كلها مما يمكن ان يجوي غطاء لاستتباب السيطرة الامبريالية او يحوي نقيضها ومقاومتها وممانعتها . وهو ما يصطلح في الفكر السياسي على تسميته اليوم الاسلام الثوري مثلاً وغير الثوري . ثم اننا لن ننسى ابداً تذكير بعض دعاة الأصالة الجدد انهم يتحدثون عن مجتمع تعددي طائفي تشكل حياته الثقافية الداخلية المكبوتة في اقل تقدير عنصر ممانعة عنيد لكل محاولات الغزو الخارجي القسري حتى لو اتت من المجتمع الاسلامي ـ العربي نفسه .



ان التكسر المجتمعي العربي الذي كان لبنان منذ القرن الماضي نموذجه الصارخ والسباق في ايقاظ مشكلات بنية المجتمع العربي ، يشكل الجواب على ما يطرح من مشكلات نموذجا ايضا للمجتمع العربي كله . ان الاستعمار لم يكن في مقدوره ان يفرض ما فرض من تجزئة قومية ومن تهجين وتشويه معمق لبنية المجتمع العربي لولا حفاوة المجتمع العربي في استقباله وتقديم ركائز هذا المخطط في قلب بنيتها. ولم تقم دولة التجزئة الحديثة بقرار استعماري فتبقى دولة تجزئة بعد انحسار السيطرة الاستعمارية المباشرة. ولم يفرض الفكر الغربي على الدولة العربية الحديثة مضمونها وحدودها وطبيعتها وآلياتها . وهي دولة بأي حال لا تطابق دولة الغرب على هذا الصعيد ، بل انها لم تقطع اتصالها التاريخي بملامح وقسمات الدول التي قامت في التاريخ الاسلامي والعربي . ليس لأنها « آسيوية » او « شرقية » او « اسلامية » كما يكثر الايحاء اليوم ، بل لأنها ككل دول ما قبل التكوين الطبقي الناجز ، المثقلة بتحديدات المجتمع القديم حيث تتعايش ، في السياسة – في الدولة – الى جانب صفة المواطن ، صفة الدين والأسرة والمرتبة والطائفة الخ . كتحديدات اجتماعية اذا ما صادفت ضغوطاً وقيوداً من صنفها تستنفر دفاعها الغريزي ومقاومتها ايضاً وتعد بمسوخ دول تستعيد من الدولة المركزية حدود اللقاء التاريخي ولا تطرح عندئذ الا خيارين : الحرب الأهلية المديدة والانقسام ، او تكرار المأساة مهزلة في صعودها المتغلب على قمة السلطة . والمجتمع العربي امام خيار الانهاك والاستهلاك المتبادل لقواه في خط صراع مراوح ، او الانفتاح على طريق التقدم الاجتماعي والتاريخي عبر تأسيس لهيمنة سياسية من نوع جديد . مشروع سياسي ديمقراطي قومي علماني لا يكسر او يقتحم المجتمعات الفئوية الحالية على اختلافها ليفرض عليها الخضوع لفئويته ، بل لكي يتصل اللب الاجتماعي خارج القشرتين وينمو جنين المجتمع الجديد من رحم دافىء غشاؤه الديمقراطية وجوهرها « الانسان – المواطن » مجرداً عن شجرات الأنساب التاريخية . ويحضرني ختاماً قول (آراغون) :

ليس الشيء الجوهري ما يجره البشر خلفهم ،

من ضباب وغموض والتباس ،

فالشمس تشتعل من أجلنا وامامنا » .

سليمان تقي الدين

بيروت – آذار ١٩٨٢

★ ★ ★

الحواشي :

١ – انظر : رونسون في الماركسية والأمة الخ .. دار الحقيقة – بيروت ١٩٧١ – ص ١٢ عن الفارق بين الأممية والكوسموبوليتية .

٢ – لم تنجح اديولوجية ما من وهم المطابقة بين مثلها والواقع . وكانت القوى الاجتماعية – السياسية الأداة الحاملة لهذه المثل مصدر النكوص . منذ دروس أرسطو للاسكندر مروراً « بالمسيحية والاسلام وصولاً » للعصر الحديث » . وطال هذا التصور الماركسية في رؤيتها لدور الراسمالية العالمي وما يزال يستبد بتيار منها . انظر : ز. ل. ليفن : الفكر الاجتماعي والسياسي الحديث في لبنان وسورية ومصر . دار ابن خلدون ، ترجمة بشير السباعي ١٩٧٨ ص ١٠ و ١١ ، حول الدور التقويضي – الانشائي المزدوج للراسمالية في آسيا وافريقيا مسنداً « الى ملاحظات ماركس عن النتائج المحتملة للسيطرة البريطانية في الهند .

– انظر بهذا الصدد ايضا : شرام ودانكوس : الماركسية اللينينية امام مشكلات العالم غير الأوروبي . دار الحقيقة – بيروت – ١٩٧٠ – ص ١٥ – ١٧ .

٣ – برنار بورجوا – فكر هيغل السياسي دمشق ١٩٨١ – ص ٢٦ .

٤ – ماركس : ١٨ برومير – ص ١٥٥ – ١٥٦ مختارات ج ١ .

٥ – جان هيبوليت : دراسات في ماركس وهيغل : دمشق ١٩٧١ ص ١٣٥ .

٦ – ميشال فوكو : تاريخ الجنس ... ج ١ نقلا عن ميلي : دولة القانون – ص ١٢ . المؤسسة الجامعية للدراسات . بيروت .

٧ – زين زين : الصراع الدولي في الشرق الأوسط وولادة دولتي سوريا ولبنان – دار النهار بيروت ص ٢٢ – ٢٣ .

٨ – فريدريك هرتز : القومية في التاريخ والسياسة : دار الكتاب العربي – مصر – ص ١٣٠ ويصف هرتز محاولات ايقاظ الجهاد الديني ضد الأتراك .

٩ – نفس المرجع : ص ٣٣١ – ٣٣٢ .

١٠ – د. نادر العطار : تاريخ سوريا الحديث – ج ١ – ص ٢٧١ ص ٢٧١ وثيقة رقم ١٠ .



١١- انظر : جورج قرم : تعدد الأديان وانظمة الحكم : دار النهار بيروت ١٩٧٩ ص ٢٣ ٠

١٢- ماركس - انجلس مراسلات عام ١٩٥٣ : انظر : الياس مرقص في الماركسية والقومية العربية والوحدة : دار الحقيقة - بيروت ص ٨٠ - واثر التحدي البيزنطي الفارسي الاحباشي في ايقاظ لون من الوان الشعور القومي عند العرب يعكسه الى حد بعيد ظهور الدين الاسلامي ٠ ومن ثم صراع الامبراطورية الاسلامية مع الامبراطوريات القديمة ٠٠٠

١٣- جورج قرم : نس المرجع ٠ ص ٢٠ ٠

١٤- نفس المرجع : ص ٤٣ - انظر : د٠ برهان غليون : الطائفية ومسالة الأقليات : دار الطليعة بيروت - ١٩٧٩ ٠ اكيات الوحدة الثقافية ومشروع الدولة ٠

١٥- جورج قرم : وفريديريك هرتز : ص ١٢٥ - ٣٢٠ ٠

١٦- جورج قرم : ص ١٣٠ - ١٣٧ ٠

١٧- شكيب ارسلان : لماذا تاخر المسلمون ؟ ص ٦٧ ٠

١٨- لينين : مقال عام ١٩١٣ بهذا العنوان ٠

١٩- شرام ورانكوس واخرون ٠ الماركسية ٠٠ امام مشكلات العالم غير الأوروبي ص ١٥ - ١٧ ٠ وتقرير لينين في مسالة القوميات (النصوص ص ١٨٩) ٠

٢١- الماركسية اللينينية امام مشكلات ٠٠٠ ص ٥١ - ٣ ٥٠

٢٢- حاضر العالم الاسلامي : ج ١ ص ٣٣٩ و ج ٤ ص ١٥٧ و ج ١ ص ٢٤٠ والارتسامات اللطاف ٠٠٠٠ ادخال المفهوم الغربي في الرمز الاسلامي : أصل الولاية في الاسلام اختيار الأمة لا الأرث ٠ واستمداد الحكم من الأمة مبدأ اسلامي وليس منزعا اوروبيا جديدا ٠

٢٣- انظر رد فعل فرح انطون على محمد عبده في سجاله الشهير معتبرا ان عناصر انحلال المجتمع الاسلامي كامنة فيه قبل اتصاله بالأعاجم (الترك والفرس) ٠ ابن رشد وفلسفته : ص ١٧٣ و ١٧٨ ط ١ ٠

٢٤- حاضر العالم الاسلامي : ٣ - ٣٥٤ : أحمد الشرباحي : داعية العروبة ٠٠ ص ١٠٥ ٠ انظر موقف الأمير من سياسة فرنسا لتغير بربر المغرب العربي ٠

٢٥- عبدالله العروي : الأديولوجية العربية المعاصرة : ص ٦٩ و ٧٤ ٠

٢٦- عبدالله العروي : أزمة المثقفين العرب ٠٠٠ ص ٨٦ ٠

٢٧- د٠ برهان غليون : الطائفية ومسالة الأقليات دار الطليعة - بيروت ١٩٧٩ ص ٨٠ ٠

٢٨- ماركس : المسالة اليهودية : ص ٥٠ ٠

٢٩- ماركس : المسالة اليهودية : ص ٣٦ - لقد كان للمجتمع القديم طابع سياسي مباشر ٠ فعناصر المجتمع هي عنصر الدولة : الملكية - الأسرة - أسلوب العمل - الطائفة - المهنة - المرتبة ٠الخ٠٠٠

٣٠- هاملتون جب وهارولد بوون - المجتمع الاسلامي والغرب ج ٢ ص ٤٧ - ٤٨/جورج قرم ص ٢٧١ ٠

٣١- محمد كرد علي : خطط الشام : ج ٢ ص ٢٤ ٢٠

٣٢- هيرشلاغ : مدخل لتاريخ الشرق الأوسط الاقتصادي : ص ١٥ - ١٦ ٠ دار الحقيقة بيروت ٠ حسر اللثام عن نكبات الشام ٠ مصر ١٨٩٥ - ص ٢٣ - ٢٥ ٠

٣٣- جب وبوون : ص ٢١ ٠

٣٤- فوليني : رحلة في بلاد الشام : ج ٢ ص ٥ ٠

٣٥- محمد كرد علي : خطط ٠٠ ج ٢ ص ٢٢٤ و ٣٠٣٠

٣٦- جب وبوون : ج ٢ ص ١٦٢ - ١٦٣ - هيرشلاغ : ص ٢٨ - ٣٨ ٠ ومقال لانجلز عن القضية التركية وماركس في حرب الفلاحين في المانيا - وصف المانيا عام ١٥٢٥ ٠

٣٧- ز٠ ل٠ ليفن : الفكر الاجتماعي ٠٠٠ ص ١١٥ - ١٢١ ٠ ايضا ٠٠٠

- دولة المهدية في السودان : ب٠ م٠ هولت ٠ دار الثقافة بيروت ١٩٧٣ ٠

- الامبريالية والقومية في السوردان : مدثر عبد المنعم ١٩٧١ دار النهار بيروت ٠

- البهائية والقاديانية : د٠ محمد حسن الأعظمي : بيروت ١٩٧٣ ٠

- الوهابية : امين الريحاني في تاريخ نجد الحديث : ص ٣٥ - م ٥ ٠ الخ ٠٠٠

٣٨- تاريخ الدولةالعثمانية : محمدفريد - دار الجيلبيروت ٠ ١٩٧٧ ٠

٣٩- جوزيف حجار : اوروبا ومصير الشرق العربي : ١٩٧٦ - المؤسسة العربية ص ١٩ - ٢٠ ٠

٤٠- جوزيف حجار - أميل توما (الوحدة الدربية ٠٠٠) ص ١٣٤ - ١٣٥ - سليمان موسى (الحركة العربية) كوثراني : المؤتمر العربي الأول ٠٠٠ محمد عمارة : الجامعة الاسلامية ص ٤٩ الخ٠٠

٤١- انظر : وجيه كوثراني - بلاد الشام ٠ معهد الانماء العربي - بيروت ١٩٨٠ ص ٧١ ٠

٤٢- ستيفن هامسلي لونغريغ ، سوريا ولبنان تحت الانتداب الفرنسي ص ١٣٨ ٠

٤٣- يستعيد التحليل التاريخي مساهمات لنا سابقة فلا نحيل على مراجع ٠

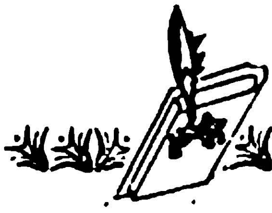
٤٤- انظر : د٠ احمد الشرباحي : امير البيان ٠ ٢-ص٦٥٧-٦٦٠ ٠

٤٥- البرت حوراني : الكر العربي في عصر النهضة ٠ ٣٥٧ - ٣٥٨ ٠

٤٦- جريدة الشورى : عدد ٢٣ يوليو ١٩٢٦ م ٠ انظر الشرباصي : داعية العروبة ص ٣٦ ٠

٤٧- الشرباصي : داعية العروبة ص ٤٥ ٠
الأمير شكيب سيرة ذاتية ص و ص ٣١١ حادثة وقعت له مع جمال باشا حين ذكر قحطان في خطاب ٠

٤٨- انظر : د٠ نازك سابا يارد : الرحالون العرب وحضارة الغرب - مؤسسة نوفل بيروت ١٩٧٩ ص ٣٢٤ ٠



٤٩- مراجع : الحركات (ابو شقرا) الحركات الفلاحية (سميليا نسكابا) - تاريخ زحلة (المعلوف) وثائق اساسية من تاريخ لبنان الحديث (د. نوار) . النزاعات الطائفية (هاني فارس) بشير بين السلطان والعزيز (اسد رستم) نبذة تاريخية (الحتوني) فتنة وثورة (العقيقي) ووليم يولك والرحالة (اورته - روبنسون - كارن - فوين - الخ ..

٥٠- اعترافات : كتاب جمال باشا عن محاكمات الديوان العرفي في علية منشورات بالعربية عام ١٩١٨ اعدنا نشره وقدمنا له - دار الرائد العربي - بيروت ١٩٨١ .

٥١- د. هشام شرابي : المثقفون العرب والغرب . ١٩٧٨ بيروت - ص ٢١ - ٢٢ - ٢٨ . البرت حوراني : الفكر العربي .. - نازك سابا يارد - الرحالون ...

٥٢- د. نازك سابا يارد - الرحالون العرب وحضارة الغرب : ص ٣٢٤ و ٣٣١ .

٥٣- الأمير شكيب ارسلان الارتسامات اللطاف : مكتبة المصارف . الطائف . ص ٣٨ .

٥٤- حاضر العالم الاسلامي : ٣ - ٣٥٤ - الشرباصي : داعية العروبة ص ١٠٥ . الارتسامات اللطاف : ص ١٢٩ و ١٣٥ .

٥٥- حاضر العالم العربي الاسلامي : ٣ - ٣٠٥ - و ١٩٣ - ٤ - ١٥٨ و ١٦٠ - ١ - ٣٤٣ .

٥٦- الأمير شكيب : سيرة ذاتية : ص ١٥٩ و ١٠٨ . الشرباصي : داعية العروبة ص ٨٩ . اسعد داغر : مذكراتي على هامش القضية العربية : ص ٦٩ و ٥ و ٤٧ .

٥٧- سيرة ذاتية : ص ١٠٨ - محمد عزة دروزة : الحركة العربية الحديثة ص ٤٢٨ و ٤٢٩ .

٥٨- حاضر العالم الاسلامي : ٢ - ٣٣٩ - ٤ - ١٥٧ - ١ - ٢٤٠ .

٥٩- لماذا تأخر المسلمون ؟ . المنار ٣١ - ص ٤٥٥ - ٤٥٦ .

٦٠- حاضر العالم الاسلامي : ١ - ٢٤٥ - ٤ - ٣٦٢ .
الشرباصي : داعية العروبة ص ١٧٣ انظر رحلته للاتحاد السوفياتي والحوار الذي يقيمه بين الاشتراكية والاسلام .

٦١- د. احمد الشرباصي : داعية العروبة والاسلام : ص ١٦٤ - ١٦٥ - ١٣٣ - ١٢٧ .

٦٢- انظر : اعترافات محاكمات الحركة العربية في لبنان - دار الرائد العربي - بيروت ١٩٨١ .

٦٣- شكيب ارسلان - مختارات - دار - الكلمة بيروت ١٩٨٢ - ص ١٥ - ١٧/نقلا عن محاضر العالم الاسلامي : ١-٦٤-٦٨ .

٦٤- على سبيل المثال : د. الياس فرح : المجتمع العربي والحضارة العربية - دار الطليعة بيروت ط ٣ - ١٩٨٠ - ص ٢٦ .

٦٥- من مقدمة كتاب « اناتول فرانس في مباذله » . انظر مختارات - شكيب ارسلان - دار الكلمة بيروت ١٩٨٢ - ص ١٣ - ١٤ .

★ ★ ★

قصة

على المسرح

محمد حيدر

- ١ -

لم تكن مفاجأة عندما التقينا ، وما كنت ابدأ على انتظار - كنت اعرفها قبل اللقاء ، وكنت على يقين بأننا سنلتقي في درب من الدروب .

وكان منذ الطفولة ... وهذا المصير الغامض يرتسم امام عيني - كنت اعرف انني سألتقي بشيء مضحك يلعب دوراً مهماً في حياتي ، ولكنني لم احدد موعد اللقاء : كنت في حالة توقع ... وكنت انتظر المجهول .

وعندما رايت هذه المراة ... كان الزمن في الشتاء ، والكستناء في المدفأة ، والجمر يتوهج على الأرض ، وانا استطيع ان ابكي واخجل بوقت واحد .

وقبل ان اراها ... كان قد تقادم بي العهد ، وشهدت اياماً عديدة صعبة ، وكانت الحياة العوبة في عمري حينذاك . لذلك تركتها تقودني بلا هدف ، وانا اضحك - علناً - من الأقدار .

وكنت قد لعبت ، بلا تعمد ، ادواراً متنوعة ، وصار لدي من الخبرة ما يؤهلني للمغامرة « باحتراف » اللعب .. وان اخطو وحيداً الى الميدان . لذلك لم يكن من الصعب عليَّ ان ادعوها لأي دور لتلعبه ، حتى ولو كان دور « الزمان » .

كنت في سورة الشباب حينذاك ، واول فصل من حياتي لم يكن قد تولى بعد ، بينما أغلق الستار عليها ولم يبق لها من الحياة سوى فصل واحد .

قلت لنفسي ، وكانت مني على خطوات : إنها ممثلة -

لكن تجاعيد وجهها انبأتني انها ممثلة خائبة ، اذ كيف تحتفظ بوجهها وتعلن عن نفسها بهذه الطريقة المكشوفة ، وهي تعلم انها امامي ؟!

(ان اول شروط التمثيل : التخفي) .

قلت لها : وكنت بلا عمل في هذه الحقبة : لنلعب - وكان اللعب غريزتي الانسانية آنذاك .

قالت : هل تلعب « الورق » ؟

اجبتها ، بهيئة خبيثة : انني اجيد كل الألعاب ، ما عدا لعبة واحدة لم امارسها بعد .

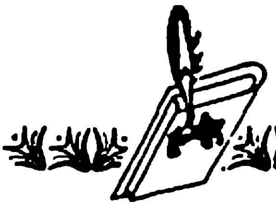
قالت ، وكأنها لم تفهم القصد : اي لعبة ؟ باصرة ، كونكان ، بوكر مكشوف ...

قلت : الا يكفي ان يخلع الانسان ثيابه ويبدو مكشوفاً على الأرض ؟

قالت : وهي تضحك : هل تلعب عن «شرط» ؟

قلت: سنلعب بلا تحديد، والفائز منا يختار. - ... !!

(كأنهافي حالة دهشة ، كأنها في حالة اعجاب).



لأن المغامرة مـن طبعي ... وانا لا اكتـرث للنتـائـج .

ـ ... ؟

(كأنهـا تسأل : لمـاذا ؟)

المرأة من طبيعتها السكون . المغامرة فضيلة الرجل وطبيعته ـ يجب ان نغامر .. ان نكثف عمرنا في لحظة مهما كانت النتائج .

قالت : انـك مهرج .

قلت لها بحقد ساخر : فعلاً انني مهرج .

قالت : ويعتـرف !!

قلت : الآن البس دور المهرج . وهل تتوقعين مني أن أكون أمامك غير ذلك ؟ ولكن هل عنـدك دور مضحك أمثلـه ؟

ـ ...

(كأنهـا في حـالة حـيرة) .

اذ انني بالواقع اجيد تمثيل جميع الأدوار ؛ لأن الانسان بطبيعته ممثل ـ انا ، وانت ، وكل انسان يستطيع ان يمثل .. فالعالم مسرح والحياة هي الرواية ، وكـل دور له شخص يمثله ... لا ينازعه فيه احد ولا يحل مكانه احد .

(كنت انتظر جوابها بفضول خفي ، فقد كان يبدو عليها انها تحب ان تشركني في ايامها ، وان تختار لي دوراً معيناً في مسرحية حياتها لألعبه . وكانت هـذه الرغبة تلوح جليـة على عينيها . ولكنني ـ بوحي خفي ـ تكهنت حقيقة الدور : كنت اعلم ان جميع الأدوار تلائمني ما عـدا هذا الدور ...) .

ظلت فترة دون أن تجيب ـ

وفجاة قالت ، بلا تمهيد او مقدمات : انني أحبـك .

(يلوح انها مجربة ، عكس ما ظننت اول الأمر ـ لأن « المفاجاة » افضل وسيلة لهتك الأقنعة ، والولوج الى سراديب النفس) .

ارتكبت اول الأمر ، فقد فوجئت برغبتها وانا لم اتهيـأ بعـد ـ

زيغاناً من الجواب ، وقبل ان افكر ، قلت : انني اشعر بالعبودية والخجـل .

قالت : لمـاذا ؟!

قلت : انني احب الكستناء ، وهـذه الرغبة تلعب « مؤقتـاً » دوراً مهماً في حياتي ، لأنهـا كانت تلعب نفس الدور في الحسرة الانسانية .

ويبدو انهـا لم تفهم كلامي ، او انها تشمئز ـ بحكم نشأتها المترفة ـ من مشاهد الحزن . لذا فقد ارتسم على وجهها تعبير عجيب عن القرف .

قالت ، وفي وجهها ما ينبىء انها لا تعي ما تقول: الا استطيع ان امثـل في حياتك هـذا الدور ؟

قلت : ايهما ... دور العبودية ام الإضحاك ؟

اجابت بدهشة : بـل دور الكستناء .

(يا لها من ممثلة غبية ! كانت تعلن بحماقة عـن الدور الذي تريـد .. والممثـل الحقيقي لا يفصح اطلاقاً عن رغبته في دور معين) .

قلت ، وانا اضحك من جهلها ، وعيناي تنظران في وجهها المغضن : لا يستطيع غيري ان يمثله : فهو جزء من حياتي ، ولا يخلع الانسان ماضيه .

(الحقيقة ، انه لم يكن لي اي ماض معروف ، ذلك انني استطيع في كـل لحظة ان اتجرد مـن عمري واعطي وجهي افقاً لا ينتهي من العفوية والبراءة ... فابدو بهيئة انسان محايد ، وكأنني اكتشف الحياة اول مرة) .

قالت : فعـلاً انـك ممثـل .

واوجعتني ، علناً ، بنظرات تفيض بالحسد والحقـد والاعجـاب ، وفي نيتها ان تنفـذ الى سريرتي بنظراتها تلك .

شعرب بالحرج والضيق .. فاغلقت لها وجهي وتراجعت مختبئاً الى الأعماق .

قلت : اعرف انني ممثـل .

قالت : وانا احب ان اصير ممثلـة .

قلت : اليس من المضحك انني كنت احسبك ممثلة ... ممثلة عريقة على المسرح ، تلعبين دور الشهيد وكل ادوار الغرام والتضحيـة ؟

قالت ...

(فتحت عينيها بذعر حقيقي . بطريقة اوضح مـن الكلام) .

قلت : لأن النساء ، على العموم ، ممثلات .. وانا اخاف من التمثيل امامهن . فقد كانت « » تسخر مني كلما اردت ان العب دوراً امامها ـ

كانت تكشف طويتي بتنبؤ غامض ؛ لذلك خلعت ملابسي امامك ومسحت الطلاء عن وجهي لأبدو كما كنت .

سألتني بلهفة : من ... من هي ؟

ولأتهرب من الجواب، قلت: انني ممثل بالفطرة.

قالت : وانا احب ان اصير ممثلة .

(كنت واثقاً انها تهيىء المسرح ، وتمهد لي الطريق لألعب دوراً امامها . وحتى اثبت لها انني حقاً ممثل ، فقد تابعته نفس الدور ، دون ان أنبهها الى الخطأ الذي توشك ان تقع فيه . لأنني كنت ارغب ان اجرب ـ ولو مرة في العمر ـ هذه المهنة : متذكراً هاردي وشارلي شابلن والممثلين الجدد ... وجميع من يلعبون ادوار الغرام والمضحك الانساني) .

ويبدو انني لمست عندها عقدة الرواية ، او انني كشفت سريرتها بحدس غير مقصود ، لذا تركتني وهي ترسم على وجهها ، دون رصيد ، مسودة غضب زائف .

وحتى هذه اللحظة ، كنا في بداية الاتفاق على الأدوار . وبما انني لا احب ان تفلت مني هذه الفرصة ، فقد قبلت غضبها المزيف... واشعلت سيكارة بانفعال زائد ، تعبيراً فارغاً عن الحنق والضيق .

وعندما عادت، كنت ما ازال مكاني وسيكارتي لم تنته بعد ...

قالت ، بلهجة شرسة وآمرة : اخلع ثيابك .

ادركت اننا نمشي بخطا سريعة ، وانني ساقع بعد لحظات قليلة في الدور . لذا قلت لها ، رغبة في اطالة الوقت ، وتذكيراً بما سبق : الا يكفي ان يظهر الانسان مكشوفاً على الأرض ؟

قالت : يبدو انك ستعذبني كثيراً .

قلت ، هازئاً من جهلها المفضوح : كيف اخلع ما لم البسه بعد ؟! الم اخبرك بانني خلعت ملابسي ونزعت الطلاء عن وجهي ؟

قالت : اعذرني . لقد نسيت .

قالت ، وانا اهم بارتداء الملابس : اي ملابس سأختار ؟

قالت : لا تلبس ان شئت . المهم ان نبدأ اللعب .

(اندفع من اعماقي خوف غريزي آنذاك . فعندما سألتها عن الملابس ، كنت ابغي ان اعرف اي دور سأختار .. وهذه ابسط حقوق الممثل. لكنها ، على ما يلوح من جوابها لا تمسك اهمية لشيء ولا تعترف لي بأي حق . تريدني ان ادخل بأي ثمن مسرحية حياتها العميقة) .

شعرت باطمئنان بعد هذا الاكتشاف ، وايقنت انني لن اخيب في المستقبل مهما حدث ؛ لأنني سألعب دوري كما اريد ـ ولأختبر صحة هذا الأمر ، قلت : لا يمكن ابداً أن امثل دون اقنعة او في حالة العري . انني افضل البطالة على ان احطم شهرتي من اجل دور مؤقت . فتشي عن غيري فأنا لا اقبل مطلقاً بهذا الدور .

(كانت هذه اول اكذوبة في تاريخنا المشترك : ذلك انه لم تكن لي اية شهرة ولا امجاد . كنت خاملا على المسرح ، امثل التوافه ... وكان يغمرني النسيان) .

قالت ، وهي في دهشة من ثورتي المفاجئة : لماذا ؟!

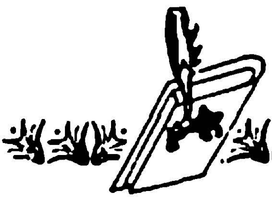
قلت : الا يضحك المتفرجون في مسرح ، اذا رفع الستار فجأة ... فبدا الممثلون يلعبون ادوارهم عراة على الأرض ، دون ستائر تحجبهم عن الأعين الفضولية .. دون مناظر تمثل مكان الرواية .. وحتى دون اقنعة تلائم الأدوار او تستر الوجوه على الأقل ؟ الا يدهشهم هذا الخروج على المألوف ، ويصرخون تعبيراً عن الاستياء والاستنكار ؟

وعندما انهيت كلامي ـ كان وجهها يتلون بنظرة حازمة ، وفي عينيها يتلاعب تردد بعيد .

ومرت فترة طويلة من الصمت ،

كنت اطوي زمان « الآن » وامد ايامي الى ما بعد ... دون ان افطن لمراقبتها الصامتة ـ ويبدو ان هذا السكون قد اثار في نفسها الغيظ ، او انها كانت تريد متابعة الحديث / صرخت في وجهي بنبرة يائسة ، وكأنها تضع كل خبرتها في لعبة واحدة : لا يهمني اي انسان . اريد متابعة اللعب دون زمان او مكان ، وحتى دون ان احدد الأشخاص .

ادركت فوراً ، من صوتها الذي يخلو من الثقة ، والشرود الذي نما رويداً على الأسارير ،



والغضب الذي اعتراها ، انها بدات تفكر بصورة غير منطقية ، وانها تريد التخلص من المأزق الذي اوقعتها فيه ، ولو ادى بها الأمر الى الوقوع في تناقضات جديدة .

سألتها ، محاولا ان الفت نظرها على الأقل : والمتفرجون او النتائج ؟

اجابت ضاحكة : سوف انسحب من الرواية في الوقت الملائم ، وتبقى وحيداً على المسرح .

(ايقنت ان غريزتي كانت صائبة في ادراكها الخوف : فهي تريد ان تتنصل من تبعة عملها لتلقي علي مسؤولية الخيبة . وبما انني كنت بلا عمل، فقد وجدتني مرغماً على الانسياق في تيار زغباتها العديدة ، وقبول اي دور تعرضه علي .. مضحيا بخبرتي القديمة وكل مواهبي في التمثيل) .

وكانت تدرك حاجتي هذه ، لذلك لم تكلف نفسها مشقة التفكير في مصيري .. بل ادارت كل شيء على هواها دون ان استطيع الرفض او الاعتراض .

كنت واثقاً انني سانجح. كنت ممثلا بالوراثة، ولكنني اخاف ان تسدل الستائر فاصبح سجيناً على المسرح : فقد كنت الممثل الوحيد والأخير في هذه الرواية .

ان شيئاً مجهولا يترصدني ويرغمني على اختيار الدور — كنت اريد ان ابدا دوراً معروفاً، ولكن خاتمة الرواية لم تتضح بعد .

سالتها مستوضحا : كيف يلعب الانسان دوراً لم يحفظه ؟

قالت : ستأتي الحوادث بصورة طبيعية بعد ان نبدا .

قلت : الم تلاحظي .. لقد بدانا فعلا ؟

وشعرت — بعد فوات الوقت — انني تسرعت في الكلام : فقد اعترفت لها بصورة عفوية انني قبلت الاشتراك في اللعب ، مع انني كنت احاورها طوال الوقت .

قالت متهكمة : لم اهيىء المسرح بعد .
(كانت تتكلم دائماً عن نفسها وكأنني غير موجود على الاطلاق) .
واعترتني نوبة عنيفة من الضحك ...
— .... —

(كأنها تتساءل — وكان على وجهها الخوف) .
قلت : والمتفرجون ؟
قالت : والكستناء ...

ورفعت يدي لأعترض على هذا الفضول الغريب والتدخل بأمري .. لكنها اسكتتني باشارة من عينيها ، وهي تهز رأسها بازدراء بغيض .

ولما لم اجد اي فائدة او مجال للاعتراض ، فقد رايت من الأفضل ان اعطيها زمامي هذه الفترة ... لتلعب بي كما تريد .

كنت امر في طريق حرج ، وكنت اريدها ان تتخلى عن ريبتها وتطمئن الي ، لتفصح علناً عن رغبتها وطريقتها في اللعب والتمثيل . لذلك انحنيت عن كبريائي وانا ارمقها — خبيث الطفولة — بولع وشوق .

اخذت تقترب مني بخطا بطيئة وثابتة ... وفي وجهها ما ينبىء عن نار عاصفة !! عند ذلك احسست بجزع غريزي ، وادركت انها خدعتني طوال الوقت : كانت ممثلة عريقة على المسرح ، بحيث شعرت (انا الممثل الحقيقي) انني غير امامها .

وعندما لامستني ... ضحكت في وجهي بحنان شعرت منه بالخجل — وانحنت قليلا علي، ووجهي بين اصابعها المرتجفة ، لتترك فوقه اول قبلة من دوري في مسرحية حياتها العميقة .

وافترقنا بعد ذاك ...

— ٢ —

كان قد مضى زمن على الوداع ، وكانت ايامي صعبة ذلك الوقت .. وانا اسير وحدي بلا امل ولا أهداف — كنت يائساً من اللقاء، فقد هجرتها منذ ايام طويلة ، دون ان تخالجني نية الرجوع : كان من عادتي ان اترك عمري بلا تحديد ، وان ادع ايامي رهينة المصادفات الهوجاء . لذا تركتها بلا مستقبل ولا تاريخ .

وعندما لاح الشتاء ، اغلقت في وجهي كل الدروب واكل التجوال قدمي . شعرت حينئذ بفراغ عميق وبالحاجة الى الدفء والحنان . لذا طويت غروري ذلك الوقت ، ورحت ابحث عنها بقلق وشوق .

قضيت في بحثي عدة ايام ، وذكراها تظللني



بحنين طاغ وتاكلني الليل والنهار. واخيراً وجدتها بانتظاري في مكان اللقـاء .

مررت بها ببطء ... وانا اعطي لوجهي علائم اكتراث ابلـه . وعندما راتني ... طوت عينيها كانها لا تحب الكلام ــ ثم صرخت وأومأت الي .

كانت وحيـدة في الغرفـة ، وضوء الشارع يتسلل فاتر العزيمة ... كأنما يود ان يستريح ويخجل من النوم ــ يتسلل خلال الشقوق وعبر الزجـاج الملون .

اخذتها بلا تمهيد بـين ذراعيّ ...

كنا ظلّين على الجدار .. وكانت تسقط على خديها دموعاً محرقة ــ قلت لها : آخر خدعة في دور الشهيد !! ولمـا لم تجب ، ايقنت بحدس غريزي انها تبكي حقاً . لذلك اقتربت منها لأضع بدوري على شفتيها ، اول قبلة من دور الغرام المزعـوم .

قالت : دعني ... انني مريضة ولا استطيع التنفس .

عند ذلك شددتها بعنف بين ذراعي ... بَدء تعبير حقيقي عـن الغيظ .

قالت ، وهي تحـاول ان تفلت من يـدي : لا استطيـع . انت اناني .

(شعرت بالحيرة والتبس الأمر علي . فقد كان في سلوكهـا ما يلفت النظر ! فهي تتردد بـين الرفض والقبول ، وتترجح بين هاويتين ، بحيث شعرت ــ رغم الحدس الغريزي ، وكوني عريقاً في مهنة التمثيل ــ انني لا افقه شيئاً من ادوار الغرام والمضحك الانساني) .

كآخر حل للأمر ، تعبيراً عن الحيرة المستبدة ــ ضربتها على صفحتيها بقسوة ... فانطوت كطفل معزول وشملتها موجـة مـن النحيب .

تساءلت في داخلي : هل هذا افضل حل ؟

وبما انني لم اجد جواباً في لحظتي الحاضرة، فقد ارتميت على الاريكة في صمت، وانا ارميها، دون ان تشعر ، بنظرات استيضـاح .

★ ★ ★

اخـذت تنسى ، في حميا الغضب والحقد ، اصول مهنتنا المقدسة !! السنا على المسرح ؟ الم تدرك ذلك بعد ؟ يا لها من ممثلة بليدة !

كانت تخلع ، بلا وعي منها ، بعض الأقنعة . فاستطعت بذلك ان آخذ فكرة غامضة عن اسارير وجهها . اما ما يكمن وراء هذا الوجه ، فقـد استعصى عليّ وظل بعيداً عـن الحدس .

التفيت مؤقتاً من دورنا الحاضر بهذا الظفر الجزئي ، فنهضت عـن الأريكة ووقفت امام النافـذة ... وفي وجهي نـدم غير محدود .

قالت : لا تحجب الضـوء .

قلت : البسي ثيابك يا امراة .

وعندما تحولت اليها ظنت انني ازمع الخروج، لذلك ارتمت عليّ بجزع مجنون وهي تقـول : لقـد سئمتني بسرعة . اليس كـذلك ؟ كـل الرجـال سواء .

ادركت شيئاً من السؤال ــ كانت تريد ان تشعر انها اثيرة لدي ، فقد عانت خلال حياتها الطويلة ضروباً عديدة من الذل والهوان . لقد كان لها ماض عجيب رات خلاله آلاف المسارح وكل الممثلين. ولكنهم كانوا ينظرون اليها كشيء عابر يهملونه في اي وقت . لذلـك كانت على استعداد لأن تضع مواهبها في خدمتي ، وان تهدر كل انوثتها الى الأبد ، على ان اقتل لهـا هـذا الشعور .

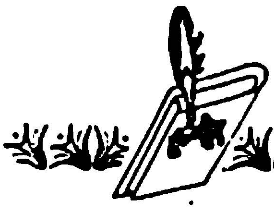
وبغتـة جاءني الحل وعرفت طبيعـة الدور الذي سألعبـه ــ

كان لهـا وجهان مختلفـان ومتناقضان . كلاهما يطل على الهاوية ويمتد الى ابعد الحدود. كـان عليّ ان العب احـد دورين : إمـا دور العبودية المطلقة ، او دور القسوة المطلقـة .

لم اكن واثقاً من صحة هذا الحدس . مجرد افتراض . تساءلت : هـل العب على هـذا الأساس ؟ لكن بأي دور سأبدأ ؟

كانت البداية امتحاناً خطيراً لمواهبي : فانا اعلم ان اية خيبة تصيبني الآن ، ستترك آثارها الجارحة ، وسوف تواجهني حتماً في مستقبل الأيام ــ ورايت انني اميل بطبيعتي الى القسوة، لأثبت لها ــ اذا فشلت ــ رجولتي على الأقل . وعندما اخذت في التهيؤ لهذا الدور ، لمحت على هيئتها اشباح ثورة عاتيـة ...

ادركت ، وانا مدهوش لهذا التبدل المفاجيء،



انني وصلت بعد الأوان ـ تراجعت عن هيئتي بسرعة ، ودخلت في دور العبودية .

قلت في داخلي: جرب... ولو مرة يا ولد.

لذلك استكانت في خضوع على ذراعي ، عندما قبلتها بحنان زائد وبولع محموم .

خدعتها ـ ما اغبى هذه الممثلة . ترمي سلاحها بسرعة .

(وجاءني ، من داخلي ، التحذير : هذا حكم الزمان) .

قالت بصوت يشبه الهمس : انني احبك .

(كان من عادتي خلال ماضيّ ، ان اتهرب من الجواب . محافظاً بذلك على اول شرط من شروط التمثيل : « التخفي » اول الشروط) .

قلت لها ، متجاهلا هذا الاعتراف : لماذا تظهرين بلا اصباغ ؟

قالت : اي مانع ؟ اننا وحيدان .

ضحكت علناً من حماقة الجواب ـ قلت : ربما نفاجأ ... ربما لن نستمر .

هزت كتفيها بلا جواب.. بنظرة تحذير اصم!

« كانها تقول : لا يهمني .. ولكنك ستندم لو فعلت » .

عبرت الى فكري لمعة تحذير خفي ، فادركت انني اجتاز خط المصير .. وازلق رويداً ، بلا توقف ، على منحدر صلب) .

وعندما نظرت اليها.. وجدتها تتشاغل بملاعبة قطة صغيرة ، لذلك لم تكلف نفسها مشقة النظر الي ـ كأنني كمية مهملة .. كانها بلا جواب !

كان يلوح عليها انها لا تريد الحديث او الجواب . وكنت بدوري قد تعبت من الكلام ، لذلك انسحبت الى زاوية من الغرفة، وانطرحت على الأريكة في بلاهة النوم .

وقامت بسرعة حينذاك .. وكنت المحها من خلال عيني ـ قبضت عقارب الساعة بعنف ! كأنها كانت تريد ان توقف الزمن ، وتقنعني بانها ما تزال من اول الشباب .

كان فارق الزمن يشكل بيننا هاوية عميقة . وحتى اجتاز هذه الهاوية ، كان عليَّ ان احذف نهائياً كل فواصل الأزل بين عمرينا ، وان امحو الماضي واتنازل عن كبريائي وطبعي الموروث ، وكل الميول التي تغلغلت في اصلي من الطفولة .

(هل استطيع ؟) .

تلفت حينئذ حوالي... كان العالم وحيداً في عزلته ، وكل انسان يلعب دوره ويسير بلا توقف نحو الهدف: ايقنت انه مصير عالمي ، وانه لا يحق لي ان اتراجع او افر. ايقنت ايضاً انها اوقعتني، عمداً ، في الطريق المألوف ... وكانت تنظر من بعيد الي !

لم استطع ان اقاوم شهوات عينيها المضيئتين، وتلك اصالة الخطأ في طبعي منذ الولادة . وعلى الرغم من انني اعلم ... فقد عزمت ان ابيع لها عمري من اجل هذه اللحظة . لذلك انحدرت من نفس الطريق ، دون ان اتساءل عن المصير . وعندما اوشكت ان اصل الى النهاية ، شعرت بندم ونفور مفاجئين ... واعترتني موجة شفقة غريبة !!

نظرت ...

كانت ما تزال طفلة ... او كأن الزمن كان يتراجع وينكمش الى الوراء ـ قلت لنفسي : أليس من القسوة ان تموت ؟

اندفع الوحش من اعماقي.. وبلهجة قاسية، كأنه حيادي عن الأمر ، قال : انت مخطىء ، وربما خسرت الدور في الختام .

« امسكت يديها آنذاك ، واخذتها بشفقة فارغة .. وانا ارمي على خديها دموعاً كاذبة : ما نويت خداعها على الاطلاق ـ كنت العب دوراً، وكانت دموعي جزءاً من طبيعة الدور » .

تساءلت عن المدى الذي سوف اصل اليه ـ ذلك انني بلغت من الغرور حد الحماقة .. حداً لا يمكن لي ان اتخطاه : انني احس منذ الآن باحتقار كامل ؛ فقد تنازلت عن كبريائي وكل صفاتي الوراثية ، مقابل لا شيء !

ما الذي كان يدفعني الى هذا السلوك ؟

كان السؤال يواجهني بقسوة هائلة ، وكان يستلزم جواباً بلا تردد ولا إبطاء : لأن مصيري ، وكوني سأختار ، يوجب علي أن احدد لمستقبلي، موقفي من اشياء كهذه .

وعندما حاولت الكلام ، لمعت في ذهني شرارة تذكر مفاجيء ... وعادت الي صور اشكال قديمة ـ انكمشت برعب ، وسترت وجهي بيدي،

وانا اصرخ بصوت مختنق اصم : لا ... لا يمكن او يجـوز !!

. . . .

– ٣ –

لقد رايت هذه المراة من قبل ..

كنت طفلا حينذاك ، وكانت في مثل عمرهـا الآن . كأني اعيد معها نفس الحوادث ، مع فارق الزمان . وكنت يومها امثل الخضوع . وكانت تقبلني بين اصابعي وذراعيَّ ، ثم لا تلبث ان تثور .. كما تفعل بي اليوم . وتركت لهـا ذاتي فترة مـن العمر ... فترة التـلوث والالتقاط والخوف . وكنت انمو خلالها مثل دودة القز . ثم تغيرت كثيراً عندما تقدم الزمان ، ولكنها لم تتبدل الى اليـوم .

لا اذكر تماماً كل ما حدث ذلك الحين ـ كانما يتخبط في عقلي هـذا الزمان ... كانمـا الأيام يركب بعضها ويغفو كسولاً على بعض .

ماتت امي وانا صغير . كان هـذا الموت في مساء ما... من الصيف. في الصباح استفقت. ما رايتها بجانبي آنذاك . رايت صراخاً يشـق اذني . رايت حشداً من النساء . امي نائمة في فراش قريب . لذت بها من الخوف . لا بسمت في وجهي ولا نظـرت الي . شـملني الرعب . تزاحمت عـلى جسـدي الرؤوس . تنتـزعني الأصابع من الفراش. اخذت ابكي بصوت مسموع.

ظللت وحيداً عـدة ايام . وبحـدس الطفولة الغامض ، شعرت انني مكروه .. وانني ممثـل تافه لا دور له على مسرح الحيـاة .

وتشردت بعـدها في حقـول واسعة مغلقـة الحدود ! كانت مغلقة بشكل إثار الفزع في كياني الصغير . لكن رغبتي في اجتياز العالم ، او خلق عالم جديد من العدم ، كانت تضفي على تشردي غطاء من الكبرياء الحزينة ، التي تشعر ، ضمـن اطارها المغلق ، بانها اقوى من العالم .. اقوى مما هي عليه بكثـير .

كنت احدق بكسل ، وبعيون يخالطها الارهاق والوسن ، في الفضاء الشاسع البعيد . وكنت اجـد لـذة غريبة في مطاردة الحشرات زمـان الصيف .. صيف العالم المجنون ـ اجري وراءها مسافات طويلـة .. حتى اذا امسكت واحـدة منها ، نتفت جناحيها ، وتركتها تحبو ، سدى ، على الأرض .. وانا أرقب بزهو وحقد محاولاتها الخائبة للطيران مـن جديد . وكان هذا العمل تسليتي الوحيدة، دون ا نيكون لي غرض وراءه، او ايـة فائدة على الاطلاق .

وفجاة ، خلال التشرد ، رايت هذه المراة في احـد الأيام ...

لم تخالجني اية دهشة لذلك ـ كنت اتوقع منذ التشرد حدوث شيء كهذا ، وانتظر مجيئـة بلهفة وقلق : لأنه ليس من الممكن ، او المعقول ، ان اظل وحيـداً الى الأبـد .

كنـا بعيدين في البـداية ، وعندما اصبحنا وجهاً لوجـه ، قالت : يا ولد !

رفعت لها بصري بتوجس وفضول طفوليين.. ثم رميتها بحشـرة كانت معي حينـذاك ، وانا اضحك بصوت مرتفـع .

ضحكت المراة ، وضـحكت انا مرة ثانيـة . وعندما كففنا عن الضحك ، تأملتها بامعان لزمان قصير . وبعد ذلك ، ودون ان اعرف السبب ، شملني العويـل .

قالت المراة ، بالم بالغ بسرور خفي : اتبكي يا ولـد ؟!

واستغربت فعلا هذا الأمر !! ولأجد تسويغاً مقنعـاً ، ولو لهذه اللحظة فقط ، قلت : انني ابكي مـن اجلـك يا امراة .

قلتهـا بصورة عفويـة ، ودون ان ارمي الى شيء ـ وعندما تمعنت جيداً في وجهها ، لمع في صدري سرور خبيث . فقـد استطعت التاثير فيها وخدعتها بوقت واحـد .

قالت ، وكأنها تتذكر اشياء قديمة ، كشخص يناجي نفسه : من الغريب ان يحـدث لي ذلك باستمرار ، واينما ذهبت !

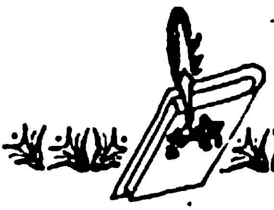
سالتها : الى اين تذهبين ؟

واكلني الفضول لأسمع الجواب ... كـان فضولاً واخزاً كالشوك ـ

« اصابتهـا الرعشـة ... » .

قالت ، هرباً مـن الجواب : سـوف تؤذيك الشمس ايها الصغـير .

« وسحبتني الى مكان ظليـل » .



استلقت المراة على العشب ، وجلست قربها وانا اعبث بالتراب واخط رسوماً دون كلام . وكانت الرسوم طرقاً للسير ، تؤدي الى مدن وهمية مجهولة ... واحياناً تحيطها الحقول وتهجع تحت شعاع من الصيف .

وكانت تتامل الرسول.. واحياناً تنظر الي ـ اعطيتها نظرة خاطفة .. كما لو انها خروج من اشعة الشمس ـ اشاحت وكانها تريد ان تلوي بالعينين والوجه .

وجاءني الصوت الخفي : انها ذكية . لا تخلع القناع يا ولد .

« ثم طال التأمل والصمت » .

قالت بغتة : انا اسافر دائماً ايها الصغير .
سألتها : لماذا ؟

اجابت بحزن : العالم يتغير باستمرار ، والانسان توق الى المجهول .. توق غير محدود.

ولانني لم افهم من كلامها اي شيء ، قلت : وهل تسافرين وحدك ؟

(وكان في قولي هذا تلميح خفي لرغبتي في التشرد ، واجتياز الحدود الواسعة المغلقة لطفولتي الوهمية) .

قالت : هل تذهب معي ؟

وتثاءب الطفل الكامن في داخلي ـ ماذا ساعمل ؟ وكيف ساعيش .. واين سنذهب ؟ لقد رحلت كثيراً الى عوالم خيالية ، ولكنني لم ارَ شيئاً بعد من العالم الحقيقي . ثم انني من طبيعة مغلقة ، وانا اخاف من المجهول يا امراة .

قالت ، وهي تبتسم في وجهي : ما تزال في مرحلة لا يحق لها ان تعرف فيها اكثر مما تعرف الآن .

ولكنني ساطلعك على كل شيء فيما بعد . سأريك عوالم لم تحلم بها الى اليوم .

ـ حتى عالمك الخاص ، أو ماضيك المليء بالأسرار ؟

« وكان في وجهها الذعر » .
قلت : انني ، دائماً ، احس الزمان .

اجابت باستسلام : ربما يا ولد .. ربما نفعل اي شيء .

وبدا لي ان حجتها منطقية ومقنعة ... او هكذا رايتها ذلك الوقت . لذا اسلمت قيادي لهذه المراة العجيبة التي تريد ان تستأثر بكل شيء فيَّ .

تساءلت سراً عن فائدة طفل صغير مثلي ، لامراة خبيرة قد جابت الآفاق !! ثم لماذا انا بالذات ، وهناك اطفال كثيرون ؟

واعتراني الخوف . وتخيلت الجنائز التي شيعوها امام عيني ، والعفاريت التي كانت تبرز من الظلمة . وانبثق في خاطري ذلك العالم المسحور الذي وعيته في تشردي السابق . ولكن عندما عزمت على التراجع ، كنت قد قطعت معها مسافة طويلة ولا مجال للنكوص .

واشترت لي بادىء الأمر البسة جديدة ، ولما سألتها عن السبب ، قالت انه يجب علي او ابدو بهيئة مقبولة خلال الرحلة ، لئلا اثير الشكوك .

قلت ، وقد عاودني الخوف : هل سنقوم بأعمال من هذا النوع ؟

ـ لا ..
ـ اذن ؟!
قالت : هكذا اريد .

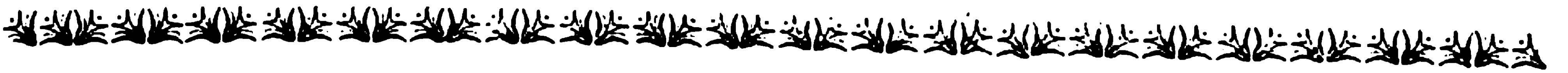
سكت مرغماً وانا اشعر بندم عميق ـ فقد غدوت تابعاً لها مجرداً من حق تقرير المصير . وهذا ما دفعني فيما بعد لأن اخفي رغبتي ولا اظهرها على الاطلاق . وقد افادني هذا الأمر ، اذ انني عندما كبرت ، خدعت كثيرات دون ان يتطرق الشك الي .

وكان يعزيني هذه الفترة ، امل ضئيل بأن يطول بقائي معها ، فاتقدم بتجاربي اكثر ... وحينئذ سأبرز ميولي دون خجل او خوف ، وافرض عليها ارادتي واخضعها مثلما تفعل الآن.

وعندما التفت نحوها ... وجدتها ساهمة وعلى وجهها البؤس . فاستغرقت فيإحلام براقة مجنونة ، وانا عازم على رفقتها الى الأبد .

★ ★ ★

كنا سائرين بلا هدى ، سادرين بلا امل ... وفي اعماقنا تساؤل مبهم عن المجهول الذي يربط بيننا ، ويوقف الرغبة الحقيقية في رمي الأقنعة والظهور بلا الوان .



وكان يسيطر علينا احساس بتفاهة التجربة، ويغلق الطريق في وجهينا شعور بالوضاعة، ينبثق عمداً من صميم الخطيئة المخجلة ، ويملأ كياني بسم قاتل . وقد اوشكت مراراً ، لسذاجتي الطفولية وقلة خبرتي بالعواطف الانسانية ، ان اطلق مشاعري بوجهها واطلعها على محور الدور. لكنني كنت واثقاً انها ستهزأ من اخلاصي المضحك ، وتستعبدني الى النهاية . وقد استغربت فيما بعد ، كيف انني فطنت ـ رغم طفولتي ـ الى امور كهذه .

وعندما استفقنا من الأحلام ، بدت على البعد اشباح معتمة ... تلفت حينئذ الى المراة ، فرايتها تخالسني النظر باهتمام زائد ، وبارتياب !!

قالت : سنسكن هنا .

شعرت برهبة ـ فقد كانت تخيفني الظلمة منذ الطفولة ، كما انني لم اتبين اي شيء يصلح للعيش. لكنني ما تكلمت ولا جرؤت على الاعتراض. بل أومأت لها براسي علامة الخضوع . وعندما اقتربنا من الأشباح ، داخلني شيء من الطمانينة والهدوء : فقد رايت بيتاً قديماً ترك الزمان آثاره جلية عليه . لكن الغريب فيه ، حديقته الواسعة المهملة .. وكانت تحيط بها اسوار من الهواء ـ فاذا بلغنا جوانب البيت ، سمعت لغطاً من الداخل ... مع ان ظاهره يوحي بانه مهجور منذ امد طويل .

تلمست بأناملي الباب ، وطرقت بهدوء زائد عليه ...

غمرتني عفونة رطبة من الهواء الحبيس ـ

صرخت بفزع ودهشة !! ذلك انني لم ار اي انسان يفتح لنا الباب . وعندما ايقظت بصرها الى هذه الظاهرة ، ضحكت بصوت خشن فيه كل معاني ظفر الحقد . ثم سحبتني الى الداخل بقسوة شرسة ، واغلقت خلفنا الباب .

ادركت انني سجين ـ

(عاودتني شكوكي القديمة في حقيقة الدور ، وتمنيت لو انني ظللت مكاني ، في حقولي الوهمية، ولم ارافقها على الاطلاق) .

ولأخفف من حدة الصمت ، قلت لها ضاحكاً وانا آخذها بين ذراعي : هل سنقضي العمر في هذا المكان ، ام انني سارى بعض الأمكنة ... شيئاً مما حلمت فيه ؟

ـ اجابت بضحكة غامضة: ربما قضيت عمرك .

ـ وانت؟

قالت ، بصوت يخنقه الدمع : لقد لعبت دوري واكلته في زمان سحيق .. وما تبقى من حياتي لا يجوز ان احسبه من الحياة .

ادركت انها ستوصلني الى هذه المرحلة ، لأكون شبيهاً بها الآن . وعندئذ لا اجد في نفسي رغبة في الخروج، لأنني اكون قد اضعت الحياة.

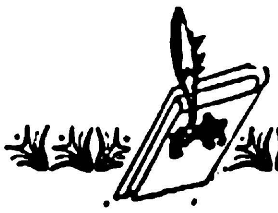
ولما تقابلنا وجهاً واشتبكنا على الوجه ... رايت في عينيها علائم استسلام ابدي ، وعلى وجهها طفت نضارة عهد ضائع ـ

كانت تقترب مني بخطا بطيئة مترددة ، وشفتاها مثقلتان بتفتح رغبة حبيسة ... وعندما طوتني على يديها الكهلتين ، رميت وجهي بين ثدييها ، لأبداً ، بطريقة مجهولة ، تاريخ مستقبل مظلم .

★ ★ ★

طالت اقامتي في السجن. وقد منحتها باخلاص كل كياني هذه الفترة: كنت لا استطيع المقاومة، واظهرت لي من الحنان ما ازال رغبتي في الأذى . ولكنني رغم ذلك ، كنت اقسو عليها احياناً بدافع من شراستي الطفولية ... دون ان انسى عوالمي القديمة ، والحقول الوهمية لعالم الطفولة : عالم الكآبة والخوف ـ وقد ظهرت آثار هذه الذكريات فيما بعد ، اذ كانت تعتريني فترات من الوجوم والحزن ، دونما سبب معروف . وقد سألتني مراراً عن كآبتي المفاجئة ، فكنت اجيبها اجابات مبهمة ، واحياناً اقول لا شيء ـ لكنها ادركت ، بفراسة الأنثى، انني غير راض عن اقامتي معها ، وان هناك شيئاً ، لا تستطيع مهما بذلت من جهد ، ان تنتزعه من اعماقي او تنسيني اياه . وهذا ما دفعها للتفاني في ارضائي ، لتحتفظ بي الى آخر خطوة في الدور .

كنت اغافلها احياناً .. عندما تكون على ذراعي في خضوع مطلق . وكانت هي الفترة الوحيدة التي ترمي فيها ظاهرها وتنزع آخر قناع يستر عريها المجهول. اغافلها... فاتجول في جوانب المنزل لاجلو الغموض الذي كان



يسوده ، ولأهيىء مسالك الهرب لما بعد : كنت اخاف ان تفاجئني ، او يفاجئني احد ، وانا اعزل من كل شيء .

كان منزلاً عجيباً لم اشهد مثيلا له في حياتي قط . كان مغموراً بظلمة كثيفة في ظاهره المكشوف ، اما داخل البيت ، فكان يترجح بين الظلمة والنور .

سألتها مرة ، لأختبرها فقط ، وكانت قوتي تنمو ببطء : ارى آثار اقدام كثيرة !!

تملصت بعنف من ذراعي .. وامسكتني بنظرة عدائية توجهها الدهشة !! وكانها ما توقعت مني هذا السؤال . ثم ما لبثت ان فتحت لي الباب ، قائلة بلهجة الواثق : اخرج اذا شئت .

ولأربح الوقت ، بغية التفكير في ايجاد مخرج من الورطة التي اوقعني فيها التسرع ، ولأخفف من حدة غضبها ، ولأنفي التهمة ، قلت : لا اريد الخروج اليوم ، ولكنني اتساءل ما اذا كنا سنظل دائماً في البيت ، او ما اذا كنت استطيع التجول وحيداً في ارجاء البيت .

قالت : كأنك سئمتني بسرعة !!

ــ لا ... لم يأخذني هذا التفكير بعد .

قالت : لنخرج اذن سوية اذا كنت تحب الخروج .

اجفلت لدى الجواب ــ كنت اتوقع كل شيء منها الا ان تقترح علي الخروج . لأن الفارق الهائل بين عمرينا يثير التساؤل ، ويدفع الناس الى الارتياب . سيما وهي تلوح كالضحية ... وانني المسؤول .

لأنفي شبهة التخلص ، قلت : لكنني اراك متعبة .

قالت بصوت آمر : لنخرج سوية .

تتجمع في اعماقي قوى مبهمة .. قوى كأنها جديدة علي .. لذا اردت ان اختبر ذاتي هذه المرة . وفي سورة شعوري بقوتي الوهمية ، تركت لها المنزل وخلفتها وحيدة .

وما ان خرجت من الباب ، حتى تقيأت سريعاً كل الرواسب ، ورميت كل الأقنعة التي شوهتني فترة طويلة ... دون ان احسب حساباً لعودتي في يوم .

وعندما لفني العالم المجنون واعمى الظلام عيني ، تيقنت انني ما زلت غراً ، وان خبرتي لم تكتمل بعد .

لكنني تابعت طريقي ... مستعيداً ملامحي القديمة وكل احلام الطفولة .

تعثرت في طريقي وواجهتني صعوبات تعيسة ، لكنني احتملت مصيري بألم ، وانا اشعر بكبرياء غريبة تشمل كياني وتضعني في مستوى واحد مع العالم بأسره : فقد اصبحت، لأول مرة ، مسؤولا امام نفسي عن لوحة المصير .

ومرت علي في تشردي ايام طويلة ، امضيتها في عزلة كئيبة ؛ لأني بدوت غريباً عن العالم الذي اعيش فيه . اذ كنت لا ازال احمل ــ بلا قصد ــ بعض معالم السجن القديم . وعندما تقدمت اكثر ، كان التشرد قد استنفد قواي ، فشعرت بالفراغ والحرمان . عند ذلك ادركني الندم ، وعلمت يائساً انني تسرعت . وقد خالجتني نية الرجوع، لكنني تساءلت: اليست عودتي ايذاناً بالتراجع واعترافاً بأنني اخطات؟ الا يعني هذا انني تخليت طوال ايامنا المقبلة عن كل حق في الاختيار ؟

كنت اخشى ان استسلم اذا رجعت . وكان اكثر ما اخاف منه ، ان ترفض قبولي مهما فعلت . ولكن قدرتي على التلون واللعب ، ستنقذني حتماً من السقوط . وهذا ما كنت اثق به واعتمد عليه .

ولما رجعت اليها، وجدتها في مكان الوداع ـ كانت تجلس في الحديقة قريباً من الباب ، وفي هيئتها اطمئنان اكيد يخالطه شيء من السهوم . كانت تعلم انني سأعود ، وانني لا استطيع في هذه المرحلة على الأقل ، الاكتفاء بذاتي والانفصال عنها بشكل نهائي . وهذا ما اشعرني بالذل والهوان .

مضت علينا بعدها اشهر طويلة ، وانا ابعثر ايامي في الضجر والفراغ . وخلال ذلك تبدلت في ذهني حدود الزمن، وزال تعاقبه المعروف . فاختلط الحاضر بالماضي ... مع المستقبل المجهول .

آنذاك غفوت ــ



ثم وعيت العالم بطفرة مفاجئة ، فلم اعلم سوى انني كبرت . ومع هذا فقد ترسبت في اعماقي فترة حزينة مليئة بالسأم والاشمئزاز، وهي الصفة الوحيدة التي اكتسبتها خلال صحبتي لهذه المراة المجهولة ـ وقد ظلت معي هذه الصفة حتى نهاية الدور .

★ ★ ★

وحتى ذلك الوقت ، لم اكن قد اطلعت على هويتها بعد . ولما فاجأتها بالأمر ، رنّت في اذني نظرة حقد غريبة . والقت ، لأول مرة منذ التشرد ، عن وجهها القناع .

عادت كومضة البرق كل ايامي الماضية ، وتراءت لي صور الماضي القديم: الحدود المغلقة لحقول الطفولة الوهمية ، والجنائز التي شيعوا بها امي ، والفضاء الذي عشت فيه ، وذلك العالم المسحور الذي يمتد بين الكآبة والبراءة والخوف ـ لكنني تجلدت امامها واخفيت .

كنت قد كبرت خلال فترة السجن ... بينما ظلت في عمرها الذي رايتها عليه : كانها لم تتبدل ؛ كأن الزمان لم يترك خطاه على الوجه . تيقنت حينئذ ، بعد اكتشاف هويتها ، انني سأخسر المعركة فيما لو تجرات وسألتها عن ماضيها ومستقبلنا المريب .

شددت القناع باحكام ، وتركت لوجهي فرصة التكيف مع الموقف الراهن، ليرمي نهائياً، وحتى اللحظة الأخيرة ، كل التعابير التي يمكن لها ان تطفو على صفحتيه ـ وقد برعت في دور « التخفي » بحيث لم تستطع ، هي او غيرها ، حتى في ساعات الغضب ، ان تلمح شيئاً من اسارير وجهي او مما يدور في النفس .

يا لها من ممثلة بليدة.. والنساء على العموم بليدات !

لم تكن تعلم انها تخدمني بذلك ، وتقودني ـ بلا قصد منها ـ الى طريق النجاح . لقد هيأت لي فرصة التغلب عليها ، واعطتني مجالا واسعاً لأتمرن ـ بلا مسؤولية ـ على اداء دور الصراع . وفعلا تمرست جيداً فيه : وحينما دنت اللحظة الفاصلة ، قطعت بقسوة زائدة وبلا جهد ، كل صلاتنا الزائفة .

★ ★ ★

ـ ٤ ـ

كانت قد ارهقتني الذكريات .. وارعبني اكتشافي الحاضر ، فارتميت من جديد على الأريكة ، وفي جسدي حزن وتعب قاتلان ، وفي عقلي حيرة تستعصي على الحل !! اذ حينما تمعنت في المراة ، التبس الأمر عليّ وزايلني يقيني السابق ، ذلك الذي احسسته في لمعة الحدس .

تساءلت مجدداً : اهذه هي المراة التي رايتها من قبل ؟ أم كانت ، بتأثير السجن ، صورة القناع ؟ يمكن ان يخطىء الحدس ؟

(مزقتني قوى عديدة ومتناقضة ، واعتراني شعور بفشل مرير : كنت أؤمن بالحدس وابني كل سلوكي عليه ، لكن التسلسل المنطقي ، وتأثير الزمن ـ وايماني بهما لايتزعزع ـ يدخلان الشك في قلبي ويهدمان كل دعائم الحدس) .

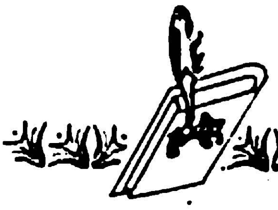
وخوفاً من حدوث مفاجآت غير منتظرة ، واتقاناً لدوري الذي العبه ، لم اطلعها على شيء من حالتي الراهنة ـ اكتفيت بالصمت ، واشعلت سيكارة ... وانا اتابع دخانها بهدوء عجيب .

★ ★ ★

كان الظلام يلتحم حولنا ببطء ، والأضواء تختفي واحداً بعد آخر ، والمراة ما تزال في مكانها من الغرفة ، وفي حركاتها ما يدل على نفاد الصبر، رغم ان وجهها كان مجللاً بالظلمة .

تنبهت الى ان سيكارتي لم تنته بعد ، لذا كان وجهي هدفاً سهلا لنظراتها الخفية . اطفأتها بسرعة وعدت الى التأمل من جديد .

كنت افكر في طبيعة الدور الذي سألعبه ـ فقد لعبت حتى الآن عدة ادوار بسيطة : لعبت دور ا لعبودية ، والندم ، والتمرد ، والحزن . لعبت ايضاً دور المضحك الانساني، والغرام الزائف ، وكنت العب احياناً دور الغرام المجنون ـ لعبت كل هذه الأدوار ، دون ان يكون فيها ما ينبىء انني وصلت الى الدور الذي تريدني من اجله . كانت تغمرني حيرة مستبدة ويمزقني خوف من المجهول ما يدريني انني سألعب الدور الرئيسي دون ان اعلم انه المقصود ؟ لأنها كانت قد هيأت لي الفرصة من قبل ، واخبرتني بادوار كثيرة دون ان تشير الى الهدف الحقيقي من علاقتنا آنذاك .



لم استطع ان اكتشف طبيعة الدور، ولكنني استنتجت ـ على ضوء التجارب السابقة ـ انها تريدني أن ابدأ اللعب ، ان اقوم بالحركة الأولى... بمهزلة الافتتاح، لتقودني فيما بعد، بطريقة خفية ، الى الدور الذي تريد ، لأنها كانت تحب ان تبدو امامي بدور الشهيد؛ لتفلت من المسؤولية ، وتحتفظ بكبريائها ، فيما لو دفعت من كياني وعمري ثمن الظهور على المسرح.

كانت ستهزأ مني واخسر في نهاية النضال، اذا استطاعت ان تغريني بالبدء . لأنه يستحيل عليَّ الرفض او التراجع ، ما دمت البادىء ، مهما قست بعد ذلك عليَّ في الدور : اذ بين كل عاشقين ، يوجد غبي واحد ، هو الذي يعترف أولاً بالحب . لأنه سيخسر مهما كانت المواهب التي لديه . وقد تأكدت من هذه النتيجة في ايامي المقبلة ـ فقد احببت احدى الفتيات . وفي لحظة اندفاع اهوج ... بدات الخطوة الأولى واعترفت لها بالحب ، فكان ان لعبت بي على هواها واستعبدتني اياماً مديدة ، مرتكباً خلالها آلاف الحماقات .

كان عليَّ اذن ، لأربح ، ان احطم مقاومتها وارغمها على رمي القناع .. لتبدأ الخطوة الأولى من الدور .

★ ★ ★

تخليت مؤقتاً عن التفكير في طبيعة الدور ، حيث اخذ يفقد اهميته في لحظتي الحاضرة . لأنني كنت واثقاً من النجاح فيما لو جعلتها تبدا ايا كانت طبيعة الدور . لذا عدت افكر من جديد في الوسائل التي يمكن لها ان توصلني الى الهدف ، مستعرضاً شتى الحلول .

كنت اعرف نقطة الحزن فيها ، واعرف نقاط الحزن في النساء عامة . لذا قررت ان العب معها دور البراءة المطلقة ... ان ابدو امامها بهيئتي الطفولية ، لتستعيد امومتها ـ وتلك هي نقطة التصدع والحزن في عواطفها ، وعواطف النساء من الأزل .

كان قصدي الحقيقي من دور « الطفولة ».. ان اوقظ رغبتها الدفينة في استعادة امومتها، لكنني بالوقت ذاته ، كنت اريد ان اتيقن منها ... ما اذا كانت هي التي عاشرتها من قبل .
كنت اعرف ايضاً ان النساء فضوليات ، وانهن يدفعن كثيراً لارواء فضولهن . لذلك قررت ان اخفي اهتمامي بها .. ان اتجاهل الفرض من صحبتها على الأقل ، لأرغمها على اظهار الحقيقة ، واستثير فضولها لاكتشاف طويتي الغامضة .

قلت لها : لنلعب .
« وانا اضحك بلا سبب » .
قالت : عن شرط ؟
قلت : وكأنني لا اكترث بالأمر ، ودون ان اذكرها بأنني ضحكت سابقاً من هذه الفكرة : عن شرط .
سألتني بلهفة : عن اي شيء ؟
ولأترك فرصة للهرب ، قلت : لا يهم . الفائز منا سيختار .
اجابت بصوت قاطع: انني اصر على التعيين.
قلت : الفائز ، يختار زمان اللعب ويحدد الأدوار .

سألتني بدهشة كاملة: اي لعب واية ادوار!!
ببراءة عجيبة ، ودون أن يبدو علي انني تسرعت ، قلت : احدى لعب الأطفال .
وبعد صمت طويل ، قالت : انني اوافق .
ـ اذن لنلعب « الورق » .

وعندما بدانا ، اعطيت وجهي بريقاً من الحماسة المطلقة ، بهيئة من يحسب حساباً للنتائج ـ وبعد ان قضينا فترة قصيرة ، خرجت بتعمد غير ملحوظ ، عن قواعد اللعبة ... واخذت ارمي اوراقي دون اهتمام ولا روية ، وكأنني فريسة حظ عاثر . وكنت قد غافلتها خلال توزيع الورق فوضعت بين اوراقها كل « الشباب ».. وعندما اخذت ترمي اوراقها، شاباً بعد آخر ... قلت لها بهيئة الأطفال : يبدو انك تحبين الشباب !

قالت دون تفكير : بل الشباب يأتون الي .
توقفت قليلاً عن اللعب .. ورفعت عينيها لتخطف من وجهي نظرة سريعة ، ثم رمت بصرها الى الأرض ، يشملها شرود عميق .

كانت تحاول ، بلا ريب ، ان تكتشف المعنى الخفي وراء اشارتي تلك . ويبدو انها يئست، او غادرتها ، مؤقتاً ، هذه الفكرة... لأن وجهي كان بلا منفذ ـ لذا رايتها تستعيد هيئتها السابقة ، لتستأنف اللعب من جديد . ولكنني،

بالوقت ذاتـه ، قذفت اوراقي بتأفف ونـزق طفوليين ، مبدياً رغبتي في عدم متابعة اللعب.
سألتني باستغراب : الن نتابع ؟!

ولكي لا اعطيها جواباً تستشف منه، تجاهلت سؤالها وارتميت في حضنها بوداعـة .

بـدت على عينيها غيوم ارتياب حـذر ... وارتسمت على وجهها ظلال من الدهشة والحيرة والخوف : لقد باغتها بسرعة وعطلت لديها كل تفكير منظم ، فوضعتها بحركتي المفاجئـة في موقف الاختيار ـ كان عليها ان تختـار ، ان تحـدد مصيرها لما بعـد .. وان تقوم بالخطوة الأولى مـن الدور ، كـرد طبيعي على حركتي المفاجئة . وهذا ما كنت اريده واسعى اليه .

لم يكن باستطاعتها ان تتردد ؛ لأن اي تردد يعتريها يعرض مقدرتها للشك ، ويضعها امامي في موقف الخائب .

كانت تستطيع ان تتجاهل وضعها الحاضر ، وتحذف نهائيا موقف « الاختيار » . فتخطو ، بغباء متعمد، خطوة لا علاقة لها اطلاقا بأهدافها الحقيقية . وهذا ما كنت سأفعله لو رمتني في مثل وضعها الآن . لكنها كانت من الغباء الفعلي، بحيث اسفرت عن وجهها بلا حيطة ، واظهرت رغبتها الدفينة التي راودتني مـن اجلها اياماً طـويلـة .

اخـذت تعبث بشـعري وتربت على عنقي بنعومة ـ احسست بالضيق يمتلىء به صدري. كدت اتقيأ فعلاً من يديها الضامرتين وحنانهـا المريض .

كانت هوة عمرينـا هي المانع الحقيقي مـن اشتراكي باخلاص في التجربة ، والاندماج بلا قرف من الدور . وهذا ما كان يدفعني لابقـاء القنـاع في لحظة الاستراحة .. وحتى بعـد الانتهـاء مـن التمثيل . لكنني حبست ما في نفسي ، واظهرت انني نائم بطريقة طفل مدلل.

تيقنت ، مـن ملامسة خديها ومـن دموعها التي امسكت وجهي ، انهـا نسيت اننـا على المسرح .. وانها تلعب الآن بلا تكلف ولا اقنعة، دور الأم الطبيعي .

(كان يمزقني في هذه اللحظة ، تأثراً باخلاصها المطلق ، شعور قوي بالوضاعة ، ويثقلني ندم حزين . وقد اوشكت مراراً ، بضغط الشفقة التي اعترتني ، ان امنحها ذاتي باخلاص مماثل ، او اطلعهـا على الربـاط الحقيقي في علاقتنـا المشتركـة .

كنت اشفق عليها بكل كياني واود من اعماقي لو انني ما خدعتها مـن البدء . وكانت هـذه بيتي اول الأمر ، بحيث اوشكت مراراً ، لولا ان اتراجع بسرعة ، ان اخلع القناع وابدو بلا اضباغ . لكنني تذكرت، بلا رغبة في التذكر، اننـا على المسرح ... وان المتفرجين يرقبون المتـاهـد وينتظرون ولو هفـوة بسيطـة ، ليسخروا مني ويضحكوا علناً من عرينا المفضوح.

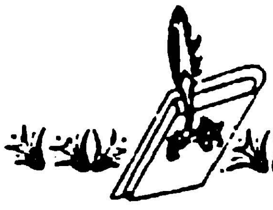
كنت مرغما على الاحتفاظ بهيئتي حتى انغلاق الستائر ، وكنت احب ان تفعل ذلك ـ لكنهـا نسى ، بتأثـير الظمأ الدفـين ، ودون تبصر بالعواقب ، فوارق الأزل بين عمرينا .. وتسفر عن عري انا كنت اخجل منـه) .

تركت لهـا ذاتي بلا مقاومة ـ كنت اريـد ان العب دور المحايـد ، لأثبت لهـا في ايامنا المقبلة ، انني كنت ضحية براءتي الوهميـة ، وحرمانهـا المجنـون ...

(كنت اعلم انني ساضع في المستقبل ، على صعيد واحـد ، كل الفوارق التي بيننـا ... اضعها مـع النتائج النهائيـة ، والمحتملة ، لأيامي الحاضرة ـ وكانت **النتائـج المحتملة** لا النهائية ، هي التي تستعصي على الحدس ، وتملؤني قلقـاً وخوفاً غـير محدودين . لكـن الحاصل سيكون صفراً على الدوام ، فيمـا لو تركتها تحتل دور الشهيد : وهذا ما كانت تحرص على القيام به منذ بدء العلاقة) .

تركتني بفتور من ذراعيها ، واخذت تتأملني!!
لم تتوقع ان اقابلهـا بذلك الهـدوء المطلـق والحياد التام . ولما لم تجد في هيئتي اية رغبة في البدء ... فقد عادت تضمني مـن جديد ، بادئة بأول خطوة من مصيرها المحتوم .. وقـد تخلت بلا تردد عن دور الشهيد .

لفحتني انفاسها المحرقة .. فشعرت برعشة مؤلمة في جسـدي ـ كانت تلاعبني بطريقة مكشوفة وتضغط باستمرار عليَّ . كانت تريد ان تضعني فوراً بدور « الرجـل » لتختبر عفوية براءتي . لكنني ظللت على حيادي كأني غير مقصود بهذه الملاعبـة .



ساورتني رغبة خبيثة : ان امهلها الى الياس مني.. الى ان تطفو على وجهها الخيبة، وتعترف بطريقة غير مباشرة ، انني استعصيت على خبرتها وصمدت لاغرائها الفاشل - وحينئذ العب دور « الرجل » .. لتدرك بعد فوات الوقت ، انها كانت العوبة بليدة امام طفولتي الوهمية .

كانت هذه رغبتي الأصيلة حينذاك . وكنت عازما على تنفيذها بكل يقين ، لأثبت لها انني كنت عارفا منذ زمان اللقاء ، بماضيها واحلامنا الحمقاء - لكنني شعرت ازاء ضغطها المتزايد وعريها المكشوف ، بتفتح ساخن في اعماق جسدي ... وبمقاومتي تنهار . ثم رانت غيوم كثيفة علي ،

« وامتلأت عيناي بالنجوم .. »

وعندما دنوت منها لنلعب ، بلا مستقبل ، مهزلة « الغياب » .. كان الألم يزرع الدموع في يديها ويرسم على صفحتيها ظلال ندم عميق .

اصبحت مهددا وخائفا هذه اللحظة : كنت اخاف ان تتراجع.. ان تستعيد ماضيها وتخلص من الوهم ، وحينئذ ستدرك حقيقتها وتفلت من يدي . وعندما لمحت فيها نية التراجع ، اغلقت في وجهها الطريق ، وقررت ان العب - مهما كانت النتائج - وبلا شفقة ، دور القسوة المطلقة:

زمان الحشرات ... والحقول الواسعة ... وصيف العالم المجنون .

خلعت بعنف براءتي الوهمية ، ودخلت فوراً في دور « الرجل » - متخطياً بطفرة جسورة ، عنادي السابق ، وهاوية الزمن ، وكل فواصل الجسد بين عمرينا .

. . . .

شعرت بخدر ثقيل يتغلغل في لحمي وينهك رئتي ، وبالهواء تملؤه عطور مسكرة - كنت ازلق الى عالم الغيبوبة ، واجتاز تجربة موت مؤقت.

وعندما اخذت تلفني الظلمة ويقتلني الهدوء، وجدتني استعيد طفولتي الضائعة : امي التي ماتت ، والحقول الواسعة ، وظلالا تآكلت ... للمرأة التي رايتها ذلك الحين .

كانت الفرصة مهيأة لأقارن بين المرأتين ... لأكتشف ما اذا كانت هي امرأة الطفولة - وعندما تعمدت ان استعيد الذكريات واتعرف على صورها المنسية ، اخذت تتوارى هذه الاشباح. كان العدم يطوي كل شيء .

حتى سارت الظلمة : كان المطر يتساقط على الأرض ، والجمر يتوهج في المدفأة ، وانا اغيب عن الوعي واتمزق بخجل كئيب .

كنت ادخل نهائيا في مهزلة « الغياب » .

— ٥ —

فتحت وجهي على فراغ مبهم - كانت العتمة تحجب كل شيء حوالي . كنت بلا جسد ، وكان العالم يهبط الى اسفل ، وينزلق الى هاوية بلا قرار .

مضت علي فترة طويلة وانا غائب عن الوعي. وعندما لامس النور عيني ، وجدتني ملقى ، وحيدا ، على الأرض !!

كانت التجربة ثقيلة على عمري ، فخرجت منها بوعي منهك ، وبجسد يضج شوقاً الى مزيد من التجارب . وكنت على يقين بانني فتحت الطريق امام جسدي ، وخطوت اول خطوة في تاريخه المظلم . ادركت انه لا مجال للتراجع بعد اليوم ، وانني سامضي حتى اعماق التجربة الجسدية ... ذلك انني تفتحت بين ذراعيها ، لتقطف مني بكر التجارب ، ولأحتفظ بهذا التفتح حتى اواخر الدور .

تطلعت ، حذراً ، حولي ... كنت مكشوفاً امام ذاتي بلا تنكر ولا اصباغ . كنت عارياً من كل شيء !! حتى براءتي الوهمية... كنت عارياً منها حينذاك .

ارعبتني شراستي الوحشية وتمزقت حجب النسيان - كانت مخالبي ملطخة بالدم ، وآلاف الجثث على يدي .. وانا اعدو بلا تراجع في حقول واسعة من صيف العالم المجنون .

ايقنت بعد ان عرفت ماضي ، انني سأتغلب عليها واطويها حتى نهاية الدور.. وانها لن تستطيع حتى لو استردت شبابها ، ان ترغمني على خيانة ذاتي وابقائي في قيودها الذهبية ،

« او الخضوع لسلطانها الجسدي » .

غادرت مكاني وانا مثقل بحقد دفعني فيما بعد، للتخلي عن شفقتي وهجرها في زمن هي احوج



ما تكون فيه الي ـ فعندما بدات تسترد امومتها واحيي قلبها الجدب ، رميتها بحقدي وبكل ما اختزنته من قرف جسدي . حتى اذا اصرت على الاستمرار في الدور ، فاجأتها بما لم اصرح به خلال ايامنا المشتركة ... فكشفت لها بوضوح زائد عن حقيقة الدور الذي لعبته طوال ذاك الزمان ، وعن شعوري خلال مهزلة الغياب .

★ ★ ★

قضيت بعدها اياما طويلة في تشرد كان يلقيني بكسل بليد على جوانب الحياة ، وقد خمد كل اهتمامي بأيامي الحاضرة .. فتركتها لمستقبلي دون تحديد .

كنت اعيش بين عالمين مختلفين ... عالم الواقع وعالم الخيال ـ وكنت ، في خيالي ، امضغ احلامنا الميتة ، واستعيد صور اللقاء . وكانت تمر بي الليالي في واقعي الجدب ، وانا انتظر عودتها واتساءل كيف انها فارقتني دون ان اراها او تحدد مصيرنا لما بعد . وقد ادركت آنذاك ، بحدس غريزي ، انها تريد ان تقصيني مؤقتاً عن مسرح التجارب ؛ لتختبر قدرتي على الصبر ، او لترغمني على البحث عنها : لتكون على يقين من خضوعي لها واغرائها علي ـ ولما لم اجد في نفسي اية رغبة في البحث ، فقد تركت ذاتي واستسلمت للحقد الذي كان يتخثر في كياني ويفصلني رويداً عن العالم . ولكن التناقض كان يمزقني بصورة لا تقبل الهدنة او الحل : كان جسدي في شوق الى مهزلة « الغياب » .

كنت في صراع بين جسدي وفكري ـ وكنت اريد ان احطم الفكر ، لأعطي جسدي كل مجاله الغريزي .. فقد كان في سورة التمرد وعنفوان الشباب . لكن تمردي سيهدم كل ما بنيته ويجلعني اسير الجسد حتى النهاية . كنت افكر في هجرها لأستعيد ايام الطفولة ، ولكن رغبتي في اكتشاف ماضيها وان اعرف ما اذا كانت هي التي رايتها من قبل ، كانت تدفعني بضغط لا يقاوم لأستمر في دور العبودية ... وهيام ابله بلا رصيد .

تركت ايامي وكل احلام الطفولة ، واخذت ابحث عنها بلهفة فارغة ، وعلى وجهي علائم حزن مضحك ـ وقد بحثت عنها في طرق كثيرة .. في دروب الحزن واليأس والخوف . حتى اذا التقينا ، كان قد استبد بي اليأس ، وانهكتني الدروب .

حاولت ان اخدعها في البداية ... ان اضع على وجهي علائم الحب ـ لكنني ، عندما رأيت خديها الضامرين ، شعرت بغصة تحبس الكلام في صدري .. وبعيني دافقتين بالدمع : كانت شفقتي عليها كاملة هذه المرة ، وكنت ابكي من الأعماق .

وعندما اقتربت منها ، لمست فيها ظلالاً من القسوة والحذر والحقد ـ

كان مستقبلي هذه اللحظة ، يتوقف على اطمئنانها الي ـ وقد لاح لي انها تريد ان تدخلني في صراع فاصل ، وجهاً لوجه . ولكن الوقت ، بالنسبة لي ، لم يحن بعد . كما انني بطبيعتي ، اكره كل شيء علني . لذلك ابتسمت لها بمرارة ، دلالة الخطيئة واليأس.. وتركت جسدي يقوم بدوره المألوف .

(جازت الخدعة ـ يا لها من ممثلة غبية !!) .

كنا ظامئين ... وكان شبابي ، ورغبتها في تجاهل الزمان ، يهيئان لنا الفرصة : لأحتفظ بحقدي دون ان اسفر عنه ، ولتنسى نهائياً غرورها الموروث .

وعندما اخذتها بذراعي ، شعرت ان كل عواطفها تتركز على شفتيها الجائعتين .

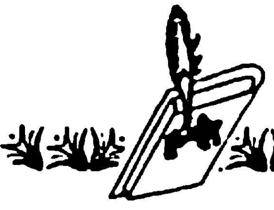
(اي حرمان كانت تعيش فيه !!) .

★ ★ ★

لا ادري كم ظللت غائباً عن الوعي . فقد كان علي ، تخلصاً من التناقض ، ان احذف من فكري خيال الزمن: ماضينا والمستقبل المجنون. وعندما استفقت ، كانت بجانبي هذه المرة ، وفي هيئتها علائم نصر مؤكد !!

كنت مستلقياً بلا رغبة ، والفراغ يتخثر في اعماقي وخدر مبهم يشل ارادتي ويميت كل تفكير لدي . لذلك كنت اظل مسترخيا ... واعاود النوم من جديد .

لم يكن في حالتي الحاضرة ما يشير الى هزيمة، او يعطيها الحق في الضحك. ولكن عندما تمعنت



اكثر ... تبينت انها كانت صائبة : فقد كانت من الدهاء بحيث استسلمت الي . وكنت من الطيش بحيث خدعت .. لأصبح تابعاً طيعاً كالحزن ـ وهكذا وقعما كنتاخافمنهواخشاه.

كانوا يرفعون الستائر ، والأضواء تشعل واحداً بعد آخر ... فبدوت عارياً على الأرض: كنت امثل الدور الذي تريد ، دون ان اعلم انني بدات اللعب ، او انه المقصود .

اخذ اليأس يتسرب الى قلبي ـ نويت ان اغادر المسرح قبل فوات الوقت . لكن هيئتها كانت تدل على انها ستمنعني من الخروج . وعندما اردت ان احاول ... رأيتها تضحك بسخرية لئيمة ، وبشي من الغرور .

سكت مرغماً على الاهانة ـ كنت محتاجاً لها هذه الفترة ، محتاجاً لجسدها الذي تنفقه بطريقة جنونية علي . كنت اريد لجسدي الذي شرع يتفتح على الحياة ، ان يعب منها حتى آخر نبضة فيه : لينضج ، ولأكتشف بطريقة غير مباشرة ، كنه الفوارق بين عمرينا . وكانت بدورها تقدم لي كل ما اريده ، وترضي ابسط نزوة فيَّ ، حتى ولو رغبتي في الحزن .

لم احسب وقتها شيئاً من الأيام . ولكنني اذكر انني مكثت طويلاً على المسرح . فقد كانت فكرة الزمن ترعبنا نحن الاثنين ، وتدفعنا لنسيانها بتفاهم مشترك :

كنت اخاف ان يطول بي العمر، فاندمج نهائياً مع الوضع .. والعب باخلاص عبودية الدور . حتى اذا وصلت الى آخر مشهد فيه ، لم اجد في نفسي اي ارادة للتحرر او الخلاص .

وكانت تخاف بدورها ان يسقط القناع فجأة، وتنهار تحت عبء السنين . وحينئذ لا مفر لها من مواجهة الزمان ، حيث تقضي فيه بقية العمر في اليأس ، وتغدو المتابعة في عداد المستحيل .

توالت بعدها الساعات ، وانا ما ازال على المسرح ـ كنت امارس اللعب بحماسة اول الأمر، ولكن كلما تقدمت اكثر ، كانت رغبتي تخبو مع الأيام . بينما ظلت رغبتها ـ رغم تقدم العمر ـ تشتعل من جديد . لذا كانت تتعجل الدور ، وتلعب بجنون ولوعة .

حسبت ان النهاية قد دنت ، وان آخر مشهد في المهزلة على وشك الوقوع . ولما عزمت على اختبار هذا الأمر ، تبين لي انني اخطات .. وكانت اول مرة اشعر بالعجز .

قضينا بعد ذلك اياماً مملة ـ كنت اقوم ، دون حاجة ، بدوري المعتاد . ويبدو انها ادركت ، بخبرتها الجسدية ، ان « المعادلة » خاسرة .. وان احد طرفيها كان يتجه الى الزوال !! لذلك شرعت تقسو علي ، وترغمني على المتابعة ، وان ابيع لها ذاتي بلا مقابل ... حتى جاءني زمن سئمت فيه كل شيء .

كنت سجين اغلالي الداخلية ، وكانت على يقين بأنني لا استطيع الفرار ولا ارغب فيه : لأن جسدي كان قد تلاشى في صحرائها القاحلة، ومات في روحي النضال .

كنت سجيناً بلا قيود على المسرح ، وكانت خاتمة الرواية وشيكة الوقوع ... ولكنها لم تتضح بعد ـ

وجدتني مدفوعا الى العبودية ، وكانت الخمر طريقي الى النسيان .

سقطت بلا محيص الى اعماق الهاوية ، وانشبت ، في لحمي ، اظافرها الخمر . كنت اعلم انها تقتلني رويداً وتجرني الى هلاك محتوم. ولكن ماذا كنت استطيع ان افعل ... وفراغي الروحي ، والظمأ الجسدي ، كانا يدفعانني الى الانحدار ؟ وقد شربت منها اكثر من المألوف...

حتى صرت في حالة غياب مستمر عن الوعي ـ كان العالم يتراخى امام عيني ، والأشياء تفقد ثباتها الأصيل .

كنت انسى وضعنا الحاضر ، واحذف كل ماضينا واحلام المستقبل . لذلك اختفى التباين بين عمرينا وزالت الفوارق الجسدية ـ **كانت تسترد امومتها وكنت اعود طفلا من جديد .**

تخلينا عن الحذر في هذه الفترة ، ورمينا كل خوف وريبة ـ فقد انهكتنا التجارب الماضية ، واترعت قلبينا بحقد هائل لا مشروعية له على الاطلاق . لذلك انتهزنا فرصة الاستراحة وغياب المتفرجين، لنلعب، بلا رغبة في اللعب، دور التعري والكسل والهدوء .

★ ★ ★



لأول مرة كنا عاريين !! ا

كانت الفرصة ملائمة .. فصرت اشرب بلا انقطاع . وكنت خلال ذلك استعيد كل الزمان، لاتيقن قبل الخطوة الأخيرة ، ما اذا كانت هي التي رأيتها من قبل : ذلك انني عزمت بلا تردد، ومهما كانت النتائج ، على **استرداد طفولتي** وانهاء الدور .

كنت انتظر منها لحظة غياب مفاجيء ، لأكتشف ما احتملتها من اجله طوال اشهر عديدة. وعندما جاء الغياب واطمأنت نهائياً الي ... حدثتها بما ترسب في وعيي عن طفولتي البلهاء: عن الحقول الواسعة ، والحشرات الصغيرة التي كانت بلا اجنحة ، والأشباح التي كانت تبرز لي من الظلمة ، والجنازات ... وصيف العالم الواسع المجنون !

وعندما كانت بكاملها علي .. ايقنت انني كنت صائباً في الحدس -

حدثتها بعد ذلك عن المراة التي التقيت بها خلال التشرد ، وعن سفرنا ذلك الوقت ... وكيف انها كانت تشبهها الى حد بعيد -

وضحكت آنذاك !!

سألتني عن الضحك !!

قلت: لقد رأيت مع المراة صورة احد الأطفال.

سألتني مرة ثانية بدهشة وعنف : ما الذي يضحك في الأمر ؟!

قلت : لقد كانت صورة الطفل تشبهني الى حد بعيد -

نظرت فيها ... كان وجهها هادئا كالموت ، وفي تصلب غريب .

عند ذلك جزعت ،

تراني كنت مخطئا في الحدس ؟ ايتهدم بلحظة كل ما بنيته خلال هذا الزمن الطويل ؟

(شعرت بالضجيج يمتلىء به راسي ، وبالعالم ينهار تحت قدمي) .

كانت تطل بوادر المأساة ، وصورة الفاجعة ترتسم في لوحة المصير .

كنت احتفظ بآخر سهم لدي ، بما لم أجرؤ على التلويح به في احلك الساعات . كانت هذه فرصتي الوحيدة : سأغامر ... والا ضاع سدى ، كل شيء .

رميت بعنف براءتي الوهمية ، وتركت لغرائزي فرصة الظهور ... فامتلأ وجهي بالقسوة ، وبكل ما ترسب من قرف واختزنته من حقد .

دنوت منها بثبات وجرأة - ومزقت لها القناع ...

وبصوت هادىء ، بلهجة الواثق : ذكرتها بهاوية الزمان ، وفواصل الحزن بين جسدينا - . . . .

تلون وجهها بالشحوب . وحاولت ان تضحك بادىء الأمر . لكن خانها التجلد ، فانهارت الأقنعة وساحت الاصباغ .. وبدت عارية امام عيني - اكتشفت الحقيقة وعرفت طبيعة الدور .

كنت هي التي رأيتها ايام الطفولة ، وكانت تريد أن تحيي شبابها وتسترد امومتها علي .

- ٦ -

كان كل شيء يؤذن بانتهاء الدور : فالأضواء تطفأ بطريقة غامضة . كأنما كانت تطفئها قوى خفية ..وبدأ المتفرجون يغادرون المسرح والأقنعة تتساقط واحداً بعد آخر ... لتفسح المجال للوجه كل يأخذ شكل تعابيره الأصلية .

وقفت القي عليها نظرة الوداع ...

كانت طريحة على المسرح ، منهوكة يائسة . وكان الزمن قد ترك آثاره جلية عميقة ... فامتلأ وجهها بالأخاديد ، وانطفأ بريق عينيها .. ومات في روحها النضال .

★ ★ ★

كانت الستائر تغلق رويداً ، والظلام يعم المكان - وعندما اختفى المتفرجون واطفئت الأنوار ، كان قد انتهى كل شيء .

★ ★ ★

كان الدور ناجحاً على العموم - فقد اختزنت في هذه الفترة كثيراً من التجارب ، بحيث لعبت فيما بعد كل دور بلا قناع .

★ ★ ★



كلمة الأمين العام للاتحاد العام للأدباء والكتاب العرب في ندوة مشكلات النشر والتوزيع وحماية ملكية الانتاج الثقافي وحقوق الكاتب العربي » ٠ طرابلس ٢٥ ـ ٢٧ نيسان (ابريل)١٩٨٢

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها السيدات والسادة :

باسم الاتحاد العام للأدباء والكتاب العرب أحييكم اجمل تحية، وارحب بكم احر واطيب ترحيب، واشكركم على تفضلكم بالاسهام في هذه الندوة «ندوة مشكلات النشر والتوزيع وحماية ملكية الانتاج الثقافي وحقوق الكاتب العربي في الوطن العربي » التي تعالج موضوعاً حيوياً بالغ الأهمية ، يتصل بحياتنا الثقافية والفكرية ، وبقيمنا الحضارية والخلقية ، اتصالا وثيقاً ، ويؤدي ايجاد حلول عملية وسليمة لتلك المشكلات الى توافر مناخ افضل وشروط انسانية حول المبدع العربي من جهة ، والمتعامل مع الابداع ومتلقيه من جهة اخرى . وينعكس ذلك ايجابياً في سوية انساننا الثقافية وفي تسريع وتصعيد مسيرته نحو الخلاص من اشكال التخلف والاستلاب والتبعية، في مسيرة تحرير الذات وتحرير الأرض والانسان من اشكال العبوديات كافة .

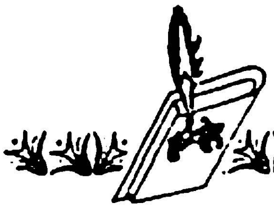
ان ما يعاني منه الابداع والمبدعون ، وما تتعرض له الكلمة خاصة من بين اشكال الابداع في وطننا العربي لأمر مفزع وخطير حقاً . وتنعكس تلك المعاناة على المتعاملين مع هذا الابداع والمحتاجين اليه باشكال مختلفة . ونجد الكلمة التي شرف الله ، والتي كانت بها الكينونة ، وبقيت من اجل الانسان منقذة وهادية وصانعة تقدم وارتقاء ، وسمو روح وعقل وهمة ، نجدها غير كريمة ولا مكرمة في كثير من الأحيان والأماكن والمواقف في هذا الوطن ـ وطننا ـ مهد الحضارات العريقة من ارض البشر .

وحامل الكلمة المكتوي بنارها يخوض معارك على جبهات عدة فتصمد به او يصمد بها مرات ، ويهوي بها كثيراً وتود ان ترفعه فلا يرتفع لمعوقات ومعطيات وظروف غريبة عجيبة .

وصانع الكلمة وناقلها عندنا شقيان ، شقيان بها وببعض اهلها ، فضلا عن شقائهما بأولئك الذين ينصّبون انفسهم اوصياء على « القصّر » من مفكرين ومثقفين وادباء مبدعين وكتّاب ، ويحاران كيف يواجهان ومن يواجهان اولاً ، وبأية امكانات ؟! ويتساءل الكاتب ذاهلا : اي المشكلات يصادم وأيها يتحاشى ، وكيف ينصرف بعد ذلك كله وقبل ذلك كله الى الابداع والى حمل الأمانة وايصالها الى الانسان، ابن الشعب ، الذي يتحتم عليه / واجباً والتزاماً وتطلعاً بل طموحاً / ان يتواصل معه وان يعبر عن ضميره ومعاناته ؟!

ان مبدع الكلمة في مواجهة يكتوي بنارها اعظم واشد اكتواء فهو اعظم بلاء وشقاء من ناقلها .

● **فهو في مواجهة مستمرة على صعيد التكامل السياسي ، مع سياسات متناحرة متخاصمة تمزق اطاراً تدعي انها تريد له ان يتواجد ويتوحد ويتماسك في مواجهة مزاجية اهل السياسة ونزواتهم وتسلطهم، مع ما تمنحه لهم سدة الحكم او ما يمنحون انفسهم حين يعتلونها ، من احساس بالتفوق والتحكم ، ومن امتلاك لحقوق ملكية الأرض وما ومن عليها، والتصرف بذلك كله تصرفاً تاماً .**



● وهو في مواجهة ما يرتبه قول الحق ، على رجل الحق ، في ارض تتعطش الى الحق ، ولا ينقذها الا افضل الجهاد : « كلمة حق في وجه سلطان جائر » ويريد ان يكون ضميرها وبتّارها ، ولسان حال أناسها وموطنهم . وهو صوت ان لم يسمع وينقلب الى قناعة في سامعيه ، تحمي الحق ولسانه، وتكوّن القوة وتقولبها وتحركها نحو اهدافها ، اصبح صدى ، بل صدى ملاحقاً في الأرض وفي النفس .

● وهو في مواجهة حدود وقيود الرقابات التي أقامت مخافرها في كل رقعة ارض ، وفي معاقل قلوب وعقول ، حتى انها غرست في لا وعية المبدع نوعاً من المخافر والمحاذير والممنوعات والمحرمات ، ورفعت عناوين اصناف « التابو » .

● وهو في مواجهة التزييف والسطو والتزوير وسلب الحقوق المادية والمعنوية التي يمارسها اناس فقدوا الحس الخلقي السليم وغدوا خطراً على كل قيمة .

● وهو في مواجهة اشكال الاحتواء والاغراء ،وسوق استهلاك الكلمة وتدجينها وشرائها ، وفي مواجهة خطر ان يكون تابعاً حزيناً بالريش الملون في موكب سلطان من سلاطين الزمان ، او ان يغدو مومياء تسعى في زمن الناس هذا على رجلين من حاجة ،ويهدهما الركض وراء ضرورات الحياة المعاصرة وشرك الاستهلاك المستشري فيها ، ضمن ظروف لا تحترم الابداع والمبدعين ، وبين اناس لا يزنون الشعر المبدع والأدب الرفيع والفكر الخلاق الا بموازين الخضار او المصالح .

وتنعكس محنة مبدع الكلمة ومعاناته على ناقلها الشريف ، ناشرها الأمين ، فتراه يروج بين تلاطم ازمات وصعوبات ومعوقات انتقال الكتاب واغراءات الاتجار والربح من جهة ، وبين آمال وتسهيلات ايصاله واستقباله بشكل مقبول واستمرار هذه العملية بانتظام . وفي هذا المجال ينبغي الا ننسى ان:

ـ الكتاب يعامل في بعض الحالات كما تعامل المهربات والسلع التجارية الرديئة .

ـ وان القرش العربي لا ينتقل من قطر عربي الى قطر الا بعد ان يتبارك في احد مصارف نيويورك او باريس او لندن ، ليصبح صعباً ، عملة ووصولاً ، فينتص ليفري بالتتام . واداء هذا القدّاس قد يكسر ظهر الناشر .

ـ وان شحنة الكتب لا تصل من قطر عربي الى قطر في وطننا الكبير الا بعد وقت طويل جداً ، حتى بتنا نشعر بوجودنا خارج عصر السرعة ، فضلاً عن الاحساس بالقطيعة فلا يكاد احدنا يعرف القليل عن انتاج الآخر . في حين ان كتب ومجلات وصحف القارات الأخرى ، سيما أوربا واميركا ، تصل الينا باسرع مما نتصور ، ونتعامل معها باحترام ، وندفع حقوقها بانتظام .

ـ وان الناشر « التاجر » الذي يستغل المؤلف ،يقوم الموزع بدوره باستغلاله ، ويتحمل عبء حلقات الاستغلال هذه ، ويدفع ثمنها الباهظ ، مادياً ومعنوياً ،طرفان فقط : المؤلف والقارىء .

في ظل هذه الظروف والمعطيات تناضل الكلمة ويناضل مبدعها وناقلها ، وتحت وطأة ما يخلقه هذا كله من مناخ صعب ، بل قل قتّال ، يعيش المبدع والقارىء العربيان . واذا اخذنا بعين الاعتبار حاجتنا الماسة الى فاعلية الفكر والأدب ، فاعلية الثقافة في انساننا ومجتمعنا لنخرج من الظلمات الى النور ، من التخلف الى التطور والتقدم من سيطرة الاستعمار والاستغلال الى التحرر ، من التمزق الى الوحدة ، من الضعف الى القوة ، ومن الديكتاتوريات الطافرة الى الديمقراطية المنقذة ، اذا اخذنا هذا بعين الاعتبار، وعرفنا ان المهمة الرئيسية في هذا كله منوطة بالكلمة الشريفة الواعية ، الحرة المسؤولة ، التي تصل الى الناس وتفعل فعلها الايجابي فيهم ، لعرفنا بعض الأهمية لهذه الموضوعات المطروحة ، والتي سيكون لاسهامكم دور في معالجتها .



لا شك في اننا الآن نمر بظروف واوضاع افضل من تلك الظروف والأوضاع السابقة على صعيد التنظيم والاتفاقيات الورقيـة ـ رغم ما تحمله مـن ثغرات وسلبيات ـ فهناك الآن : اتفاقية عربية لحماية حقوق المؤلف مصدقة مـن ثلاث عشرة دولة عربية ، وهنـاك اتحاد للناشرين العرب ، واتحاد للموزعين العرب حديثا التأسيس ، نرجو لهما كـل تقـدم وتطور وازدهار ، لينهضـا بمسؤولياتهما الجسيمة في مجالات النشـر والتوزيع ، وهناك تنسيق نامـل ان يستمر ويتطـور ويتحسن اداؤه ويؤتي أكله الطيب ، بين الاتحاد العـام للأدباء والكتّاب العرب ، واتحـاد الناشرين العرب ، وهناك نصوص مقبولة في أنظمة هذه المنظمات العربية ، اذا احترمت أدت الى نتائـج طيبـة . وهناك اهتمام بتأسيس شركات للشحن تعنى ، فيما تعنى ، بشحن الكتب وبايجاد تسهيلات لايصالها ، الى غير ذلك مما نحتاج اليه اشد حاجة . كل ذلك يدفعنا الى التفاؤل ، والى مزيد من العمل والامل . ولكن يبقى امامنا الكثير الكثير مما ينبغي ان نقوم به في مجالات نشر الثقافـة والفكر والوعي ، سيما اذا وضعنا في الاعتبار ظروف وطننا ومحنه ، ونسبة الأمية فيه ، والدور المؤسف الذي يلعبه الاعلام العربي في حالات كثيرة ، وما تتعرض لـه ثقافاتنا واجيالنا مـن غزو معاد وتشكيك قتال يمارسه بعض ابنـاء الأمـة اضافة الى اعـدائها ، وانعكاسات ذلك على قضايانا القوميـة ، ونضالنـا التحرري ، وتطلعنا القومي الوحـدوي .

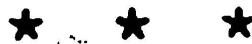
الزميـلات والزمـلاء :

ان ما ستقومون به مـن جهد في هـذه الندوة الثقافية التنظيمية المغلقة ، وما تطرحونه مـن آراء وافكار ، سواء في البحوث او المداخلات والمناقشات ، سوف يكون موضع اهتمام جدي من اتحادنا ومـن اتحاد الناشرين العرب . وسنعمل مع الجهات العربية المسؤولة والمعنية على ان تأخذ توصياتكم طريقها الى التنفيذ ، وعلى الا يكون هذا الجهد معزولا عما توصلت اليه المنظمات والندوات والوزارات المعنية في الوطن العربي من جهود ايجابية وبناءة في هـذه المجالات . وسنعمل على ان نضيف شيئاً يتتام مع تلك الجهود ، وعلى ان تأخذ القرارات والتوصيات التي تتخذونها ، ومواد الاتفاقيـات والقوانين والأنظمـة طريقهـا الى التنفيذ في الواقع المعيش ، وان تخرج من الورق الى ارض الواقع في التعامل العربي . ونعلق على دوركم وجهدكم في هـذه المجالات اهمية كبيرة . وارجو ان تسمحوا لي ختاماً ان اتوجه ، باسم الاتحاد العـام للأدباء والكتّـاب العرب وباسمكم جميعـاً ، بأحر الشكر وجزيل الامتنان للجماهيرية العربية الليبية ، شعباً وقيادات ، ولرابطة الأدباء والكتاب والفنانين فيها ، لمـا لقيناه من حسن استقبال وكرم ضيافة ولطف معاملة ، ولما قدم الينا من تسهيلات ستساعد على انجاح هذه الندوة . وليس هذا كله بكثير ولا بجديد على عراقة هـذا الشعب العربي المناضل الأصيل .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

طرابلس في ١٩٨٢/٤/٢٥

علي عقلة عرسان
الأمين العام للاتحاد العام للأدباء والكتّاب العرب



محاولة طرح لقضية

الكتاب العربي

بحث
للأستاذ بشير الهاشمي

ثلاثة محاور تدور في اطارها قضية الكتاب وتتكون من مجموعها محصلة المشكلة بصفة أساسية وتتفرع عنها منطلقاتها المتعددة الجوانب، وبقدر ما تتداخل معطياتها وتتشابك مهامها وأدوارها في تلاحم عضوي وتلاحق تأثيري متتابع ومترابط ، نجدها ايضاً في أحيان أخرى تتقولب في مدار احادي قائم بذاته يطرح معالجاته بمواصفاته الموضوعية في نطاق خصوصي متميز ولكنه غير منغلق او منفصل عن جانبيه الآخرين ، ولا يدور بمعزل عنهما بل انه في النهاية اشبه بالمثلث الذي تتشكل تركيبته في أضلاعه الثلاثة لا يتحقق تكامله وفاعليته الا بوجوده المتناسق والمترابط بين الأضلاع الثلاثة .

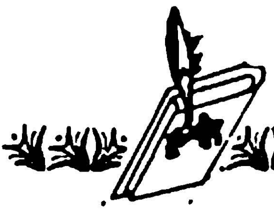
وهذه المحاور تتمثل في الكاتب والقارىء والناشر ، وهذا التقسيم الذي قد يبدو في ظاهره تقليدياً بطبيعة الأشياء ، هو في واقعه وحقيقته ذلك الخليط الذي يصنع في جملته قضية الكتاب وتتبع من بوتقته مجموع مشكلاته ويحمل على كاهله اثقال همومه ومتاعبه ، واحياناً ايضاً مأساته واحزانه وهو ما وصفه احد الكتّاب مرة بأنه (الثلاثي غير المرح)(١) الذي يؤلف مأساة الكتاب العربي على وجه الخصوص.

وبغض النظر عن حجم وصحة مدلول هذا التعبير المأساوي فهو يعكس بالضرورة مدى عمق المشكلة وايضاً خطورتها ، واهميتها الحيوية التي لم تعالج بعد بصفة جذرية ، وسوف تظل حسبما يبدو موضوعاً دائم التجدد وللطرح وابداء الراي .

وطبيعي ان يكون لكل من هذه المحاور الثلاثة ابعاد وتفرعات في نطاقها الخصوصي وفيما يشدها من التشابكات الدقيقة الحساسية مع الجوانب الأخرى فالكاتب تندرج في خصوصياته الحرية ، الموهبة ، الابداع ، الالتزام بالموقف الايجابي ، تحدي التسلط والنظم الفاسدة ، مواجهة العلاقات الظالمة واقتحامها، التلاحم العضوي بقضايا الثورة ، الأصالة والصدق وغيرها من القضايا التي تمس الكاتب في مجالات اسهامه الفكري والأدبي .

والقارىء مثلا تندرج في نطاقه قضايا محو الأمية، تشجيع وتنمية حوافز القراءة واقتناء الكتب ، الارتباط والاهتمام بحركة الكتاب ، توفير المكتبات وغيرها من القضايا الوثيقة الارتباط بالقارىء ومقومات الاقبال على القراءة وتكوين المكتبات المنزلية .

والناشر وهو همزة الوصل بين الكاتب والقارىء تقابله قضايا توفير الكتاب الجيد ، مشاكل الطباعة ، ومشاكل التوزيع ، توفير القنوات الموصلة ، موازنة سعر الكتاب بالقدرة الشرائية ، تحديد سعر ثابت ،



اعتبار الكتاب خدمة ثقافية اكثر منه ـ سلعة تجارية ـ الى آخر هذه التفرعات الطويلة التي تحتاج كل منها دراسة خاصة وموسعة ، والتي تمثل مداراً حيوياً لتحرك الناشر .

ورغم يقيني بطبيعة وحدة المحاور وان ضرورة معالجتها واهمية تناولها كوحدة متكاملة غير قابلة للفصل او التجزئة ، فسوف يكون تركيز متابعاتي هنا على قضية النشر والتوزيع ، وما يترتب على ذلك من حقوق للكاتب والمؤلف ، ومن بحث العوامل المعوقة لحركة الكتاب والدوافع المشجعة له والمساهمة في ازدهاره .

ودون رغبة مسبقة في اقحام اي حكم متسلط بين الكاتب والناشر ورغم حراجة موقفي كباحث ودارس وبأن ما بحوزتي من شهادات ووثائق هي لكتاب وليس لناشرين وباستثناء الندوة التي عقدت في بيروت في سبتمبر ١٩٦١ م باشراف الادارة الثقافية لجامعة الدول العربية حول موضوع (الكتاب العربي وتيسير تداوله) وندوات اخرى عقدت فيما بعد على التوالي في الجزائر وتونس وطرابلس واغلب ما طرح فيها هي لكتاب وليس لناشرين فانه يصعب الحصول على راي متكامل للناشر العربي باستثناء بعض المقابلات الصحفية السريعة والتي لا تساعد على طرح القضية بقدر ما يحاول الناشر ان يصنع مشجبا لمتاعبه وهمومه كأن يحمل الرقابة مثلاً مشكلة الكتاب دون ان يقتسمها معها بالعدل والقسطاس .

ولكي اكون واضحاً ومن موقع مبدئي تستوجب امانة البحث الاشارة اليه وتوضيحه بصفة اساسية هو اننا في مجتمعنا الجماهيري في الجماهيرية العربية الليبية قد توصلنا الى قناعة كاملة بأن التجارة ظاهرة استغلالية وان الناشر حينما يحول الكتاب الى سلعة استهلاكية لخدمة مردوده المالي وتحقيق المزيد من الكسب فهو لا يندرج فقط تحت هذه الظاهرة وانما يتجاوزها الى الضرر بالمقومات الثقافية التي ينبغي ان تكون بمعزل عن اي استغلال او ابتزاز وان تنمية هذه المقومات لا تتحقق فاعلياتها الايجابية باخضاعها الى التعامل التجاري وان النشر باعتباره خدمة ثقافية عامة للمجتمع ينبغي الا يخضع للتسلط الفردي والمصالح الخاصة ، والتعامل التجاري الخالص .

واذا كانت مكونات الواقع الاجتماعي القائم في وطننا العربي تتيح في اغلبها لدور النشر التعامل بهذا الأسلوب التجاري الذي يتعاطى مع السوق باعتبارها سلعة تجارية اساسية خاضعة للعرض والطلب وبما يتناسب ومصلحة دور النشر قبل كل شيء ، فسوف يتبين لنا ان محنة العقم التي انتجت مشكلة الكتاب العربي تتمثل في انتهاج هذا الأسلوب وان كافة التفرعات الأخرى هي في الواقع نتاج طبيعي له ومنعكس مباشر من منعكساته .

ان المؤشر هنا يتجه بوضوح الى مهمة الناشر ويقف طويلاً باعتبارها القناة الرابطة والموصلة بين الكاتب والقارىء وان نقطة الاعتراض تتمثل في كيفية استغلال هذه القناة ومنطلق التعامل معها بتسخيرها اداة تجارية مباشرة مناقضة بذلك لدور الكاتب في مجتمعه واحتياجات القارىء الفعلية للمكونات الثقافية الجيدة والمفيدة .

واذا كان النشر في وطننا العربي قد ظهر تكوينه لأول كمبادرات تجارية فردية احيانا ومشتركة في بعض الأحيان وكانت بحسب مواصفات ظروفها الاجتماعية والتاريخية قد انتجت الكثير من الجوانب الايجابية فقد انعكس هذا الأسلوب مع تراكمات أخرى بسلبياته على مسار تاريخي طويل وعلى مدار العمل الثقافي الجاد بل انه يخيل الى ان مصدر الأزمة الحقيقية لمشكلة الكتاب العربي بالذات تكمن في مولدات تكوينه ونشاته الأولى حيث تشكلت كمبادرات فردية تجارية ومهنة احترفها بعض المغامرين الذين لا يملكون الاستعداد الثقافي والفكري لمزاولتها .

والمسالة بطبيعة الحال لها خلفياتها التاريخية الأخرى التي قد يكون واقعها الراهن امتداد لها بشكل او بآخر ، فمنذ ان كان الكتاب العربي نسخة مخطوطة في سوق الوراقة والوراقين كان بمثابة السلعة التجارية المربحة وقد يرتبط رواجها بقيمة مضمونها وشهرة ناسخها ولكنها تظل سلعة مطروحة للعرض والطلب



ولمنح العطايا والهبات من جانب الخلفاء والأمراءوالوزراء وسوقا رائجة لتلاعب الوراقة والوراقين ومتاعب النساخ وحيلهم وتجاوزهم لأصول المهنة وفن الصنعة الى التلهف التجاري وتحقيق الكسب السريع وارضاء الملوك والسلاطين . وما اكثر القصص التي تحكي عن النساخ الذين يشتغلون في اكثر من عمل في وقت واحد وما اكثر شكوى الكتّاب من اجحاف النساخ وسوء تصرفهم نذكر منهم (الجاحظ) الذي حاول التشفي منهم بالتندر عليهم بأسلوبه الخاص . وفي اكثر من موضع ويروي عنه ياقوت الحموي) هذه الحكاية فيقول : (حكي عن الجاحظ انه صنف كتاباً وبوبه ابواباً فأخذه بعض اهل عصره فحذف منه اشياء وجعله اشلاء ، فاحضره وقال له : يا هذا ان المصنف كالمصور واني قد صورت في تصنيفي صورة كانت لها عينان فعورتهما اعمى الله عينيك ، وكان لها ذنان فصلمتهما صلم الله اذنيك ، وكان لها يدان فقطعتهما قطع الله يديك حتى عد اعضاء الصورة فاعتذر اليه الرجل بجهله هذا المقدار وتاب اليه عن المعاودة الى مثله ..)(٢) .

كما نجد (ياقوت الحموي) نفسه يحذر في بداية كتابه (معجم البلدان) ناقلي كتبه وناسخيها من الاختصار وعدم الأمانة في النقل وما يمكن ان نصفه اليوم بالالتزام الحرفي بالنقل كما هو في الأصل .

لقد كان سوق الوراقة والوراقين والنساخ جملة من مقومات التعامل التجاري والثقافي ومدخلاً من مداخل الكسب والنصب وايضاً مجموعة من جسور التداخل الفكري والامتزاج الحضاري الذي يتجاوز المسافات ويعبر مسالك الصحراء وعباب البحار وهو في جملته بمثابة الخطوط المتوازنة بين الرسالة الحضارية للمعرفة والأداة التجارية للربح والحصول على الأموال . وهو تعامل تجاري تبرره حاجة النساخ والوراقين المعيشية وتقتضيه الضرورات الساعية الى استكشاف الفكر واكتساب المعرفة(٣) .

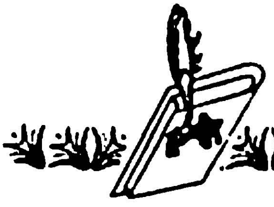
ولقد اكتسب الكتاب العربي تقاليد هذا التعامل التجاري والمبادرة الفردية الخاصة التي تنشد الربح قبل اي شيء آخر والسيطرة على سوق النشر من زاوية تجارية محددة معنية بمصالح صاحب المكتبة وتحقيق احتكار متسلط بصفة تكاد تكون كاملة ولم تترك الا القليل لغيرها ومن لا يمثل ضرراً بمصالحها ولعل الكثيرين يذكرون الدور الاحتكاري الكبير الذي لعبته مثلا دار المعارف بمصر في الأربعينات والخمسينات وقد امتد نطاقها الاحتكاري الى لبنان باسم (مؤسسة المطبوعات الحديثة) وتحمل الكتاب العربي كافة التبعات الناتجة عن هذا التعامل، والبست له جملة من المواصفات والممارسات لم تكن في صالحه او في غير الاتجاه السليم الى ازدياد نموه وازدهاره .

واذا كان التطور التقني لفن الطباعة والاخراج والتبويب قد جعل من الكتاب صورة جميلة قابلة ظاهرياً للاقتناء فان المشكلة ما زالت تكمن في خلفيات هذه الصورة ، لذلك فانه من الصعب الوقوف على الحياة في مثل هذه القضية ، ولان الناشر هو حجر الزاوية فيها وهو عصبها الحيوي بمختلف جوانبه الايجابية والسلبية فان مدار البحث سوف يتجه اليه في مجمل سياق هذه المحاولة .. ولناخذ قضية النشر من بدايتها ..

فالنشر في مختلف ارجاء الوطن العربي لم يتأسس (كمهنة ذات هدف مشترك او كصناعة ذات خطة مرسومة يمكن ان تجمع حولها القائمين على امرها والعاملين فيها ، وانما نشأت صناعة النشر في الوطن العربي كأية حرفة بدائية يستطيع العامل بها ان يتكسب منها لقمة عيشه ..)(٤) .

هذا الراي لخبير عربي مصري متخصص في المكتبات وقضايا النشر استشهد به حول طبيعة التكوين الأولى للنشر حيث قامت على اساس تجاري وحرفة للتكسب منها وبدوافع فردية لمن اتيحت له فرصة او قدرة على المغامرة ولم تتكون كقوة صناعية مكثفة مرتبطة بتخطيط وهدف . الغريب في الأمر ان التخطيط المشترك ظهر في فترة متأخرة ومن قوى معادية للأمة العربية اقتحمت مجال النشر العربي وبأهداف ذات ابعاد متعددة ومتنوعة ، وهو ما سنبينه فيما بعد .

ويقدم لنا الخبير العربي صورة مركزة عن حالة النشر في بداية النصف الثامن من القرن التاسع عشر في النقاط التالية :



١ – صاحب مكتبة تحول الى التزام النشر تسيطرعليه الرغبة في مضاعفة الكسب المادي .

٢ – عامل طباعة انشا مطبعة بدائية مستغلاً في ذلكسوء اجراءات المطبعة الحكومية .

٣ – عمال طباعة غير مدربين تحطمت نفسياتهم من معاملة الاسطوات المجحفة .

٤ – مؤلفين او محققين يرضون بما يجود به الطابع او الملتزم(٥) .

ان التساؤل المطروح الى اي مدى تطورت ملامح هذه الصورة في عصرنا الحاضر ؟

ما زال معظم الناشرين العرب يتولون نفس الدور المزدوج صاحب مكتبة للبيع والتزام بالنشر وما زال التعامل قائماً بالكيفية الفردية وبحسب معطيات تعامله التجاري، ولننقل الصورة من الخبير العربي حول عمل الناشر العربي – فيقول :

(.. يبدأ عمله في مكتبة بيع تجارية تتلقف المؤلف وتساومه ثم ترسل المخطوطة الى المطبعة فتحيلها الى مطبوعة ثم تعيدها الى المكتبة للاستئثار بتوزيعها ..) .

ان افتقاد مهنة النشر الى البناء العلمي السليم والتنظيم المخطط لفكرة النشر في دوائر متناسقة وثابتة قد جعلها تدور في اطار (ذاتية) الناشر دون ان تتطور الى نطاق تعامل جماعي .

ولناخذ الشهادة هذه المرة من مجلة الديار حيث تقول ان ... (التركيبة الداخلية لدور النشر او هيكليتها التنظيمية لا علاقة لها بما يسمى تقسيم عمل فالعقلية الحرفية مسيطرة حتى على اكثر هذه الدور اهمية ، ففي لبنان عشرات دور النشر ليس هنالك سوى دار واحدة او دارين قد اخذتا هذه الناحية بالاعتبار وبالفعل فان انتشار ما تنتجانه يعتبر نموذج من حيث كميته اما المؤسسات الأخرى فصاحب الدار هو مديرها الاداري والمالي وهو المحاسب ومراقب الطباعة ومقرر ما ينشر وما لا ينشر يعاونه في ذلك احد اقاربه وبعض العمال (المراسلين) (ليس الا..)(٦)

وهذا ما يناقض مقتضيات النشر التي تتطلب.. (جهازاً متكاملا من المحررين والمراجعين والفنيين والاقتصاديين والمتخصصين في الدعاية والاعلان والعلاقات العامة كدور الصحف وينتهي عمل الناشر عند اعداد المخطوطة اعداداً سليماً واخراج الكتاب اخراجاً متقناً ومحاسبة اصحاب الحقوق حساباً عادلا ودراسة اسواق التوزيع دراسة واعية ثم تسليم الكتاب مطبوعاً الى مكتبات البيع ومراكز التوزيع..)(٧).

ولا اريد بهذا تدخلاً في خصوصيات الناشر بقدر ما اريد توضيح ما اردته سابقاً حول فردية حركة الناشر العربي وربط قنوات تعامله بمعيار تجاري وهو الأمر الذي لم يحدث فيه اي تطور كيفي والذي انعكس بآثاره السلبية على الكاتب والمؤلف العربي والذي لم يحول وسائل النشر الى قوة صناعية ثابتة وباهداف محددة وخطط مدعمة وانما جعل تحركها واسهامها اشبه بالموجات الفورية وحيث يتجه مؤشر العرض والطلب وتلك قضية اخرى سوف يتم التعرض لها في حينها .

اذن فالصورة لم تتغير في جوهرها فالتداخل قائم بين مكتبة البيع وملتزم النشر وهي مسالة ذات حساسية دقيقة قد يكون لها مؤثرها على حقوق الكاتب والمؤلف وهي لم تساعد بالتالي على اخراج حركة النشر من دوامة التضارب التجاري بقدر ما دفعته الى المزيد من هذا التضارب .

ان الفصل بين صاحب المكتبة والناشر ضرورة مهنية وحاجة من حاجات ضبط حقوق المؤلف ، ففي الجماهيرية مثلاً كانت عندنا احدى المكتبات الخاصة التي تتولى بيع الكتب والنشر في الوقت نفسه فكانت تنشر للكاتب وتحاسبه على الطبع كحقوق طباعة وعلى بيع النسخ كمكتبة للبيع العام وملتزم توزيع .

ولم يتطور النشر من سياقه الفردي الذي نشأ فيه الى الاسهام المشترك (مجموع شركات او مؤسسات) مثلما يحدث في مؤسسات النشر الأوروبية بل ان اكثر من مساهمة مشتركة قد انتهت الى التجزئة (بدافع الرغبة في تحقيق اكبر قدر من المصلحة لكل شريك على حده..) . لذلك لم تقدم هذه الدور على نشر الأعمال الكبيرة ذات الصبغة الموسوعية او التي تعتبر من الروافد الأساسية للثقافة العربية،



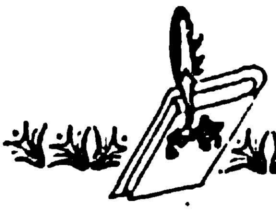
وفي المرات القليلة التي تقتحم فيها هذا الميدان نجدهانتجـه الى الأعمال الموسوعية المترجمة مثـل (تاريخ الحضارات العام) و (تاريخ العالم) ، وبطبيعة الحـال لهـذه الدور مبررها الاقتصـادي والسياسي الذي يحدد علاقات تعاملها . وحتى في مجال نشـر كتب التراث فقد كان مرتكزها الأساسي على ما سبق ان طبع ونشر في (دار الكتب المصرية) وكثيراً منـه يتم تصويره (بالأوفست) بعد حذف اسم المحقق والناشر الأصلي . ثم تحول نشر التراث الى موجة طاغية كماسيأتي توضيحه .

وسيادة ظاهرة التعامل التجـاري في مجـال النشر تحولت الى مشكلة من اهم المشكلات كما تقول الدكتورة سهير القلماوي .. (.. اهم هذه المشكلات في نظري هي تحكم عنصر التجارة او التجار في ميادين النشر العربية خاصة ، لقد كانت مهمة الناشر ايام ما قبل المطبعة على مدى التاريخ العربي الطويل في يد قوم يتخذونها تجارة اولاً ، وثقافة ثانياً ، حتى وصلت في مشارف عصرنا الحديث الى ان تكون تجارة ليس غير لدى الكثيرين ، ولمـا دخل الميدان ناشرون مثقفون وجدوا رأس المال عقبة كأداء في طريقهم..)(٨)

ولأن التجـار هم الذين يمتلكون قـوة السيولة لنقـدية المتحكمة في السوق وكما تقـول الدكتورة سـهير القلماوي ـ (قطعاً الناشر التاجر لا يهمـه الاجمهور الدافعين للثمن) فالعقلية التجارية هي المتحكمة وهي الموجهـة وهي التي تفرض نوعيـة الطلبيـات المطروحة وتحدد مؤشر الاتجاه والاختيار وهي بالتالي تفرض نوعاً من التسلط والاحتكار على المؤلف والكاتب، كما قـال المرحوم علي ادهم .. (اذا كان الكتّـاب او الشعراء قد تحرروا الى حد كبير من سلطان الأمراء والأشراف والأثرياء فانهـم اصبحوا في حاجة الى التماس سلطان جديد وامير جديد هو الناشر)..(٩) والذي تتحدد طبيعة تعامله في اطاره الفردي الخاص وطبقاً لمصالحه التي تكون تجارية في اغلب الأحيان .

وتأتي اول مساهمة مشتركة في العمل الموسوعي العربي عن طريق مؤسسة اجنبية لم تكن دخيلة فقط بقدر ما كانت معادية هي مؤسسـة فرانكلين للطباعـة والنشر التي مارست نشاطهـا اعتباراً مـن اكتوبر ١٩٥٣ م . ولم يكن في مقدور دور النشر العربيـة لسائرة في نطاقهـا الفردي امكانيـة المزاحمـة او التصدي بعمل موسوعي مقابل وانما ايضاً كانت هذه (الفردية) ثغرة استطاعت هـذه المؤسسة الأجنبيـة النفـاذ منها واحتواء عدد مـن دور النشر العربيـة واغراقها بطبع ونشر انتاجها الخاص بأهدافه ودلالاته الخاصة تمكنت هـذه المؤسسة الأجنبية (كهيئة غير قابلة للربح) كما تقول في احد كتبها المعرفة بها ان تسيطر على سوق النشر العربي وعلى اجتذاب اسماء لامعة من الأدباء والكتّاب واساتذة الجامعات وتشغيل المطابع بأكبر قدرة كمية مـن النوعيات المتفرقة التي لا تحتاج الى مزيد ولم يكن هذا العمل اعتباطياً وانما هو نتاج دراسة وتخطيط وضعته المؤسسة موضـع التطبيق وبرمجة خاصة بالنشر العربي لم يكن هدفـه الربح بالفعل وانما هـدفه الاحتواء وضبط مؤشـر الاتجاه النشري والدخول مع دور النشر العربية في عمليات (نشر مشترك) يساعدها عنـد الضرورة على تغطية هويتها والتمويه على اهدافها الحقيقية .

واذا كانت بعض دور النشر العربيـة وبحسها القومي الأصيل قـد انتبهت الى خطورة مثل هـذا التعامل المشبوه مع مؤسسة فرانكلين ووقفت ضده فان بعضها الآخر قد استمرأ هذا التعامل بخصوصيته المتفردة وبنزعته التجارية التي يحـدد بهـا قنوات تعامله . وهكذا ارتبط تحرك الناشر العربي وبموجب ما نشأت وتكونت عليه هذه المهنة على مدارات فردية ومـن منظور الرواج التجاري الذي يكون في معظم الأحيان على حساب قيمة الكتاب الموضوعية . وحتى اداة الطرح الموضوعية تحولت في سوق النشـر الى مواسم معروفة ومشهورة بحصادها النوعي وتراكمها الكمي ، فمع نهـاية الأربعينات ومطلـع الخمسينات كانت الأعمال المترجمة عـن اللغات الأجنبية تتصدر واجهات النشر العربية (قصص ـ حكايات ـ روايات ـ مختارات مجمعة ـ دراسات .. الخ ..) وتتسابق دور النشر على طباعتها بمنافسة حادة واغراق السوق بهـا ، وتعددت الاختيارات والنوعيات مـن الأدب الانجليزي الى الفرنسي والأمريكي ثم الروسي ودول اوروبا الشرقية وغيرها وبحسب تموجـات التيـار ورواج الطلبيات واختلط الأمر فيها بين الاختيار الفني الدقيق والترجمة الأمينـة ، وبين الكلفـة السريعة والمتعجلة والتي لا تريد ان تحرم نفسها من نصيب وصارت الروايـة التي تطبع وتنشر في دار نشـر نجدها عند دار النشر الأخرى بسرعة مذهلة ، والكتاب الذي يكون في مجلدين عند دار نشر نجده عند الأخرى مجموعة ملازم لا تتجاوز عدد اليد الواحـدة .



واذا كانت بعض دور النشر قد استطاعت ان تحقق اضافة جيدة وهامة في مجال الكتب المترجمة رغم تحركها الفردي وقدمت للقارىء العربي المتعطش الى الثقافة الأجنبية حصيلة ممتازة من القصص الانساني والمعبرة عن خبرات الانسان ـ ونضاله التي واكبت مرحلة هامة من مراحل تفتح الانسان العربي المعاصر واوجدت له جملة من المصادر التثقيفية المفيدة والتي لا مناص من الاقرار بقيمتها واهميتها ، فان بعضها الآخر قد اساء في هذا المضمار بركوبه الموجه واعتلائه التيار متعجلاً تحقيق الهدف التجاري وسد الطريق على الآخرين والتغطية عليهم ايضاً . ولنذكر الترجمات التجارية السيئة للأدب الروسي مثلا حيث كان مؤشر الترمومتر متوقفاً عندها في تلك الفترة وايضاً عند مؤلفات (سارتر) والتيار الوجودي وما اكثر المطابع التي اشتغلت على هذا التيار ـ ولست هنا في موضع الحكم عليه كاتجاه واختيار ـ فان داراً واحدة تقريباً كانت موضع الأمانة في الترجمة والصدق في الاختيار والتناسق مع احتياجات المرحلة.

وهناك نوع آخر من الاختيارات الموسمية سبقت هذا التيار وتلاحقت بعده لنتساءل مثلا عن عدد دور النشر التي طبعت لحسابها روايات جرجي زيدان وألف ليلة وليلة ونوادر جحا وابي نواس وغيرها وايضاً عن دور النشر التي استنزفت انتاج عباس العقاد وطه حسين وميخائيل نعيمة واحسان عبد القدوس واخيراً نجيب محفوظ وغيرهم . وليس المهم هنا نوعية الاختيار وحاجة ثقافتنا العربية اليه وانما المهم ان الاختيار ينبني اساساً على معيار تجاري وليس كتخطيط منظم ومتناسق مع ضرورات ثقافية بعينها وانما هو تنافس لتحقيق عائد الربح اولاً قبل اي قيمة اخرى . ولنتساءل مثلا عن القيمة الموضوعية فما جدوى ان نعيد طباعة روايات جرجي زيدان وقد ثبت بالدليل الواضح والبيّن ادانتها وتشويهها لتراثنا وتاريخنا وشخصياتنا الاسلامية ؟ ما جدوى ان نعيد طباعة الف ليلة وليلة بالزنكوغراف كما هي في طبعتها الأولى غير المهذبة والمنقحة ودون دراسة او تحقيق .

وهذا الاختيار الكمي والعشوائي ايضاً يصل بنا الى مؤشرات الموجة الحاضرة في مجال النشر حيث يقف عند الكتب التراثية والدينية وهذه شهادة من مجلة (الحوادث) ..(١٠) حيث تقول .. (.. تؤلف الكتب التراثية الدينية او المتعلقة بهذا التراث الديني حوالي ٧٥ بالمائة من انتاج قطاع النشر اللبناني منذ شهور وهي نسبة عالية جداً وملفتة للنظر بل ظاهرة تستحق ان تدرس لبنانياً وعربياً ايضاً لأن قطاع النشر اللبناني ليس مجرد قطاع محلي بل قطاع تشمل خدماته العالم العربي من اقصاه الى اقصاه ..) .

ويواصل الكاتب تحليله وتقييمه لهذه الظاهرة فيقول .. (وهذا الرواج في بعض وجوهه مفرح وايجابي فمن منا لا يريد ان تنتعش في العربي جذوره ومن منا يتنكر للينابيع والأصول التي غب منها الآباء والأجداد ، ومن منا ضد استلهام التراث الذي يؤلف مع الحضارة العالمية المعاصرة منبعي التجديد اللذين لا غنى عنهما معاً في عملية التجديد، ومن منا لا يعتز بالتراث العربي الاسلامي ذي الجوانب الحية والمضيئة .. ولكن كل ذلك شيء والانسحاق امام التراث شيء آخر ، اننا نقرأ هذا التراث ونردده ونلوكه صبحاً ومساء دون ان نفهمه الفهم المطلوب لأن البطولة مفقودة في حياتنا ولأننا لا نتعاطى مع عصرنا التعاطي الذي يوجبه الانتساب الى مثل هذا التراث العظيم وليست عودتنا اليوم الى ماضينا الفكري الا نوعاً من الاستقالة من العصر وضواغطه وتحدياته ..) .

واعتذر لنقلي المطول من هذه الشهادة ولما تتضمنه من توضيح مركز حول تيار النشر العربي المعاصر والذي يعتبره الكاتب انه .. (ظاهرة يأس من الدنيا لا ظاهرة اجتلاء لوجه الحق ..) .. ثم يأتي الى تحديد جملة من النوعيات التراثية فيقول ..(.. وما تفعله دور النشر في بيروت الآن يقتصر على طبع المؤلفات التراثية القديمة ككتب المعتزلة والأشعرية والغزالي وإمام الحرمين الجويني والإمام مالك والامام الشافعي وسواهم من الأئمة دون تحقيق عصري ودون دراسة عصرية ودون خطة ودون تنسيق بين دور النشر ..)(١١) .

تلك هي القضية اذن لا تخطيط ولا تنسيق وانما هو سير حثيث مع تيارات الموجة المتدافقة ودون تقييم للمنظور الفعلي نحو التراث وتقدير حاجتنا اليه وتحديد مواصفات التعامل معه برؤية عصرية وبروح نقدية اختيارية واعية ويقظة بطبيعة وظروف ذلك التراث بل هو يتحول على ايدي دور النشر الى تراكم كمي ترتبط اهميته بحجم توزيعه .



وللتاكيد على صحة القول بأن النشر العربي يسير على موجات موسمية يورد نفس الكاتب في مجلة (الحوادث) المذكورة سابقاً اشارة محددة الى الموجة التي تلاحقت مع حرب يونيو ١٩٦٧ م وكانت هذه المرة على الكتب (الماركسية) و .. (خلال السنوات العشر الماضية انتعش الفكر الماركسي عند العرب أيما انتعاش واشتغلت مطابع بيروت على الماركسيات بنفس الهمة والنشاط الذي تشتغل به الآن على الاسلاميات ولكن العربي اكتشف فيما بعد ان كتاب (راس المال) ليس هو الكتاب المنتظر وانه ليس اكثر من كتاب مفيد في مكتبة تضم آلاف الكتب المفيدة ، وقد يكون بعضها اكثر فائدة منه بكثير نظراً لقدمه ولعلاجه امراضاً غير موجودة عند العربي..) .. (١٢) .

وفي لمحة عابرة تشير مجلة (الديار) الى تيار الموجة الحاضرة فتقول :

(كتب التراث والدين تاتي في المرتبة الأولى من حيث الكمية المنتجة ومن حيث الانتشار في مختلف البلدان ثم تاتي الكتب الأدبية فالعلمية..)..(١٣) .

ونظراً لأن هذه الاحصائيات تاتي حول ما هو مطروح في السوق فان معضلة القضية يمسك بزمامها الناشر وحده كمحور متفرد يمتلك قوة التأثير على المحورين الآخرين (الكاتب - والقارىء) اللذين يسيران بالضرورة في ركابه وحيث لا تكون لهما موقع المشاركة في اتخاذ القرار بقدر ما يمثلان ادوات استهلاك بالنسبة له فهو الجهاز المتحكم في بوصلة الترابط والتداخل بين الكاتب والقارىء ولأنهما (جهازي الارسال والاستقبال) اللذين يسيطر عليهما وتحت مسؤوليته ، وكما تقول مجلة الأسبوع العربي .. (لا بد ان تبرز مسؤولية الذي يملك كلاً من جهازي الارسال والاستقبال والذي يقوم بتوظيف الكاتب من خلال دار النشر التي يملكها ويقوم بتوظيف القارىء من خلال المكتبات واكشاك بيع الكتب او مكتبات الأرصفة ، والقارىء في هذه الحالة موظف من نوع جديد فهو الموظف الذي يدفع نفقات كل شيء بما فيها اجرة الناشر واجرة الكاتب..) .. (١٤) .

والعلاج المطلوب الذي يراه صاحب المقال هو (ان يقوم الكاتب بعملية اختراق لجدار صوت القارىء وتحطيم زجاج مكتبته وهي في الوقت نفسه مسؤولية القارىء ان يقوم بعملية اختراق لجدار صوت الكاتب وتحطيم زجاج مكتبته . والاثنان معاً القارىء والكاتب عليهما ان يقوما بعملية اختراق لجدار صوت الناشر وتحطيم زجاج مطبعته..)..(١٥) .

وقد يكون هذا التعبير دلالة من دلالات الصراع غير المتكافىء بين هذه المحاور الثلاثة ويحدد بالتالي المرتكز الأقوى وهو الناشر في هذا الصراع الذي لا شك انه انتبه الى خطورة موقفه وحراجته في الوقت نفسه ورغم مسؤوليته المباشرة فلا شك ان للناشر مشاكله ومتاعبه وقضيته التي لا بد من دراستها واستيضاح جوانبها المتعددة .

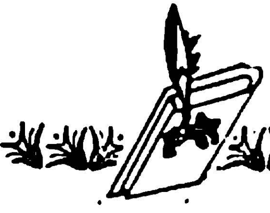
وقد اقيمت في بيروت في سبتمبر من عام ١٩٦١ م بدعوة من الادارة الثقافية لجامعة الدول العربية حلقة دراسية حول (الكتاب العربي وتيسير تداوله) وقد حددت هذه الحلقة العوائق التي تحول دون انتشار الكتاب العربي في النقاط التالية :

١ - عدم وجود رابطة وثيقة بين الناشرين العرب تجمعهم على خطة وهدف مشترك تتجه اليه جهودهم ويهدف اليه نشاطهم العام .

٢ - نقص الدراسات العلمية والاحصائية في موضوع الكتاب العربي وانواعه واتجاهاته ومجالاته العلمية والاقتصادية وخاماته ووسائل انتاجه وتسويقه ونشره .

٣ - ضعف وسائل التعريف به والاعلان عنه وقلة اقبال المتعلمين العرب على القراءة نتيجة لذلك ولغيره من الأسباب .

٤ - الصعوبات الاقتصادية التي تعترض سبيل النشر من قوانين تبادل النقد ووسائل النقل وقوانين التصدير والاستيراد والضرائب الجمركية والبلدية وغيرها .



وهذه المشاكل في جملتها هي انعكاس لمحنة التجزئة التي يعيشها الوطن العربي وتأكيد لخطورة الفواصل والحدود في اهم خصائص ومقومات الانسان العربي والمتمثلة في وسيلته الثقافية الاساسية وهي الكتاب . وليس من شك ان قيام اتحاد الناشرين العرب الذي كان حلما وغيابه هو بمثابة النقطة الأساسية الأولى في اسباب المعوقات فانه بما تخوله من صلاحيات ادبية ومادية وتشريعية قادر على تحقيق هدف مشترك واعداد برمجة مفيدة لدور النشر العربية .

وليس من شك ايضاً ، ان كل جانب من هذه المعوقات يمثل قضية قائمة بذاتها تستوجب الحل الجذري الكامل ، ففي المجال الاقتصادي على سبيل المثال حدد هذا المؤتمر المنعقد حول (الكتاب العربي وتيسير تداوله) المشكلة الاقتصادية في (قوانين تبادل النقل ووسائل النقل وقوانين التصدير والاستيراد والضرائب الجمركية والبلدية) ..

وقد تركزت النتائج التي توصل اليها هذا المؤتمر في ثلاث النقاط التالية :

١ ـ استصدار قانون يلزم دور النشر بالا يتجاوز سعر الكتاب باي حال مائة في المائة من سعر التكلفة على ان يقدر سعر التكلفة تقديرا واقعيا على اساس عدد ملازم الكتاب مضروباً في سعر مجدد للملزمة على اساس نوع الورق المستخدم في الطباعة .

٢ ـ ان يطبع سعر الكتاب في مكان ظاهر على غلافه وفي الصفحة الداخلية على ان يقدر السعر على اساس ما جاء في البند (١) وان يخضع هذا التقدير لرقابة الدولة .

٣ ـ ان تبيع دور النشر الكتب التي تختارها الدولة لطبعها طبعات شعبية بسعر التكلفة على ان تمنحها الدولة تعويضاً مجزياً عن كل كتاب .

هذه جملة الحلول التي تقدم بها الناشرون الى مؤتمر جامعة الدول العربية حرصت على تقديمها بنصها كتعبير عن وجهة نظر الناشرين العرب .

وقد احدثت الكثير من المعطيات المستجدة في الوطن العربي والعالم ، وبالأخص في سعر الورق وارتفاعه وندرته في الوقت نفسه تبدلات باعدت بين الناشرين والالتزام عملياً بهذه التوصيات .

ثم كانت ندوات (الكتاب العربي) التي عقدت في كل من الجزائر وتونس وطرابلس ، وقد تلخصت اهم التوصيات الصادرة عن الندوة الثالثة (للكتاب العربي) التي عقدت في طرابلس بتاريخ ١٧ــ١٩ ابريل عام ١٩٧٦ م في النقاط التالية وفي مجال النشر وعلى وجه الخصوص :

١ ـ اقتراح تشكيل هيئة عربية موحدة لاعادة نشر التراث .

٢ ـ اقامة تعاون طباعي وتنسيق جهود النشر المشترك .

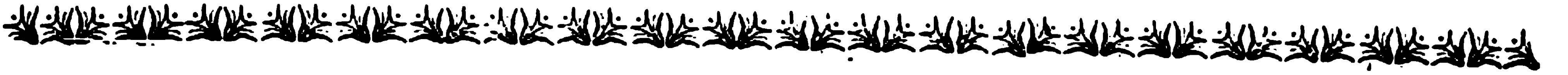
٣ ـ التزام دور النشر بالرقابة الذاتية في نشر المؤلفات التي تخدم الاتجاه العلمي والقومي واقامة تعاون مثمر بين دور النشر .

٤ ـ الغاء جميع العوائق التي تحول دون انتشار الكتاب (الرقابة ـ قيود الجمارك ـ تعقيدات التمويل .. الخ) .

٥ ـ تخفيض اجور الشحن وخاصة الجوي ودراسة ايجاد نقل خاص بالمطبوعات تتكفل به دور النشر العربية .

٦ ـ تشديد المقاطعة على الكتب المزورة ومقاطعة الجهات التي تتعامل بالتزوير واتخاذ جميع التدابير اللازمة لذلك .

هذه التوصيات ـ على اهميتها ـ والتي لا تختلف كثيراً عما سبق وطرح من توصيات ظلت في اطارها الشكلي ومدارها الخارجي الذي لم يعالج القضية من اساسها وجوهرها ، وانما اتجهت راساً الى الناشر ـ وهو طرف في القضية وليس كل القضية وهو بطبيعة تكوينه ونشأته ومعطيات تعامله يمثل قوة السيطرة



والتسلط والاحتواء وليس قوة الدفع والتحرك والنمو التي يمثلها المحوران الآخران (الكاتب والقارىء) ، بل اننا لا نكاد نجد موضعاً في هـذه التوصيات للكاتب وحقوقـه المشروعة بالمعنى المطلوب ، ولا نجد اية مقاييس محددة لمعادلة التعامل مع القارىء واحتياجاته الثقافية والعلمية .. والناشر هنا يقوم مقام الطرفين الآخرين (الكاتب والقارىء) اللذين لا يمثلان حضوراً فعلياً بل غياباً يستأثر فيه الناشر بزمام اتخاذ القرار وطرح المطالب والاختيارات التي تتكيف في النهاية وفقاً لمصالح ذاتية (الناشر) وما له من مهيئات نفسية ومكتسبات لا نكران لما لها في احيان معينة من صبغة ثقافية ومعرفية غير انها تتحرك من ارضية ذات هدف تجاري خاص بصاحبهـا وحيث لا تكـون المعـادلة صحيحة وسليمة ، واذ تنقلب القاعدة التي تتوجب توظيف الناشر لخدمة الكاتب والقارىء الى اعتبارها وسيلة اداة يستغلها الناشر لتحقيق اهدافه. والمشكلة الأساسية هنا ان الهدف التجاري يكون وعاءاً يحتوي مجموع الأهداف الأخرى ويسيطر عليهـا .

وجوهر القضيـة ومنطلقها يتمثـل في غيـاب صاحب الحق عـن حقه وابتعاده عن موقع الممارسة والادارة الفعليـة لوسائل النشـر واشرافه عليهـا .

وفي الجماهيرية على سبيل المثال كان لا بد من التصدي لهـذه القضية بحل جذري وخاسم وكانت المبادرة الثورية الهامة والعظيمة بدعوة رابطة الأدباء والكتاب بالزحف على منشأة النشر والتوزيع والاعلان وتولي ادارتها والاشراف عليها وتسييرها .

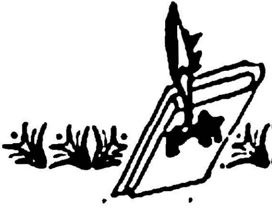
ومثل هذا الحل الجذري يتوجب حضور صاحب الحق الغائب عـن حقه وتحوله مـن موقـع الوسيلة والأداة التي بيد الناشر الى المساهم الفعلي والايجابي والمبـادر الى تحمـل مسؤولياته الفكرية والثقافيـة وبفرضية ان الادباء والكتاب هم القوة البشرية المنتجة في هذا الخصوص ، فمن حقهم ادارة وسائل انتاجهم وهو في الوقت نفسـه بمثابة المعادلة الصحيحة المحددة لواجباتهم وحقوقهم المشروعة والتي تسـير في مصاب متوازنة وغير متضاربة . وحيث تتحول العلاقة الرابطة بين المؤلف واداته النشرية الى علاقـة تعامـل عضوي لا احساس فيها بالغبن او اهدار للحقوق ونهب لها ، في حين نجـد مثل هذه العلاقة بـين المؤلف والناشر الخاص قائمة على كثير مـن التوتر والغموض وتنازع المصالح والتي كما تقول مجلة (الحوادث)(١٦) (لا يزال يشوبها ظلم كثير) .. وفي المقال الأول ينصب الظلم على حقوق المؤلف المادية التي يستحقها من الناشر والتي تحددها مجلة (الطليعة) اللبنانية بالتوضيح التالي ..(ليس سـراً ان المعدل العام لحقوق التأليف في لبنان عـن الطبعة الأولى هو ١٢٪ من سعر الغلاف ، ولغير الطبعة الأولى هو ١٠٪ ولا تستثنى مـن ذلك سوى بعض الحـالات صعوداً او نزولاً بمقتضى النجوميـة ونقيضها غالباً لا بمقتضى قيمة العمل نفسـه ، وليس سراً ايضاً ان الصيغة العامة لتسديد هذه الحقوق هي دفع معادلها على الألف الأولى من النسخ المطبوعة لدى صدور الكتاب وموازنة تسديد البـاقي مـع سيرورة المبيعـات ..) .. (١٧) .

ويفسر الكاتب القاعـدة السابقة بانهـا محاولة لادخال المؤلف شريكاً للناشر في الخسارة مع التذرع ببطء المبيعات وبطء تسديد الوسطاء والمعول عليه هنا هو سجلات الناشر نفسـه وليس من شك ان التعامل بمثل هـذه القاعدة هو إبخاس لحقوق المؤلف واضرار مجحف بقيمتـه الانتاجيـة وقدراتـه الابداعيـة .

والملفت للنظر هنا ان المؤلف العربي لا يستطيع ان يعيش متفرغاً مـن دخـل انتاجه الفكري بينمـا لا يتفرغ الناشر لعمله فحسب وانما يكون منه الثروات الكبيرة ويتوسع في اعماله ومشاريعه ، ولعل مـن ظواهر هـذا الظلم القائم بـين المؤلف والناشر قيام بعض الأسماء الأدبية المعروفة بفتح دار نشر معنيـة بانتاجهـا الخـاص .

وهذه العلاقة بين الكاتب والناشر والتي انبنت على قواعد ظالمة ومستغلة في اكثر الأحيان من طرف الناشر كمقتضيات تعامل تجاري تواترت معها جملة من المشـاكل المنجرة من اثر هذه النظرة التجارية البحتة وكما تقول الدكتورة سهير القلماوي :

(ولأن كثرة التجار ما زالت تتحكم في ميـدان توزيع الكتاب عانينا مشكلة من اكثر المشاكل ضخامة واعمقها آثاراً لا في صدد حق المؤلف فحسب وانمـا بصدد الجماهير التي لا يمكن ان تترك للتجـار غـير



المثقفين مهمة التحكم فيما تقرأ بمحاولات الاغراء الفاسدة او الترويج لقيم بالية عتيقة ضاربين على نغم حب القديم لمجرد قدمه ، اقصد بذلك مشكلة التزوير ..) (١٨) .

وقبل ان نصل الى هذه النقطة الخطيرة والمخزية في تاريخ النشر المعاصر ، واعني بها مسالة التزوير ، اود ان اشير الى جملة من النقاط المؤسفة في مجال تسويق الكتاب وعرضه للبيع :

١ - عدم وجود تسعيرة ثابتة بحسب تكلفة طباعة الكتاب والقاعدة المعمول بها غالباً هي ضرب التكلفة الحقيقية بخمسة امثال فصاعداً ، ونادراً ما تكون اربعة وهي مسالة مرتبطة بمزاجية الناشر .

٢ - امكانية التلاعب على قيمة الحسم للكتب التي تطرح اثناء اقامة المعارض ، وخاصة على الكتب غير المسعرة .

٣ - التغيير السريع والمفاجيء في سعر الكتاب من فترة الى اخرى .

٤ - الطرح العشوائي والكمي للكتب التي يراعى فيها حجم البيع وليس قيمته النوعية المطروحة .

ان الضرورات الاقتصادية المصاحبة لحركة الكتاب حيث يكون المعدل العام لنفاذ ثلاثة آلاف نسخة لا يقل عن سنتين وايضاً نسبة الحسم للموزع التي لا تقل عن ٥٠٪ وغيرها ، ليست وحدها التي تفرض على الناشر التعامل في اطار القواعد السابقة وانما كما تقول صحيفة الطليعة انه :

(ليس محكوماً بالعامل الاقتصادي حتى لدى اغلب من يقيم من الناشرين وزناً كبيراً للعامل السياسي فثمة نوع من مسابقة الزمن لاغتنام الفرصة الجديدة في المجال الثقافي للربح والرسملة مثلما هو الامر لدى العديد من الكتاب والصحفيين . ومن فرص الناشرين تلك التصاعد المفاجيء في عدد القراء ، وانفتاح اسواق جديدة ، والتضخم الذي يسم عموم اقتصاد المنطقة العربية شر وسم ..) .. (١٩) .

واذا كانت هذه الفرضية غير مطلقة اولا ، تكون صحيحة في بعض الأحيان ، فانها لا تضاهي في خطورتها تلك المأساة الأخرى التي يعيشها الكتاب العربي وهي مأساة التزوير والتي تبتلع حقوق المؤلف العربي بصفة مباشرة بترصد مقصود . والتي تعتبر بمثابة الاساءة الى الكتاب باعتباره من القيم الانسانية الواجب صيانتها وحمايتها من العبث والتلاعب ، وقد ارتفع الضجيج عالياً حول هذه القضية وتنادت الكثير من توصيات ومقررات الندوات والمؤتمرات الى التصدي لها بعلاج حاسم ، وكان من بينها التوصية السادسة في ندوة الكتاب العربي ، التي عقدت في الجماهيرية وقد سبق الاشارة اليها ، غير انها في الواقع لم تتجاوز حدود التوصيات العامة والداعية الى مقاطعة الجهات التي تتعامل بالتزوير ولا (... يجدي في محاربة هذه الظاهرة التي تقف عقبة كأداء في سبيل تقدم مهمة النشر وازدهارها في الخط السليم ان يكون هناك مقاضاة او احتجاجات.. وانما لا بد من الوصول الى اشكال قانونية صارمة تردع الذي يعيثون فساداً في هذا المضمار..)(٢٠) .

ورغم تعدد اجتماعات المسؤولين عن الثقافة في الوطن العربي فلا ادري ان كان هناك توصية محددة بوضع تشريع عربي موحد لمكافحة هذه الظاهرة ، واعتقد انه جدير باتحاد الناشرين العرب الدعوة الى مثل هذا التشريع الموحد، والذي يضعه (رجاء النقاش) من موجبات (الأمن الثقافي العربي) والتي يضع في مقدمتها مسالة (تزوير الكتب) وقد اصبح لهذا التزوير كما يقول مؤسسات كاملة .. (دون ان يصدر قانون عربي واحد يعاقب مؤسسات التزوير على ما ترتكبه من جرائم في حق العقل العربي والثقافة العربية . اننا نعاقب الذي يزوّر الأوراق المالية وتضع الدولة القوانين التي تدفع بمثل هذا النوع من التزوير الى القضاء والسجن ، ونعاقب اي نوع من انواع التزوير الا التزوير الثقافي ، فهو حرّ طليق واصحابه احراراً طلقاء ، بل هم ناعمون فيما يكسبونه من ثروات طائلة من وراء هذه المهنة التي لا يطاردها اي قانون عربي في اي مكان حتى الآن ، والتي ينظر اليها الجميع في ابتسام وسخرية ، ويمرون بها مرّ الكرام ولا يجدونها موضوعاً للبحث والمناقشة ووضع الحدود والقيود عليها حتى تتلاشى وتنتهي من الساحة الثقافية العربية)(٢١) .



ويواصل رجاء النقاش شهادته في هذه القضية الخطيرة فيؤكد ان (مؤسسات تزوير الكتب تصدر كل يوم آلافا من النسخ المزورة لمختلف الكتب الحديثة والقديمة رغم ان هذه المؤسسات قد بدات وانتشرت في الوطن العربي منذ اكثر من عشرين سنة ، الا ان احداً لم ينهض حتى الآن لوضع حد لهذه الجريمة التي يتم ارتكابها كل يوم باعصاب هادئة باردة وهي جريمة اصبحت مألوفة ومعروفة واصبح الذين يرتكبونها يشعرون بالأمان الكامل ويفتحون لها مكاتب علنية ويضعون عليها اللافتات البراقة دون خجل او حياء . ويجمعون الثروات الطائلة من وراء عملية تزوير الكتب هذه جهاراً نهاراً دون ان يجدوا من يحاسبهم او يطالبهم بالتزام الحدود الأخلاقية والقوانين المشروعة لعملية نشر الكتب واصدارها)(٢٢) .

ولأن عملية التزوير هذه تتجاوز الجانب المادي بسلبها لحقوق المؤلف الى الضرر الأدبي والمعنوي في التقليل من حركية الكتاب وسرعة نفاذه ، حيث يكون بامكانها تغطية السوق بصفة متواصلة بآلاف النسخ المزورة بطريقة (الأوفست) وارباك حركة التوزيع بالمقادير الكمية وليس التعدد والتجدد النوعي ، واما اكثر الشهادات التي تتحدث عن مأساة التزوير هذه والتي اكتفى منها بهذا القدر دون ان اعرض الى تلك الشهادات التي تتحدث وتشير بالاسم والوقائع ، ومما يؤسف له ان هذه المؤسسات المعتمدة على التزوير قد اقامت بنشاطها وازدهارها على حساب ما تعانيه الأمة العربية من محنة التمزق والانفصال والتباعد واصطناع الحدود والسدود ، وليس من شك ان تشريعاً عربياً موحداً من شأنه ان يواجه مثل هذه الظاهرة الخطيرة بصلاحيات قانونية مخولة تجيز له اعتماد اجراءات المقاطعة لأي جهة يثبت عليها ممارسة التزوير وايضاً نشر قائمة سوداء بأسماء المزورين ، واعتقد انه من الأهمية بمكان ان يطالب اتحاد الناشرين العرب كل من لديه معلومات وافادات في هذا الموضوع ان يبادر الى تزويده بها سواء كانوا أفرادا او هيئات او مؤسسات حتى يتمكن من وضع الأمور في موضعها الصحيح وازالة كافة الرواسب والمخلفات الناتجة عن هذه الظاهرة ومن اجل ان تكون مهنة النشر رسالة حضارية خالية من كافة الشوائب .

ولقد صار من الضروري الدعوة الى ميثاق مشرف تندرج في اطاره قواعد التعامل بين المؤلف والناشر وتضع ضوابط ثابتة لحقوق المؤلف ولا تعرضها للتلاعب والمساومة ، وذلك صيانة لحركة الابداع الفكري والأدبي ودفعاً الى مواقع متجددة من التألق والابتكار والتواصل الدائم في حركة الانتاج ، واذا كانت هناك خطوة هامة قد تحققت في هذا الطريق بقيام (الاتفاقية العربية لحماية حقوق المؤلف) فالأمل معقود ان تدخل هذه الاتفاقية الى حيز التنفيذ وان تتفرع عنها وتتكامل معها تشريعات عربية موحدة تساهم في حل قضية الكتاب العربي خاصة في مجال توزيع الكتاب ، والاجراءات الجمركية وتبادل العملة. ولعله من هواجس الحلم القومي الدعوة الى قيام تشريع عربي موحد للرقابة على المطبوعات والمصنفات الأدبية والفنية وهو حلم رائع ولكنه غير مستحيل .

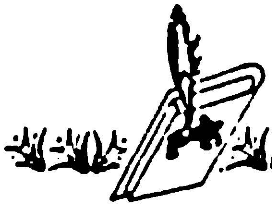
واذا كنت في النهاية اتضامن مع التوصيات المنبثقة عن ندوة الكتاب العربي والمنعقدة في طرابلس (في ابريل ١٩٧٦ م) واجدد الدعوة الى وضعها موضع التنفيذ ، فاني اضيف اليها الملاحظات التالية :

١ ـ الاهابة بدور النشر العربية الى توثيق التعاون المثمر ثقافياً وادبياً بتغليب هذين الجانبين على الجانب التجاري .

٢ ـ الدعوة الى انشاء جهاز مركزي للتوزيع لتتولى انشاءه الحكومات العربية ويكون له فرع في كل قطر عربي .

٣ ـ ان تكون للاتحادات والروابط الأدبية القائمة في الأقطار العربية صلاحية اقرار ما ينشر وما لا ينشر من المواد الأدبية والفكرية .

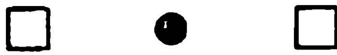
٤ ـ الدعوة الى قيام تشريعات عربية موحدة لاجازة المصنفات الأدبية والفنية .



٥ ـ التنبيه الى الارتفاع المتزايـد على سعر الكتاب بالدرجة التي لم يعد فيها متناسباً مع دخل المواطن العادي والتي تهـدد الكتاب بتحويله الى مادة كمالية لا يقدر عليها غير المترفين .

٦ ـ ارساء قواعـد محددة وواضحة وموثقـة على الغلاف لسعر الكتـاب .

وفي الختام انني اشعر قبل غيري بحاجة هـذه الدراسة لمزيد من المعالجة والتوسع واستيفاء جملة من الجوانب المشكلة لترابط قضية الكتاب بين الكاتب ، القارىء والناشر . وهو ما يحدوني الأمل ان أوفيه حقه في المستقبل القريب ، وأن تكون هناك مساهمات اخرى للاخوة الأدباء والكتّاب اكثر إغناء مـن هـذه المحاولة المحدودة التي اقتضتها العجلة وضيق الوقت .



هوامش :

١ ـ مجلة الأسبوع العربي عدد (٧٣١) ١١ حزيران ١٩٧٣ .

٢ ـ معجم البلدان ـ ياقوت ص ١٤ المجلد الأول .

٣ ـ مجلة المجمع العلمي العراقي ـ المجلدين ٢ـ١٣ ـ ١٩٦٥ـ١٩٦٦ .

٤ ـ نشر الكتاب فن ـ ترجمة وتقديم حبي سلامة ـ دار النهضة العربية ـ بدون تاريخ .

٥ ـ نفس المصدر السابق .

٦ ـ مجلة الديار عدد ٢٢٩ ـ ٣٠ تشرين الثاني ١٩٧٨ .

٧ ـ نشر الكتاب فن ـ حبيب سلامة ..

٨ ـ مجلة الهلال ـ مايو ١٩٦٩ العدد ٥ .

٩ ـ مجلة الرسالة الجديدة مايو ١٩٥٧ .

١٠ـ جهاد فاضل ـ مجلة الحوادث ـ العدد ١١٩٥ ص٢٨ سبتمبر ١٩٧٩ .

١١ـ نفس المصدر السابق .

١٢ـ نفس المصدر السابق .

١٣ـ نفس المصدر السابق .

١٤ـ مجلة الأسبوع العربي العدد ٧٣١ ـ ١١ حزيران ١٩٧٣ .

١٥ـ مجلة الأسبوع العربي العدد ٧٣١ ـ ١١ حزيران ١٩٧٣ .

١٦ـ مجلة الحوادث ٤ ديسمبر ١٩٨١ عدد ١٣٠٩ .

١٧ـ صحيفة الطليعة ـ بيروت ـ العدد ٥٢ ـ ٢٧ فبراير ١٩٨٢ .

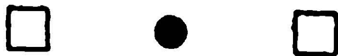
١٨ـ عدد الهلال المذكور سابقاً .

١٩ـ حيفة الطليعة العدد المذكور سابقا .

٢٠ـ ندوة الكتاب العربي المنعقدة في طرابلس في ابريل ١٩٧٦ .

٢١ـ رجاء النقاش ـ مجلة الدوحة ـ العدد ٧١ نوفمبر ١٩٨١ .

٢٢ـ رجاء النقاش ـ مجلة الدوحة ـ العدد ٧١ نوفمبر ١٩٨١ .



الإيداع القانوني وارتباطه بحق المؤلف

أبو بكر محمود الهوش

الايداع القانوني وسيلة اساسية من وسائل الضبط الببليوغرافي ، ويعتبر غياب الضبط الببليوغرافي في الوطن العربي في مقدمة المشاكل العلمية بالنسبة لحصر مصادر المعلومات، وبالتالي حماية الانتاج الفكري ورعاية الابداع الذهني وتشجيعه ، وحماية حقوق المؤلفين والمبدعين ، فكل هذه القضايا متشابكة ومرتبطة بعضها بالبعض ، وليس في وسعنا ان نتناول كل هذه القضايا وانما نركز على جانب واحد من جوانبها (هو جانب الايداع القانوني) قد يراه البعض وثيق الصلة او ضعيفها بموضوع حماية حقوق المؤلفين ومهما يكن من امر فان الايداع القانوني يرتبط بموضوع هذه الندوة وسنركز عليه ، ونامل ان يركز المشاركون الآخرون على الجوانب الأخرى من الموضوع حتى تتكامل الصورة وتنتهي الى توصيات ايجابية .

وتعقد للضبط الببليوغرافي المؤتمرات والحلقات العلمية على المستويين العربي والعالمي مثل مؤتمر تونس للحصر الببليوغرافي(١) ومؤتمر بغداد للاعداد الببليوغرافي للكتاب العربي(٢) ومؤتمر باريس حول الببليوغرافيات الوطنية(٣) .

فوجود الضبط الببليوغرافي الوطني امر ضروري لتحقيق التعريف بوثائق المعلومات المختزنة أيا كانت عوامل اختزانها ، ثم لتوفير المدخل الفكري الى كل من هذه الوثائق ووضع تقنين موحد لاعداد المعطيات الخاصة بها وبطريقة مناولتها .

ان عملية الضبط الببليوغرافي الوطني وللمساهمة في نظام الضبط الببليوغرافي العالمي يستلزم تحقيق الشروط التالية :

أ ـ توفير الوسائل الكفيلة بالتسجيل الببليوغرافي لكل مطبوع جديد فور صدوره اما عن طريق الايداع القانوني او عن طريق تشريعات مماثلة له .

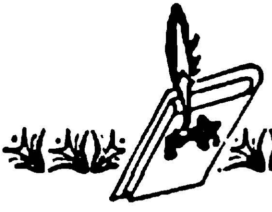
ب ـ اقامة هيكل للضبط الببليوغرافي (مركز للضبط الببليوغرافي) يمكن عن طريقه تحقيق تسجيل كل ما يصدر عن البلد من مطبوعات الى ان ينشأ رسميا مركز للضبط الببليوغرافي الوطني يتحمل المسئوليات التالية :

١ ـ اعداد وصف ببليوغرافي رسمي لكل مطبوع جديد فور صدوره طبقا للتقنيات الدولية المعمول بها.

٢ ـ انتاج ذلك العمل بعد تجميعه في أسرع وقت وفي شكل مادي مقنن حسب توصيات مؤتمر باريس ١٩٧٧ م بحيث يمكن التعرف عليه بسرعة سواء على الصعيد الوطني أو على الصعيد الدولي.

هذا وقد عقدت عدة مؤتمرات عالمية بخصوص الببليوغرافيات الوطنية كان آخرها واهمها المؤتمر الدولي حول الببليوغرافيات الوطنية الذي نظمته منظمة اليونسكو UNESCO مع الاتحاد الدولي لجمعيات ومؤسسات المكتبات IFLA في باريس في الفترة (١٢ ـ ١٥ سبتمبر ١٩٧٧) وتمثلت اهدافه في الآتي :

تحقيق الاتفاق على ما يقتضيه التبادل الدولي للمسجلات الببليوغرافية الوطنية من مواصفات او على



الأقل دولياً فيما يختص بالغلاف والمحتوى والشكل المطلوب في تلك المسجلات وتحقيق الاتفاق على قواعد مقبولة فيما يخص تقديم الببليوغرافيات الوطنية المطبوعة وتبويبها ومواعيد صدورها . وقد اوصى المؤتمر المشار اليه في اطار ما ينبغي ان تشمله الببليوغرافيات الوطنية من مواد بعدد (٢٣ توصية) أورد منها هنا التوصيات الاربع الاولى المرتبطة ارتباطا وثيقا بموضوعنا وهذه التوصيات اتت تحت عنوان الايداع القانوني وهي(٤) :

١ - ينبغي ان تفحص الدول الأعضاء تشريعات الايداع القانوني المعمول بها وان تدرس ما ورد بها في ضوء المتطلبات الحالية والمستقبلية من اجل تطوير وصيانة نظام وطني للضبط الببليوغرافي - وعندما يكون ذلك ضرورياً ينبغي تعديل التشريعات القائمة .

٢ - ينبغي ان تتناول الدول الأعضاء التي لا وجود فيها الآن ايداع قانوني امكانية تشريعه دعماً للضبط الببليوغرافي الوطني .

٣ - ينبغي ان تتصف تشريعات الايداع القانوني الجديدة وما يتفرع عنها من اجراءات ايداع عدد من النسخ يستجيب لحاجيات الجهاز الوطني للمكتبات وان تكون شاملة في مصطلحاتها والفاظها حتى تشمل الأنماط الموجودة من المواد مع ذكر معلومات عن محتواها والمواد الأخرى التي يمكن ان تظهر في المستقبل ، وكذلك ينبغي ان تشمل الاجراءات اللازمة لتنفيذ هذه القوانين .

٤ - ينبغي ان تضع اليونسكو مشروع قانون نموذجي لتستوحيه الدول الأعضاء بهدف تحقيق ضبط ببليوغرافي وطني وان ياخذ هذا القانون في الاعتبار العلاقة بين حق التاليف والايداع القانوني .

الايداع القانوني في الجماهيرية :

والوضع القانوني للايداع في الجماهيرية له تاريخ بعيد من الناحية القانونية، والأمر بحاجة الى استيضاحه من الناحية التنفيذية .

ويمكننا ان نقول بأن هناك نصاً قانونياً يوجب الايداع القانوني وهو المادة (٤٧) من قانون المطبوعات والنشر رقم ١١ لسنة ١٩٥٩ م والتي عدلت بالقانون الخاص بتعديل قانون المطبوعات في ٢٢ نوفمبر ١٩٦٢م وقد حددت هذه المادة الجهات التي تودع بها النسخ وعدد النسخ المطلوب ايداعها ، ونصت على نوع المطبوعات التي تودع وهي جميع المطبوعات الصادرة بالتبوغرافيا والطبع البارز والرسوم والتصوير والحفر والقطع الموسيقية وذلك وفقاً لقانون المطبوعات لسنة ١٩٥٩ م(٥) .

اما في المادة المعدلة سنة ١٩٦٢ م فقد وسعت لتشمل الأشرطة والأسطوانات ، وقد حددت المادة المعدلة عدد النسخ المطلوب ايداعها بعشر نسخ ... ونورد فيما يلي نص المادة (٤٧) المعدلة من قانون المطبوعات(٦) :

١ - على جميع المطابع الحكومية والأهلية ان ترسل نسختين من كل مطبوعة من غير المطبوعات الدورية او شبه الدورية فور طبعها الى مدير المطبوعات في الولاية للحصول على اذن بتسليمها الى صاحبها كما يجب بعد الحصول على الاذن ارسال عشر نسخ الى المكتبة الحكومية في الولاية تقوم بتوزيعها على الوجه التالي :

١ - نسخة لمكتبة الديوان الملكي .
٢ - نسخة لوزارة المعارف .
٣ - نسختان لمكتبة وزارة الأنباء والارشاد .
٤ - نسخة لمكتبة الجامعة الليبية في طرابلس .
٥ - نسخة لمكتبة الجامعة الليبية في بنغازي .
٦ - نسخة لجامعة السيد محمد بن علي السنوسي الاسلامية في البيضاء .
٧ - نسخة للمكتبة الحكومية لكل ولاية .

٢ - تسري احكام الفقرة السابقة على جميع المطبوعات الصادرة بالتوبوغرافيا وبالطبع البارز والرسم والتصوير والحفر على الأشرطة والأسطوانات.

والمفروض ان هذا القانون كان ساري المفعول منذ ١٩٥٩م حتى صدور القانون رقم ٧٦ لسنة ١٩٧٢م بشأن المطبوعات .

ومعنى هذا اننا نتوقع ان كل ما صدر في ليبيا من مطبوعات سواء كانت طبعته المطابع الأهلية او الحكومية مودع في الجهات المنصوص عليها في القانون .

واذا حاولنا ان نبحث عن المادة المقابلة للمادة ٤٧ من قانون المطبوعات رقم ١١ لسنة ١٩٥٩ م في قانون المطبوعات رقم ٧٦ لسنة ١٩٧٢ م(٧) فيما يتصل بموضوع الايداع لوجدنا المادة (٤٥) في القانون رقم ٧٦ تنص « على كل من يطبع كتابا او رسالة ان يقدم الى مدير ادارة المطبوعات (ثلاث) نسخ من الكتاب او



الرسالة ليتولى توزيعها على الجهات التي يحددها الوزير المختص » .

وقد نص قانون حماية حق المؤلف الصادر عن وزارة الاعلام والثقافة في مارس ١٩٦٨ م[٨] في المادة (٤٨) :

« يجب على ناشري المصنفات التي تعد للنشر عن طريق عمل نسخ منها ان يودعوا خلال شهر من تاريخ النشر خمس نسخ من المصنف في وزارة الاعلام والثقافة ، ويعاقب على عدم الايداع بغرامة لا تتجاوز خمسة وعشرين ديناراً دون اخلال بوجوب ايداع النسخ » .

هذا من الناحية القانونية والتاريخية ، اما من الناحية التنفيذية فلم يتم شيء من ذلك الا بالنسبة لقانون المطبوعات ، ومصلحة المطبوعات، وهي جهة غير علمية ولا تعنى بالعمل الببليوغرافي ، ومن ثم فان الامر يتطلب صدور قانون ايداع جديد ، وفعلا قدمت امانة اللجنة الادارية للاعلام الثوري مشروعاً لقانون الايداع ، وسبق عرض هذا الموضوع اكثر من مرة خلال السبعينات ، ومن المحتمل صدوره هذا العام على حد علم الباحث .

الايداع القانوني في الوطن العربي

وبالنسبة الى اوضاع تشريعات الايداع في الوطن العربي فلا بد لدراستها من ان ننظر اليها من جانبين ...

الجانب الأول : هو اوضاع قوانين الايداع في كل قطر من الأقطار العربية قطراً قطراً ...

والجانب الثاني : هو الجانب العربي بالنسبة للوطن العربي ككل ، والخاص بتوصيات المؤتمرات والندوات العربية فيما يتصل بالجهود التي قامت بها جامعة الدول العربية (المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم) .

الجانب الأول :

اوضاع الايداع في الأقطار العربية

والذي يجعلنا نتعرض لشيء من التفصيل لأوضاع قوانين الايداع في كل قطر من الأقطار العربية هو ان المعلومات الدولية الصادرة عن اليونسكو والمتوفرة لدى الباحثين حول هذا الموضوع غير كاملة وغير حديثة ، الأمر الذي يجعلنا نحدثها استكمالا لجهود الآخرين وخاصة الجهود الدولية ... فقد قام جيرالد بوماسل[٩] بمسح دولي حول تشريعات الايداع في العالم سنة ١٩٧٧ م في دراسته .

Survey of existing legal depost Laws.
Paris: UNESCO, 1977 (p. 61-77/UBC/Rof. 2)

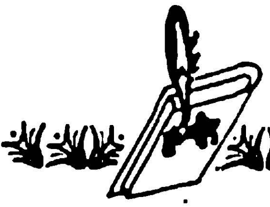
ولم يرد فيه الا الاشارة الى ثلاث دول عربية بها قوانين ايداع هي : تونس ، العراق وسوريا ، والخطأ في هذه الدراسة سوف يتضح من خلال دراستنا الراهنة . وهناك دراسة اخرى لبول افيين[١٠] « الخدمات الببليوغرافية في العالم ٦٠ ـ ١٩٦٤ م الصادرة عام ١٩٦٩ م والتي تغطي الفترة حتى عام ١٩٦٤ م اشار فيها الى خمس دول عربية بها قوانين ايداع » .

وفضلا عن الخطأ والنقص في المعلومات في هذه الوثائق الدولية فهناك بعض الدراسات الحديثة التي صدرت تتضمن اشارات غير دقيقة وخلطاً بين قوانين الايداع وقوانين المطبوعات في الأقطار العربية .

☐ مصر :

صدر قانون الايداع كأحد مواد قانون حماية حق المؤلف اذ اوجبت المادة (٤٨) من القانون ٣٥٤ لسنة ١٩٥٤ م على ناشري المصنفات « التي تعد للنشر عن طريق عمل نسخ منها » ان يودعوا خلال شهر من تاريخ النشر ٥ نسخ من المصنف في دار الكتب المصرية .

وحدد هذا القانون مدة الايداع من تاريخ النشر بأنها شهر وجهة الايداع دار الكتب المصرية وعدد النسخ المودعة (ب) ٥ نسخ ، وجعل الغرامة على عدم الايداع لا تزيد عن ٢٥ جنيهاً وقد اتضحت من خلال التطبيق بعض الصعوبات فلم تكن كلمة المصنفات التي يتعين ايداعها بالدار واضحة فهل تنطبق المصنفات على المسجلات الموسيقية والأشرطة السينمائية حيث ان القانون نص على المصنفات التي تعد للنشر عن طريق عمل نسخ منها بينما الأشرطة تعد للنشر عن طريق عرضها ، وكذلك لم ينص في القانون على ايداع المطبوعات الحكومية ، ولم يشر القانون الى مصنفات المصريين التي تنشر في الخارج، ومن اجل هذا صدر القانون رقم (١٤) لسنة ١٩٦٨ م بتعديل بعض احكام قانون حماية حق المؤلف وصدر قراره التنفيذي رقم (١٧٨) لسنة ١٩٦٨ م من جانب وزارة الثقافة ... ويلاحظ على هذا القانون[١١] انه صدر خلواً من النص على تعريف المصنف والنص على انواع المصنفات الواجبة الايداع بالدار (دار الكتب المصرية) ... والتي



عددها المشرع بالكتب والدوريات والمسلسلات والمجلات والصحف والأسطوانات الموسيقية والرسائل الصغيرة والأطروحات الجامعية وبطاقات البريد المصورة (النوت) والخرائط الجغرافية والرسوم البيانية والجداول التي تنشر على حده، وكل انتاج مطبوع للفن التصوري سواء طبعت منه عدة نسخ بقصد البيع او التوزيع بالمجان وكذلك لم ينص القانون الجديد صراحة على ايداع المصنفات التي تنشرها الهيئات والمؤسسات في مصر « الا ما كان خاصاً بأمن الدولة او يعتبر من الوثائق السرية غير المتداولة .. الأمر الذي كثيراً ما يؤدي الى تهرب هذه الجهات من الايداع استناداً الى ذريعة او اخرى »(١٢) وقد نص على ضرورة الحصول على رقم ايداع للمصنف من الدار وتاريخه واثبات هذا البيان في آخر صحيفة من المصنف المطبوع او وجهة الأسطوانة الموسيقية بالنسبة للمسجلات الموسيقية واصوتية وبالنسبة للمطبوعات الحكومية، نلاحظ ان القانون المصري لم ينص صراحة على وجوب ايداعها سواء في صورته الأولى سنة ١٩٥٤ م او في التعديل سنة ١٩٦٨ م ، وسوف نلاحظ ايضاً ان القانونين اللبناني والسوري لم ينصا صراحة ايضاً على ايداع المطبوعات الحكومية .

□ لبنان :

صدر قانون الايداع اللبناني سنة ١٩٥٩ م حيث نصت المادة (٤١) من المرسوم الاشتراعي رقم ١٣٤ بتاريخ ١٢ يونيو ١٩٥٩ م على ما يأتي :

« على كل مطبعة ودار نشر في لبنان ان ترسل مباشرة الى دار الكتب الوطنية نسختين من كل مطبوعة تصدر عنها :

كتب ، نشرات ، خرائط ، مصورات ... الخ .
اما المجلات والجرائد فيرسل مديرها المسؤول نسختين من كل منها الى « دار الكتب الوطنية »(١٣). ويلاحظ على هذا القانون انه لا يتعرض لفترة الايداع ولا ينص على عقوبة على المتخلفين ولا يشير الى ايداع المطبوعات الحكومية .

□ سوريا :

يرتبط الايداع في سوريا بقانون المطبوعات ، فقد نظم قانون المطبوعات العام السوري رقم (٥٣) بتاريخ ٨ اكتوبر ١٩٤٩ م المعدل بالمرسوم التشريعي رقم ١٦ بتاريخ ٥ يونيو ١٩٦٢ م في مادته العاشرة مبدأ الايداع القانوني .

حيث نصت هذه المادة على ما يلي :

« يودع صاحب المطبعة او مديرها المسؤول المسئولية الادارية نسختين من كل مطبوعة غير المطبوعات الدورية يوم نشرها احداهما تحفظ في المديرية العامة للدعاية والاعلان ، والثانية في المكتبة الوطنية ويذكر في شك الايداع عنوان المطبوعة واسم او اسماء اصحابها ومترجمها وعدد النسخ المطبوعة واذا كان للمطبوعة صبغة سياسية ترسل نسخة ثالثة للنيابة العامة المحلية .

والقانون السوري ليس قانوناً للايداع وانما هو قانون للمطبوعات ، ولو قارناه بما صدر في ليبيا عام ١٩٥٩م لوجدناه متخلفاً حتى عن قوانين المطبوعات ... فلم يعرف المطبوعة الا بانها كل شيء مطبوع او كل رسم او خريطة منشورة ولم ينص على ايداع المطبوعات الحكومية وليس فيها اية تفصيلات خاصة بالايداع .

ولا يعتبر القانونان السابقان من قوانين الايداع بقدر ما يعتبران من قوانين المطبوعات .

□ السودان :

صدر قانون ايداع المصنفات سنة ١٩٦٦ م وعدل بالقانون رقم ٢٦ لسنة ١٩٧١ م وقد صدر القانون رقم (٣٨) لسنة ١٩٦٦ م بمبادرة من مكتبة جامعة الخرطوم لقيامها في واقع الأمر بمهام المكتبة الوطنية.

وهذا القانون قانون قائم بذاته وليس جزءاً من تشريعات اخرى مثل قانون حماية حق المؤلف او قانون المطبوعات ويسمى قانون ايداع المصنفات لسنة ١٩٦٦ م(١٤) .

وكلمة المصنفات تشمل الكتب والمجلات والصحف والنشرات والصور والخرائط وغيرها ، وكلمة المطبوعات يقصد بها المصنفات التي تصدر في نسخ متعددة .. باستعمال وسائل الطبع المختلفة التصوير او النسخ او اية وسيلة اخرى وقد حدد فترة الايداع خلال شهر من تاريخ النشر ، وحدد العقوبة على عدم الايداع بغرامة لا تجاوز خمسة جنيهات ، وفي تعديل هذا القانون تحولت مسئولية الايداع من الناشر الى الطابع، وبالنسبة للسودانيين الذين ينشرون في الخارج حددت المسئولية على المؤلف السوداني . وبدلاً من اعتبار عدم الايداع مخالفة اعتبرت جريمة يعاقب عليها بغرامة لا تتجاوز ٢٥ جنيهاً ... وجهة

الايداع اصبحت مكتبة جامعة الخرطوم دار الوثائق المركزية التابعة لوزارة الداخلية ووزارة التربية والتعليم العالي .

العراق :

صدر قانون الايداع رقم (٣٧) لسنة ١٩٧٠ م في ٢٥ فبراير سنة ١٩٧٠ م وقد نص في مادته الأولى على تعريف المصنف وما في حكمه وحدد مركز الايداع بأنه المكتبة الوطنية في بغداد . وجعل مادته الثانية مؤلفة من فقرتين اولاهما تحدد : المصنفات وما في حكمها التي ينبغي ايداعها ، وحدد في الفقرة الثانية ما يستثنى من المطبوعات مثلا الاعلانات التجارية وقوائم الأسعار وبطاقات البريد ... الخ .

وقد اوجب هذا القانون ايداع ٥ نسخ من المصنفات الحكومية المعدة للبيع او النشر ... ونسخة واحدة من كل مطبوع ممنوع من قبل السلطات المختصة[١٥] .

ومن هنا فقد نص هذا القانون ولأول مرة في القوانين العربية صراحة على ايداع المطبوعات الحكومية وحتى وجوب ايداع المطبوعات الممنوعة ، وحدد عدد النسخ الواجبة الايداع بخمس ، وجعل العقوبة على المخالفين غرامة لا تقل عن ٢٠ديناراً، ولا تزيد عن مائة.

الأردن :

لا يوجد في الأردن قانون للايداع وانما يوجد بها قانون للمطبوعات والهدف من هذا القانون هو مراقبة المطبوعات وهي في حالتها الخطية ، فاذا تمت اجازتها اصبح في الامكان طباعتها، وبعد الطباعة تودع نسختان من المطبوعات لدى دائرة .. المطبوعات والنشر .

الجزائر :

كان هناك في فترة الاحتلال الفرنسي قانون للايداع مطبق منذ عام ١٩٤٣ م غير ان المكتبة الوطنية الجزائرية لم تكن تستفيد منه حيث كانت ترسل المطبوعات الى المكتبة الوطنية الفرنسية فقط ، وفي سنة ١٩٥٦ م اصدر المحتلون الفرنسيون مرسوماً جعل المكتبة الوطنية الجزائرية تستفيد من هذا الايداع .

وعقب الاستقلال سنة ١٩٦٢ م اغتنمت ادارة المكتبة الوطنية الجزائرية الحماس الذي اعقب الاستقلال للحرص على تطبيق هذا القانون لصالح المكتبة الوطنية ، ومنذ عام ١٩٦٤ م ابتدات المكتبة الوطنية تصدر الببليوغرافية الوطنية الجزائرية، وقد ساعد اصدار هذه الببليوغرافية بعد عامين من الاستقلال على اقناع الناشرين ورؤساء المصالح باهمية القانون وفائدته ، خاصة حينما وجدوا ان منشوراتهم مذكورة في هذه النشرة الرسمية[١٦] .

موريتانيا :

صدر قانون الايداع بها سنة ١٩٦٣ م وانشئت دار الكتب الوطنية الموريتانية سنة ١٩٦٥ م ، وعدل القانون بحيث اصبحت دار الكتب الوطنية هي جهة الايداع القانونية .

المغرب :

الوضع في المغرب مماثل للوضع في الجزائر وتجري محاولات الآن لاصدار قانون ايداع وطني .

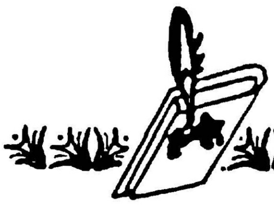
تونس :

يعتبر الايداع القانوني بالنسبة لتونس جزءاً من قانون المطبوعات رقم (٣٢) لسنة ١٩٧٥ م ، المؤرخ ٢٨ ابريل ١٩٧٥ م[١٧] والذي جمعت فيه النصوص السابقة المتعلقة بالطباعة والنشر وبيع الكتب والصحافة في نص واحد ، تحت عنوان « مجلة الصحافة » وقد تناول الباب الأول المؤلف من ١٢ مادة موضوع الايداع القانوني وحددت المادة الثانية انواع المطبوعات والكتابات التي تخضع لاجراءات.. الايداع القانوني ، وحددت المادة الثالثة المطبوعات المستثناة من الايداع القانوني ، ونصت المادة الرابعة على ان يتولى الايداع القائم بالطبع او المنتج او الناشر او الموزع .

وقد عدل هذا القانون بالأمر رقم ٥٣٦ لسنة ١٩٧٧ م المؤرخ في ٨ يونيا ١٩٧٧ م[١٨] . وقد جعلت عقوبة مخالفة القانون غرامة تتراوح ما بين ٢٠ — ٢٠٠ دينار ترتفع في حالة تكرار المخالفة ما بين ٤٠ — ٤٠٠ دينار ، ولم ينص صراحة في قانون الايداع التونسي على ايداع المطبوعات الحكومية .

البحرين :

صدر قانون الايداع سنة ١٩٧٥ م وقد حدد القانون عدد النسخ التي تودع بخمس نسخ تودع بالمكتبة العامة قبل توزيع المصنفات مباشرة[١٩] . ويلاحظ انه لا توجد بالبحرين مكتبة وطنية ، وقد جعلت المكتبة العامة هناك بمثابة مكتبة وطنية، وتعتبر مخالفة القانون مخالفة يعاقب عليها بغرامة لا تزيد



على ٥٠ ديناراً ، وقد اشتمل هذا القانون على تعريف الصنفات المكتوبة والمصنفات الداخلة في فنون الرسم بالخطوط والألوان اذا كانت منشورة بكميات تجارية والمصنفات المسرحية والمصنفات الموسيقية سواء اقترنت بألفاظ او لم تقترن بها ، والمصنفات الفوتغرافية والسينمائية والمصنفات التي تعد خصيصاً او تذاع بواسطة الاذاعة المسموعة او المرئية والمطبوعات الحكومية .

☐ قطر :

اعدت دار الكتب القطرية مشروعاً بقانون للايداع حدد في تمهيده المقصود بعبارة المصنفات وما في حكمها وجهة الايداع هي دار الكتب الوطنية ، وحدد عدد النسخ بخمس لكل مصنف وما في حكمه ينشر بداخل قطر ، فاذا قلَّ ما يطبع منه عن .. خمسمائة نسخة نيودع ثلاث نسخ منه فقط وأوجب اتمام الايداع قبل توزيع المصنف او عرضه للبيع ، وحدد مدة اربعة شهور من تاريخ النشر للايداع وربط بين حق التأليف والايداع، وجعل الايداع دليلا على اثبات حق التأليف وجعل عقوبة المخالفة غرامة لا تقل عن مائتي ريال نطري ولا تزيد على الف ريال .

ويهمنا هنا ان نشير الى ان هذا المشروع لم ينص صراحة على ايداع المطبوعات الحكومية ، الا انه اشار في مادته الثالثة الى الأشخاص الذين يلتزمون احكام هذا القانون فحددهم بكل من يعمل في مجال التأليف والنشر والطبع « سواء اكانوا اشخاصاً طبيعيين او اعتباريين تابعين لجهات حكومية او الشركات ومؤسسات عامة أو خاصة »(٢٠) ويعتبر ذلك اخضاعاً غير مباشر لوجوب ايداع المطبوعات ... الحكومية .

☐ الأقطار العربية الأخرى :

اما بقية الأقطار العربية الأخرى التي لم نشر اليها فكلها بها قوانين للمطبوعات ، ولا يمكننا ان نعتبرها اصدرت قوانين للايداع ، وما زالت هذه الأقطار بحاجة الى اصدار قوانين مستقلة للايداع ، وهذه الأقطار هي :

١ ـ دولة الامارات العربية المتحدة .

٢ ـ جيبوتي .

٣ ـ السعودية .

٤ ـ الصومال .

٥ ـ سلطنة عمان .

٦ ـ الكويت .

٧ ـ الجمهورية العربية اليمنية (اليمن الشمالية) .

٨ ـ جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية (اليمن الجنوبية) .

والأقطار العربية التي اصدرت قوانين للايداع بحاجة الى مراجعة قوانين ايداعها وفقاً لتوصية المؤتمر الدولي للضبط الببليوغرافي (باريس ١٩٧٧ م) الذي نص في مجال الايداع القانوني على ما اشرنا اليه آنفاً(٢١) .

وقد عرض هذا الموضوع في ملتقى الحصر الببليوغرافي سنة ١٩٧٩ م كما سنشير اليه :

ويرى بعض الباحثين ان تتضمن قوانين الايداع في الأقطار العربية الأمور الآتية :

أ ـ اهمية شمول قانون الايداع على تعريف المصنفات الواجب ايداعها بما في ذلك المطبوعات الحكومية وتحديد المواد المستثناة .

ب ـ تطبيق القانون على المؤلفين الوطنيين الذين ينشرون مؤلفاتهم خارج بلادهم .

جـ ـ تضامن المؤلف والناشر والطابع في الايداع.

د ـ اتمام الايداع قبل توزيع الكتاب في الأسواق.

هـ ـ فرض حد ادنى للغرامة رادع للمخالفين مع جواز الايداع على نفقة الملتزمين به واستقصاء المقابل والغرامة بالتنفيذ الاداري .

و ـ تجدد الالتزام بالايداع عند اعادة طبع المصنف .

ز ـ اثبات رقم الايداع وتاريخه في كل مصنف ، اما في ظهر صفحة العنوان واما في آخر صفحة من المصنف .

ح ـ جعل رقم الايداع وسيلة اثبات لحقوق الملكية الأدبية والفنية ، ولا تسمع دعوى المنازعة في هذه الحقوق عن المصنفات غير المودعة .

ط ـ النص على مكان الايداع اما بالمكتبة الوطنية في البلاد التي بها مكتبة وطنية، او في اية مكتبة كبيرة اخرى مثل مكتبة الجامعة في البلاد التي ليس لها مكتبة وطنية .



الجانب الثـاني :

توصيات المؤتمرات العربية

اوصت حلقة تيسير تداول الكتاب العربي ونشره المنعقد في لبنان في سبتمبر ١٩٦١ م الأقطار العربية باصدار قانـون للايـداع .

اما الحلقة الثانية لدراسة وسائل تيسير تداول الكتاب العربي ونشره المنعقد بالقاهرة من ٢٥ ـ ٢٧ يناير ١٩٦٩ م(٢٣) فقد اوصت بأن يكون الايداع قانون مستقل عن قانون حق المؤلف . وقدمت هذه الحلقة مشروعاً بقانون ايداع المصنفات مؤلف من ٦ مواد وهي:

مـادة (١) :

يودع المؤلف والناشر والطابـع متضامنين وعلى نفقتهم في دار الكتب الوطنية او المكتبة التي تختارها الدولة حتى تنشأ دار الكتب الوطنيـة نسختين على الأقل من كل مصنف معد للنشر قبل عرضه للتوزيع وفقـا لمـا تراه الدولة .

مـادة (٢) :

المطبوعات الحكومية المعدة للنشر خاضعة لأحكام قانون الايداع ويكون رئيس الدائرة (المصلحة) الحكومية القائمة بالنشر ملزماً بالايداع بالتضامن مع المسئول عن ادارة المطبعة اتي قامت بالطبـع .

مـادة (٣) :

يقوم المؤلف الذي ينشـر مصنفه خـارج بلده بايداع نسختين منه في جهة الايداع في بلده خلال ثلاثة اشهر مـن تاريخ النشـر .

مـادة (٤) :

يجب على المودع ان يثبت في آخر صحيفة من المصنف البيانات التاليـة :

أ ـ تاريـخ النشـر .
ب ـ رقم وتاريخ ايداع المصنف في دار الكتب الوطنية ويأخذ المودع ايصالا بالايداع .

مـادة (٥) :

يكتفي بايداع نسختين فقط من الدوريات على اختلاف انواعها والمصنفات التي لا يزيد ما اعد للنشر منها على خمسمائة نسخة ونسخة واحدة او مصورة عنها مـن الرسائل (الأطروحات) الجامعيـة التي لم تطبـع بعـد .

مـادة (٦) :

اذا اعيـد طبـع المصنف كما هو تجدد الالزام بايـداع نسـخـة واحـدة .

مـادة (٧) :

يعاقب المتخلف عن الايداع بغرامة... وتتضاعف الغرامة كلما تكررت المخالفة مع عدم الاخلال بوجوب الايـداع في كل حـالة .

واما الحلقة الدراسية للخدمات المكتبية والوراقة والتدقيق والمخطوطات العربية والوثائق القومية التي اقامتهـا المنظمـة العربية للتربية والثقافـة والعلوم بدمشق في الفترة من ٢ ـ ١١ اكتوبر ١٩٧١ م ، فقد اوصت فيما يتصل بالايـداع القانوني(٢٤) « توصي الحلقة المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم بمتابعة الدول العربية التي لم تصدر حتى الآن قانوناً للايداع وحثهـا على اصداره عـن طريق الاتصال بالحكومات والهيئات المعنيـة وترى ان يتضمن قانون الايـداع الأمور التـاليـة :

أ ـ ان يودع المؤلف ان الناشـر او الطـابـع بالتضامن وعلى نفقتهم في مكتبة الايداع خمس نسخ على الأقل مـن كل مصنف معد للتوزيع ويعتبر في حكم المصنف كل مادة تؤدي ما يؤديه المصنف من الأثر).

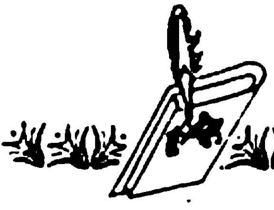
ب ـ تعتبر المطبوعات الحكومية المنشورة خاضعة لأحكام قانون الايداع .

جـ ـ يودع المؤلف الذي ينشـر مصنفه خارج بلده خمس نسخ في مكتبـة الايداع في بلـده خلال ثلاثة اشهر من تاريخ النشر ، ويجوز ان تتعدد اماكن الايداع داخـل نفس القطر في حدود العدد المذكور (وهو خمس نسخ) .

د ـ يجب ان يثبت المودع في آخر مصنفه تاريخ النشر ورقم وتاريخ ايداع المصنف .

هـ ـ يكتفي بايداع نسختين فقط من الدوريات من طبعاتها المختلفة ومن المصنفات التي لا يزيد ما نشر منها في الطبعة الواحدة على خمسمائة نسخة ونسخة واحـدة اصلية او مصورة عنها مـن (الأطروحـات) الرسائل الجامعية التي لم تطبع بعـد .

و ـ اذا اعيـد اصدار المصنف كما هو تجدد الالزام بايداع نسخة واحـدة فقط .



ز ـ يعاقب المتخلف عن الايداع بغرامة تحددها قوانين الدولة المعنية ولا يعفى دفع الغرامة من وجوب الايـداع .

وبالرغم من هذه التوصيات والاحساس بأهمية قوانين الايداع فقـد تباين الاهتمام بهـا بين الأقطار العربيـة ، الأمر الذي حـدا بالمؤتمر الثاني للاعداد البيليوغرافي للكتاب العربي(٢٥) الذي عقد ببغداد من ٢ ـ ١٢ ديسمبر ١٩٧٧ م بـأن « يوصى بأن تقـوم المنظمة بدراسة جدوى انشاء مركز ببليوغرافي عربي وان تقدم المنظمة نموذجاً لنظام ايداع قانوني تأخذ به الأقطار العربية التي لا يتوفر فيها مثل هذا النظام .

واستجابة لذلك فقد عرض مشروع قانون ايداع للأقطار العربية للمناقشة وقـدم لمؤتمر تونس حول الضبط الببليوغرافي في الأقطار العربية من ٢١ـ٢٦ فبراير ١٩٧٩ م وقـد اعده الأستاذ عزالدين قلوز ، مدير دار الكتب التونسية ولكن لم تتم مناقشة هذا المشروع ولم تصدر بشأنه ايـة توصيـة حتى الآن .

ويبدو ان المنظمةالعربيةللتربية والثقافة والعلوم كانت أكثر نشاطاً ومبادرة فيمـا يتصل بقانون حـق المؤلف حيث اقر مشروع هذا القانون ، بينما لم يحدث شيء مماثل فيما يتصـل بتوحيـد التشريع المتصل بالايداع القانوني علماً بانه من المهم ان يفصل بين قانون حق المؤلف والايداع القانوني .

وقـد اوصى ملتقى الحـصر الببليوغرافي في الأقطار العربية (توس) ٢١ ـ ٢٦ فبراير ١٩٧٩ م ، في مجال الايداع القانوني بالتوصية التالية(٢٦) :

أ ـ التزاماً بالتوصيات التي قدمت من كل من مؤتمري بغـداد وباريس المتضمنة ضـرورة اصدار قوانين الايـداع في الأقطار التي ليست لديهـا تلك القوانـين ونظراً لاستعداد المنظمـة العربية للتربيـة والثقافة والعلوم في اعـداد قانون ايـداع نموذجي تستعين بـه الأقطار العربية في تشريع قوانين الايداع ان يذكر المساهمون في الملتقى بتنفيذ هذه التوصيات لتكون عاملاً مساعداً في اعداد الضبط الببليوغرافي في الوطن العربي مما يساعد على تنفيذ برنامج الضبط الببليوغرافي العـالمي .

ب ـ ولكي تكون قوانين الايـداع الصادرة في بعض الأقطار العربية مصادر يستعان بها يرى اعضاء الملتقى ان تقوم المنظمة العربية للتربيةوالثقافة والعلوم نشر تلك القوانين مجمعة في نشرة واحدة توزع على كل اقطارنا ولا سيما تلك الأقطار التي ليست لديها قوانين جديدة وتعديل للقوانين المعمول بها .

ولكن شيئاً من ذلك لم يصدر على حد علم الباحث حتى هذه اللحظة ابريل ١٩٨٢ م .

وقد اشرنا الى ان قوانين الايداع نصت جميعهـا على ان يعطى كل كتاب رقم ايداع وان يثبت هذا الرقم في كل مطبوع .

ونود هنا ان نذكر بانه لا ينبغي هنا الخلط بـين رقم الايداع والترقيم الدولي الموحد للكتب الذي كان شائعاً ... فقد اصبح الترقيم الدولي الموحد للكتب شائعاً في كل دول العالم المتقدم والذي يعطى فيه كل كتاب رقماً خاصاً به مؤلفاً مـن عشر خانات يشير الى البلد الذي صدر فيه ، والى اسم الناشر والى الكتاب بعينه بحيث لا يشترك كتابان في رقم واحد ابداً ...

هذا النظام لم يكن معروفاً قبل ١٩٦٦ م وقد بدا في اول الأمر كنظام قومي بريطاني ثم تطور بسرعة ليصبح نظاماً دولياً شاملا تشرف على تنفيذه وكالة دولية في برلين باسم وكالة تدمك الدولية(٢٧) :

(International ISBN - Agenture)

وقد يكون من المفيد هنا ان نروي قصة ظهور هذا النظام وانتشاره بسرعة ، فحوالي عام ١٩٦٥ م طلب اتحاد الناشرين في انجلترا الى الدكتور F. G. Fouster الأستاذ بمدرسة الاقتصاد بلندن(٢٨) ان يضع تقريراً علمياً عـن الحاجة الى نظـام موحد لترقيم الكتب في بريطانيا والامكانات العلمية والفنية المتاحة الى تنفيـذ هذا النظام اذا تقرر العمل به .

واعد فوستر تقريره وقدمه الى اتحاد الناشرين في مايـو ١٩٦٦ م وانشئت وكالـة الترقيم الموحـد للكتب S B N

Standard Book Numbring Agency

بالتعاون بين ثلاث جهات في بريطانيا وهـذه الجهات هي(٢٩) :

ـ اتحـاد النـاشرين .
ـ دار وابتكار للأعمال الببليوغرافيـة .
ـ الببليوغرافية القومية البريطانية « B N B » .

وانيط بهذه الوكالة ان تشرف على تنفيذ النظام المقترح ابتداء مـن عام ١٩٦٧ م واصبح يعرف هـذا النظـام في بريطانيـا باسم الترقيم الموحـد للكتب Standard Book Number « S B N » وبمقتضـى

هـذا النظام امكن لكل كتاب يصدر في بريطانيا ان يأخذ رقماً معيناً لا يأخـذه اي كتاب آخر وهـذا هو المقصود بالتوحيد في النظام وكانت الترقيمة تتألف من ثلاث شرائح من اليسار الى اليمين :

١ ـ الشريحة الأولى هي رمز الناشر .
٢ ـ الشريحة الثانية هي رمز الكتـاب .
٣ ـ والشريحة الثالثة هي رمز لمراجعـه .

مسبوقة بالتسمية المعيارية مثلا ISBN. 356, 10831, 2 ومجموع الخـانات في الأولى والثانيـة دائمـاً ثماني خانات . اما الخانة الأخـيرة فهي خانة واحـدة . اذا تألف الرقم مـن تسع خانات .

لقـد نجح هذا النظام في بريطانيا نجاحاً كبـيراً واصبح لكل كتاب رقم" موحد" يوضع في موقع معين من الكتاب واصبح هذا الرقم يوضع في فهارس الناشرين ازاء كل مطبوعاتهم واستفادت الببليوغرافية القومية البريطانية من هـذا الترقيم في اعمالهـا وكشافاتهـا وخدماتها المختلفة خاصة ان هذه الببليوغرافية تختزن بياناتها وتسترجعها بواسطة الحاسب الالكتروني .

وكان الدكتور فوستر قد اقترح في تقريره ان تضاف شريحة رابعة قبل شريحة الناشر لتكون رمزاً للمنطقة الجغرافية من العالم، واذا تقرر لهذا النظام ان يؤخذ به لأصبح في الامكان عن طريق هذا الرقم المؤلف مـن اربع شرائح ان نعطي لكل كتاب يصدر في العالم رقماً خاصاً به لا يشاركه فيه غيره مما سوف يساعـد الببليوغرافيين والناشرين وطلبـات الكتب مساعدة كبيرة ويوفر الكثير من الجهد والوقت بالنسبة لطلبات الكتب وتزويد المكتبات في عصر تصدر فيـه كل ساعة الآلاف من الكتب في مختلف انحاء العالم .

وقـد انشئت وكالة دولية لضبط هذا النظام مقرها في المانيا الغربية واصبح هذا النظام الناجح نظاماً دوليـاً وسمى الترقيم الدولي الموحـد للكتب واخذت انجلترا وامريكا مثلا الرمز (صفر) فاصبح على الناشر هناك ان يطبع على كتابه الرقم السـابق :

واذا نظرنا الى هذا الرقم من الناحية النظرية بشرائحه الأربع المؤلفة من رمز المنطقة الجغرافيـة ، ورمز الناشر ، ورمز الكتاب ، ورمز المراجعة لوجدناه يستطيع ان يستوعب بليون كتاب (١٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠) وهو عدد هائل اكبر بكثير مما يمكن ان يظهر في العالم كله لعدة مئات من السنين ...

وبعض الأقطـار العربية بـدأت تتصل بالمركز الدولي في المانيـا الغربية وتنـال حصتها من قطاع الترقيم المخصص للمنطقة العربية وابتدأت تضع هذا الرقم على المطبوعات التي تصدر فيها ومن هذه الأقطار الجزائر ومصر وبعض دور النشر في لبنان وقد قامت دار الكتب الوطنية بالجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية بالاتصال بالمركز الدولي في المانيا الغربيـة لأخذ الترقيمة المخصصة للجماهيرية للكتب، واتصلت كـذلك بالمركز الدولي لتسجيـل المطبوعات المسلسلة بباريس لأخذ الحصة الخاصة بترقيم الدوريات والمعتقد انها سوف تتعاون في ذلك مع المنشاة الشعبية للكتاب والتوزيع والاعلان والمطابـع . وفي تقـديرنا ينبغي ان تتولى تنظيم هذه العملية بالنسبة للدول العربية مجتمعة وسوف يفيد هذا الترقيم الدولي للكتب التي تصدر في البلاد العربية في الأعمال الببليوغرافية والحصر المنظم للكتب .

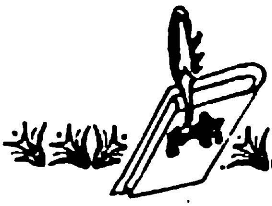
فضلا عن فائدته الكبرى بالنسبة للناشرين وتجارة الكتب وتيسير تبادلها بـين الأقطار العربيـة والعالم بوجـه عام .

خـاتمـة :

وفي النهاية فنود ان نذكر هنا بأن موضوع حماية حقوق المؤلف بما فيه من اتفاقات دولية وعربيـة وما يتصل به من تطورات تجد كل يوم لم نتعرض له وانما تعرضنا لموضوع الايداع القانوني باعتباره وسيلة تساعد على تنظيم الحماية القانونية للمؤلفين بشكل علمي منظم وكذلك لم نتعرض للأشكال المتعددة للمصنفات التي .. تشملها الحماية فلم تعـد الحماية قاصرة على الكتب وانما تشمل انواعاً عديدة مـن الانتاج الفكري مثـل التسجيلات الصوتية والتسجيلات المرئية والخرائط والنوت الموسيقية والدوريات والمسلسلات والرسائل والأطروحات .. الخ .

وقـد ركزنا هنا على الاهتمام بالايداع القانوني واشرنا الى الترقيم الدولي الموحـد للكتب لاعتقادي بأن كل الجماهير لا بد ان تشارك في الحياة الثقافية مشاركة فعـالة ولا يتم هـذا الا بأن نحقق لها اداة لضبط وحصـر مصادر المعلومات عـن طريق الأخذ بالأساليب العلمية الحديثة التي تحقق لهـا ذلك على النحو الذي اشرنا اليه . وان يبادر اتحاد الناشرين العرب بنشر ببليوغرافيا تصدر سنوياً لكل ما ينشـر في الوطـن العـربي .

★ ★ ★



الهوامش المصدرية :

١ ـ ملتقى الحصر البيليوغرافي في الدول العربية » تونس ٢١ ـ ٢٦ فبرايـر ١٩٧٩ ٠

٢ ـ المؤتمر الثاني للاعداد البيليوغرافي للكتاب العربي (بغداد ٣ـ ١٢ يسمبر ١٩٧٧ م) بغداد ١٩٧٩ م ٠

3 — International Congresson National Bibliographies. Final Report. Paris (12-15 Sept. 1977).

4 — General Information Programme-Guidelines for The National Bibliographic Agency and the National Bibliography. Paris : United Nations Educational, Scientific and Sultural Organization, December 1979 Appendix B-Page 2:

٥ ـ راجع موسوعة التشريعات الليبية ج ٧ ـ مطبوعات ـ ص ١٠ ٠

٦ ـ نفس المرجع ، ص ١٦ ٠

٧ ـ نفس المرجع ج ٧ ، ملحق ـ مطبوعات ـ ص ٩ ٠

٨ ـ قانون حماية حق المؤلف منشورات ادارة العلاقات العامة وزارة الاعلام والثقافة طرابلس : ١٩٦٨ ص ٣١ ٠

9 — Pomassl, Gerhard. Suruey of existing legal depost Laws : UNESCO, 1977. (P. 61-77/UBC/Ref. 2).

10— Paul Auicenne. "BibliographicalSeruices Through out the World (1960-1964) Paris, UNESCO, 1969.

١١ـ المجلة العربية للمعلومات ٠ العدد ٣ ٠ القاهرة : يونيو ١٩٧٩ م عبد المنعم محمد موسى « قوانين الايداع في الأقطار العربية » ص ١٨٥ ـ راجع ايضاً المكتبة القومية اعداد عبد المنعم محمد موسى ٠ ورقة مقدمة الى الحلقة الدراسية للخدمات المكتبية والوارقة « البيليوغرافيا والتوثيق والمخطوطات العربية والوثائق القومية ـ اقامتها المنظمة الدربية للتربية والثقافة والعلـوم بالتعاون مع حكومة الجمهورية العربية السورية ٠ دمشق ٢ـ١١ اكتوبر ١٩٧١ م ص ص ٩٩ ـ ١١٢ ٠

١٢ـ المجلة العربية للمعلومات ٠ نفس المرجع ص ٨٥ ٠

١٣ـ الحلقة الدراسية للخدمات المكتبية والوراقة (البيليوغرافيا والتوثيق والمخطوطات والوثائق القومية ـ اقامتها المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم بالتعاون مع حكومة الجمهورية العربية السورية ٠ دمشق : ٢ ـ ١١ اكتوبر ١٩٧١ م « المكتبة القومية » عبد المنعم محمد موسى ص ١٠٣ ٠

١٤ـ عبد الرحمن النصري حمزة ٠ ذكـره مقدمة لملتقى الحصر البيليوغرافي في الدول العربيـة ٠ تونس : ١ ٢ـ ٢٦ فبراير ١٩٧٩ م (بالاستنسل) ٠

١٥ـ فؤاد يوسف قزانجي ٠ المكتبة الوطنية ٠ وآفاق تطورها ٠ بغداد ١٩٧٧ م ص ص ٥٦ ـ ٥٧ ٠

١٦ـ محمود بوعياد ٠ تقرير الايداع القانوني والحصر البيليوغرافي في الجزائر مقدم للملتقى حول الحصر البيليوغرافي في الدول العربية، تونس : ٢١ ـ ٢٦ مارس ١٩٧٩ م (بالاستنسل) ٠

١٧ـ الرائد الرسمي للجمهورية التونسية ٠ العدد الصادر في ٢٩ ابريل ١٩٧٥ م ٠

١٨ـ الرائد الرسمي للجمهورية التونسية ٠ السنة ١٢٠ ، العدد ٤١ ، جوان (يونيو) ١٩٧٧ م ٠

١٩ـ عبد المنعم محمد موسى « قوانين الايداع في الأقطار العربيـة » المجلة العربيـة للمعلومات العـدد ٣ ٠ القاهرة : يونيـو ١٩٧٩ م ص ١٩٥ ٠

٢٠ـ المرجع نفسه ، ص ١٩٦ ٠

21— General Information Programme - Guidelines. For the National Bibliographic Agency and the National Bibliography.
Paris : United Nations Educationel, Scientific and Cultural Orgamzation, December 1979. Appendix B-Page 2.

٢٢ـ عبد المنعم محمد موسى ٠ مرجع سبق ذكره ، ص ٢٠١ ٠

٢٣ـ الحلقة الثانية لدراسة وسائل تيسير تداول الكتاب العربي ونشره (القاهرة من ٢٥ ـ ٢٧ يناير ١٩٦٩ م) ٠ القاهرة : ١٩٧١ م ص ص ٣١ ـ ٣٢ ٠

٢٤ـ الحلقة الدراسية للخدمات المكتبية والوراقة (البيليوغرافيا والتوثيق والمخطوطات العربية والوثائق القومية (دمشق من ٢ ١١ اكتوبر ١٩٧١ م دمشق ١٩٧٢ م ص ص ٥٤ ـ ٥٥ ٠

٢٥ـ المؤتمر الثاني للاعداد البيليوغرافي للكتاب العربي (بغداد من ٣ ـ ١٢ ديسمبر ١٩٧٧ م) بغداد : ١٩٧٩ م ص ٥٣ ٠

٢٦ـ ملتقى الحصر البيليوغرافي في الدول العربية (تونس ٢١ ـ ٢٦ فبرايـر ١٩٧٩ م) ٠

٢٧ـ سعد محمد الهجرسي ٠ المعايير الموحدة لمراكز المعلومات عامـة والتوثيق خاصة وما يرتبط بها من المؤسسات والوظائـف ٠ سلسلة دراسات عن المعلومات عدد ٤ ٠ ادارة التوثيق والاعلام/ المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلـوم ، القاهرة ١٩٧٧ م ص ٧٢ ـ ٧٣ ٠

٢٨ـ سعد محمد الهجرسي « الترقيم الدولي الموحد للكتب والدوريات في الوطن العربي » الثقافة العربية ٠ العدد الثالث ، القاهرة : ١٩٧٥ م ص ٣٧٣ ٠

٢٩ـ سعد الهجرسي ٠ نفس المصدر السابق ص ٣٧٣ ٠

★ ★ ★

اتحاد كتاب المغرب:

مشكلات النشر والتوزيع

وحماية ملكية الإنتاج الثقافي وحقوق الكاتب العربي

عبد الرفيع الجواهري
إدريس الناقوري

١ ـ مشكلات النشر والتوزيع :

ليس من شك في ان المشكلات التي يعاني منها الكتاب العربي والانتاج الفكري والثقافي عامة ترتبط ارتباطا وثيقا بالمشكلات البنيوية العامة التي تسود الواقع الاجتماعي في الأقطار العربية .

فالمشكلات التي تتجلى على المستوى الفكري وعلى مستوى نشر وتوزيع الكتاب العربي تعكس الصعوبات والتناقضات الجارية على مستوى الواقع الاجتماعي: الاقتصادي والسياسي نفسه .

فالعالم العربي الذي تجمع اقطاره ودوله عناصر الجغرافيا والتاريخ والتراث والمصير لا يزال يعاني أزمة التمزق السياسي والتجزئة الاقتصادية والفكرية، بفعل عدة عوامل تضافرت كلها على خلق واقع جديد تمثل في هذا التشتت والتنافر الذي يبلغ حد التناحر في بعض الأحيان .

وفي مقدمة هذه العوامل التي تولدت عندها ظاهرة التخلف، الاستعمار بجميع اشكاله والوانه ، وما ترتب عنه من مضاعفات ونتائج سلبية شملت كل مرافق الحياة الاجتماعية وانعكست بصور مختلفة في المجال الفكري والابداعي . وكان من الطبيعي ان تظهر لها انعكاسات في الكتاب العربي : انتاجاً واستهلاكاً ونشراً وتوزيعاً .

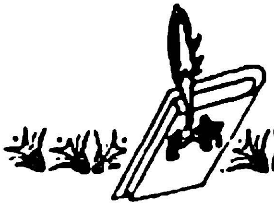
ومن مضاعفات المرحلة الاستعمارية في العالم العربي وفي اقطار المغرب العربي سيادة اللغة الفرنسية في كل من تونس والجزائر والمغرب خلال فترات الحماية ومزاحمتها اللغة القومية في فترات الاستقلال .

وقد ادى الصراع بين اللغتين الاستعمارية والقومية الى ما اصطلح عليه بمسألة الازدواجية التي لا تزال تعاني منها كثير من البلدان العربية ، وخاصة اقطار المغرب العربي .

وعلى الرغم من انحسار الفرنسية مثلا في المغرب على المستوى الاجتماعي العام فهي لا تزال ذات تأثير كبير في اوساط المثقفين ، بل انها حافظت على سيطرتها الكاملة في الادارة وفي بعض المؤسسات التعليمية (الجامعة ـ الثانويات ...) الشيء الذي يضع عدة عراقيل في وجه مشروع التعريب الذي كان دائما يتعثر ويتعرض للاجهاض والتأجيل . ومن هنا يمكن القول بأن هذا هو التحدي الأول الذي يواجه الكتاب العربي. فهو يبدو بالنسبة الى الكتاب الأجنبي، الفرنسي والانجليزي، دون المستوى من حيث الاخراج والطباعة ، كما انه لا يطاوله من حيث المحتوى . اما في ميدان النشر والتوزيع فالكتاب الأجنبي يحظى بالأسبقية وترصد له الامكانيات المادية الكبيرة والخدمات الخاصة .

والكتاب الأجنبي بخصائصه النوعية وبحكم ارتباطه بمؤسسات قوية وشبكات اتصال متقنة ومحكمة البناء ، ذو اغراء خاص وذو جاذبية . وهذه عوامل تساعد على اذكاء الصراع الخفي والمعلن في نفس الوقت بين المثقفين والقراء الذين يتوزعون فئات ثلاثاً : فئة تتعصب للكتاب الأجنبي وتقتصر على استهلاكه لأنها تعتبره الانموذج والمثال .

فئة ترتبط بالكتاب العربي وتتحيز له لعدة اسباب تتعلق بالتراث والقومية والتاريخ ، وترى في



الكتاب الأجنبي خطراً على القارىء العربي وتعتقد ان الفئة الأولى تعاني من استلاب فكري وثقافي تجعلها تعيش منفصلة عن واقعها وتاريخها ووجودها .

وهناك فئة ثالثة تشربت الثقافة العربية واطلعت على الثقافة الأجنبية وافادت من معطيات الفكر والعلم المعاصر وتحاول التوفيق بين الثقافتين وهي تستهلك الكتاب العربي كما تستهلك الكتاب الأجنبي .

وبعد مرور ربع قرن ، على الاقل ، على احراز كثير من البلدان العربية على استقلالها السياسي ، بقي الكتاب العربي يتعرض لمضايقات كثيرة ويعاني كثيراً من صنوف الحجز والمراقبة والمصادرة والمنع ، وكلها مشاكل ناتجة عن الاقليمية الضيقة التي تمارسها بعض الدول العربية فتضع السدود في وجه الكتاب العربي وتحول دون نشره وتوزيعه في بلدانها ، وقد تلجأ احياناً الى اساليب فنية متعددة تهدف كلها الى محاصرة الكتاب العربي والوقوف في وجهه حتى لا يخترق الحدود ويصل الى يد القارىء العربي .

وحتى اذا قيض له ان يظهر في السوق المحلية فهو لا يستطيع ان ينتشر على اوسع مدى بسبب سوء التوزيع ومنافسة الكتاب الأجنبي .

ويمكن ان ناخذ اي مثال من اي بلد عربي . ففي المغرب مثلا ، كانت دور النشر في اوائل الاستقلال محدودة جداً . اما الآن فقد تكاثر عددها وتنوع نشاطها .

واكبر هذه الدور هي :

- **دار النشر المغربية : التي تعتبر حتى الآن اكبر دار للنشر والطبع ، ومقرها الدار البيضاء ، تقوم بطبع ونشر وتوزيع الكتاب المغربي (العربي والفرنسي) . ولها دورها الرائد في التعريف بالكتاب المغربي وفي ايصاله الى المستهلك .**

- **دار الثقافة : ناشر وموزع ـ بالدار البيضاء .**
- **دار الكتاب : ناشر وموزع ـ بالدار البيضاء .**
- **دار الرشاد : ناشر وموزع ـ بالدار البيضاء .**
- **صوماديل : ناشر وموزع ـ بالدار البيضاء .**
- **مطبعة النجاح : ناشر وموزع ـ بالدار البيضاء .**
- **مكتبة المعارف : ناشر وموزع ـ الرباط**
- **مطبعة الرسالة : ناشر وموزع ـ الرباط .**
- **مطبعة(مكتبة)المدارس: ناشروموزع ـ الدارالبيضاء.**

اما شركات التوزيع فهي الآن اثنتان: شوسبرس: التي كانت الى عهد قريب تحتكر التوزيع في المغرب . وهي الآن توزع الكتاب الأجنبي والمغربي ، والمجلات والصحف . وقد ظهرت مؤخراً شركة توزيع تقتصر الآن على توزيع الصحف والمجلات هي سبريس : الشركة العربية الافريقية للنشر والتوزيع والصحافة ومقرها بالدار البيضاء .

تصدر دار النشر الكتاب المدرسي بمعدل ١٢ كتاباً في السنة (كتب التاريخ والجغرافيا والنصوص الأدبية والفلسفية) وهذه الكتب يعاد طبعها كل سنة .

وتطبع الدار حوالي ٢٠ الف الى ٢٥ الف نسخة من الكتاب الواحد .

وتطبع الدور الأخرى الكتاب المغربي والعربي بمعدل ٥٠ كتاباً في السنة . يطبع من كل كتاب ٤٠ الى ٥٠ الف نسخة . وهذه الدور تحولت الى دور نشر وتوزيع ، في آن واحد. والنسبة المخولة للمؤلف لا تتجاوز ١٠٪ . والمعروف ان دور النشر في المغرب ، وكذا شركات التوزيع بيد الخواص ولا تتدخل فيها الدولة الا عن طريق استخلاص الضرائب .

٢ ـ حقوق المؤلفات الأدبية والفنية وحمايتها في التشريع المغربي :

يعتبر التشريع المغربي في طليعة التشريعات العربية التي اهتمت بحقوق المؤلفات الأدبية والفنية وعملت على حمايتها وصيانتها من الأضرار والانتهاكات التي قد تتعرض لها هذه الحقوق .

وقد ظهر اول تشريع يتعلق بحقوق التاليف في عهد الحماية ويتمثل في الظهير الصادر في ٢١ شعبان ١٣٣٤ (٢٣ يونيه ١٩١٦) وكان القصد منه حماية المؤلفات الأدبية والفنية .

وتلاه ظهير آخر صدر في ٤ جمادى الأولى ١٣٤٥ (٩ يونيه ١٩٢٦) والمطبق في منطقة طنجة الدولية سابقاً .

وبعد هذين الظهيرين صدر ظهير ثالث بتاريخ ١٤ شعبان ١٣٤٥ (١٦ فبراير ١٩٢٧) المطبق في المنطقة السابقة للحماية الاسبانية .

وظهير رابع في ٢٦ ذي الحجة ١٣٦٢ (٢٤ ديسمبر ١٩٤٣) بشأن المكتب الافريقي لحقوق المؤلفين والمكتب الافريقي لرجال الآداب ومؤلفي المحاضرات .



وبالاضافة الى هذه الظهائر ظهر مرسومان الأول رقم ٦٦ ٣٢٥ بتاريخ ٢٢ ربيع الأول ١٣٨٦ (١١ يوليو ١٩٦٦) ؛ وهو يتمم المرسوم رقم ٤٠٦ ٦٤ ٢ الصادر في ٥ ذي القعدة ١٣٨٤ (٨ مارس ١٩٦٥) والخاص باحداث المكتب المغربي لحقوق المؤلفين .

اما الظهير الذي يعتبر القانون الاساس في ميدان التاليف ويتضمن النصوص التشريعية الجاري بها العمل حالياً في المغرب ، فهو الظهير رقم ١٣٥ ٦٩ ١ الصادر بتاريخ ٢٥ جمادى الأولى ١٣٩٠ (٢٩ يوليو ١٩٧٠) وهدفه حماية المؤلفات الادبية والفنية .

يتميز هذا الظهير بكونه احدث تشريع في ميدان حقوق التاليف والمؤلف ، ولأنه جاء متأخراً فهو يلغي جميع المقتضيات السابقة المنافية له وعلى الخصوص الظهائر والمراسيم المذكورة آنفاً .

يتكون هذا الظهير من ٩ ابواب و ٦٥ فصلا .

في الباب الأول يعرض المشرع لحقوق المؤلف فيحدد الهدف منها ومداها والمستفيدين منها . ويختص الباب الثاني بالحد من حقوق المؤلف ، ويعنى الباب الثالث بنقل حقوق المؤلف . اما الباب الرابع فهو مكرس للمؤلفات السينماتوغرافية ، واهتم الباب الخامس بعقدة نشر الانتاج الخاص بالرسم . وموضوع الباب السادس هو مدة وضمان حماية حقوق المؤلف، وخصص الباب السابع لممارسة هذه الحقوق ، كما خصص البابان : الثامن والتاسع للاجراءات والعقوبات ثم لميدان تطبيق مقتضيات هذا الظهير .

ومن استعراض هذه الأبواب يظهر ان التشريع المغربي عالج موضوع حقوق التأليف وحمايتها بشمولية ووضع الأسس القانونية لضبط هذه الحقوق وتحديدها ورسم مجال ممارستها والحد منها ، كما حدد انواع التاليف وميز مختلف اشكالها ، وعرف اصناف الانتاج الفكري الذي يشملها هذا التشريع .

يقول الفصل ١ من الظهير :

« ان الانتاج الفكري او الأدبي او العلمي او الفني كيفما كانت قيمته او الغرض منه او طريقة او كيفية التعبير عنه يعتبر ملكاً لمؤلفه الذي يخول سلطة التصرف فيه واستعماله والانتفاع به والاذن في استعماله او الانتفاع به كلاً او بعضاً .

ويكتسي هذا الحق صبغة حق ادبي ومادي » .

ويضيف الفصل الثاني :

« يخول المؤلف وحده الحق ونشر انتاجه . ويحتفظ طيلة حياته بالحق في المطالبة بانتسابه اليه والدفاع عن صلاحيته .

ويجوز له التعرض على كل تحريف او تشويه او كل تغيير يدخل على هذا الانتاج او كل عمل آخر يمس بشرفه او يضر بسمعته . وتعتبر الحقوق المعترف بها للمؤلف عملا بالمقطعين ١ و ٣ اعلاه غير قابلة للتفويت ويحتفظ بالاستفادة منها بعد وفاته لورثته الذين تمكنهم ممارستها في آن واحد مع الهيئة المشار اليها في الفصل ٥٣ ولو بعد انقضاء حقوقهم في الارث » .

ان اول حق يقره هذا القانون للمؤلف هو حق الملكية وهو حق يخول للمؤلف سلطة التصرف في انتاجه الفكري او الأدبي وحق استعماله وحق الانتفاع به وحق الاذن في استعماله او الانتفاع به كلاً او بعضاً . وحق الملكية هذا وهو الحق الذي تترتب عليه بقية الحقوق الأخرى يكتسي في نظر القانون صبغة حق ادبي ومادي .

ومن الحقوق التابعة لحق الملكية حق نشر الانتاج الفكري او الأدبي ... بالاضافة الى حق التعرض على كل تحريف او تشويه او تغيير يدخل على الانتاج او اي عمل يمس بسمعة مؤلفه او يسيء الى شرفه . فالمؤلف هو الذي ينشر الانتاج باسمه ما لم يثبت خلاف ذلك (ف ٥) . ويشمل حق الملكية كذلك عنوان المؤلف اذا كان يكتسي صبغة اصلية (ف ٧) . وبناء على هذا الحق يضمن القانون للمؤلف حماية انتاجه وحق المطالبة بانتسابه اليه والدفاع عن صلاحيته (ف ٢) . ورغبة في التحديد والتوضيح، صنف القانون الانتاج الفكري والأدبي والعلمي والفني الى خمسة اصناف هي :

١ ـ الانتاج الشخصي :

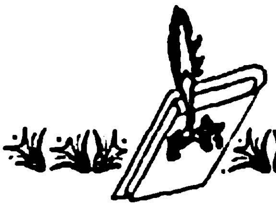
وهو كل مؤلف يساعد بمميزاته وشكله او بشكله فقط على اظهار شخصية مؤلفه (ف ٣) .

٢ ـ الانتاج المقتبس :

وهو كل مؤلف مستند فيه الى عناصر موجودة من قبل (ف ٣) .

٣ ـ الانتاج المشترك :

وهو كل مؤلف جديد يدمج فيه انتاج معروف من قبل دون تعاون مع مؤلفه (ف ٤) .



٤ ـ الانتاج الجماعي :

كل مؤلف تم انتاجه بايعاز من شخص ذاتي او معنوي يتولى نشره تحت اشرافه وباسمه وتكون المشاركة الشخصية لمختلف المؤلفين المساهمين في اعداده داخلة في الانتاج العام المراد بالمؤلف من غير ان يتأتى تحويل كل واحد منهم حقاً مستقلاً بالنسبة للانتاج العام المنجز تحقيقه .

٥ ـ الانتاج المتعاون فيه :

كل مؤلف ساهم في انتاجه مؤلفان او عدة مؤلفين ما دام يتعذر التميز بين مساهمة احد المؤلفين ومساهمة المؤلف الآخر والمؤلفين الآخرين (ف ٤) .

ومن الحقوق التابعة لحق الملكية والتي يخولها القانون للمؤلف :

حق الاستغلال : ويشتمل هذا الحق الحقوق الآتية :

ـ حق العرض او التمثيل الرامي الى تبليغ الانتاج بصفة مباشرة الى العموم .

ـ حق اعادة النشر الرامية للاستعمال المادي للمؤلف بواسطة اية وسيلة تساعد على تبليغه بصفة غير مباشرة .

ـ حق مواصلة الاستفادة المنصوص عليه في الفصل ٢٨ من هذا الظهير .

(يتعلق الفصل ٢٨ بالانتاجات الخاصة بالرسم والفن التشكيلي (ف ١١) ويخول المؤلف وحده حق تبليغ انتاجه الى العموم ، اي حق تبليغ انتاجه الى العموم ، اي حق الاذن في :

ـ عرض مؤلفاته وتمثيلها امام العموم .

ـ تبليغ مؤلفاته الى العموم بأية وسيلة من وسائل العرض والتمثيل .

ـ اذاعة مؤلفاته او تبليغها الى العموم باية وسيلة من وسائل الارسال اللاسلكي للاشارات او الأصوات او الصور (ف ١٢) .

ـ تسجيل مؤلفاته بواسطة آلات تمكن من اعادة اذاعتها بصفة آلية .

ـ عرض المؤلفات المسجلة بهذه الطريقة على العموم بواسطة الآلات المذكورة (ف ١٣) . ان كل هذه الحقوق مضمونة للمؤلف بمقتضى القانون شريطة ان يثبت اسم المؤلف على كل نظير من انتاجه ؛ وكلما عرض هذا الانتاج على العموم ما عدا اذا نص على خلاف ذلك . اما فيما يخص المؤلفات الخفية الاسم او المنشورة تحت اسم مستعار فان الناشر المثبت اسمه على المؤلف ، يعتبر ما لم يثبت خلاف ذلك ، هو النائب عن المؤلف ، ويؤهل بهذه الصفة لصيانة حقوق هذا المؤلف والمطالبة بها .

وينتهي تطبيق المقطع الثاني اعلاه عندما يعرف المؤلف بنفسه ويثبت صفته (ف ١٤) .

ان القانون المغربي يحرص اشد الحرص على حماية حقوق التاليف . وهو عندما ينص على الحد منها (الباب ٢) فهو دائماً يسعى الى عدم الاضرار بها، بل انه خصص باباً كاملا (الباب السادس) لتحديد مدة وضمان حماية هذه الحقوق . فالفصل ٤٩ من الظهير يؤكد ان حقوق المؤلف في الانتاج تثبت بمجرد تاليف هذا الانتاج .

ويستمر العمل بهذه الحقوق مع مراعاة مقتضيات الفصل ٥١ (خاص بالمؤلفات الفوتوغرافية او السينماتوغرافية وبالمؤلفات الخفية الاسم او المنشورة تحت اسم مستعار) طيلة حياة المؤلف وخلال الخمسين سنة الشمسية الموالية لنهاية سنة وفاته .

وفيما يخص المؤلفات المتعاون فيها تحسب الخمسون سنة ابتداء من نهاية السنة التي يتوفى فيها آخر مؤلف متعاون بقي على قيد الحياة .

وقد خولها الفصل ٥٠ امتيازا في اموال المدين: « تخول حقوق المؤلف المادية امتيازاً في اموال المدين . وينتفع بهذا الامتياز بعد عمليات الافلاس والتصفية القضائية ويمارس مباشرة بعد الامتياز الرامي الى ضمان اداء اجور اعوان الخدمة » .

وحرصاً على تدعيم وحماية حقوق المؤلف عهد القانون في بابه الخاص بممارسة هذه الحقوق (الباب و) بحماية واستغلال حقوق المؤلفين المبينة في هذا الظهير الى هيئة المؤلفين المحدد اختصاصها وتنظيمها وتسييرها بموجب مرسوم (ف ٥٣) . وخول الهيئة المذكورة حق الترافع لدى المحاكم لأجل الدفاع عن المصالح المعهود بها اليه ولا سيما في جميع النزاعات التي تهم بصفة مباشرة او غير مباشرة اعادة نشر مؤلفات اعضائها او موكليها او تبليغها الى العموم (ف ٥٤) .

وامعانا في صيانة حقوق المؤلف والدفاع عنها احاطها القانون بعدة ضمانات واتخذ في حق مخالفيها والمعتدين عليها عدة اجراءات وعقوبات . فالفصل ٥٦ من الظهير المذكور يقرر في الباب الخاص بالاجراءات والعقوبات ما يلي :

« كل مس بالحقوق الأدبية والمادية المبينة في هذا الظهير يعاقب عنه بالفصل ٥٧٥ وما يليه الى الفصل ٥٧٩ من القانون الجنائي مع مراعاة الفصل ١٦ وما يليه الى الفصل ٢٣ » .

٣ ـ المقترحات :

١ ـ دعوة الأقطار العربية التي ليست فيها تشريعات وطنية لحماية حقوق المؤلفين للتعجيل بوضع تشريعات وطنية في الموضوع وبتشديد العقوبات الزجرية في قوانينها الجزائية ضد انتهاكات تلك الحقوق .

٢ ـ دعوة الدول العربية غير الموقعة على الاتفاقية العالمية لحقوق المؤلف وهي اتفاقية جنيف ٦ سبتمبر (ايلول) ١٩٥٢ ، المعدلة في باريس في ٢٤ يوليو (تموز) ١٩٧١ للتوقيع عليها .

٣ ـ تشكيل لجنة لدراسة التشريعات الوطنية في الأقطار العربية ، التي لها تشريعات تحمي حقوق الملكية الأدبية والفنية وذلك بهدف وضع تشريع موحد وتقديمه الى المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم لياخذ صيغته التنفيذية من طرف الدول الأعضاء في جامعة الدول العربية.

٤ ـ انشاء مركز عربي لحماية حقوق الملكية الأدبية والفنية على غرار الكوفيدرالية الدولية لحقوق المؤلفين .

□ ● □

لمن الأولوية : حقوق المؤلف أم حقوق القراء ؟

دراسة تحليلية لاتجاهات تقنين احتكار المعرفة في العالم المعاصر

بحث
للدكتور يونس عزيز

تمهيـــــــــد

يعتبر حق المؤلف المحمى قانوناً امتيازاً خاصاً لنشر وبيع النتاج الفكري الأدبي او العلمي او الفني، وقد اصبح هذا الحق الأدبي مهدداً بالتقدم التكنولوجي الذي نشهده ، فوسائل النشر متنوعة كتنوع اوعية المعرفة ، فاذا كانت الوثيقة مطبوعة فيمكن نقلها عبر المسافات الشاسعة وتوليد نسخ منها للقراء في وقت قصير جداً . ان مثل هذا التطور التكنولوجي يخدم القراء والتقدم العلمي ولكنه يتعارض مع حق المؤلف او الناشر لأنه سوف لن يمكنهما معاً او يمكن الناشر « التاجر » من استرجاع كلفة نشر المطبوع ، وبالتالي فان هذه الخسارة المادية سوف تؤدي الى تقاعس الباحثين والمؤلفين عن البحث المضني ونشر بحوثهم لفائدة القراء . ويعتبر حق المؤلف واحداً من السبل التي تشجع البحث العلمي وتساعد على استمراريته ، وتسارع بعجلة التطور التكنولوجي والاجتماعي والأدبي والفني . وهذا ما ترجوه جميع شعوب العالم لأن النتيجة هي عالم افضل .

هذا من وجهة نظر المؤلف ، ولكن للقارىء حقاً بالمعرفة البشرية ، وان كل قيد او شرط يوضع لحماية حق المؤلف يمكن ان يكون عقبة تحول دون وصول القارىء أو الجماهير العريضة الى مصادر المعرفة . وهذا ما لا يرجوه كل من المؤلف والمجتمع بصورة عامة وحتى مشرعي قوانين حق المؤلف انفسهم .

والآن ما هو الحل الذي يكفل حق المؤلف وفي نفس الوقت يشجع على نشر المعرفة بين المواطنين بلا احتكار ولا تحكم ولا استغلال ؟ ان الأمم الحية لا بد من ان تكرم مثقفيها وتحث أبناءها على العلم والتعلم، وهذا ما جاء به الاسلام واتبعه اسلافنا اللذين سادوا زمانهم .

اننا نعيش اليوم في عصر أبرز ما فيه هو ثورة المعلومات ، وان هذه الثورة ممثلة في ملايين الوثائق التي تنشر كل عام لتقدم للقراء نتائج البحوث المتواصلة ايل نهار . وان كلفة نشر هذه الوثائق تعد بمئات الملايين من الدولارات ، ناهيك عن الأتعاب المتواصلة في المختبرات المختلفة لحل مشاكل العالم العلمية والاجتماعية وغيرها . ولكن كما هو معلوم فان مشاكل حق المؤلف مستمرة وما تزال في تزايد نتيجة للتطور التكنولوجي في الاستنساخ او نقل المعرفة تكنولوجياً عبر القارات.

ان قوانين حق المؤلف السائدة اليوم قد انحدرت الينا من القرون السالفة ، وهي قوانين كانت قد وضعت يوم كانت المعرفة محدودة ، والاستنساخ التقني المتطور معدوماً ، بالاضافة الى اعتبارات سياسية مذكورة فيما بعد . واليوم وبعد كل هذا التطور الهائل في آفاق المعرفة وطرق نشرها وتصويرها والحاجة الماسة لها في حياتنا اليومية لا زالت تلك القوانين القديمة قائمة لحماية حق المؤلف ولعقوبة الأفاكين من سراق المعرفة ونشرها باسمائهم ثم تسويقها تجارياً . ان المؤلفين يشعرون بضرورة المزيد من الحماية ، وان وجهات النظر بخصوص تعديل القوانين القائمة متباينة .



٢ ـ نبــذة تاريخيــة

ان القوانين الدولية كانت قد وضعت في مؤتمر بيرن تحت عنوان « حماية الأعمال الأدبية والفنية » وقد تم التوقيع عليها في١٨٨٦/٩/٩، واستمر العمل عليها واكتملت في باريس في ١٨٩٦/٥/٤ . ثم شرع في مراجعتها في مدينـة بيرن في ١٩٠٨/١١/١٣ ، وتمت المراجعة في ١٩١٤/٣/٢٠ ورغم هذا العمـل الدائب لم تكن تلك القوانين مرضية في حينه وبذلك تمت مراجعتهـا للمرة الثانيـة في مدينـة روما في ١٩٢٨/٦/٢ ، وبـروكسـل فـي ١٩٤٨/٦/٢٦ ، واستكهولم فـي ١٩٦٧/٧/١٤ ، وباريـس فـي ١٩٧١/٧/٢٤(٤) .

ان حـق المؤلف كما هو متفق عليـه اليوم هو الحق المطلق لمؤلفي الاعمال العلمية والادبية والفنية لنشر وبيـع نتاجهم الفكري ، ان هـذا الحق محمي بالقانون ، ومن الجدير بالذكر بأن اول قانون صريح كان قد وضع في هذا الخصوص هو القانون البريطاني في عام ١٧٠٩ او ما يسمى « بدستور الملكة آن » . ان الدافع وراء ذلك الدستور كان تشجيع نشر المعرفة عن طريق تثبيت حق ملكية المؤلف على جميع النسخ المطبوعة خلال فترة متفق عليها . وان ذلك كان اعترافاً قانونياً بحق المؤلف لأول مرة في التاريخ . ان اهميـة ذلك القانون كانت تتجلى بانه قد حل محل سلسلة من الامتيازات والاحتكارات والمراسيم والاجازات الخاصة والتي كانت سائدة في انكلترا خلال القرنين السـادس عشر والسابع عشر . وان الهدف من تلك البرامج كان احكام قبضة الحكومات المتتابعة على المطابع للرقابة على المطبوعات ، ثم تقوية نفوذ شركة الوراقين لكي تسـاعد الحكومة في تحقيق هدفها . ان شركة الوراقين هـذه كانت قد تأسست بمرسوم ملكي في عام ١٥٥٧ ، وهذه الشركة كانت تمارس احتكاراً كاملا على صناعة النشر ، كما انها كانت تحتفظ بسجل كامل بكل ما ينشر في تلك الحقبة دون الاعتراف بحق المؤلف(٤) .

ومن هنا يتبين لنا بأن قانون ما قبل عام ١٧٠٩ بخصوص حق المؤلف كان قد اعطى حق الملكية لشركة الوراقين او الناشرين فقط . ولكن قانون الملكة آن قد جاء لأول مرة في التاريخ يخالف ما قبله باعطائه الحق للمؤلف وليس لسواه ، وكانت قد تمت موافقة البرلمان الانكليزي عليه واكتسب صفة رسمية . ان قانون الملكة آن كان الأول من نوعه في تاريخ حقوق المؤلف ولذلك كانت قـد استفادت منه جميع الدول التي فكرت في حماية حق المؤلف تشجيعاً لنشر المعرفة فتبنته الولايات المتحدة الأمريكية في عام ١٧٩٠ عندما فكرت في حماية حق المؤلف من تجار المعرفـة .

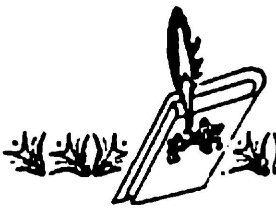
أن قانون عام ١٧٠٩ اعطى حق الملكية للمؤلف لمدة ١٤ عاماً ، ثم يجدد هذا الحق بصورة أوتوماتيكية لمدة ١٤ عاماً آخر اذا بقي المؤلف على قيد الحياة . وبذلك فان هذا القانون كان قـد وضع حداً او انهى بصورة نهائية حق الملكة الأبدي والمطلق الذي كانت تتمتع به شركة الوراقين البريطانية بمدة تقارب الـ ١٥٠ عاماً . وخلال تلك الأعوام كانت شركة الوراقين تحتكر حق النشر . وبالرغم مـن قانون الملكـة آن استمرت تلك الشركة تمارس احتكارها لغاية عام١٧٧٤م عندما اصدر البرلمان الانكليزي قراره بانهاء حق الملكية المؤبد الذي كانت تتمتع به شركة الوراقين ، واعطى الحق للمؤلف. عندها اصبح قانون الملكة آن ساري المفعول(٣) .

اما في الولايات المتحـدة فكان الوضع مشابهـاً للوضع الانكليزي لغاية عام ١٨٢٤ ، عنـدها اصدرت المحكمة العليا قراراً في قضية المؤلف ويتن (Wheaton) بمنحه حق التأليف والنشـر .

وفي عام ١٩١١ صدر قانون آخر لصيانـة حـق المؤلف في انكلترا ، ومن ميزات هذا القانون عن سابقه هي ان كل منشور يعتبر خاضعـاً لحماية قانون حـق المؤلف دون الحاجة الى تسجيله ، وهذا يخالف ايضاً قانون مدينة بيرن لحق المؤلف حيث تنص المادة الرابعة على ضرورة تسجيل الوثيقـة المنشورة لدى السلطات لتكتسب حـق الحماية . كمـا ان القانون البريطاني الجديد ينص على ان مدة حـق المؤلف هي طيلة حيـاة المؤلف بالاضافة الى خمسين سنة بعـد وفاته لفائدة ورثتـه(٤) .

٣ ـ قانون حق المؤلف الدولي

ان الدافع الحقيقي وراء فكرة حـق المؤلف هو ـ كما يقال عادة ـ تشجيع المؤلفين للقيام بالمزيد مـن البحوث ونشرها لترويج العلم والتكنولوجيا وتطويرها لخدمة الإنسانية . وان كل بلد وضع مثل هذه القوانين كان قد اضاف عليها تفصيلات بخصوص حماية مؤلفي ذلك البلد من دون ان يأخذ في الاعتبار المؤلفين الأجانب. وهناك تناقض واضح بين حماية حق المؤلف كجزء من حماية ممتلكات البلد مـن جهة ، ومن جهـة اخرى الحقيقة القائلة بأن الانتاج الأدبي والفني والعلمي هو لخدمة الإنسانية عامة وللشعوب حق الانتفاع به عن



طريق تصويره وترجمته واذاعتـه وما شاكل ذلك . ولكن مؤلفي كل بلد في العالم يهتمون بحماية حقوقهم او انتاجهم الأدبي او الفني في مختلف بلاد العالم ، وفي هذا الصدد ليس لديهم سوى القوانين الوطنيـة التي وضعت من قبل بلدانهم . لذلك ظهرت الحاجة الى حماية حـق المؤلف في كل انحاء المعمورة لخلق اسس قانونية ينتفع منها جميع المؤلفين في العالم في حماية حقوقهم، وعلى ضوء هذه القوانين يمكن البت في مشاكل استغلال مثل هذا النتاج الأدبي وما هي التعويضات التي يجب ان تدفع للمؤلفين(١) .

ففي عام ١٨٦٣ اجتمع ممثلو عدد من الأقطار في مدينة بيرن عاصمة سويسرة ، ووقعوا وثيقة في ذلك المؤتمر تمنع التمييز ضد المؤلفين الأجانب ، اي انهـم اتفقوا على معاملة واحدة لجميع المؤلفين بخصوص حق المؤلف . وقد وصل عدد الدول الأعضاء في مؤتمر بـيرن الى ٦٨ عضواً في عام ١٩٧٧ ، ولكن قرارات المؤتمر الأول قد تمت مراجعتها في مؤتمرات عديدة كان آخرها قد عقد في باريس في ١٩٧١/٧/٢٤ . ان الهدف مـن المراجعة كـان تحسين تلك القوانين واضافة اتفاقية دولية الغرض منها مساعدة الدول النامية وحقها في الترجمات لأغراض التدريس على مختلف مراحله بالاضافة الى البحث العلمي .

ان تلك الاتفاقية كان الغرض منها حماية حـق المؤلف في جميع البلاد المنضمة الى تلك الاتفاقية ، وتنص الحمايـة على الأعمال التي لا تزال مصانـة بقوانين حق المؤلف في بلد المنشأ وان هذه القوانين الدولية لا تحمي الأعمال التي تعتبر مشاعة للجمهور في بلادها الأصلية . وتلزم الاتفاقية جميـع الدول الأعضـاء على تـوفـير الحمـايـة القانونيـة لكـل مطبـوع يحمـل العبارة التاليـة والمتفـق عليهـا (C) Baghdad University Press, 1980 وهـــذه تتضمن الحرف (C) داخل دائرة يليها اسم المؤلف او شركة النشر وبعدها السنة بغض النظر عن قوميـة المؤلف او الناشر طالمـا هو ينتمي الى احـدى الدول الأعضاء وان المطبوع يحمل علامة المؤتمر(٢) .

ان فترة حماية النتاج الفكري مهمة جداً بالنسبة لمؤتمر بيرن لأن قوانين الأقطار المشتركة لا تنص على فترة واحدة بل فترات مختلفة بالاضافة الى ان المؤلفين يطلبون فرض مدد اطول لحماية اعمالهم الأدبية والعلمية والفنيـة ، ولذلك فان مؤتمر بيرن قـد خصص هذه الفترة لمدة حيـاة المؤلف زائداً خمسين سنة اضافية بعـد مماتـه .

ان مؤتمر بيرن كان قد تم تحت اشراف الدائرة الدولية المتحدة لحماية النتاج الفكري (B. T. R. P. I.) وفيما بعد اتسعت تلك الدائرة فأصبحت منظمة من المنظمات الملحقة بهيئة الأمم . ثم ان ذلك المؤتمر كان قد منح محكمة العدل الدولية سلطة قضائية للبت في جميع الاختلافات الدولية وفي تفسير وتطبيق القانون الدولي لحق المؤلف(٥) .

وفي أعقاب الحرب العالمية الثانية حدثت ثورة في عالم النشر الأمريكي وازداد الطلب على ذلك النتاج الفكري في جميع بلاد العالم ، ولكن امريكا رفضت الاشتراك بذلك المؤتمر حماية لمؤلفيها ، والسبب في ذلك راجع الى اختلافات بين القانون الأمريكي وقانون مؤتمر بيرن . ان تلك الاختلافات كانت تشتمل على قضـايا مثـل(٧) :

١ ـ ان القانون الدولي يعتبر الوثيقة مصانة بصورة اوتوماتيكية مـن دون الحاجـة الى تسجيلهـا وهـذا ما يخالف نص القانون الأمريكي الذي ينص على ضرورة التسجيـل .

٢ ـ ان القانون الدولي ينص على حمـاية الوثائـق المحمية في بلد المنشأ فقط وبذلك فانه لا يوفر الحماية للكتب القديمة والتي اصبحت ملكاً عاماً في الولايات المتحدة ، وهذه الفكرة فيهـا غبـن للمؤلف الأمريكي والأفـلام السينمائيـة والقطع الموسيقية ، كما تجلب الضرر للكثير مـن دور النشـر الأمريكيـة .

٣ ـ ان قانون مدينة بيرن يعتبر الخطابات الشفهية محمية بالقانون الدولي وهـذا ما يعارض المادة الأولى في الدستور الأمريكي والتيتخصص على ان المطبوعات فقط ، اي الأشياء المكتوبة يمكـن حمايتها بقانون حق المؤلف .

ولذلك قد جرت محاولات جديدة الهدف منهـا عقد مؤتمر عالمي مفتوح لكل دولة تروم الانضمام اليه وفي شهر سبتمبر من عام ١٩٥٢ اجتمعت اربعون دولة ومن ضمنها الولايات المتحدة في مدينة جنيف ووقعت جميعا فيذلك المؤتمر علىقرارات حق المؤلف العالمي، وان البـاب لا زال مفتوحاً امام الدول للانضمام الى تلك الاتفاقية العالمية لحقوق المؤلف المعدلة في باريس في ١٩٧١/٧/٢٤ .

ففي مؤتمر جنيف كـان قد تـم وضع قانون يشتمل على جميع الآراء المقبولة في مختلف القوانين



الأوروبية والأمريكية ، ولكن الفرق بين اتفاقية مؤتمر جنيف واتفاقية مؤتمر بيرن هو أن الأولى تمنح حرية كافية للبلدان الأعضاء باتباع قوانينها الوطنية في حماية حقوق المؤلف ، ومن هذا يتبين بأن الأولى تعطى اقل حماية للمؤلفين من اتفاقية بيرن بالاضافة الى فروق اخرى .

٤ ــ الأسس الفلسفية لحق المؤلف

ان قانون حق المؤلف هو سيف ذو حدين ، اولها للدفاع عن حق المؤلف والمخترع ، والآخر للذود عن مصلحة القراء ، وان كلا من هذين الحدين يهدف الى ترويج تقدم موكب العلم والتكنولوجيا عن طريق توفير الصيانة لحقوق المؤلفين والمكتشفين في كتاباتهم ومخترعاتهم ولو لفترة محدودة .

ان الطرف الأول في مشكلة حق المؤلف هم الكتّاب والفنانون والعلماء وغيرهم من المبدعين ، وان توفير حماية النتاج الفكري لهؤلاء يعمل على نمو المعرفة البشرية ، وبالتالي الى تحسين حياة الانسان ؛ لذلك لا بد من توفير مكافأة معنوية واقتصادية لهم لأن ذلك يشجع هؤلاء الأشخاص للمضي قدماً لتسخير قدراتهم الخلاقة في مختلف فروع المعرفة . ان البحث العلمي عمل مضن ويتطلب الكثير من الجهد العقلي والساعات الطوال من كل يوم تكرس لخدمة الانسانية ؛ هذا ما يحتم على المجتمعات والدول المختلفة حماية حق هؤلاء الجنود المجهولين في مؤلفاتهم ومبتكراتهم لكي يستفيدوا من ثمرات اتعابهم .

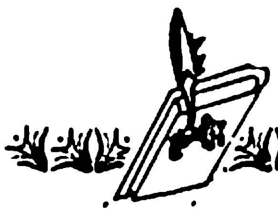
وبالاضافة الى المؤلفين فان هناك الناشرين وغيرهم من اللذين يهيئون المعرفة بأخذها من المؤلف ونشرها وتوزيعها على الجمهور ليستفيدوا منها . ان هؤلاء التجار لا بد لهم من ان يربحوا من اعمالهم لكي يستطيعوا مواصلة نشر المعرفة لفائدة ابناء المجتمع الانساني .

ان قانون حق المؤلف الذي وضع لتشجيع المؤلفين والناشرين وحمايتهم من فوضى التجار هو ليس الوحيد لفائدة هؤلاء العاملين في خدمة العلم والمعرفة ، فهناك وسائل اخرى وضعت لمساندتهم مثل المساعدات الشخصية للمؤلفين او المنح التي تخصصها المعاهد والجامعات والمساعدات المالية الحكومية وغيرها كثير ، ان هذه جميعاً اعانات مالية تقدم للباحثين والمؤلفين تقديراً لجهودهم وتشجيعاً لهم للمضي في معالجة المشاكل الاجتماعية والعلمية والتكنولوجية . ان مثل هذه البرامج كانت ولا تزال تبذل بسخاء للباحثين في مختلف انحاء المعمورة لا سيما في معالجة قضايا لا تهم الكثير من ابناء المجتمع مثل بعض الأجهزة الطبية كالتي تساعد الصم على السمع وغيرها التي لا تحظى بسند الجماهير ، ففي مثل هذه الحالة فان قانون حق المؤلف لا يكفي لتشجيع المؤلفين للمضي قدماً لمعالجة مثل هذه المشاكل ؛ ولذلك لا بد من المساعدة المالية مقدماً . بينما قانون حق المؤلف يوفر الحماية المالية للمؤلفين اللذين يعالجون مشاكل يستفيد منها معظم ابناء المجتمع ، فالحماية القانونية لمثل هذه الأعمال تعتبر خير دافع او حافز لتشجيع المبدعين على المزيد من الابداع والنشر(٦) .

اما بالنسبة للمكتبيين فانهم الحلقة الوسطى في سلسلة سريان المعرفة من المؤلف الى القارئ ، لكونهم على اتصال وثيق بالقراء من ابناء المجتمع والمؤلفين والناشرين لأنهم يعملون على تجميع المعرفة وتنظيمها ثم تخزينها واسترجاعها للباحثين والقراء من ابناء المجتمع . وبطبيعة خدمتهم هذه فانهم يعملون على نشر العلم والتقنية وغيرها من فروع المعرفة عن طريق توفيرها للجماهير للاستفادة منها مهنياً وثقافياً وعلمياً واجتماعياً وبذلك فانهم يهدفون الى خلق المواطن الأصلح . ان من بين المستفيدين هم العلماء والباحثون انفسهم ، والأساتذة والطلاب وغيرهم من ابناء الجماهير وهم يتعلمون من المبتكرات اما عن طريق القراءة او السماع للاذاعة المسموعة او مشاهدة الاذاعة المرئية. وبذا فان الفائدة تعم الجميع وحتى المؤلفين والناشرين لأنهم هم ايضاً يستفيدون من مبتكرات غيرهم كما أن غيرهم يستفيد من مبتكراتهم ، وهذا ما يؤكد مقولة « ان العلم حق طبيعي لكل انسان » .

ان مصلحة المجتمعات تتطلب نشر المعرفة بفروعها المختلفة وجعلها مشاعة لأبناء الجماهير . ان هذه المصلحة هي نفسها مصلحة الانسانية جمعاء وان كانت تتناقض وقوانين حق المؤلف التي تبنى على الاحتكار ، ومنع المعرفة عمن لا يستطيع شراءها ، ولذلك لا بد من ان تفكر المجتمعات بطريقة افضل تخدم حق المؤلف مثلما تخدم حق القراء وجماهير الشعب في العلم والمعرفة والمشاركة في الحياة الثقافية .

ان المكتبيين هم اول من فكر في حل هذه المشكلة بحكم دورهم الوسطى بين المؤلفين والقراء ، وبحكم وظيفتهم في نشر المعرفة وخدمة القراء عن طريق توفير



اية وثيقة ضرورية لسد حاجات قرائهم واحضارها لهم سواء كان ذلك عن طريق الشراء او التبادل او الاعارة بين المكتبات وحتى قبول الهدايا من مختلف الأشخاص والمؤسسات كل هذا في سبيل توفير العلم ونشره بين ابنـاء المجتمـع .

والمشكلة الآن هي ما هو السبيل الى التوفيق بين مصلحة الطرفين المتمثلين بالمؤلفين والناشرين من جهة وابناء المجتمع والجماهير ككل من جهة اخرى؟ والنقاط التالية يمكن ان تساعد في حل هذه المشكلة :

١ ـ تقديم المكافآت المـادية والمعنوية للمؤلفين والمخترعين وغيرهم من العلماء تشجيعاً لجهودهم ، ثم تتولى مسؤولية النشر مؤسسات حكوميـة او شعبية كما في تجربة الجماهيرية العربيـة الليبية الشعبية الاشتراكية وان مثل هذه التجربة يمكن ان تكون الحل الأمثل لهـذه المشكلة نظراً لما نشهده اليوم من تقدم صناعة الكتـاب في ليبيـا .

٢ ـ القضاء على جميع العوائق المالية والتكنولوجية التي تحول دون وصول الجمهور الى هـذه المبتكرات والمؤلفات او بتعبير آخر العمل على نشر هذه المؤلفات بين ابناء المجتمع لفائدة الجميع باقل كلفة .

وفي هذا الصدد كتب بعضهم* ما يلي : « علينا ان نحافظ على حقوق طرفين متناقضين وكل منهما حاقد على الآخر ، اولهما المؤلفون او الموهوبون بقابليات عقلية ابداعيـة واللذين يمضون جلَّ اوقاتهم في خدمة المجتمعات الانسانيـة ، فلهؤلاء لا بـد مـن مكافآت يستحقونها من تكريم معنوي او مساعدات مالية جزاء لاتعابهم ونتاجهم . اما الطرف الآخر فهو الجمهور او العالم اجمع ، وهذا يجب ان لا يحرم مـن المبتكرات والتقدم العلمي والفني والاجتماعي وغيرها من عناصر الحياة التي لا بـد من أن تتطور وتنمو لتوفير حيـاة افضـل »(٦) .

ولذلك نرى اليوم ان معظم اقطار العالم قـد وضعت قوانين تحاول ضمان حـق المؤلف لتشجيعه على العمل والابداع والتاليف ، كما انها تحاول ضمان وصول هـذا النتاج الفكري الى ابناء المجتمع . وان هـذه القوانين تختلف من بلد الى آخر في تفاصيلها والامتيازات التي تمنحها للمؤلفين من مادية ومعنوية ، وان هذه الاختلافات والامتيازات تعتمد الى حد كبير على :

١ ـ مدى احترام الشعب للعلم والمعرفة وبالتـالي للمؤلفين والعلماء انفسهم .

٢ ـ مدى تاكيد المجتمع على القيم المادية او الثقافية.

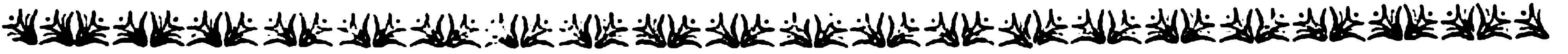
٣ ـ مـدى التقـدم الاجتماعي والاقتصـادي الذي توصل اليه المجتمع بالاضافة الى تطور صناعة المعلومات في البلد ومـدى تصـدير واستيراد المعرفة والقيود التي توضع لتسهيل او اعاقـة انسيابهـا .

ان هـذه النقاط مهمة في دعم وتنمية ونشر العلم والتعليم وبالتالي الثقافة الجماهيرية . وممـا لا شك فيه فان للمؤلفين الحق في نشر ثم اعادة نشر مبتكراتهم وتآليفهم ولا بد من حماية القانون لهم لكي يجنوا ثمار اتعابهم . ولكن هذا الحق يجب ان لا يتعدى المعقول ويصـل الى درجـة الاحتكار ، وبالتالي فان القانون الذي يحمي حـق المؤلف لا بـد من ان ياخذ بنظر الاعتبار حقوق القراء ومصلحة المجتمع، وذلك بتحديد ارباح المؤلفين والناشرين واسعار مؤلفاتهم بما يتماشى وقابلية ابناء المجتمع وجماهير الشعب العريضة على شراء هـذه الكتب ، مثل هـذا القانون يمكن ان يسمى حق المؤلف والقارىء وفي الوقت الحاضر نحـن احوج ما نكون الى مثل هذا القانون لأن القوانين الحالية في مختلف اقطار العالم وحتى التي وضعت من قبل اليونسكو والمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم فان جميعها تؤكد على حق المؤلف دون القراء .

٥ ـ مدى الاستفادة مـن الوثائق التي يحميها القانون

ان قانون حق المؤلف يوضع لحماية مختلف اوعية المعرفة فيما عدا الصور التوضيحية البسيطة والمعرفة التي يقتنيها القارىء من اي مصدر من المصادر او بيع نسخة شخصية حصل عليها الشخص عن طريق الاهـداء او الشـراء .

وعلى العموم فان المعلومات او الآراء التي يحصل عليهـا الانسان من اي مصدر فهي ملك له ويمكنـه التصرف بهـا واستخدامها في حياته ، فقانون حق المؤلف لا ينص على حمايتها تشجيعاً للتعلم ، كما ان الكتّاب والبحاثة والعلماء لا بد لهم من تجميع المعلومات والأفكار الأولية من المصادر التي تتعلق ببحوثهم لكي يستخدموها في كتـابة بحوث جديدة ، وهـذه هي الطريقة التي يتطور بها العلم ويتقدم. وان كل ما يحميه قانون حق المؤلف هو تعابير المؤلفين او آراؤهم بكلماتهم وتعابيرهم او المخطوطات الموسيقية او الصور الفنية



التي تعبر عن ابداع او تجميع وتنظيم حقائق ثابتة ، وما خلا هذا فان لأي انسان الحرية الكاملة لكي يكتب عن الموضوع نفسه او ان يعيد صياغة نفس الآراء والمعلومات وينشرها في كتاب خاص به . وعلى سبيل المثال فان المؤرخ يمكنه ان يروي في كتابه اية حقائق او حوادث قراها في كتب التاريخ السابقة او القصص المنشورة والتي لا تزال مصانة بقانون حق المؤلف ويتصل بهذا كتب العلوم البحتة والتطبيقية التي تتضمن كثيراً مثل كيف تصنع آلة ما ؟ فعندها يمكن لأي شخص ان يقرأ الكتاب ويهتدي بهذه المعلومات ليصنع هذه الآلة ، ان هذه العملية لا تتعارض مع قانون حق المؤلف ، بينما طريقة سرد المعلومات من قبل المؤلف الأصلي وتعابيره فانها محمية قانوناً .

(أ) استخدامات الوثائق الخاضعة لحماية قانون حق المؤلف

١ ـ نشر وتوزيع الوثائق :

ان للمؤلف او ورثته الحق في طبع ونشر وتوزيع نسخ من اي كتاب او نتاج فكري مصان بقانون حق المؤلف وان ريعها سوف يعود لمؤلفيها وناشريها . وبتعبير آخر فان قانون حق المؤلف يمنع اي انسان آخر من اعادة طبع هذه النسخ وبيعها لأن المؤلف او الناشر هو الشخص الوحيد الذي يتمتع بهذا الحق .

وحسب قانون حق المؤلف فان التصوير او الاستنساخ مخالفة قانونية سواء كان التصوير يشمل الوثيقة بكاملها او جزءاً مهماً منها ، كما ان اصدار وثيقة مقلدة لوثيقة اخرى او مضمونها يعتبر مخالفة حتى ولو شابت ذلك بعض التغييرات .

وبالاضافة الى ما سبق فان امتياز حق المؤلف يمتد الى اعادة تحرير النتاج الفكري مثل ترجمته او تمثيله ان كان رواية او مسرحية او حتى التحوير للقطعة الموسيقية(٨) .

٢ ـ التمثيليات المسرحية :

اذا كان النتاج الفكري رواية تمثيلية او قصيدة او قطعة موسيقية او شريطاً سينمائياً فان حق عرضها او تمثيلها امام جمهور عام هو حق من حقوق المؤلف لأن للمؤلف الحق في ان يربح من اعماله الفنية والأدبية ، اما اذا كان العرض غير تجاري مثل قراءة قصص الأطفال في المكتبات او المدارس، او قيام فرقة موسيقية لاحدى المدارس بعزف قطعة موسيقية امام الطلاب فانه لا يخالف قانون حق المؤلف . ولكن الحال قد تغير بعد مراجعة القانون الأخيرة واصبح يعطى المؤلف الحق في اعماله الأدبية والفنية بجميع اشكالها بأن يستفيد مالياً من عرضها على الشاشات المرئية العامة وان كانت تلك العملية غير تجارية ، اي ان المؤلف هو صاحب الحق لعرض اعماله على الجمهور وان كان ذلك عملا غير تجاري ، ويستثنى من ذلك اعمال الاذاعة المرئية الثقافية الصادرة من المؤسسات والمعاهد التربوية الرسمية والتي تخدم الجمهور مجاناً(٩) .

٣ ـ العرض المرئي :

وكما ذكر سابقاً فان القانون الجديد يعطي للمؤلف الحق في جميع اعماله التي تعرض على الشاشات المرئية العامة ولا سيما بالنسبة للأعمال الفنية كالتصاوير . بينما يخول القانون المكتبين عرض جميع الوثائق المختلفة في معارضهم لجلب انتباه الجمهور اليها وتشجيع القراءة ، ولكن القانون نفسه يمنع عرض الأعمال الفنية في المعارض الفنية من دون موافقة مسبقة وان كان في هذا العرض فائدة لأبناء الجماهير .

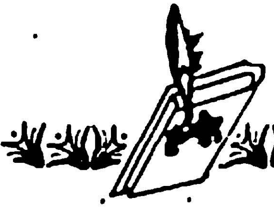
٤ ـ تصوير الوثائق المصانة في المكتبات :

اما بالنسبة للمكتبيين فان قانون حق المؤلف يتعارض مع حق التصوير وان المكتبيين يهمهم نشر المعرفة وتوصيلها للقراء بكل وسيلة ممكنة ، وخير وسيلة لنشر المعرفة او خدمة القراء هي تصوير النصوص التي يحتاجونها وتزويدهم بنسخ لغرض الاستفادة منها في بحوثهم ولكن تداركاً للموقف تم الاتفاق على ما يسمى بالاستعمال او التصوير المنصف Fair Use (٩) .

٦ ـ اسس التصوير في المكتبات

ان مبدأ الاستعمال المنصف يسمح بتصوير نسخة واحدة من الوثائق الموجودة في المكتبة لأغراض البحث العلمي والدراسة فقط . ولكن المحاكم او القانون يعتبر تصوير اية وثيقة مخالفة لقانون حق المؤلف ولو انها تغض الطرف عن تصوير نسخة واحدة لجزء معقول من اية وثيقة للاستعمال الخاص فقط وتعتبر هذه مشمولة باتفاقية الاستعمال المنصف .

كما ان الاستعمال المنصف كان ولا يزال يسمح للباحثين بالاستنساخ اليدوي لأي جزء من الوثيقة مثل مقتطفات للاستشهاد بها من قبل المؤلف . وبعد



حلول آلات التصوير في المكتبات فان مبدا الاستعمال المنصف لا يزال يسمح للباحثين بتصوير اجزاء من الوثائق كمراجع لهم ، اي انه يسمح للعلماء بالاستفادة من هذه التقنية الجديدة ، ولكن دخول آلات التصوير في المكتبات قد عقد المشاكل لأن الاستنساخ لا يمكن ان يكون على نطاق واسع نظراً لصعوبة العملية التي تحدد طول القطعة المنقولة وبنسخة واحدة فقط ؛ ولكن آلات التصوير قد سهلت العملية اذ تسمح بتصوير اجزاء مطولة او وثائق كاملة في وقت وجيز وجهد ضئيل وبنسخ عديدة . وبذلك فقد اصبحت هذه الآلات ليست عوناً للعلماء والقراء في عملية الاستنساخ فقط ، بل انها تمثل مطابع كاملة وتصوير نسخ متعددة ، تعتبر عملية نشر كاملة ، لذلك ثار المؤلفون باعتبار ان هذه الآلات قد اصبحت تهدد بيع الكثير من النسخ وبالتالي فانها تضر بالمؤلفين او الناشرين مالياً(١٠) .

كما هو معروف فان وظيفة المكتبة الأساسية هي احضار او تهيئة النسخ التي يطلبها القراء او المعاهد العلمية وان حاجة العديد من الباحثين لا يمكن سدها بعملية الاعارة فقط ، بالاضافة الى ان للعلماء والقراء الحق بالاستفادة من وسائل الاستنساخ الحديثة . وبذلك اصبحت مصالح الناشرين مهددة مما دعا الى اجتماع بين مجموعة من منظمات البحث العلمي ورابطة الناشرين ، واخيراً توصلوا الى اتفاقية في عام ١٩٣٥م ودعيت تلك الاتفاقية بالميثاق الأخلاقي ولكنها لم تكن اتفاقية قانونية تحدد البنود التي يمكن ان تقرر المخلفات وحسب ذلك الميثاق اصبح للمكتبة حق تصوير نسخة واحدة لجزء من اية وثيقة مصانة بالقانون واعطائها الى القارىء الذي يتصل بالمكتبة ويقدم طلباً تحريرياً ينص فيه على طلب نسخة مصورة بدلا من استعارة الكتاب المعين وانه سوف يستفيد من تلك الصورة في بحثه العلمي فقط .

وفي عام ١٩٤١ م اصدرت جمعية المكتبات الأمريكية توصيات بهذا الخصوص الى جميع اعضائها تنص على احترام الاتفاقية الخلقية المنعقدة بين رابطة الناشرين ومراكز البحث العلمي . ومنذ ذلك الحين اصبح الجميع ملتزمين بهذه الاتفاقية . ولكن الحال قد تغيرت بعد ان كثرت آلات التصوير في المكتبات واصبحت اكثر دقة واقل كلفة لتصوير الصفحة الواحدة . ففي عام ١٩٥٠ م عقدت معظم جمعيات المكتبات في الغرب اجتماعاً عاماً ادى الى تكوين لجنة تقوم بدراسة الموقف في المكتبات . فزارت الجامعات والمكتبات على اختلاف انواعها ومراكز البحوث لتجميع المعلومات حول سياسة التصوير المتبعة ، وبعد دراستها وجدت بأن جميع الأطراف ملتزمة بالميثاق الأخلاقي المنعقد في عام ١٩٣٥ م . لأن تلك اللجنة وجدت بأن المكتبات تزود قراءها عند الطلب بنسخة واحدة من اي مطبوع ، وان معظم تلك التصاوير كانت لمقالات في مختلف الدوريات(١١) .

وفي عام ١٩٦١ م اصدرت تلك اللجنة قراراً ينص على أن ما يجري في المكتبات لا يتعارض مع مصلحة الناشرين والمؤلفين .

٧ ــ الاستعمال المنصف

ان الاستعمال او التصوير المنصف هو كصمام امان لحق المؤلف وهو يأخذ في الاعتبار كلا من مصلحة القراء وحق المؤلف ، اي انه يعطي المؤلفين حقهم بصورة عادلة ، كما انه يساعد الجمهور على استعمال المواد المصانة استعمالاً يفيد تطوير العلم والمعرفة . ومن هذا يتجلى لنا أن الاستعمال المنصف يسمح بتصوير جزء من الوثيقة لأغراض قانونية او شرعية ولكن بصورة محدودة بحيث لا يؤثر على بيع الكتب باية صورة ، فمثلا اذا قام الطلاب بتصوير نسخة مصانة بالقانون او جزء منها لغرض الدراسة والنقاش بدلا من شراء نسخ من الأسواق فان هذا يتعارض مع حق المؤلف . وهذا يدل على ان تحديد التصوير المنصف امر صعب وهو يعتمد على الأغراض التي يتم التصوير من اجلها ، وان هذه الأهداف لا يمكن تحديدها بسهولة وهي تختلف باختلاف الظروف كما انه لا يمكن تحديد القسم او عدد الصفحات التي يتطلب تصويرها لأي هدف من الأهداف ، ولكن القانون دائماً يردد استعمال الحكمة والخلق القويم في حماية حق المؤلف . وكان قد تم اقتراح اختبار عملي للتصوير المنصف وهو ان يسأل الباحث او القارىء نفسه عن القيام بالتصوير : لو كنت مؤلفاً او ناشراً لهذا الكتاب فهل اسمح لشخص آخر ان يصور هذا العدد من الصفحات ؟ ام اطلب منه شراء نسخة ؟ ان هذا المبدأ او القرار كان قد صدر عن محاكم عدة في احوال مختلفة بخصوص اقتباس بعض الكتاب نقرات مطولة من اعمال مؤلفين آخرين ، ان هذا لا يأتي تحت الاستعمال المنصف الذي يشمل اقتباس جمل او عبارات للاستشهاد او النقد لأقوال الآخرين وتحليلها . مثل هذه الحالات كانت ولا تزال تعرض على المحاكم للبت في امرها وتعويض الناشرين ، لأن



المخالفة واضحـة للعيان ولكن حـالات التصوير لم تعرض على المحاكم الى حد الآن سوى قضية واحدة وهي لا تزال قائمة في المحاكم . وهذه القضية هي شكوى شـركـة وليـامز وولكـز Williams and Wilkins ضد الحكومة المركزية في الولايات المتحدة ، تطلب فيها هذه الشركة التعويض لأن المكتبـة الوطنية للطب قد صورت العديد من المقالات من مجلاتها الطبية ، ولكن القرار لم يصدر حتى الآن . وعلى ضوء هـذا القرار سوف يتقدم العديد من الناشرين بشكاوى ضد المعاهد العلميـة والجامعات حيث يتم التصوير على اوسـع نطـاق(١٠) .

وعلى ضوء قرارات المحاكم المختلفـة في قضايا الاقتباسات والتصوير المنصف كان قد تم تحوير قانون حق المؤلف بعـد مراجعته ، فأصبح يشتمل الآن على بعض البنود التي يمكن ان تساعـد الحكم على ما هو استعمال منصف ام غير منصف ؟ وهذه البنود هي :

أ ـ ما هو الهدف مـن الاقتباس ، اي هـل هو للاستشهاد والنقـد ام لاكمال فكرة معينة تم نشرها ؟

ب ـ ما هي طبيعة الوثيقة المنقول منها ، هل هي تجـربة ام روايـة ؟

جـ ـ ما هي كمية او طول القطعة المقتبسة بالنسبة للوثيقـة المنقول منهـا ؟

د ـ ما مدى تاثير الاقتباس على بيع نسخ الوثيقة المنقول عنهـا حاضـراً ومستقبلا ؟

وحسب الأسئلة المذكورة إعـلاه يمكن تحديـد طبيعة الاستعمال المنصف للأغراض التالية فقط :

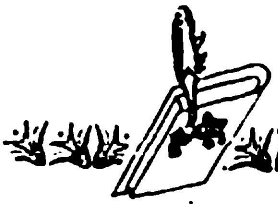
اقتباس جملة او قطعة لنقدها او للتعليق عليها ، او اقتباس خبر صحفي او مقاطـع في عملية التعليم والبحث العلمي(١١) .

٨ ـ تقنـين لاحتكـار المعرفة ام لاشاعة المعرفة بـين الجماهـير

ان نوعية الحضارة في اي عصر من العصور تعتمد على الابـداع الذهني والفني لتلك الفتـرة كمـا ان تشجيع وحماية وتذوق الفنانين والمؤلفين من قبـل ابنـاء المجتمع يؤثر تأثيراً مباشراً على مدى تقدم تلك الحضارة . هـذه حقيقة معروفة في مختلف انحاء العـالم على مر العصور ، ولذلك وضعت القوانـين لحماية الفنانـين والمؤلفـين وبالتالي لترويج العلم والتعلم والثقافـة والفنون على اختلاف انواعها عـن طريق حماية النتاج الفكري ، لأن هذه القوانين تعطي للمؤلفين وللمبدعين حق الاستفادة من نتاجهم الذهني مادياً ومعنوياً وبالتالي تكون حافزاً لهم للمزيد مـن الابـداع .

ان الابداع الذهني سواء كان نصوصاً علميـة او قطعاً ادبية او موسيقية من كلاسيكية او اغنية شعبية، لا بد من حمايتها جميعاً بقانون حق المؤلف . فاذا هذا القانون يساعد في تكوين وتطوير حضـارة المجتمـع لانه عنصر اساسي في تنظيم عملية النشـر وحماية الكتب ليختار منها الجمهور قراءاته المفضلة ويتمتع باغانيها وفنونها مـن دون اية فوضى يمكن ان تعم صناعة النشـر وبالتالي تؤدي الى ضـرب الحركـة الثقافية . ومن دون هذه القوانين فلم يعد هناك اي حافز او دافع يشجع الموهوبين الى مزيد من الابداع، ولكن قوانين اليوم كما نشهدها قاصرة عـن اعطاء كل ذي حـق حقـه ، فالأسعار التي تدفـع الى تجار الكتب او ما نسميهم بالناشرين عاليـة جـداً ، كما نلاحظها في السنوات الأخيرة ، الأمر الذي يدعو الى الاعتقاد بأن حـق المؤلف هو نوع مـن الاحتكار لأنه امتياز لا اعتراض عليـه ، وفعلا لا يوجد اي قانون يردع هذه الرغبة الجامحة في رفع الأسعار باستمرار بحيث اصبح القراء فريسـة لهذا الجشع المادي الذي اصبح مانعاً بين القراء ، وشراء كتبهم المفضلة ، وان شراء الكتب من قبل الباحثين والأساتذة والطـلاب لا ياتي تحت المواد الكمالية ، بل مـن الضروريات ، وبذلك اصبح العلم مشاعاً للطبقة الثرية كما كان في القرون الوسطى .

ومن هنا يتضح لنا بأن هذا القانون اصبح اداة بيد الاحتكاريين من الناشرين الذين لا همَّ لهم سوى الحصول على المزيد مـن الربح ، بينما الهدف مـن قانون حق المؤلف هو تحقيق التقدم العلمي والتكنولوجي عن طريق توفير الخدمات الثقافية للمواطنين ، وليس لتحقيق الربح للناشرين عن طريق احتكار العلوم والفنون والآداب ، فكيف يتـم الاتفـاق بـين التقـدم العلمي والحضاري من جهة، والاحتكارات التي تمارسها شركات النشر العملاقة بحجة حماية حق المؤلف من جهة اخرى؟ ان هذا الوضع السيىء هو من سوء حظ القراء والمجتمع ككل والسبب هو ليس الربـح العادي الذي يمارسه الناشرون فقط ، بـل اعطـاء السيطرة لطرف واحـد يتحكم في ثقافـة المجتمع وحضارته وهو يتاجر بهـا ليجبي الأرباح الطـائلة ، والناشرون في استغلالهـم



وظلمهم هذا يتمتعون بحماية القانون من دون اية مسؤولية يحملهم اياها هذا القانون . ان في مجتمعنا متناقضات كثيرة ومن ابشعها ان اعطى القانون حرية الكلام والتعلم لأفراد المجتمع ، ولكنه مقابل هذا قد اعطى الصلاحية لشخص يتاجر بأفكار المؤلفين ويمنع اية وثيقة يشاء عن الجمهور سواء كان بوضع اسعار عالية او بطبع نسخ غير كافية . وبذلك فان هذا التاجر يتحكم في ثقافات الناس تحت حماية قانون حق المؤلف الذي اصبح يتعارض والمصلحة العامة .

ان حق المؤلف هو ملكية ثقافية لانتاج فكري معنوي وليس مادي كالكتاب ، ومن هنا لا بد لنا من ان نفرق بين المادة العلمية والكتاب او الوعاء . فالقانون يحمي الآراء بتعبير المؤلف وليس الكتاب ، اي ان الحماية للمضمون وليس للوعاء . فمؤلف الكتاب يتمكن من ان يترجم كتابه او يبيع حق تمثيل روايته من دون تدخل من الناشر الذي يمتلك الوعاء فقط دون المضمون. هذه هي فحوى قانون حق المؤلف ، ولكن الواقع هو غير هذا ، فالناشرون الآن يمارسون احتكاراً تاماً ويسيئون الى كل من المؤلف وجمهور القراء .

ان قانون حق المؤلف اصبح الآن تقنيناً للاحتكار يحمية القانون ويصونه . وقد اصبحت هذه المشكلة واضحة في كل بلد من بلدان العالم ، الأمر الذي دعا بعض الدول الى اعادة النظر في قوانينها بعد ان اصبحت تتعارض ومصلحة المجتمع الثقافية ، وكانت النتيجة ما يسمى بالاستعمال المنصف او المعقول ومعناه ان القارىء يستطيع استعمال الوثائق المصانة بالقانون والاقتباس منها لأغراض معينة سبق وان ذكرت . ورغم هذا فان قضية احتكار المعرفة لا تزال قائمة لا سيما وان تعبير حق المؤلف كان قد لاقى رواجاً في القرون العديدة الماضية تحت ستار تعويض المؤلف وتشجيعاً له ومكافأة لجهوده وما شاكلها من امور ادت الى هذا الاحتكار القائم اليوم والذي لا يخدم المؤلف بقدر ما يخدم شركات النشر الكبيرة بينما بقي الجمهور والقارىء من دون حماية وحتى حق الاستعمال المعقول غير معروف للكثير من القراء وحتى لقضاة المحاكم . وبقيت مشكلة الاحتكار قائمة بسبب عدم وجود قانون عادل لحق المؤلف يخدم كلا من المؤلف والناشر والقارىء ، ان القانون القائم قد حدد صلاحيات المكتبات التي تعمل على نشر العلم والمعرفة في مجتمعاتنا . والسبب في ذلك هو ان القانون يعتبر حماية لحقوق المؤلف ولكن في الواقع ان المستفيد الصحيح من هذا القانون هو شركات النشر ، فالقانون اليوم هو حق خاص بنشر الوثيقة ويمنع بقية الناشرين من اعادة نشرها والربح منها ، ثم حدد القانون مدى فائدة الباحثين منها واصبح احتكاراً لشركات النشر . ورغم هذا لن يتمكن متخصصوا القانون من وضع قانون منصف وعادل يعطي كل ذي حق حقه . ان نقطة الضعف هذه لها جذور تاريخية حيث ان مصدر قانون حق المؤلف الحالي هو القانون الانكليزي من القرن السادس عشر. ان بداية ذلك القانون كان حق شركة الوراقين المكونة من تجار الكتب والمجلدين والطباعين وباعة الكتب . وكان ذلك القانون حماية لمصالح اعضاء تلك الشركة او حماية الأعمال المنشورة من قرصنة بعضهم البعض . وان فحوى ذلك القانون هي : ان الشخص الذي يقوم بنشر وثيقة ما فانه سوف يكتسب حقاً دائمياً لنشر او اعادة نشر ذلك المطبوع من دون اي منازع . وان القانون الحالي قائم على ذلك الاحتكار المطلق وحتى المؤلف لم تكن له اية مصلحة فيه ولا سلطة قانونية لمعارضة الناشر . وكما كان المؤلف في القديم يتعب ليتنعم غيره بأتعابه فان المؤلف اليوم لم يكن بأحسن حال من سابقه لأن قوانين حق المؤلف في جميع دول العالم قائمة على نفس السياسة القديمة التي وضعت لمصلحة الناشر . وان العامل الذي يساعد على وضع سياسة الاحتكار في القرن السادس عشر هي الرقابة الحكومية على المطبوعات ، وهذا ساعد شركة الوراقين بأن تصدر مرسوماً يقصر حق الطباعة والنشر على اعضاء الشركة فقط وقد وافقت الحكومة آنذاك على سياسة الاحتكار تلك لأنها ارادت حصر صناعة النشر في ايد معروفة فقط لكيما تتمكن من تنفيذ رقابتها بصورة دقيقة ، وبقيت شركة الوراقين تمارس سياسة الاحتكار تحت حماية القانون لغاية عام ١٧٧٤ عندما اصدر مجلس اللوردات الانكليزي قراره بالغاء احتكارها .

وقد اعقب قانون شركة الوراقين قانون آخر يدعى قانون الملكة آن في عام ١٧٠٩ وان هذا القانون الأخير كان مبنياً على سابقة وان كان يختلف عنه في نقطتين فقط :

١ ـ لقد حدد مدة الملكية ب ١٤ عاماً بدلاً من سابقه الذي كان ينص على حق ابدي للناشر .

٢ ـ وان حق الناشر اصبح مشاعاً لأي شخص يروم ممارسته بعد ان كان احتكاراً لأعضاء شركة الوراقين فقط .



وان هذين البندين كانا قد وضعا للقضاء على الاحتكار الذي كانت تمارسه شركة الوراقين . ولكن رغم تقيدات قانون الملكة آن فان اعضاء شركة الوراقين واصلوا احتكارهم لهذه الصناعة ، وبقي قانون الملكة حبراً على ورق . وبالاضافة الى النقطتين السابقتين فان قانون الملكة آن كان قد اكد على الفكرة القائلة بأن قانون حق المؤلف هو حماية للمؤلف وليس للناشر . ولكن الناشرين استغلوا هذا النص الصريح وحاولوا ارجاع امتيازهم السابق وهو الحق الأبدي لنشر الكتاب . وان الحجة التي تقدم بها الناشرون الى المحاكم كانت : بما ان المؤلف هو الذي ابتدع نص الكتاب فانه مخول بحماية قانونية للأبد لما كان قد ابتدع ، وبدوره يمكن ان يخول اي شخص حق التصرف به ، ومن الطبيعي فانه سوف يخول احد الناشرين هذا الحق الأبدي . وبهذه الذريعة الواهية كاد الناشرون ان يقنعوا السلطات الحاكمة لولا الراي العام الذي كان قد تكون كرد فعل لسياسة الاحتكار الطويلة، فكان هناك فكرة تدور على الألسنة في المجتمع ككل ولمدة طويلة بانه لا يمكن لأحد ان يتمتع بالحق الأبدي الذي كان قد مجه الجميع وحتى المؤلفون انفسهم. ولكن اعضاء شركة الوراقين او دعاة الاحتكار كانوا قد استشهدوا بقرار الحاكم الأنكليزي اللورد مانسفيلد (Lord Mansfield) حين اصدر قراره عام ١٧٦٩ في قضية احد المؤلفين ضد ناشره وكان قد ربح تلك القضية باعة الكتب ، وفيما يلي نص قرار الحاكم :

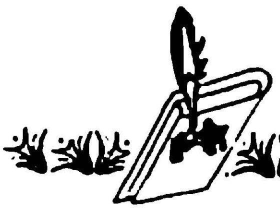
« ان المؤلف الذي يحرم من الحماية القانونية الأبدية معناها انه سيحرم من اي ربح ولربما لا يتمكن من استرجاع مصروفاته التي صرفها على الكتاب بالاضافة الى انه يفقد حق استعمال اسمه . وسوف لن تكون له سيطرة لاصلاح الأخطاء في كتابه ولا يمكن ان يمنع الاضافات او يتقصى الأخطاء فيها . وعندئذ يتمكن اي انسان من اعادة طبع كتابه باخطاء جمة لينزل من قيمته ويمس بسمعة المؤلف كما يضر في ثقافة القارىء . بالاضافة الى انه لا يمكن استعمال اسم اي مؤلف ضد رغبته »(٦) .

ان هذا القرار كان حجة قوية يتذرع بها دعاة الاتجاه الاحتكاري ، ولكن نقطة الضعف فيه هي ان قانون حق المؤلف لم ينص مطلقاً على مثل هذه الآراء ولم يمنح المؤلف اي حق منها . وان اضافة آراء الحاكم هذه الى قانون حق المؤلف القائم سوف تعمل على تقوية السلطة الاحتكارية التي كان يمارسها الناشرون . ان قرار اللورد مانسفيلد كان في صالح الاحتكاريين اذ اعطاهم حق النشر بصورة ابدية وشدد من سلطتهم على صناعة الكتب، ولكن لم تطل فرحتهم، ففي عام ١٧٧٤ م اكد مجلس اللوردات الانكليزي على ضرورة تطبيق قانون الملكة آن والذي يحدد مدة النشر بـ ١٤ عاماً قابلة للتمديد اذا كان المؤلف حيّاً يرزق . وان السبب في الرجوع الى قانون الملكة آن هو ليس اعتراضاً على حق المؤلف ولكن الاعتراض كان على الاحتكار الذي كان يمارسه تجار الكتب ، اللذين سلبوا المؤلف حقه ومارسوا الاحتكار ضد القراء لغرض الحصول على المزيد من الربح .

ان وضع الناشرين اليوم في جميع البلاد الراسمالية لا يختلف كثيراً عما كان عليه قبل عدة قرون فهو احتكار وجشع وقد اوصلوا معدل سعر الكتاب الواحد الى عشرات الدنانير الأمر الذي جعل من المتعذر على الكثير من ابناء الشعب شراء الكتب المهمة ثقافياً وعلمياً ومهنياً .

عندما وضع المشرعون تلك القوانين كانوا يعتقدون بانهم يحافظون على مصلحتين لا ثالث لهما : أولاهما مصلحة المؤلف ، والأخرى مصلحة القارىء او شاري الكتاب. ولكن مصالح هذين الطرفين اهملت وظهر طرف ثالث لم يكن بالحسبان الا وهو الناشر الذي سرق حق المؤلف ووضع العراقيل بين القارىء ومصادر المعرفة بحجة حماية حق المؤلف . وهذا هو الاحتكار الذي لم يكن يفكر به المشرعون ، ولو كان في حسبانهم حق الناشر لكانوا قد حددوا سلطاته بقانون خاص يعرف بحق الناشر ومسؤولياته ، او في نفس القانون الذي يحدد كل شيء بعنوان : حقوق الناشرين والمؤلفين والقراء ومسؤولياتهم .

ان هذه الأطراف الثلاثة ظهرت بصورة جلية بحلول القرن الثامن عشر . وعندها ساد الاعتقاد بوجوب قانون جديد يعطي كل ذي حق حقه وان كانت المصالح الثلاث المتشابكة ، واذا ما تم التوفيق بين هذه المصالح انتهى الاحتكار الذي يمارسه الناشرون . ولكن كيف يمكن ان يتم هذا التوفيق ؟ واين تنتهي مصلحة الأول وتبدأ مصلحة الثاني ؟ مع العلم ان اي سيطرة مطلقة تعطى لأحد هذه الأطراف سوف تنتهي باحتكار بغيض . فالجواب اذاً اعطاء صلاحيات مبنية على اهداف معينة ، وان كل هدف لا بد من ان يكون متصلاً بطبيعة مصالح الأطراف الثلاثة. فالمؤلف يريد السيطرة على كتابه لتحقيق هدفين : الأول حماية سمعته ، والثاني تحقيق الربح المالي نظير اتعابه .



أما الناشـر فمصلحته مبنية على نشـر الكتاب وتوزيعه لتحقيق الربح ، وبذلك فانه لا يختلف عن اي تاجر آخر ، وهو يريد السيطرة لغرض الربح فقط .

اما مصلحة القارىء فهي نفسها المصلحة العامة وتتمثل فيهـا افراد ومؤسسات ، فالأفراد يسعون وراء الفائدة العلمية والأدبية مـن مضمون الكتـاب فقط ، كما ان الهدف من صناعة النشر هو تحقيق هـذه الغـاية النبيلة . اما المؤسسات فهي متمثلة في المكتبات والجامعات وغيرها من المعاهـد العلمية التي تهدف الى توصيل المعلومات الى القراء جميعاً لرفع مستوياتهم الثقافية والمهنية دونما اية اعتبارات مالية او اجتماعية ، وفي مثل هذه الحالة فقط يمكن رفع المستوى الثقافي في المجتمـع .

فبعد تحديد المصالح الثـلاث ، يمكن لرجـال القانون وضع قانـون يصون هـذه الحقوق ويمنع سيطرة احدهما على الآخر . ان الناشرين يمارسون مهنة نبيلة ولا بد لهم من ان يربحوا من مهنتهم هذه ، ولكن ليس معنى هذا انهم يعطون امتيازاً مطلقاً لامتلاك الكتاب والتحكم في نشره واسعاره لمدة تزيد على خمسين عاماً كما تنص معظم قوانين حق المؤلف في العالم . واذا لم تتمكن الشعوب مـن ايجاد البديل للناشر كما في الجماهيرية ، فعندئـذ لا بـد من ان تحدد حقوقـه ومسؤولياته لكي تتمكن مـن تحرير مصـادر العلم والثقافـة مـن الاحتكـار البغيض .

لذلك لا بـد من وضـع قانون جديد مبني على فكرتـين :

١ ــ تحديد مالك حـق المؤلف بالاسم فيما اذا كان المؤلف أم النـاشـر .

٢ ــ تحديد فترة الحماية وتاثير هذه الفترة على مصلحـة القراء .

وفيما اذا اريد القضاء على اي مظهر من مظاهر الاحتكار فان القانون الجديد يجب ان يعترف بحقوق شاري الكتاب ، ويحدد حقوق ومسؤوليات الشخص الذي يملك حـق المؤلف . وفيما اذا نفـذت نسخ الكتاب من الأسواق عندها يعتبر امتياز حق المؤلف لاغيـاً ويحق لأي ناشـر نشـره .

اما اذا تم الاجماع على تقسيم قانون حق المؤلف الى قسمين احدهما خاص بالمؤلف والآخر خاص بالناشر فعندها لا بـد من جعل فترة ملكية الناشر للوثيقة اقصر من الفترة المعطاة للمؤلف ، وعلى سبيل المثـال لا يمكن اعطاء النـاشـر امتيازاً خاصاً للتحكم بالكتاب اكثر من عشر سنين ، وبعد انقضاء هذه الفترة فلا بد مـن جعل الكتاب مشاعاً لمن يريد اعادة طبعه مـع استمرار حماية حـق المؤلف .

ان هذه الاقتراحات ليست جديدة لأنها جزء من قانون حماية الأعمال الموسيقية ، والذي كان قد تم وضعه عام ١٩٠٩ . وفحوى هذا القانون هي : اذا الف موسيقار قطعة موسيقية فيحق لأي عدد من ابناء المجتمع دفع مبلغ محدود الى الموسيقار وشراء حـق تسجيلها وبيعهـا الى الجمهور وهكذا قضى هـذا القانون على الاحتكار الذي نشهده اليوم في عالم الكتب.

١٠ ــ وجهـة نظر المكتبي والقارىء :

ان شعوب العالم قـد كافحت طويلا وضحت كثيراً عبر القرون لنيل الكثير من حقوقها ، ومن جملة هذه الحقوق هي مكتبات اليوم والتي بنيت لتقدم خدماتها الثقافية مجاناً للقراء وتعمل جاهدة بمختلف السبل واحضار كـل وثيقة يطلبها القراء وجنـدت العديد من الخبراء والمثقفين لخدمة الباحثين والبحث العلمي . ان مثل هـذه المكتبات هي جامعات شعبية تستقبل هواة المعرفة من مختلف الأعمار والأجناس فبنت مجموعاتها حسب اسس علمية مثل سد حاجة القراء واضعة نصب عينيها خدمة ابناء المجتمع كافة ورفع مستوياتهم الثقافيـة والعلمية والمهنية . وان بمثل هذه المكتبات تستطيع المجتمعات اقتناء وحفظ كل ما يستجد من ضروب المعرفة ثم تنظيمها وتخزينها جاهزة للقراء حاضراً ومستقبلا . ان استعمال مثل هذه المكتبات يرفع من مستويات الشعوب عن طريق تثقيف ابنائها واللذين هم بدورهم يعملون على توسيع آفاق المعرفة وبالتالي دفع عجلة التقدم الى الأمام . ان هذه الخدمات المكتبية هي اساس البحث العلمي الضروري لتطوير المجتمع عامـة ثقافيـاً واجتماعياً وعلمياً . وبهـذا فان المكتبة تلعب دوراً اساسياً في بنـاء المجتمعات وان لم تنشـر دراسات حول هـذا الموضوع ولكن مثل هذه الخدمات الثقافية هي مـن اهم الأهـداف المكتبية في العالم والتي تعمـل على تحقيقها بتوفير المصادر اللازمة والخدمات الناجحة ، المجانية للجمهور . ومن هذا يتضح لنا بأن الجماهير الواعية والتي تحترم العلم والعمل لا بد من ان تغدق على مكتباتها الثروات الطائلـة لتمكينها من تقـديم خـدمات ثقافيـة افضـل .

ان من بين قراء المكتبة يمكن ان يكون زائر من بلد بعيد او تلميذ يبحث عن ملاحظات او حل مشاكل تعترضه اثنـاء دراسـته ، او شخص آخر يكتب في

موضوع لينشره او بحث مدرسي ، او صحفي يبحث عن حقائق معينة ليرويها لقرائه ، او مهني يبحث من كتاب ليتعلم منه كيف يحسن مهنته ، او طبيب يستزيد من المعلومات حول مرض تفشى في مجتمعه ، او باحث يجمع المعلومات لبحث جديد يمكن ان يساعد في تحسين الطرق الصناعية او مكائنها او باحث زراعي يبحث في طرق مكافحة الحشرات ؛ وما الى ذلك من قراء يعملون على بناء مجتمع افضل .

وفي عصرنا هذا حيث نشهد الثورة العارمة في عالم المعلومات والمتمثلة بملايين الوثائق كل عام والتي تنشر لتقدم لجماهير القراء نتائج البحوث التي يقوم بها ملايين الباحثين في بلاد العالم المتمدن . ان على المكتبات مسؤولية الحفاظ على المعرفة البشرية هذه عن طريق تجميعها وتنظيمها والانتفاع بها فهي تقتني الملايين من الوثائق وتهيئها لخدمة الملايين من الباحثين والقراء . وبذلك فهي تنمو نمواً طردياً مع نمو المعرفة ؛ وكلما ازدادت مصادرها تنوعت خدماتها وكثر قراؤها وزادت مشاكلها فهي تستقبل الباحثين والطلاب لينهلوا من معينها في سبيل تجميع المعلومات الأولية لبحوثهم ودراساتهم عن طريق كتابة الملاحظات او تصويرها . ومن هذا يتبين لنا بأن دعم هذه المكتبات ضروري لتطوير العلم ونشره بين ابناء المجتمع(١٢) .

إن القراء والباحثين لا بد من ان يستنسخوا من هذه الكتب كل ما هو ضروري لبحوثهم ودراساتهم. ان في تصويرهم الوثائق خدمة للعلم والمعرفة وبناء للمجتمع وبذلك فان اعمالاً من هذا القبيل سوف لن تعتبر مخالفات لقانون حق المؤلف الذي يوضع لحماية الكاتب والقارىء ويساعد على رواج العلم والمعرفة . ان مثل هذه الآراء غير ملموسة فلا يمكن حمايتها بقانون حق المؤلف الذي اصبح يتعارض ومصالح الجماهير ، ولذلك ان اي قانون لحق المؤلف لا بد من ان ينص على حق القراء ويعمل على توفير اوعية المعرفة بأسعار شعبية .

REFERENCES مصادر البحث

1. Binns, Novman E. **An introduction to historical Bibliography** : 2nd. ed. London : Association of Assistant Libnanians, 1962.
2. Mumby, Frank A. **Publishing and book selling : a history From The earliest times to the Present day.** 4th. ed. London : Cape, 1956.
3. Patridge, R. D. B. **A history of the legal deposit of books throughout the British Empire.** London : Library Association, 1938.
4. Patterson, Layman Ray. **Copyright in historical perspectine.** Nashville, Tenn. : Vandarbelt University Press, 1968.
5. Pilpel -Harriet F., and Morton David Goldberg. **A Copyright gride.** New York : Bowker, 1969.
6. Plant, M. **English book trade.** London : Allen and Unwin, 1939.
7. U. S. Congress, Senate Committee on Foreign Relations, Executine Report No. 15, June 11, 1954.
8. Howell, H. A. **Copyright Law.** Rev. 4th. ed. Washington : Bureau of National Affairs, 1962.
9. Ringer, B. A., and P. Gitlin. **Copyrights.** Rev. ed. New York : Practicing Law Institute, 1965.
10. Report of The Register of the Copyright on the general revision of the U. S. Copynight Law. House Committee on the Judiciary, Comm. Print, 1961.
11. Geral, J. Sophar, and Laurence B. Heilgrin. **The determination of legal facts and economic guide-posts with respect to the dissemination of Scientific and educational information as it is affected by copyright.** Washington, D. C. : December, 1967.
12. Gearge Fry and Associates. **"Suvery of Copyrighted material, regroduction practices in Scientific and technical fields".** Study Completed March, '962, Sponsored by : National Science Foundation, Chicago.

الاتفاقية العربية لحماية حقوق المؤلف

ان الدول العربيــة

اذ تحدوها الرغبة على حد سواء في حماية حقوق المؤلفين على المصنفات الادبية والفنية والعلمية بطريقة فعالة وموحدة وتجاوبا مع المادة الحادية والعشرين من ميثاق الوحدة الثقافية العربية الصادر في سنة ١٩٦٤ التي أهابت بالدول العربية ان تضع كل منها تشريعاً لحماية الملكيــة الادبية والفنية والعلميــة ضمن حدود سيادة كـل منهـا .

واقتناعاً منها بالمصلحة العربية في وضــع نظـام عربي موحد لحماية حقوق المؤلف يلائم الدول العربية ويضاف الى الاتفاقيات الدولية النافذة ، كاتفاقية برن لحماية المصنفـات الادبية والفنيــة والاتفاقية العالمية لحقوق المؤلف المعدلتــين في ٢٤ يوليو/تموز ١٩٧١ ، واعتقاداً منها بان هــذا النظام العربي الموحـد لحماية حقوق المؤلف سوف يشجع المؤلف العربي على الابداع والابتكار ويشجع على تنمية الآداب والفنون والعلوم .
فقد اتفقت على ما يلي :

أولاً ــ نطـاق الحمـايـة :

المـادة الأولى :

أ ــ يتمتع بالحماية مؤلفو المصنفات المبتكرة في الآداب والفنون والعلوم ايا كانت قيمة هذه المصنفات او نوعهـا او الغرض مـن تاليفها او طريقـة التعبير المستعملة فيهـا .

ب ــ تشتمل هذه الحماية بوجه خاص ما يلي :

١ ــ الكتب والكتيبات وغيرها من المواد المكتوبة .

٢ ــ المصنفات التي تلقى شفاهـا كالمحاضـرات والخطب والمواعظ الدينيـة .

٣ ــ المؤلفات المسرحية والمسرحيات الموسيقية .

٤ ــ المصنفات الموسيقية سواء اكانت مرقمة او لم تكن ، سواء اكانت مصحوبة بكلمات ام لم تكن .

٥ ــ مصنفات تصميم الرقصات والتمثيل الايمائي .

٦ ــ المصنفـات السينماتـوغرافيـة والاذاعيـة السمعيـة والبصريـة .

٧ ــ أعمال الرسم والتصوير بالخطوط والألوان والعمارة والنحت والفنون الزخرفية والحفر .

٨ ــ اعمال التصوير الفوتوغرافي .

٩ ــ اعمال الفنون التطبيقية سواء اكانت حرفية ام كانت صنـاعيـة .

١٠ ــ الصور التوضيحية والخرائط الجغرافيـة والتصميمات والمخططات والأعمـال المجسمة المتعلقـة بالجغرافيـا والطبوغرافيـا وفـن العمارة والعلـوم .

ج ــ يشترط في المصنفات المحمية ان تكون ذات دعايـة ماديـة .



المـادة الثـانيـة :

أ ـ يتمتع بالحماية ايضاً ويعتبر مؤلفاً لأغراض هـذه الاتفاقيـة :

١ ـ مـن قام باذن مـن المؤلف الأصلي بترجمة المصنف الى لغـة أخرى وكذلك من قام بتلخيصه او تحويره او تعديله او شرحه او غير ذلك من الأوجه التي تظهر المصنف بشكل جـديـد .

٢ ـ مؤلفو الموسوعات والمختارات التي تشكـل من حيث انتقاء مادتها وترتيبها اعمالاً فكرية ابداعية.

ب ـ لا تخـل الحماية المقررة بالفقرة السابقـة بالحماية التي يتمتع بهـا مؤلفو المصنفات الأصليـة .

المـادة الثـالثـة :

لا تشمل الحماية المصنفات الآتيـة :

١ ـ القوانين والأحكام القضائية وقرارات الهيئات الادارية وكذلك الترجمات الرسمية لهـذه النصوص.

٢ ـ الأنباء المنشورة او المذاعة او المبلغة علنـاً .

ثانيـاً ـ حقـوق المؤلف :

المـادة الرابعـة :

أ ـ يتمتع مؤلف المصنف بحقوق التاليف وتثبت صفة المؤلف لمن نشر او اذيع او عرف المصنف باسمه ، ما لم يثبت خـلاف ذلك . ولا يخضـع التمتع بهـذه الحقوق وممارستهـا لأي اجراء شكلي .

ب ـ اذا ابتكر المصنف لحساب شخص طبيعي او معنوي خاص أو عام ، فان حقـوق التاليف تثبت للمؤلف ، ويجـوز للتشريع الوطني ان ينص على ان الشخص المعنوي هو صاحب الحق الأصلي الا اذا نص الاتفاق على ما يخالف ذلك كتـابة .

ج ـ تثبت حقوق التاليف بالنسبة الى المصنف السينماتوغرافي بصفة اصلية الى الذين اشتركوا في ابتكاره ، وفي الحدود التي اسهم كـل منهم فيهـا ، كالمخرج ومؤلف السيناريو والحوار ومؤلف الألحان الموسيقية سواء اكانت مصحوبة بكلمات أو لم تكن .

المـادة الخامسـة :

أ ـ يقصد بالفولكلور لأغراض تطبيـق هـذه الاتفاقية المصنفات الأدبية او الفنية او العلمية التي تبتكرها الفئات الشعبية في الدول الأعضاء تعبيراً عن هويتها الثقافيـة والتي تنتقل مـن جيل الى جيل وتشكل احد العناصر الأساسية في تراثها .

ب ـ يعتبر الفولكلور الوطني ملكاً لكل من الدول الأعضاء التي ابتكر في حدود سيادتهـا .

ج ـ تعمل الدول الأعضاء على حماية الفولكلور الوطني بكـل السبل والوسائل القانونيـة وتمارس السلطة الوطنية المختصة صلاحيات المؤلف بالنسبـة للمصنفـات الفولكلوريـة في مواجهـة التشويه او التحوير او الاستغلال التجـاري .

المـادة السادسـة :

أ ـ للمؤلف وحـده الحق في ان ينسب اليـه مصنفه وان يذكر اسمه على جميـع النسخ المنتجـة كلما طرح هذا المصنف على الجمهور الا اذا ورد ذكر المصنف عرضاً في ثنـايا تقـديم اذاعي او تلفزيوني للأحـداث الجـاريـة .

ب ـ للمؤلف او خلفه الخاص او العام الحق في الاعتراض او في منع اي حذف و تغيير و اضافة او اجراء اي تعديل آخر على مصنفه بدون اذنه .

ج ـ يستثنى من حكم الفقرة السابقة التعديل في ترجمة المصنف الا اذا ترتب على هـذه الترجمة مساس بسمعة المؤلف او شرفه او شهرته الفنية او اخلال بمضمون المصنف ... وفي جميع الأحوال يجب التنويه بما تضمنته الترجمة مـن تعـديل في المصنف الأصـلي .

د ـ الحقوق المعنوية المذكورة في الفقرتين (أ ـ ب) لا تقبـل التصرف او التقـادم .

المـادة السابعـة :

للمؤلف او من ينوب عنه مباشرة الحقوق الآتية :

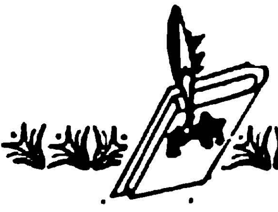
١ ـ استنساخ المصنف بجميع الأشكال الماديـة بما فيها التصوير الفوتغرافي او السينمائي او التسجيل.

٢ ـ ترجمـة المصنف او اقتباسـه او توزيعه موسيقياً او اجراء اي تحوير آخر عليه .

٣ ـ نقل المصنف الى الجمهور عن طريق العرض او التمثيل او النشر الاذاعي او التلفزيوني او ايـة وسيلـة اخـرى .

المـادة الثـامنـة :

أ ـ يتمتع اصحاب اعمال الفن التشكيلي الأصلية ومؤلفو المخطوطات الموسيقيـة الأصلية حتى وان كانوا



قـد تنازلوا عـن ملكية مصنفاتهم الأصلية بالحـق في المشاركة في حصيلة كـل عملية بيـع لهذه المصنفات سواء تمت عـن طريق المزاد العملي او بواسطة تاجر ايا كانت العملية التي حققتهـا .

ب ـ لا يسري هذا الحكم على اعمال العمارة واعمال الفـن التطبيقي .

ج ـ تحـدد شروط ممارسة هذا الحق ومقدار المشاركة في حصيلة البيع في نظـام تصدره السلطات المختصـة في الدولة العربيـة .

ثالثـاً ـ حرية استعمال المصنفات المحصية :

المـادة التاسـعة :

تعتبر الاستعمالات التالية للمصنفات المحصيـة مشروعة ولو لم تقترن بموافقـة المؤلف :

ا ـ الاستعانـة بالمصنف للاستعمال الشخصي الخاص دون سواه بواسطة الاستنساخ او الترجمـة او الاقتباس او التوزيع الموسيقي او التمثيل او الاستماع الاذاعي او المشاهدة التلفزيونية او التحوير بأي شكل آخـر .

ب ـ الاستعانة بالمصنف على سبيل الايضاح في التعليم بواسطة المطبوعات او البرامـج والتسجيلات الاذاعية او التلفزيونية او الأفـلام السينمائية لأهداف تربوية او تثقيفيـة او دينيـة او للتدريب المهني وفي الحدود التي يقتضيها تحقيق هـذا الهدف شرط ان لا يكون الاستعمال بقصد تحقيق ربح مادي وان يذكر المصدر واسم المؤلف .

ج ـ الاستشهاد بفقرات من المصنف في مصنف آخر بهـدف الايضاح او الشرح او النقد وفي حـدود العرف المتبع وبالقدر الذي يبرره هذا الهدف على ان يذكر المصدر واسم المؤلف وينطبـق ذلك ايضـا على الفقرات المنقولة من المقالات الصحفية والدوريات التي تظهر على شكل خلاصات صحفيـة .

المـادة العاشـرة :

يجوز بـدون اذن المؤلف استنساخ المقـالات الاخبارية السياسية او الاقتصادية او الدينية التي تعالج موضوعات الساعة او نشرها من قبل الصحف او الدوريات ... وكذلك ايضا المصنفات الاذاعية ذات الطابع المماثل بشرط ذكر المصـدر .

المـادة الحادية عشرة :

يجوز استنساخ اي مصنف يمكن مشاهدته او سماعه خلال عرض اخباري عن الأحداث الجارية او نشره بواسطة التصوير الفوتوغرافي او التلفزيوني او وسائل الاعلام الجماهيرية الأخرى بشرط ان يكـون ذلك في حـدود الهدف الاعلامي المراد تحقيقه ومـع الاشارة الى اسم المؤلف .

المـادة الثانية عشرة :

يجـوز للمكتبات العامـة ولمراكز التوثيق غـير التجاريـة والمعاهـد التعليميـة والمؤسسات العلمية والثقافية بـدون اذن المؤلف استنساخ المصنفـات المحمية بالتصوير الفوتوغرافي او ما شابهه بشرط ان يكـون ذلك الاستنساخ وعـدد النسخ مقصوراً على احتياجـات انشطتها والا يضـر بالاستغلال المـادي للمصنف ولا يتسبب في الاضرار بالمصالح المشروعـة للمؤلف .

المـادة الثالثة عشرة :

يجوز للصحافة وغيرها مـن وسائل الاعلام ان تنشر بدون اذن المؤلف الخطب والمحاضرات وكذلك المرافعات التي تلقى اثناء نظر المنازعات القضائية وغير ذلك مـن المصنفات المشابهـة المعروضة علنـاً على الجمهور بشرط ذكر اسم المؤلف بوضوح وله وحـده حق نشر هـذه المصنفات في مطبوع واحـد او ايـة طريقـة اخرى .

المـادة الرابعـة عشرة :

يجوز للهيئات الاذاعية ان تعد لبرامجها وبوسائلها الخاصة تسجيلا غير دائم لأي مصنف يرخص لهـا بأن تذيعـه ويجب اتلاف جميـع النسخ خلال مدة لا تتجاوز سنة ميـلادية اعتباراً مـن تاريخ صنعها وللمؤلف حق تمديد هذه المدة ويستثنى من هـذا الحـق التسجيلات ذات الصفـة الوثائقية وبحدود نسخـة واحـدة .

المـادة الخامسة عشرة :

يجـوز للسلطـة الوطنيـة المختصـة التصريح باستنساخ المصنفات لأغراض تربوية او تعليميـة او تثقيفية بعد مضي ثلاث سنوات ميلادية مـن تاريخ تاليفهـا اذا ثبت ان المؤلف او مـن ينوب عنـه لم يستجب للطلب ورفض دون عذر مقبـول استنساخ المصنف او نشره دون اخلال بحقوقه المنصوص عليها

في هـذه الاتفاقية ويحـدد التشريع الوطني شروط التصريح واحكامـه .

المـادة السادسة عشرة :

يجوز للسلطة الوطنية المختصة بمتابعـة تطبيق نظام حماية حق المؤلف في كل مـن الدول الأعضاء الترخيص بترجمـة المصنفـات الأجنبيـة الى اللغـة العربية ونشرها بعد مضي سنة ميلادية واحدة على تاريخ نشـر المصنف الأصلي لأول مرة وذلك وفقـاً للشروط التي يحـددها التشريع الوطني دون اخلال بحقوق المؤلف المنصوص عليهـا في هـذه الاتفاقية .

رابعـاً ـ نقـل حقوق التاليف :

المـادة السابعة عشرة :

ا ـ حقوق المؤلف المنصـوص عليهـا في المادتين السابعة والثامنة من هذه الاتفاقية قابلة للانتقـال كلها او بعضها سواء بطريق الارث او التصرف القانوني.

ب ـ لا يستتبع نقل ملكية نسخة وحيدة او عدة نسخ من المصنف نقل حق المؤلف على هذا المصنف .

المـادة الثامنة عشرة :

ا ـ يجب على منتج المصنف السينماتوغرافي او اي مصنف مشترك معـد للاذاعة او التلفزيون الذي يأخذ مبادرة اخراجه وتحمل مسؤوليته المالية ان يبرم عقوداً كتابية مع اصحاب حق التاليف الذي ستستعمل مصنفاتهم في هذا الانتاج تنظم نقل الحقوق له وطبيعة الاستغلال للمصنف ومدة الاستغلال .

ب ـ يحتفظ مؤلف المصنف الموسيقي المستغل في مصنف مشترك بحقوق التاليف .

المـادة التاسعة عشرة :

ا ـ تسري حقـوق المؤلف المنصوص عليهـا في المادتين السادسـة والسابعة مدى حياته ولمدة (٢٥) سنة ميلاديـة بعـد وفاتـه .

ب ـ تكون مدة سريان حقوق المؤلف (٢٥) سنة ميلادية من تاريخ النشر بالنسبة للمصنفات الآتيـة :

١ ـ افلام السينما واعمال الفنـون التطبيقية .

٢ ـ المصنفـات التي ينجـزهـا الاشـخـاص الاعتبـاريون .

٣ ـ المصنفات التي تنشر باسم مستعار او دون ذكر اسم المؤلف حتى يكشف عن شخصيته .

٤ ـ المصنفات التي تنشـر لأول مرة بعـد وفاة مؤلفهـا .

ج ـ تكون مدة سريان حق المؤلف على المصنفات الفوتوغرافية (١٠) سنوات ميلادية على الأقـل مـن تاريـخ النشـر .

د ـ تحسب مدة حماية حقوق المؤلف بالنسبـة للمصنفات المشتركة من تاريخ وفاة آخر من بقي حيـاً مـن مؤلفيهـا .

هـ ـ اذا كان المصنف مكوناً من عدة اجزاء نشرت منفصلة وعلى فترات فيعتبر كل جزء مصنفـاً مستقلا بالنسبة لحساب مدة الحمايـة .

المـادة العشـرون :

ا ـ تنتقل حقـوق المؤلف المنصوص عليهـا في المادتين السابعة والثامنة الى ورثته مع مراعاة ما يلي :

١ ـ اذا كان المؤلف قـد تعاقد كتابة مع الغير بشان استعمال مصنفه ويجب تنفيـذ تعاقده وفقـاً لأحكـامـه .

٢ ـ اذا كان المؤلف قـد اوصى بمنع النشر او حدد له ميقاتاً وجب تنفيـذ وصيتـه .

ب ـ اذا توفى احد المؤلفين لمصنف مشترك ولم يكن له وارث يؤول نصيبه الى باقي المؤلفين بالتساوي ما لم يوجد اتفاق مكتوب على خلاف ذلك .

ج ـ اذا لم يقم ورثة المؤلف بنشر مصنف مورثهم ورات السلطة المختصة ان المصلحة العامة تقتضي نشر المصنف واستمر امتناعهم سنة واحدة اعتباراً من تاريخ طلبها ذلك جاز لهـا ان تقرر نشر المصنف مع تعويض الورثة تعويضـاً عادلا .

خامسا ـ ايـداع المصنفات :

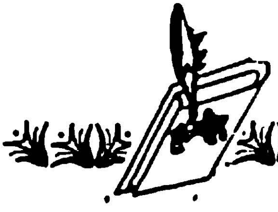
المـادة الحادية والعشرون :

أ ـ يحدد التشريع الوطني نظام الايداع القانوني للمصنفات المحمية مراعياً النموذج الذي تقره المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم .

ب ـ تعمل الدول الأعضاء على انشاء مراكز وطنية للضبط الببلوجرافي تكون مرجعاً لبيانات حقوق المؤلف وتسجيل المصنفات المحمية، وما يرد عليها من تصرفات قانونيـة .

المـادة الثانية والعشرون :

تعمل الدول الأعضاء على تنمية وتنشيط وسائل التبادل الثقافي فيما بينها وخاصـة اصدار نشـرات دورية بالمصنفات المحمية التي تنشر في اراضيها وارسالها الى المنظمة العربية للتربية والثقافـة والعلوم لتعزيز النشرة العربية للمطبوعات التي تصدرها .



سادساً ـ وسائل حماية حق المؤلف :

المـادة الثالثة والعشرون :

تعمل الدول الأعضاء على انشاء مؤسسات وطنية لحماية حقوق المؤلف ويحدد التشريع الوطني بنية هذه المؤسسات واختصاصاتهـا .

المـادة الرابعة والعشرون :

أ ـ تنشأ لجنة دائمة لحماية حقوق المؤلف مـن ممثلي الدول الأعضاء لمتابعة تنفيذ هذه الاتفاقيةوتبادل المعلومات بما يكفـل حماية المصالح المعنويـة والمادية للمؤلفـين .

ب ـ ينشأ مكتب لحماية الملكية الأدبية والفنية والعلمية في الادارة العـامة للمنظمة العربيـة ويتولى امانة اللجنة الدائمة لحماية حقوق المؤلف .

ج ـ تضع اللجنة نظامها الداخلي ويصبح نافذاً بعد اقراره من المجلس التنفيذي والمؤتمر العام للمنظمة.

المـادة الخامسة والعشرون :

الاعتداء على حقوق المؤلف جريمة ينص التشريع الوطني على عقوبتهـا .

المـادة السادسة والعشرون :

تسري احكام هذه الاتفاقية على ما يلي :

أ ـ مصنفات المؤلفين العرب مـن مواطني الدول العربية الأعضاء والذين يتخذون منهـا مكان اقامتهم العـاديـة .

ب ـ المصنفات التي تنشر ضمن حـدود الدول الأعضاء لمؤلفـين اجانب غـير مقيمين فيها أياً كانت جنسيتهم بشرط المعاملة بالمثل وبمقتضى الاتفاقيات التي تكون الدولة طرفاً فيهـا .

المـادة السابعة والعشرون :

يبدأ سريان نظام حماية المؤلف المنصوص عليها في هذه الاتفاقية من تاريخ نفاذها ولا يترتب على ذلك اية حقـوق بأثر رجعي .

المـادة الثامنة والعشرون :

لا تمس احكام هذه الاتفاقية حق كل دولة مـن الدول الأعضاء ان تسمح او تراقب او تمنـع وفقـاً لتشريعها الوطني تداول اي مصنف او عرضـه في اطار سيادتهـا .

سابعاً ـ التصديق والانضمام والنفـاذ والانسحاب :

المـادة التاسعة والعشرون :

لجميع الدول الأعضاء في جامعـة الدول العربية حق التوقيع والتصديق على هذه الاتفاقية والانضمام اليهـا .

المـادة الثـلاثـون :

يتم التصديق على هذه الاتفاقية او الانضمام اليها عـن طريق ايداع وثيقـة التصديق او الانضمام طبقاً لنظمها الدستورية لدى المدير العـام للمنظمة العربية للتربية والثقافـة والعلوم .

المـادة الحادية والثلاثون :

تصبح هذه الاتفاقية نافذة بعد انقضاء شهر على ايداع وثيقة التصديق او الانضمام الثالثـة بالنسبة للدول المؤسسة كما تصبح نافذة تجاه كل دولة اخرى بعد انقضاء شهر على ايداع وثيقة تصديقها او انضمامها.

المـادة الثانية والثلاثون :

أ ـ يحق لكل من الدول المتعاقدة الانسحاب من هـذه الاتفاقيـة .

ب ـ يشترط لنفاذ الانسحاب ان يكون باخطار خطي يودع لدى المدير العام للمنظمة العربية للتربيـة والثقـافـة والعـلوم .

ج ـ يكون الانسحاب نافـذاً بالنسبـة للـدول المنسحبة بعد انقضاء اثني عشر شهراً على تسلم وثيقة الانسحـاب .

د ـ يتم تعديل الاتفاقية جزءاً او كلاً باجمـاع الآراء .

المـادة الثالثة والثلاثون :

لا تؤثر هـذه الاتفاقية في الحقوق والالتزامات الدولية للدول المتعاقدة تجاه غيرها من الدول وفقـاً للاتفاقيات الدولية الخاصة بحماية حـق المؤلف التي تكون هذه الدول طرفاً فيهـا .

كما لا تؤثر هـذه الاتفاقية بأية صورة كانت على المعاهدات والاتفاقيات النافذة بـين الدول المتعاقـدة ولا على التشريعات الوطنية التي اصدرتها تلك الدول وذلك في الحدود التي تكفل فيها تلك المعاهـدات او الاتفاقيات او التشريعات مزايا اوسع مدى من المزايا المقررة بهـذه الاتفاقيـة .

المـادة الرابعة والثلاثون :

يبلغ المدير العام للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم الدول المتعاقدة والأمانة العامة لجامعة الدول العربية ، بايداع كافـة وثائق التصديق او الانضمـام المشار اليها في المادة الثلاثين وبحالات الانسحاب المشار اليها في المادة الثانية والثلاثـين .

الاتفاقية العالمية لحقوق المؤلف

المعدلة في باريس في ٢٤ يوليو ـ تموز ١٩٧١

ان الدول المتعاقدة ،

اذ تحدوها الرغبة في ان تكفل في جميع البلدان حماية حق المؤلف في الأعمال الأدبية والعلمية والفنية ،

واقتناعاً منها بان نظاماً لحماية حقوق المؤلف يلائم جميع الامم ، تنص عليه اتفاقية عالمية ، ويضاف الى النظم الدولية النافذة دون المساس بها ، من شانه ان يكفل احترام حقوق الفرد ويشجع على تنمية الآداب والعلوم والفنون ،

واعتقادا منها بان مثل هذا النظام العالمي لحماية حقوق المؤلف سيسهل انتشار نتاج العقل البشري ويعزز التفاهم الدولي ، قررت تعديل الاتفاقية العالمية لحقوق المؤلف الموقع عليها في جنيف في ٦ سبتمبر/ايلول ١٩٥٢ (وقد أطلق عليها فيما يلي « اتفاقية عام ١٩٥٢ ») ومن ثم ، فقد اتفقت على ما يلي :

المادة الأولى :

تتعهد كل دولة من الدول المتعاقدة بأن تتخذ كل التدابير اللازمة لضمان حماية كافية وفعالة لحقوق المؤلفين وغيرهم من اصحاب تلك الحقوق في الأعمال الأدبية والعلمية والفنية ، بما في ذلك المواد المكتوبة ، والأعمال الموسيقية والمسرحية والسينمائية ، واعمال التصوير والنقش والنحت .

المادة الثانية :

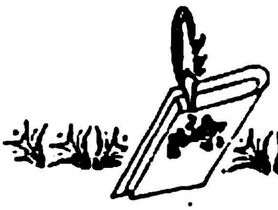
١ ـ الأعمال المنشورة لرعايا اي من الدول المتعاقدة وكذلك الأعمال التي تنشر لأول مرة في اراضي مثل هذه الدولة ، تتمتع في كل دولة متعاقدة اخرى بالحماية التي تضفيها تلك الدولة الأخرى على اعمال رعاياها التي تنشر لأول مرة في اراضيها ، وبالحماية الخاصة التي تمنحها هذه الاتفاقية .

٢ ـ الأعمال غير المنشورة لرعايا اي من الدول المتعاقدة ، تتمتع في كل دولة متعاقدة اخرى بالحماية التي تمنحها تلك الدولة الأخرى لأعمال رعاياها غير المنشورة ، وبالحماية الخاصة التي تضفيها هذه الاتفاقية .

٣ ـ عند تطبيق هذه الاتفاقية ، يحق لأي دولة متعاقدة ، بمقتضى احكام تشريعها الداخلي ، ان تعامل معاملة رعاياها كل شخص يقيم بأراضي تلك الدولة .

المادة الثالثة :

١ ـ على كل دولة متعاقدة تشترط لحماية حقوق المؤلف بمقتضى تشريعها الداخلي استيفاء اجراءات معينة كالايداع او التسجيل و التأشير او الشهادات الموثقة او دفع الرسوم او الانتاج او النشر في اراضيها ، ان تعتبر هذه الشروط قد استوفيت بالنسبة لكل عمل محمي بموجب هذه الاتفاقية ينشر لأول مرة خارج اراضيها ويكون مؤلفة من غير رعاياها ،



اذا كانت جميع النسخ المنشورة بترخيص من المؤلف او غيره من اصحاب حقوق التأليف تحمل منذ الطبعة الأولى العلامة (ث) مصحوبة باسم صاحب حق التأليف وبيان السنة التي تم فيها النشر لأول مرة ، ومدونة ثلاثتها على نحو وفي موضع لا يدعان مجالاً للشك في ان حقوق المؤلف محفوظة .

٢ ـ لا تمنع احكام الفقرة (١) اياً من الدول المتعاقدة من اشتراط اجراءات معينة او شروط اخرى لاكتساب حق المؤلف والتمتع به بالنسبة للأعمال التي تنشر لأول مرة بأراضيها او بالنسبة لأعمال رعاياها اينما نشرت .

٣ ـ لا تمنع احكام الفقرة (١) اياً من الدول المتعاقدة من ان تشترط على المتقاضي عند رفع دعواه ان يلتزم قواعد الاجراءات المقررة، كأن يستعين بمحام يمارس مهنته بأراضي تلك الدولة ، او ان يودع بالمحكمة او في جهة ادارية ما او في كليهما نسخة من المؤلف موضع النزاع ، على الا يؤثر عدم الالتزام بتلك القواعد في سلامة حق المؤلف ، وبشرط الا يفرض مثل هذا الالتزام على احد رعايا دولة متعاقدة اخرى ما لم يكن مفروضاً على رعايا الدولة المطلوب توفير الحماية فيها .

٤ ـ يجب ان تتوافر في كل دولة متعاقدة الوسائل القانونية التي تكفل الحماية بدون اجراءات للأعمال غير المنشورة لرعايا الدول المتعاقدة الأخرى .

٥ ـ لذا منحت احدى الدول المتعاقدة الحماية لأكثر من فترة وكانت الفترة الأولى اطول من احدى الفترات الدنيا المقررة في المادة الرابعة ، فان هذه الدولة لا تكون ملزمة بمراعاة احكام الفقرة (١) من هذه المادة بالنسبة لفترة الحماية الثانية او الفترات اللاحقة .

المادة الرابعة :

١ ـ تخضع مدة حماية المؤلف ، طبقاً لأحكام المادة الثانية والأحكام الواردة فيما يلي ، لقانون الدولة المتعاقدة المطلوب توفير الحماية فيها .

٢ ـ (أ) لا يجوز ان تقل مدة حماية الأعمال المشمولة بالحماية بمقتضى هذه الاتفاقية عن فترة حياة المؤلف والسنوات الخمس والعشرين التالية لوفاته . ومع ذلك يجوز لأية دولة متعاقدة تكون في تاريخ نفاذ هذه الاتفاقية بها قد قيدت هذه المدة بالنسبة لفئات معينة من الأعمال بفترة تبدأ من تاريخ نشر العمل لأول مرة ، ان تستبقي هذه الاستثناءات وان تمد نطاقها الى فئات اخرى من الأعمال . ولا يجوز ان تقل مدة الحماية بالنسبة لكل هذه الفئات عن خمس وعشرين سنة من تاريخ النشر لأول مرة .

(ب) كل دولة متعاقدة كانت في تاريخ نفاذ هذه الاتفاقية بها لا تحسب فترة الحماية على أساس حياة المؤلف ، يحق لها ان تحسب فترة الحماية ابتداء من تاريخ نشر المؤلف لأول مرة او من تاريخ تسجيله قبل النشر كيفما كانت الحال، بشرط الا تقل فترة الحماية عن خمس وعشرين سنة من تاريخ نشر المؤلف لأول مرة او من تاريخ تسجيله قبل النشر كيفما كانت الحال .

(ج) اذا كان تشريع دولة متعاقدة يمنح الحماية لفترتين متتاليتين او اكثر فلا يجوز ان تقل الفترة الأولى عن احدى الفترات الدنيا المنصوص عليها بالفقرتين الفرعيتين (أ) و (ب) أعلاه .

٣ ـ لا تنطبق أحكام الفقرة (٢) على الأعمال الفوتوغرافية او اعمال الفن التطبيقي؛ على انه في الدول المتعاقدة التي تحمي الأعمال الفوتوغرافية ، او اعمال الفن التطبيقي المحمية باعتبارها اعمالاً فنية ، يشترط الا تقل فترة الحماية عن عشر سنوات لكل من هاتين الفئتين من الأعمال .

٤ ـ (أ) لا يجوز الزام اية دولة متعاقدة بكفالة الحماية لمؤلف ما فترة تزيد على الفترة التي يحددها للفئة التي ينتمي اليها المؤلف المذكور قانون الدولة المتعاقدة التي يتبعها المؤلف بالنسبة للمؤلفات غير المنشورة ، وتلك التي يحددها قانون الدولة التي نشر فيها المؤلف لأول مرة بالنسبة للمؤلفات المنشورة .

(ب) لأغراض تطبيق الفقرة الفرعية (أ) ، اذا منح قانون احدى الدول المتعاقدة فترتين متتاليتين او اكثر من الحماية ، فان فترة حماية الدولة المذكورة تعتبر هي مجموع تلك الفترات ، ومع ذلك اذا لم تحم تلك الدولة مؤلفاً معيناً خلال الفترة الثانية او اية فترة تالية لأي سبب من الأسباب ، فان الدول المتعاقدة الأخرى لا تكون ملزمة بحمايته خلال الفترة الثانية او اية فترة تالية .

٥ ـ لأغراض تطبيق الفقرة (٤) ، يعامل المؤلف الذي ينشر لأول مرة لأحد رعايا دولة متعاقدة في دولة غير متعاقدة وكأنه ينشر لأول مرة في الدولة المتعاقدة التي يتبعها المؤلف .

٦ ـ لأغراض تطبيق الفقرة (٤) ، اذا نشر مؤلف



في وقت واحد في دولتين او اكثر من الدول المتعاقدة فانه يعامل وكانه ينشر لأول مرة في الدولة التي تكفل اقصر فترة من الحماية ، وكل مؤلف ينشر في دولتين او اكثر من الدول المتعاقدة خلال ثلاثين يوماً من تاريخ نشره لأول مرة يعتبر وكانه قد نشر في الوقت ذاته في الدول المتعاقـدة المذكورة .

المـادة الرابعـة (ثانيا) :

١ ـ تشمل الحقوق المشار اليها في المادة الأولى الحقوق الأساسية التي تكفل حماية المصالح المالية للمؤلف بما فيها حقه وحده في الترخيص ـ الاستنساخ بأيـة وسيلة من الوسائل وبالأداء العلني والاذاعـة . وتسري احكام هذه المادة على الأعمال المحمية بموجب هـذه الاتفاقية سواء في صورتها الأصلية او في ايـة صورة مشتقة من الأصل على نحو يتسنى معه التعرف عليهـا .

٢ ـ ومع ذلك يجوز لكل دولة متعاقدة ان تقرر بتشريعهـا الداخلي استثناءات مـن الحقوق المشار اليها بالفقرة (١) من هذه المادة ، على ان لا تتعارض تلك الاستثناءات مع روح هذه الاتفاقية واحكامها ، وعلى كل دولة يقضي تشريعها بذلك ان تضفي مـع ذلك قدراً معقولاً مـن الحماية الفعلية لكل حق يرد بشأنه استثناء .

المـادة الخامسـة :

١ ـ تشمل الحقوق المشار اليهـا بالمادة الأولى حـق المؤلف دون سواه في ترجمة المؤلفـات المحمية بموجب هذه الاتفاقية وفي نشر ترجماتها وفي الترخيص بترجمة تلك المؤلفـات وبنشر ترجماتها .

٢ ـ ومع ذلك فلكل دولـة متعاقدة ان تحـد بتشريعها الداخلي من حق ترجمة الأعمال المكتوبة ، على ان تراعى في ذلك الأحكام التالية :

(أ) اذا لم تنشر من جانب صاحب حق الترجمة او بترخيص منه خلال مهلة قدرها سبع سنوات مـن تاريخ اول نشر لمؤلَف مكتوب ، ترجمة لهذا المؤلَف بلغة عامة التداول في الدولة المتعاقدة، فلأي من رعايا هذه الدولة المتعاقدة ان يحصل من السلطة المختصة بهـا على تصريح غير قاصر عليه بترجمة المؤلَف الى تلك اللغة ونشره مترجماً على هذا النحو .

(ب) لا يمنح هذ التصريح الا اذا اثبت الطالب ، وفقاً للاجراءات المعمول بهـا في الدولة المقدم فيها الطلب ؛ انه طلب من صاحب حق الترجمة الترخيص باجراء الترجمة وبنشرها فرفض طلبـه ، أو انه لـم يتمكن من العثور عليه بعد بذل الجهود اللازمة. ويمكن ايضاً منح التصريح بنفس الشروط اذا نفدت كـل الطبعات السابقة لترجمة بلغة عامة التداول في الدولة المتعاقـدة .

(جـ) اذا لم يتسنَ لطالب التصريح العثور على صاحب حق الترجمة ، فعليه ان يرسل صوراً مـن طلبه الى الناشر الذي يظهر اسمه على المؤلف ، والى الممثل الدبلوماسي او القنصلي للدولة التي يتبعها صاحب حـق الترجمة اذا كان معروف الجنسية ، او الى الهيئة التي تكون حكومة تلك الدولة قد عينتها، ولا يمنح التصريح قبل انقضاء فترة شهرين من تاريخ ارسال صور الطلب .

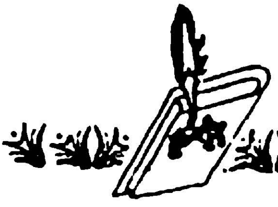
(د) يقرر التشريع الداخلي التدابير التي تضمن لصاحب حق الترجمة تعويضاً عادلا ومتفقاً مع المعايير الدولية ، وتضمن دفع هذا التعويض وتحويله ؛ كما تضمن ترجمة المؤلَف ترجمة سليمة .

(هـ) يطبـع العنـوان الأصلي للمؤلَف واسم المؤلف على جميع النسخ المنشورة من الترجمة . ولا يصلح التصـريح الا لنشر الترجمة بأراضي الدولـة المتعاقدة التي طلب فيها التصريح . ويمكن استيراد وبيـع النسـخ المنشورة على هـذا النحو في دولـة متعاقدة اخرى اذا كان لهذه الدولة الأخرى لغة عامة التداول هي نفس اللغـة التي ترجم اليها المؤلَف ، وكان قانونها الداخلي يجيز منح هذه التصاريح ولا يحظر الاستيراد والبيع . فاذا لم تتوفر الشـروط السابقة في دولة متعاقدة فان استيراد هـذه النسخ وبيعها في اراضيها يخضعان لقانونها الداخلي وللاتفاقات التي تبرمهـا . ولا يجوز لحامل التصريح ان يتنـازل عنـه للغـير .

(و) لا يمنح التصريح اذا كان المؤلف قـد سحب جميع نسخ المؤلَف من التداول .

المـادة الخامسة (ثانيـاً) :

١ ـ لكل دولة متعاقدة تعتبر بلداً نامياً وفقاً لمـا يجري به العمل بالجمعية العامة للأمم المتحدة ان تنتفع كلياً او جزئياً بالاستثناءات المنصوص عليها بالمادتـين الخامسة (ثالثاً والخامسة (رابعـاً) ، وذلك بموجب اشعار تودعه لدى المدير العام لمنظمة الأمم المتحدة للتربية والعلم والثقافـة (المشار اليه فيما يلي باسم « المدير العام ») عند تصديقها على الاتفاقية او قبولها اياها او انضمامها اليهـا او بعـد ذلك .



٢ ـ كل اشعار يودع وفقاً لأحكام الفقرة (يظل نافذاً مدة عشر سنوات من تاريخ العمل بالاتفاقية او خلال المدة الباقية من السنوات العشر في تاريخ ايداع الاشعار ، ويمكن ان يتجدد كليا او جزئياً لمدة اخرى طول كل منها عشر سنوات ، اذا اودعت الدولة المتعاقدة خلال مهلة لا تزيد على خمسة عشر شهراً ولا تقل عن ثلاثة شهور قبل انقضاء فترة السنوات العشر الجارية ، اشعاراً آخر لدى المدير العام . ويمكن ايضا ايداع اشعارات لأول مرة خلال فترات السنوات العشر الجديدة السالفة الذكر وفقاً لأحكام هذه المادة.

٣ ـ استثناء من احكام الفقرة (٢) ، لا يحق لدولة متعاقدة لم تعد تعتبر بلداً نامياً على النحو الموضح بالفقرة (١) ، ان تجدد اشعارها المودع طبقاً لأحكام الفقرة (١) ، وسواء سحبت هذه الدولة الاشعار رسمياً او لم تسحبه فانه لا يحق لها الاستفادة من الاستثناءات المنصوص عليها بالمادتين الخامسة (ثالثا) والخامسة (رابعاً) ، اما في نهاية فترة السنوات العشر الجارية ، او بعد الكف عن اعتبارها بلداً نامياً بثلاث سنوات اي الأجلين اطول .

٤ ـ يجوز الاستمرار في توزيع النسخ التي انتجت فعلاً من مؤلف ما بموجب الاستثناءات المنصوص عليها بالمادتين الخامسة (ثالثا) والخامسة (رابعا) بعد انقضاء فترة سريان الاشعارات المعمول بها بموجب هذه المادة ، وذلك حتى نفاذ تلك النسخ .

٥ ـ يجوز ايضاً لكل دولة متعاقدة اودعت اخطاراً وفقاً للمادة الثالثة عشرة بشأن تطبيق هذه الاتفاقية على قطر او اقليم معين يمكن ان تعتبر حالته مماثلة لحالة الدول المنصوص عليها بالفقرة (١) من هذه المادة ، ان تودع وتجدد اشعارات استثناءات وفقاً لأحكام هذه المادة بالنسبة لهذا القطر او الاقليم . وخلال فترة سريان هذه الاشعارات تنطبق احكام المادتين الخامسة (ثالثا) والخامسة (رابعا) على القطر او الاقليم المذكور . وكل ارسال لنسخ من هذا القطر او الاقليم الى الدولة المتعاقدة يعتبر تصديراً بالمعنى المقصود بالمادتين الخامسة (ثالثاً) والخامسة (رابعاً).

المادة الخامسة (ثالثاً) :

١ ـ (أ) لكل دولة متعاقدة تنطبق عليها الفقرة (١) من المادة الخامسة (ثانياً) ان تستبدل بفترة السبع سنوات المنصوص عليها بالفقرة (٢) من المادة الخامسة ، فترة ثلاث سنوات او اية فترة اطول يحددها تشريعها الوطني . ومع ذلك فاذا تعلق الأمر بترجمة الى لغة ليست عامة التداول في بلد او اكثر من البلدان المتقدمة والتي هي طرف اما في هذه الاتفاقية او في اتفاقية ١٩٥٢ وحدها ، فانه تستبدل فترة سنة واحدة بفترة الثلاث سنوات المذكورة .

(ب) لكل دولة متعاقدة تنطبق عليها الفقرة (١) من المادة الخامسة (ثانيا) ، باتفاق اجماعي من جانب الدول المتقدمة الأطراف اما في هذه الاتفاقية او اتفاقية١٩٥٢ وحدها ، والتي لها نفس اللغة المتداولة، ان يستبدل ، في حالة الترجمة الى تلك اللغة ، بفترة الثلاث سنوات المنصوص عليها بالفقرة الفرعية ، (أ) اعلاه ، فترة اخرى تحدد طبقا لهذا الاتفاق على الا تقل هذه الفترة عن سنة . ومع ذلك لا ينطبق هذا الحكم اذا كانت اللغة المعنية هي الانجليزية او الفرنسية او الاسبانية . ويخطر المدير العام بأي اتفاق من هذا القبيل .

(ج) لا يمنح التصريح الا اذا أثبت الطالب ، وفقا للاجراءات المعمول بها في الدولة المقدم فيها الطلب . اما انه طلب ترخيص صاحب حق الترجمة فرفض طلبه او انه لم يتمكن من العثور على صاحب الحق بعد بذل الجهود اللازمة . وعلى الطالب في نفس الوقت الذي يقدم فيه هذا الطلب ان يخطر به اما المركز الدولي للاعلام عن حقوق المؤلف الذي انشاته منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلم والثقافة ، او اي مركز اعلام وطني او اقليمي تكون قد عينته حكومة الدولة التي يعتقد ان الناشر يمارس فيها الجانب الاكبر من نشاطه ، وذلك في اشعار اودعته لهذا الغرض لدى المدير العام .

(د) اذا لم يتمكن طالب التصريح من العثور على صاحب حق الترجمة ، فعليه ان يرسل بالبريد الجوي الموصى عليه صوراً من طلبه الى الناشر الذي يظهر اسمه على المؤلف ، ولأي مركز اعلام وطني او اقليمي مما ذكر بالفقرة الفرعية (ج) . فاذا لم يخطر عن وجود مثل هذا المركز ، فعلى الطالب ان يرسل ايضاً صورة الى المركز الدولي للاعلام عن حقوق المؤلف الذي انشاته منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلم والثقافة .

٢ ـ (أ) لا يمنح تصريح بمقتضى هذه المادة الا بعد انقضاء مهلة اضافية قدرها ستة اشهر في حالة التصاريح التي يمكن الحصول عليها بعد انقضاء فترة ثلاث سنوات ، وتسعة اشهر في حالة التاريخ التي يمكن الحصول عليها بعد انقضاء عام واحد . وتبدأ



المهلة الاضافية اما من تاريخ طلب الترخيص بالترجمة المنصوص عليه بالفقرة الفرعية ١ (ج) او ، في حالة عدم الاستدلال على هوية صاحب حق الترجمة او عنوانه ، من تاريخ ارسال صور من طلب التصريح المشار اليه بالفقرة ١ (د) .

(ب) لا يمنح التصريح اذا نشرت ترجمة من جانب صاحب حق الترجمة او بترخيص منه خلال مهلة الستة او التسعة اشهر سالفة الذكر .

٣ – لا يمنح تصريح بمقتضى هذه المادة لأغراض التعليم المدرسي او الجامعي او لأغراض البحوث .

٤ – (ا) لا يمتد التصريح الممنوح بموجب هذه المادة الى تصدير النسخ ، ولا يسري الا على النشر داخل اراضي الدولة المتعاقدة التي قدم فيها طلب التصريح .

(ب) كل نسخة تنشر وفقا لهذا التصريح يجب ان تحمل باللغة المناسبة نصاً يفيد ان النسخة ليست مطروحة للتداول الا في الدولة المتعاقدة التي منحت التصريح . فاذا كان المؤلَّف يحمل البيان المنوه عنه بالفقرة (١) من المادة الثالثة وجب ان تحمل النسخ المنشورة على هذا النحو البيان ذاته .

(ج) لا ينطبق حظر التصدير المنصوص عليه بالفقرة الفرعية (ا) اعلاه عندما ترسل هيئة حكومية او اية هيئة عامة اخرى في دولة منحت بمقتضى هذه المادة تصريحاً بترجمة مؤلَّف ما الى لغة غير الاسبانية او الانجليزية او الفرنسية ، نسخاً الى بلد آخر من ترجمة اجريت بناء على هذا التصريح اذا توافرت الشروط التالية :

١ – ان يكون المرسل اليهم من رعايا الدولة المتعاقدة مانحة التصريح ، او منظمات اعضاؤها من هؤلاء الرعايا ؛

٢ – الا تستخدم النسخ الا في اغراض التعليم المدرسي او الجامعي او لأغراض البحوث ؛

٣ – الا يكون الغرض من ارسال النسخ وتوزيعها بعد ذلك على المرسل اليهم تحقيق اي ربح ؛

٤ – ان يعقد بين البلد الذي ترسل اليه النسخ والدولة المتعاقدة اتفاق يسمح بالاستلام او التوزيع او بهما معاً ، وتخطر به المدير العام احدى الحكومتين اللتين تعقدانه .

٥ – تتخذ على المستوى الوطني التدابير الكفيلة بضمان ما يلي :

(ا) ان ينص التصريح على مكافأة عادلة تتفق ومعدل الجعائل التي تدفع عادة في حالة التصاريح التي تسفر عنها مفاوضات حرة بين ذوي الشأن في البلدين المعنيين :

(ب) ان تدفع المكافأة وترسل . واذا اعترضت ذلك لوائح وطنية لتنظيم النقد ، فعلى الجهة المختصة الا تدخر وسعاً في الالتجاء الى الأجهزة الدولية لتأمين ارسال قيمة المكافأة بعملة دولية قابلة للتحويل او ما يعادلها .

٦ – تنتهي صلاحية كل تصريح تمنحه احدى الدول المتعاقدة بمقتضى هذه المادة اذا نشرت فيها من جانب صاحب حق الترجمة او بترخيص منه ترجمة للمؤلَّف باللغة نفسها ولها في الجوهر ذات مضمون الطبعة التي منح التصريح لنشرها ، وبثمن مقارب للثمن المعتاد في تلك الدولة بالنسبة للمؤلفات المماثلة. أما النسخ التي يتم انتاجها قبل انتهاء اجل التصريح فيجوز استمرار تداولها حتى نفاذها .

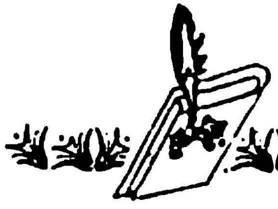
٧ – بالنسبة للأعمال التي تتألف أساساً من صور ، لا يمنح تصريح بترجمة النص واستنساخ الصور الا اذا استوفيت الشروط المنصوص عليها بالمادة الخامسة (رابعاً) .

٨ – (أ) يجوز ايضاً منح تصريح بترجمة مؤلَّف محمي بموجب هذه الاتفاقية ومنشور في شكل مطبوع او مستنسخ بطريقة مماثلة ، لهيئة اذاعية يقع مقرها الرئيسي في اراضي دولة متعاقدة تنطبق عليها الفقرة (١) من المادة الخامسة (ثانياً) ، وذلك بناء على طلب تقدمه تلك الهيئة الى الدولة المذكورة وبالشروط التالية :

١ – ان تتم الترجمة من نسخة منتجة ومقتناة وفقاً لقوانين الدولة المتعاقدة .

٢ – الا تستخدم الترجمة الا في اذاعات يقتصر هدفها على خدمة اغراض التعليم او اذاعة معلومات ذات طابع علمي موجهة الى الخبراء في مهنة معينة ؛

٣ – الا تستخدم الترجمة الا للأغراض المذكورة بالبند ٢ عاليه ومن خلال اذاعات مشروعة موجهة لمستمعين في أراضي الدولة المتعاقدة ، بما في ذلك الاذاعات التي تبث عن طريق تسجيلات صوتية او بصرية أعدت بطرق مشروعة من أجل هذه الاذاعات دون سواها؛



٤ ــ الا يجري تبادل التسجيلات الصوتية او البصرية للترجمة الا فيما بين هيئات اذاعية يقع مقرها الرئيسي بأراضي الدولة المتعاقدة مانحة التصريح ؛

٥ ــ ان تتجرد جميع أوجه استخدام الترجمة من قصد الربح .

(ب) مع مراعاة الوفاء بكل المعايير والشروط المذكورة بالفقرة الفرعية (أ) ، يجوز ايضا التصريح لهيئة اذاعية بترجمة اي نص وارد بتسجيل سمعي بصري اعد ونشر ليستخدم في اغراض التعليم المدرسي او الجامعي وحدها .

(ج) مع مراعاة احكام الفقرتين الفرعيتين (أ) و (ب) ، تطبق بقية احكام هذه المادة فيما يتعلق بمنح هذا التصريح واستعماله .

٩ ــ مع مراعاة احكام هذه المادة ، يخضع كل تصريح يمنح بمقتضاها لأحكام المادة الخامسة، ويستمر خاضعاً لأحكام المادة الخامسة والمادة الحالية حتى بعد انقضاء فترة السبع سنوات المنصوص عليها بالفقرة ٢ من المادة الخامسة . ومع ذلك فلحامل التصريح ان يطلب بعد انقضاء هذه الفترة الاستعاضة عن تصريحه بتصريح لا يخضع الا لأحكام المادة الخامسة .

المادة الخامسة (رابعاً) :

١ ــ لكل دولة متعاقدة تنطبق عليها الفقرة ١ من المادة الخامسة (ثانياً) ان تتخذ التدابير التالية :

(أ) عند انقضاء : (١) الفترة المحددة بالفقرة الفرعية (ج) محسوبة ابتداء من تاريخ اول نشر لطبعة معينة من مؤلف أدبي او علمي او فني مما اشارت اليه الفقرة ٢ ، او (٢) اية فترة اطول يحددها التشريع الوطني للدولة ، اذا لم تكن نسخ من تلك الطبعة قد طرحت للتداول في هذه الدولة من جانب صاحب حق الاستنساخ او بترخيص منه تلبية لاحتياجات عامة الجمهور او التعليم المدرسي والجامعي بثمن مقارب للثمن المعتاد في الدولة المذكورة بالنسبة لمؤلفات مماثلة، فلأي من رعايا هذه الدولة ان يحصل من الجهة المختصة على تصريح غير قاصر عليه لنشر هذه الطبعة بالسعر المذكور او بسعر يقل عنه تلبية لاحتياجات التعليم المدرسي والجامعي . ولا يمنح التصريح الا اذا اثبت الطالب ، وفقاً للاجراءات المعمول بها في الدولة، انه طلب من صاحب الحق الترخيص بنشر هذا المؤلَّف فرفض طلبه او انه لم يتمكن من العثور عليه بعد بذل الجهود اللازمة . وعلى الطالب في نفس الوقت الذي يقدم فيه هذا الطلب ان يخطر به اما المركز الدولي للاعلام عن حقوق المؤلف الذي انشأته منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلم والثقافة او اي مركز اعلام وطني او اقليمي منوه عنه بالفقرة الفرعية (د) .

(ب) ويجوز ايضا منح التصريح بنفس الشروط اذا توقف لمدة ستة اشهر عرض نسخ مرخصة من الطبعة المشار اليها للبيع في الدولة المعنية تلبية لاحتياجات عامة الجمهور او التعليم المدرسي والجامعي بسعر مقارب للسعر المعتاد في الدولة لمؤلفات مماثلة .

(ج) مدة الفترة المشار اليها بالفقرة الفرعية (أ) خمس سنوات على ان يستثنى من ذلك :

١ ــ المؤلفات في العلوم الطبيعية والرياضية والتكنولوجيا ، فتكون الفترة بالنسبة لها ثلاث سنوات؛

٢ ــ المؤلفات التي تنتمي الى عالم الخيال كالروايات والمؤلفات الشعرية والمسرحية والموسيقية وكتب الفن ، فتكون الفترة بالنسبة لها سبع سنوات.

(د) اذا لم يتسن لطالب التصريح العثور على صاحب الاستنساخ فعليه ان يرسل بالبريد الجوي الموصى عليه صورا من طلبه الى الناشر الذي يظهر اسمه على المؤلف والى اي مركز اعلام وطني او اقليمي تكون قد عينته الدولة التي يعتقد ان الناشر يمارس فيها الجانب الأكبر من نشاطه ، وذلك في اشعار اودعته لدى المدير العام فاذا لم يوجد مثل هذا الاشعار فعليه ان يرسل ايضاً صورة الى المركز الدولي للاعلام عن حقوق المؤلف الذي انشأته منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلم والثقافة. ولا يمنح هذا التصريح الا بعد انقضاء ثلاثة اشهر من تاريخ ارسال صور الطلب .

(هـ) في حالة التصاريح التي يمكن الحصول عليها بعد انقضاء ثلاث سنوات . لا يمنح التصريح بمقتضى هذه المادة الا :

١ ــ بعد انقضاء فترة ستة اشهر من تاريخ طلب الترخيص المنوه عنه بالفقرة الفرعية (أ) او ، في حالة عدم الاستدلال على هوية صاحب حق الاستنساخ او عنوانه من تاريخ ارسال صور طلب التصريح المشار اليها بالفقرة الفرعية (د) ؛

٢ ــ اذا لم تطرح للتداول خلال هذه الفترة نسخ من الطبعة بالشروط المنصوص عليها بالفقرة الفرعية (أ) .



(و) يطبع اسم المؤلف وعنوان الطبعة المحددة من المؤلف على جميع النسخ التي تستنسخ وتنشر منه . ولا يمتد التصريح الى تصدير النسخ ولا يسري الا على النشر داخل اراضي الدولة المتعاقدة التي طلب فيها هذا التصريح . ولا يجوز لحامل التصريح ان يتنازل عنه للغير .

(ز) يتخذ التشريع الوطني التدابير الكفيلة بضمان استنساخ دقيق للطبعة المعنية .

(ح) لا يمنح بمقتضى هذه المادة تصريح باستنساخ ونشر ترجمة لمؤلف ما في الحالتين التاليتين :

١ – اذا لم تكن الترجمة المشار اليها قد نشرت من جانب صاحب حق المؤلف او بترخيص منه :

٢ – اذا لم تكن الترجمة بلغة عامة التداول في الدولة التي يحق لها اعطاء التصريح .

٢٠ – تسري على الاستثناءات المنصوص عليها بالفقرة ١ من هذه المادة الأحكام التالية :

(أ) كل نسخة تنشر وفقا لتصريح معطى بمقتضى هذه المادة يجب ان تحمل باللغة المناسبة كما يفيد ان النسخة ليست مطروحة للتداول الا في الدورة المتعاقدة التي ينطبق عليها التصريح سالف الذكر ، واذا كانت الطبعة تحمل البيان المنوه عنه بالفقرة ١ من المادة الثالثة وجب ان تحمل النسخ المنشورة على هذا النحو البيان ذاته .

(ب) تتخذ على المستوى الوطني التدابير الكفيلة بضمان ما يلي :

١ – ان ينص التصريح على مكافاة عادلة تتفق ومعدل الجعائل التي تدفع عادة في حالة التصاريح التي تسفر عنها مفاوضات حرة بين ذوي الشأن في البلدين المعنيين :

٢ – ان تدفع المكافاة وترسل . واذا اعترضت ذلك لوائح وطنية لتنظيم النقد ، فعلى الجهة المختصة الا تدخر وسعاً في الالتجاء الى الأجهزة الدولية لتأمين ارسال قيمة المكافاة بعملة دولية قابلة للتحويل او ما يعادلها .

(ج) كما طرحت للتداول في الدولة المتعاقدة من جانب صاحب حق الاستنساخ او بترخيص منه نسخ من طبعة لمؤلف ما تلبية لاحتياجات عامة الجمهور او التعليم المدرسي والجامعي، بثمن مقارب للثمن المعتاد في تلك الدولة بالنسبة لمؤلفات مماثلة ، فان كل تصريح منح بمقتضى هذه المادة تنتهي صلاحيته اذا كانت هذه الطبعة باللغة نفسها ولها في الجوهر ذات مضمون الطبعة المنشورة بمقتضى التصريح . اما النسخ التي يكون قد تم انتاجها قبل انتهاء صلاحية التصريح فيجوز استمرار تداولها حتى نفاذها .

(د) لا يمنح التصريح اذا كان المؤلف قد سحب جميع نسخ الطبعة المعنية من التداول .

٢ – (ا) مع مراعاة أحكام الفقرة الفرعية (ب) ، تقتصر الأعمال الأدبية او العلمية او الفنية التي تنطبق عليها هذه المادة على الأعمال المنشورة في شكل مطبوع او مستنسخ بطريقة مماثلة .

(ب) تنطبق احكام هذه المادة ايضا على الاستنساخ السمعي البصري لتسجيلات سمعية بصرية مشروعة باعتبارها تشكل او تحتوي على اعمال محمية، كما تنطبق على ترجمة النص المصاحب لها الى لغة عامة التداول بالدولة التي يحق لها اعطاء التصريح ، وذلك بشرط ان تكون التسجيلات السمعية البصرية المعنية قد أعدت ونشرت لاغراض التعليم المدرسي والجامعي دون سواها .

المادة السادسة :

يقصد ب « النشر » في هذه الاتفاقية انتاج نسخ مادية من المؤلف وطرحها على الجمهور بحيث يتسنى قراءتها او الاطلاع عليها بالبصر .

المادة السابعة :

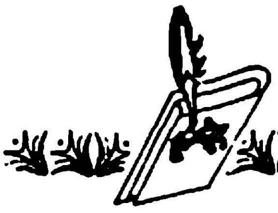
لا تنطبق هذه الاتفاقية على الأعمال او الحقوق في الأعمال التي تكون عند نفاذ هذه الاتفاقية في الدولة المتعاقدة المطالب بالحماية فيها قد كفت نهائياً عن التمتع بالحماية في هذه الدولة او لم تتمتع بها فيها في اي وقت من الأوقات .

المادة الثامنة :

١ – تحمل هذه الاتفاقية تاريخ ٢٤ يوليو/تموز ١٩٧١ ، وتودع لدى المدير العام ويظل بجانب التوقيع عليها مفتوحاً امام جميع الدول الأطراف في اتفاقية ١٩٥٢ لمدة مائة وعشرين يوماً من تاريخ هذه الاتفاقية ، وتعرض على الدول الموقعة للتصديق عليها او قبولها .

٢ – لكل دولة لم توقع هذه الاتفاقية ان تنضم اليها .

٣ – يتم التصديق او القبول او الانضمام بايداع وثيقة بهذا المعنى لدى المدير العام .



المادة السابعة :

١ ـ تصبح هذه الاتفاقية نافذة بعد انقضاء ثلاثة اشهر على تاريخ ايداع اثنتي‌عشرة وثيقة تصديق او قبول او انضمام .

٢ ـ تصبح هذه الاتفاقية نافذة بعد ذلك في كل دولة بعد انقضاء ثلاثة اشهر على تاريخ ايداع وثيقة التصديق او القبول او الانضمام من جانب تلك الدولة.

٣ ـ يعتبر انضمام دوله غير طرف في اتفاقية ١٩٥٢ الى الاتفاقية الحالية انضماما الى الاتفاقية المذكورة ايضا ؛ ومع ذلك يحق لهذه الدولة ، اذا اودعت وثيقة انضمامها قبل نفاذ الاتفاقية الحالية ، ان تعلق انضمامها الى اتفاقية ١٩٥٢ على نفاذ هذه الاتفاقية . وبعد نفاذ هذه الاتفاقية لن يحق لأي دولة ان تنضم الى اتفاقية ١٩٥٢ وحدها .

٤ ـ تخضع العلاقات بين كل من الدول الأطراف في هذه الاتفاقية والدول الأطراف في اتفاقية ١٩٥٢ وحدها لأحكام اتفاقية ١٩٥٢ . ومع ذلك فلكل دولة طرف في اتفاقية ١٩٥٢ وحدها ان تعلن باشعار يودع لدى المدير العام انها تقبل خضوع اعمال رعاياها او الأعمال التي تنشر لأول مرة في اراضيها لتطبيق اتفاقية ١٩٧١ عليها من جانب جميع الدول الأطراف في هذه الاتفاقية .

المادة العاشرة :

١ ـ تتعهد كل دولة متعاقدة بأن تتخذ وفقا لأحكام دستورها التدابير اللازمة لضمان تطبيق هذه الاتفاقية .

٢ ـ من المفهوم انه على كل دولة في تاريخ نفاذ هذه الاتفاقية بالنسبة لها ان تكون قادرة بمقتضى تشريعها الداخلي على تطبيق احكام هذه الاتفاقية .

المادة الحادية عشرة :

١ ـ تنشأ لجنة دولية حكومية يعهد اليها بالمهام التالية :

(أ) دراسة المشكلات المقترنة بتطبيق الاتفاقية العالمية لحقوق المؤلف وتنفيذها ؛

(ب) التحضير لاجراء التعديلات الدورية لهذه الاتفاقية ؛

(ج) دراسة اي مشكلة اخرى متعلقة بحماية حقوق المؤلف على الصعيد الدولي ، بالتعاون مع‌شتى الهيئات الدولية المعنية ولا سيما منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلم والثقافة ، والاتحاد الدولي لحماية الأعمال الأدبية والفنية ومنظمة الدول الأمريكية ؛

(د) اعلام الدول الأطراف في الاتفاقية العالمية عن اوجه نشاطها .

٢ ـ تشكل اللجنة من ممثلي ثماني عشرة دولة طرفا في هذه الاتفاقية او في اتفاقية ١٩٥٢ وحدها .

٣ ـ يراعى في اختيار اعضاء اللجنة تحقيق توازن عادل بين المصالح الوطنية على أساس الموقع الجغرافي للدول وسكانها ولغاتها ومراحل التطور التي تمر بها .

٤ ـ يجوز لكل من المدير العام لمنظمة الامم المتحدة للتربية والعلم والثقافة ، والمدير العام للمنظمة العالمية للملكية الفكرية والأمين العام لمنظمة الدول الأمريكية ، او من يمثلهم ، حضور جلسات اللجنة بصفة استشارية .

المادة الثانية عشرة :

تدعو اللجنة الدولية الحكومية الى عقد مؤتمرات لتعديل الاتفاقية كلما رات ذلك ضروريا او بناء على طلب عشر على الأقل من الدول الأطراف في هذه الاتفاقية .

المادة الثالثة عشرة :

١ ـ لكل دولة متعاقدة ، عند ايداع وثيقة التصديق او القبول او الانضمام او في اي وقت‌لاحق، ان تعلن بموجب اشعار موجه الى المدير العام سريان هذه الاتفاقية على كل او اي من الأقطار او الاقاليم التي تتولى علاقاتها الخارجية ، وعندئذ تطبق الاتفاقية على الأقطار او الأقاليم المذكورة في الاشعار بعد انقضاء مهلة الثلاثة اشهر المنصوص عليها بالمادة التاسعة . فاذا لم يوجد مثل هذا الاشعار فان هذه الاتفاقية لا تطبق على اي من تلك الأقطار او الأقاليم .

٢ ـ ومع ذلك لا يجوز بأي حال تفسير هذه المادة على انها تتضمن اعتراف اي من الدول المتعاقدة او قبولها الضمني بالأمر الواقع بالنسبة لأي قطر او اقليم تجعل دولة متعاقدة اخرى الاتفاقية الراهنة منطبقة عليه بمقتضى هذه المادة .

المادة الرابعة عشرة :

١ ـ لأي دولة متعاقدة ان تنسحب من هذه الاتفاقية باسمها او بالنيابة عن كل او اي من الأقطار او الأقاليم التي يكون قد قدم اشعار بشأنها وفقا للمادة الثالثة عشرة . ويتم الانسحاب بموجب اشعار موجه الى المدير العام . ويعتبر هذا الانسحاب انسحابا من اتفاقية ١٩٥٢ ايضا .



٢ ـ لا يصبح هذا الانسحاب نافذا بالنسبة للدولة المعنية او القطر او الأقليم الذي تم الانسحاب نيابة عنه ، وبعد انقضاء اثني عشر شهرا على تاريخ تسلم الاشعار .

المادة الخامسة عشرة :

كل خلاف ينشأ بين اثنتين او اكثر من الدول المتعاقدة حول تفسير هذه الاتفاقية او تطبيقها ولا يسوى بطريق التفاوض ، يعرض على محكمة العدل الدولية لتفصل فيه ، ما لم تتفق الدول المعنية على طريقة اخرى لتسويته .

المادة السادسة عشرة :

١ ـ توضع هذه الاتفاقية بالاسبانية والانجليزية والفرنسية . ويوقع على النصوص الثلاثة وتكون كلها نصوصاً رسمية على حد سواء .

٢ ـ يضع المدير العام ، بعد التشاور مع الحكومات المعنية ، نصوصاً رسمية لهذه الاتفاقية باللغات الألمانية والايطالية والبرتغالية والعربية .

٣ ـ لأي دولة متعاقدة او مجموعة من الدول المتعاقدة ان تطلب من المدير العام ان يعد لها ، بترتيب يتم معه، نصوصاً اخرى باللغة التي تختارها.

٤ ـ تلحق كل هذه النصوص بالنصوص الموقع عليها من هذه الاتفاقية .

المادة السابعة عشرة :

١ ـ لا تؤثر هذه الاتفاقية بأي حال في احكام اتفاقية برن لحماية الأعمال الأدبية والفنية ولا على العضوية في الاتحاد الذي انشاته الاتفاقية المذكورة .

٢ ـ تطبيقاً للفقرة السابقة الحق بهذه المادة اعلان. وهذا الاعلان جزء لا يتجزا من الاتفاقية بالنسبة للدول المرتبطة باتفاقية برن في اول يناير/كانون الثاني ١٩٥١ او التي ارتبطت او سترتبط بعد ذلك التاريخ. وتوقيع الدول المذكورة على هذه الاتفاقية هو ايضاً بمثابة توقيع على اعلام ؛ وكل تصديق على هذه الاتفاقية او قبول لها او انضمام اليها من جانب تلك الدول يعتبر ايضاً تصديقاً على الاعلان أو قبولاً له او انضماماً اليه .

المادة الثامنة عشرة :

لا تلغي هذه الاتفاقية الاتفاقيات او الاتفاقات متعددة الأطراف او الثنائية الخاصة بحقوق المؤلف والنافذة او التي يمكن ان تصبح نافذة بين اثنتين او اكثر من الجمهوريات الامريكية دون غيرها . وفي حالة وجود اختلاف بين احكام احدى هذه الاتفاقيات او احد هذه الاتفاقات النافذة وبين احكام الاتفاقية الحالية ، او بين احكام هذه الاتفاقية واحكام اي اتفاقية جديدة او اتفاق جديد يبرم بين اثنتين او اكثر من الجمهوريات الأمريكية بعد نفاذ هذه الاتفاقية فان احكام الاتفاقية او الاتفاق الأحدث عهداً هي التي تغلب بين الطرفين او الأطراف المعنية . ولن تمس الحقوق المكتسبة في مؤلف ما بأي من الدول المتعاقدة بمقتضى اتفاقيات او اتفاقات سابقة على تاريخ نفاذ هذه الاتفاقية في تلك الدولة .

المادة التاسعة عشرة :

لا تلغي هذه الاتفاقية الاتفاقيات المتعددة الأطراف او الثنائية الخاصة بحقوق المؤلف والنافذة في اثنتين او اكثر من الدول المتعاقدة . وفي حالة وجود اختلاف بين احكام احدى هذه الاتفاقيات أو احدى هذه الاتفاقات وبين احكام الاتفاقية الحالية تغلب احكام هذه الاتفاقية. ولن تمس الحقوق المكتسبة في مؤلف ما باي من الدول المتعاقدة بمقتضى اتفاقيات او اتفاقات سابقة على تاريخ نفاذ هذه الاتفاقية في تلك الدولة . ولا تخل هذه المادة باي حال بأحكام المادتين السابعة عشرة او الثامنة عشرة .

المادة العشرون :

لا تقبل اي تحفظات على هذه الاتفاقية .

المادة الحادية والعشرون :

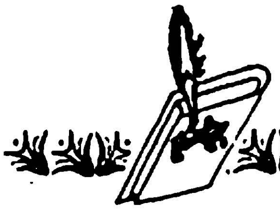
١ ـ يرسل المدير العام صوراً معتمدة من هذه الاتفاقية الى الدول المعنية والى الأمين العام للأمم المتحدة لتسجيلها بمعرفته .

٢ ـ وعليه ايضاً ان يخطر كل الدول المعنية بايداع وثائق التصديق والقبول والانضمام وبتاريخ نفاذ هذه الاتفاقية وبالاشعارات المنصوص عليها في هذه الاتفاقية وبحالات الانسحاب التي تتم وفقاً للمادة الرابعة عشرة .

اعلان ملحق

بشان المادة السابعة عشرة

ان الدول الأعضاء بالاتحاد الدولي لحماية الأعمال الأدبية والفنية (الذي يطلق عليه فيما يلي « اتحاد برن ») ، والأطراف في هذه الاتفاقية .



رغبة منها في توثيق علاقاتها المتبادلة على اساس الاتحاد المذكور وفي تجنب أي نزاع قد ينشأ من تواجد اتفاقية برن والاتفاقية العالمية لحقوق المؤلف .

واعترافاً منها باحتياج بعض الدول مؤقتاً الى الملاءمة بين مدى حمايتها لحقوق المؤلف ومستوى تطورها الثقافي والاجتماعي والاقتصادي ،

قد اتفقت فيما بينها على قبول ما ينص عليه الاعلان التالي :

(أ) باستثناء ما تنص عليه احكام الفقرة (ب) ، لا تتمتع بحماية الاتفاقية العالمية لحقوق المؤلف في بلاد اتحاد برن الأعمال التي يكون مصدرها ، وفقاً لاتفاقية برن ، بلداً انسحب من اتحاد برن بعد اول يناير/كانون الثاني ١٩٥١ ؛

(ب) اذا اعتبرت احدى الدول المتعاقدة بلداً نامياً وفقاً لما يجري به العمل بالجمعية العامة للأمم المتحدة ، واودعت لدى المدير العام لمنظمة الأمم المتحدة للتربية والعلم والثقافة ، عند انسحابها من اتحاد برن، اشعاراً تعلن بموجبه انها تعتبر نفسها بلداً نامياً ، فان احكام الفقرة (أ) لا تطبق طالما جاز لتلك الدولة ، وفقاً لأحكام المادة الخامسة (ثانياً) ، ان تنتفع بالاستثناءات المنصوص عليها في هذه الاتفاقية؛

(جـ) لا تطبق الاتفاقية العالمية لحقوق المؤلف على العلاقات بين البلاد المرتبطة باتفاقية برن ، وذلك فيما يتعلق بحماية الأعمال التي يكون مصدرها، وفقاً لاتفاقية برن ، احد بلاد اتفاقية برن .

قرار

بشأن المادة الحادية عشرة

ان مؤتمر تعديل الاتفاقية العالمية لحقوق المؤلف،

وقد بحث المسائل المتعلقة باللجنة الدولية الحكومية المنصوص عليها بالمادة الحادية عشرة من هذه الاتفاقية الملحق بها هذا القرار ،

يقرر ما يلي :

١ – تضم اللجنة عند تشكيلها لأول مرة ممثلي الاثنتي عشرة دولة اعضاء اللجنة الدولية الحكومية المنشأة بموجب المادة الحادية عشرة من اتفاقية ١٩٥٢ والقرار الملحق بها ، كما تضم ممثلي الدول التالية : استراليا ، الجزائر ، السنغال ، المكسيك ، اليابان ، يوغسلافيا .

٢ – تستبدل بالدول التي ليست طرفاً في اتفاقية ١٩٥١ والتي لا تكون قد انضمت الى الاتفاقية الحالية قبل اول دورة عادية تعقدها اللجنة بعد نفاذ هذه الاتفاقية ، دول اخرى تختارها اللجنة في اول دورة عادية لها ، وفقاً لأحكام الفقرتين ١ و ٢ من المادة الحادية عشرة .

٣ – بمجرد نفاذ هذه الاتفاقية تعتبر اللجنة المنصوص عليها بالفقرة ١ مشكلة طبقاً للمادة الحادية عشرة من هذه الاتفاقية .

٤ – تعقد اللجنة دورة اولى في ظرف سنة من تاريخ نفاذ هذه الاتفاقية ، وبعد ذلك تجتمع اللجنة في دورة عادية مرة على الأقل كل سنتين .

٥ – تنتخب اللجنة رئيساً ونائبين للرئيس . وتضع نظامها الداخلي مراعية في ذلك المبادىء التالية:

(أ) مدة العضوية العادية لممثلي الدول الأعضاء باللجنة ست سنوات مع تجديد ثلثهم كل سنتين ، على ان يكون مفهوماً ان ثلث الأعضاء الأوائل تنتهي مدة عضويتهم في نهاية ثاني دورة عادية تعقدها اللجنة بعد نفاذ هذه الاتفاقية ، وثلثاً آخر في نهاية دورتها العادية الثالثة ، والثلث الباقي في نهاية دورتها العادية الرابعة .

(ب) تنهض الأحكام المنظمة للاجراءات التي تتبعها اللجنة في شغل المقاعد الحالية ، ولترتيب انتهاء مدة العضوية ، والصلاحية لاعادة الانتخاب ، واجراءات الانتخابات على اساس الموازنة بين ضرورة توافر عنصري الاستمرار في عضوية اللجنة والتناوب في التمثيل بها ، فضلاً عن الاعتبارات المنوه عنها بالفقرة ٣ من المادة الحادية عشرة .

ويعرب عن الأمل في ان تضطلع منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة بأعباء أمانة اللجنة . واثباتاً لذلك قام الموقعون ادناه، وقد اودع كل منهم وثائق تفويضه الكامل ، بتوقيع هذه الاتفاقية .

حررت بباريس في الرابع والعشرين من يوليو/ تموز ١٩٧١ ، من نسخة وحيدة .

بروتوكول رقم ١

ملحق بالاتفاقية العالمية لحقوق المؤلف المعدلة بباريس في ٢٤ يوليو/تموز ١٩٧١ ، بشأن تطبيق الاتفاقية على اعمال الأشخاص عديمي الجنسية واللاجئين .



ان الدول الأطراف في الاتفاقية العالمية لحقوق المؤلف المعدلة بباريس في ٢٤ يوليو/تموز ١٩٧١ ، (والتي يطلق عليها فيما يلي « اتفاقية ١٩٧١ ») ، وقد اصبحت كذلك اطرافاً في هذا البروتوكول ،

قد ارتضت الأحكام التالية :

١ – يعامل الأشخاص عديمو الجنسية واللاجئون ، المقيمون عادة في احدى الدول المتعاقدة، معاملة رعايا هذه الدولةلأغراض تطبيق اتفاقية ١٩٧١.

٢ – (أ) يوقع هذا البروتوكول ويعرض على الدول الموقعة عليه للتصديق عليه او قبوله ، كما يجوز الانضمام اليه وفقا لأحكام المادة الثامنة من اتفاقية ١٩٧١ .

(ب) يصبح هذا البروتوكول نافذاً بالنسبة لكل دولة من تاريخ ايداع وثيقة تصديقها عليه او قبولها اياه او انضمامها اليه، او من تاريخ نفاذ اتفاقية ١٩٧١ بالنسبة للدولة المذكورة ايهما اللاحق .

(ج) في تاريخ نفاذ هذا البروتوكول بالنسبة لدولة غير طرف في البروتوكول رقم ١ الملحق باتفاقية ١٩٥٢ ، يعتبر هذا البرونوكول الأخير نافذا بالنسبة لتلك الدولة .

واثباتاً لذلك قام الموقعون ادناه ، وقد فوضوا ذلك رسمياً ، بتوقيع هذا البروتوكول .

حرر بباريس في الرابع والعشرين من يوليو/تموز ١٩٧١ ، بالفرنسية والانجليزية والاسبانية على ان تعتبر النصوص الثلاثة نصوصاً رسمية ، من نسخة وحيدة تودع لدى المدير العام لمنظمة الأمم المتحدة للتربية والعلم والثقافة الذي سيرسل صوراً معتمدة منها الى الدول الموقعة والى الأمين لعام للأمم المتحدة ليتولى تسجيلها .

بروتوكول رقم ٢

ملحق بالاتفاقية العالمية لحقوق المؤلف المعدلة بباريس في ٢٤ يوليو/تموز ١٩٧١ ، بشأن تطبيق الاتفاقية على اعمال بعض المنظمات الدولية .

ان الدول الأطراف في الاتفاقية العالمية لحقوق المؤلف المعدلة بباريس في ٢٤ يوليو/تموز ١٩٧١ ، (والتي يطلق عليها فيما يلي « اتفاقية ١٩٧١ ») ، وقد اصبحت كذلك اطرافاً في هذا البروتوكول ،

قد ارتضت الأحكام التالية :

١ – (أ) تنطبق الحماية المنصوص عليها بالفقرة ١ من المادة الثانية من اتفاقية ١٩٧١ على الأعمال التي تنشرها لأول مرة منظمة الأمم المتحدة ، او الوكالات المتخصصة المرتبطة بالأمم المتحدة ، او منظمة الدول الأمريكية .

(ب) كذلك تنطبق الحماية المنصوص عليها بالفقرة ٢ من المادة الثانية من اتفاقية ١٩٧١ على المنظمات او الوكالات سالفة الذكر .

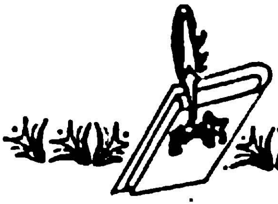
٢ – (أ) يوقع هذا البروتوكول ويعرض على الدول الموقعة عليه للتصديق عليه أو قبوله ، كما يجوز الانضمام اليه وفقاً لأحكام المادة الثامنة من اتفاقية ١٩٧١ .

(ب) يصبح هذا البروتوكول نافذاً بالنسبة لكل دولة من تاريخ ايداع وثيقة تصديقها عليه او قبولها اياه او انضمامها اليه ، او من تاريخ نفاذ تفاقية ١٩٧١ بالنسبة للدولة المذكورة ايهما اللاحق .

واثباتا لذلك قام الموقعون ادناه ، وقد فوضوا ذلك رسمياً ، بتوقيع هذا البروتوكول .

حرر بباريس في الرابع والعشرين من يوليو/تموز ١٩٧١ ، بالفرنسية والانجليزية والاسبانية على ان تعتبر النصوص الثلاثة نصوصاً لها نفس المفعول والقوة ، من نسخة وحيدة تودع لدى المدير العام لمنظمة الأمم المتحدة للتربية والعلم والثقافة الذي سيرسل صوراً معتمدة منها الى الدول الموقعة والى امين العام للأمم المتحدة ليتولى تسجيلها .

* * *



نــــداء عـاجــل
الى الملـوك والـرؤسـاء والأمــراء العــرب

الادباء والكتّاب العرب يناشدون الملوك والرؤساء والامراء العرب وقادة الاحزاب والتنظيمات والمنظمات العربية التدخل الفوري وبجميع الوسائل لوضع حـد لحرب الابادة القذرة التي تشنها اسرائيل ضد الشعب العربي الفلسطيني ، وأبناء الجنوب اللبناني ، ويؤكدون ان المناصرات الكلاميـة لم ولن توقف آلـة الحرب الصهيونيـة واستخداماتهـا الهمجيـة ، ولن تردع الوحوش الذين يسيرونهـا .

اننا نناشد ضمائركم ونطالبكم وانتم في مواقـع المسؤولية عملياً ، وتاريخياً ، ان تحركوا طاقات الأمة العربية ، وتحسنوا استخداماتها بما يرفع الذل ويزيل العـار ويمنع ابادة المدافعين عـن حقهـم في الوجود الكريم ، وبما يضع حـداً لانتهـاك الانسـان والأرض والمقدسات والحقـوق .

ان التاريخ لن يهمل موقفا ايجابياً كان ام سلبياً ، والاجيال لن ترحم متهاوناً او متخاذلاً ، وان الواجب القومي والوطني ، الديني والانساني ، كل ذلك يفرض على ذوي المسؤولية التحرك بمسؤولية ، لنبذ الخلافات الهامشية ، او لتؤجـل ، فحـراب الاعـداء في قلب المقاومة وقلب القضيـة ، وانتم مسؤولون امام الله والشعب والتاريخ والوطن عن الانسان العربي والأرض العربيـة والحـق العربي .

دمشق في ١٩٨٢/٦/٨

الامين العـام للاتحاد العـام
للأدباء والكتّاب العرب
علي عقلة عرسان

البيــان العــام

مـن لبنـان الذي يخوض على ارضـه شعبانا الفلسطيني واللبناني يومياً معركة الدفاع عـن المصير الوطني لكـل قطر عربي ، وعن المصير القومي لأمتنـا جمعـاء ،

من لبنان المشتعل المقاوم الصامد ، منذ اكثر من ثمانيـة اسابيع ، في مواجهة الغزو الصهيوني الهمجي المستمر وفي مواجهة حرب الإبادة البربرية التي تشنها الصهيونية والامبريالية الأميركية ضدنا . من لبنـان الذي ترتـوي ارضـه بدماء المقاتلين الفلسطينيين واللبنانيين والسوريين ليسقط محاولات فرض الخيانة الوطنية والقومية نهجـاً نظامياً سائداً في حل قضيتنا القـوميـة .

من لبنان الجريح الشجاع الذي يخوض معركة تكريس انتمائه العربي ، ومعركة فلسطين ومعركة النهوض الثوري في حركة تحررنا العربية وطنياً وقومياً نعلن ، نحن الكتّاب والأدباء والمثقفين العرب ، انتسابنا الى هذه المعركة الى كل طفل دمر القصف الاسرائيلي الهمجي نعاسه وحليبه ونبضه ، الى كل ام ومقـاتل وجدار وشجرة ونسمة هواء تقاوم تدمير الحياة ، الى سواعد الشجعان الاعزاء من ابناء شعبنا الذين يحاصرون الاحتلال الصهيوني الأميركي واهدافه المجرمة الرامية الى سحق مجتمعاتنا والانسان فينـا .

نعلن انتسابنا الى هذه المعركة التي تواجه الصمت والتخاذل والتواطؤ الرجعي العربي المشارك بالغزو وكل اشكال التردد العربي حيـال الانخراط الفعلي في هـذه المعركة التي ينعشها الاقدام ويضعفها التردد .

اجل ، نحن في قلب المعركة التي يخوضها شعبنا الفلسطيني بقيـادة ممثله الشرعي الوحيـد ، منظمة التحرير الفلسطينية ، ونحـن نقاتل معـه من اجل تجسيد حقوقـه المشروعة في العودة وتقرير المصير ، واقامة دولته الديمقراطية المستقلة على ارض وطنه .

اجل ، نحن في قلب هذه المعركة التي يخوضها شعبنا اللبناني بقيـادة حركته الوطنية اللبنانيـة ، ونقاتل معه لينتصر كفاحه المشروع من اجل دحـر الاحتلال ووحـدة وطنـه وانتمائه العربي وتطوره الديمقراطي ، واسقاط الظلامية الفاشية العنصرية التي يسعى الاحتـلال الاسرائيلي وعملاؤه الفاشيون لفرضهـا على لبنـان وشـعبه .

اننا نعلن انتسابنا الى بيروت ، زهرة العواصم ، الى عاصمة الثقافة العربية ، عاصمة الديمقراطية في هذه الثقافة . الى استبسالها الخارق في الدفاع عن العواصم والمدن العربية الأخرى .

نعلن انتسابنا الى هذه المواجهة الجذرية النوعية الجديدة التي تكتب مضمونها وشكلها في بيروت ، وصيدا وصور والبقاع والجبل وكل قرية محتلة ، ومخيم منتهك سواعد المقاتلين ودماؤهم وفعلهم السياسي والعسكري البطولي واعتزازنا بهؤلاء الأبطال الذين يتصدون لاشرس حرب عنصرية تستهدف تدمير البنية الروحية والثقافية الوطنية والقومية وتدمير الهوية الثقافية والحضارية القومية، واصطناع بدائل مغرقة في التخلف وعنصرية طائفية مذهبية تفكك الوطن الواحد واواصر الارتباط الوطني والقومي .

لسنا محايدين في هذه الحرب ولا هامشيين ، فموقع الكتاب والمثقفين العرب ، هو اليوم ، على جبهة القتال الساخنة وفي خنادق الجبهة الثقافية دفاعاً عن وطننا وامتنا وتراثنا واسهامنا الحضاري في تطور البشرية ، ان هوية الكلمة الشريفة المسؤولة الموقف تتجلى الآن في الانتساب الكلي الى هذه الملحمة الشعبية الكبرى ، باندماجنا النهائي في نضال جماهيرنا ومن اجل قضاياها في التحرر الوطني والقومي والاجتماعي ، ولتكتب اقلامنا صراحة هذه الارادة في رفض الاستقالة الطوعية للمثقف من المعركة في رفض نزعات اليأس والتيئيس والانتحار والعدمية .

لسنا محايدين في هذه الحرب ، فالفرز المتصاعد في الوضع العربي الراهن يجري على اسس ومعايير محدودة واضحة ، وفي مجراه تتخذ القوى الرجعية العربية مواقعها الى جانب العدو الامبريالي الصهيوني ، وعلى عاتق الكتاب والمثقفين العرب تقع، اليوم ، مهمة الاسهام في المساعدة على الفرز الكامل من اجل كشف هذه الرجعية على حقيقتها متآمرة على كل ما هو حي وكفاحي وثوري في تراثنا وحضارتنا وتاريخنا الحديث والمعاصر ، وعلى عاتقهم تقع ، كذلك مهمة الاسهام فى تسهيل انتقال الجماهير العربية ، عبر هذا الفرز ، الى المواقف الاكثر فعالية في مواجهة العدوان وقواه ومشاريعه وادواته .

ان الكتاب والمثقفين العرب مطالبون ، اكثر من اي وقت مضى ، باختراق جدران التخاذل والصمت والقمع المفروض على الوطن كله ، وبان تتوجه طاقاتهم الابداعية والفكرية للاسهام في حشد الراي العام العربي لوضع الحكام والجيوش العربية امام مسؤولياتها التاريخية في فك الحصار عن بيروت والتصدي الفعال للعدو الغازي في ساحة المواجهة الساخنة دفاعاً عن الوجود العربي ، وهم مدعوون الى تخليد بطولات المقاتلين العرب وتضحياتهم وتخليد صمود بيروت التاريخي الرائع والى فضح اساليب العدو وايديولوجية النازية العنصرية . وانهم مدعوون بالدرجة الأولى ، الى تعبئة الجماهير العربية وتحريضها على تغيير الواقع العربي وخلق وضع كفاحي ثوري يمكن طاقات جماهيرنا العربية المعطلة من الانعتاق والتدفق في شرايين المعركة . وفي وسط هذه العاصفة السوداء التي تهدد بالاقتلاع مقومات وجودنا الوطني والقومي من جذورها لم يعد مسلك التهاون تجاه الاستمرار في ممارسة نهج تغييب الديمقراطية واغتيالها جائزاً ولا مبرراً ولا مقبولا ، فلتفتح ابواب السجون التي تعتقل الكتاب والمثقفين والمناضلين في وطننا العربي ، ولتتوقف كافة اشكال الاضطهاد والقمع التي ترتكب بحق جماهيرنا ومثقفينا ومناضلينا ؛ لنتمكن من توفير الشرط الأساسي من شروط احراز الانتصار لأمتنا في معركة المصير هذه .

ان الكتاب والمثقفين العرب ، على اختلاف انتماءاتهم الايديولوجية ومذاهبهم الابداعية ومن موقعهم الذي لا غنى ولا بديل عنه في المعركة ، يناشدون القوى والتنظيمات السياسية الوطنية والتقدمية العربية كافة، المزيد من وحدة التوجه والعمل المشترك في المعركة الاساسية ضد العدو الأساسي، ويدعون قوى الصمود والتصدي الى المزيد من الانخراط السياسي والعسكري والاقتصادي في معركة التحرير واستقطاب الجماهير العربية في ارض المعركة المستمرة ، الأمر الذي يكفل تغيير الواقع العربي وتلاحم الجماهير وتوظيف قواها وامكاناتها في المعركة توظيفاً فعالاً يعزز مواقعنا في القتال والمواجهة ، ويوفر الشروط الضرورية للافادة من الدعم السياسي والعسكري والاقتصادي والذي يقدمه اصدقاؤنا في المعسكر الاشتراكي ، وفي الاجماع العالمي المتعاطف مع عدالة قضيتنا ونضالنا .

تحية الاكبار والاجلال للشهداء الذين قضوا دفاعاً عن كرامة شعبنا وارضه وحقوقه وطموحاته في مستقبل مشرق .

تحية الاعجاب والتقدير الى جميع المقاتلين الصامدين في خندق المواجهة الأمامي ، يكتبون ويصنعون بجهدهم ودمهم وعرقهم فجر النصر الآتي .

تحية الاعتزاز لأدبائنا وكتابنا ومبدعينا الصامدين في بيروت وفي الأرض المحتلة من لبنان وفلسطين .

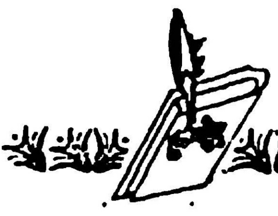
تحية الشكر والعرفان لكل هذه الأسماء الكبيرة العزيزة من كتاب العالم ومثقفيه الذين رفعوا صوتهم عالياً بالتضامن مع شعبنا وكفاحنا ، مدينين الغزو الصهيوني الأميركي والمجازر التي يرتكبها .

ولتترسخ في المعركة والقتال الوحدة الكفاحية للثورة الفلسطينية والحركة الوطنية اللبنانية وسورية ولتترسخ في المعركة والقتال الوحدة الكفاحية لمبدعينا وأدبائنا ومفكرينا ومثقفينا العرب .

ولتترسخ في مواجهة العنصرية الصهيونية والفاشية الامبريالية العدوانية الوحدة الكفاحية لمبدعي العالم وكتابه ومثقفيه .

طرابلس — لبنان ١٩٨٢/٧/٣٠

المكتب الدائم للاتحاد العام للأدباء والكتاب العرب



نداء الأدباء والكتّاب العرب الى المثقفين في العالم

الى الضمائر الحرة في العـالم ...

الى كل نفس بشرية تؤمن بقيمة الانسان على هذه الارض ، وترفض اي تدمير واهانة او اغتصاب لحقوق الانسـان .

منذ أكثر من ثلث قرن وبلادنا تتعرض لعدوان عنصري شرس بتأييد مـن اقطاب الاستعمار القديم والحديث متمثلاً في الاحتلال الصهيوني الاستيطاني لفلسطين والغزو المستمر الذي تشنه اسرائيـل على الارض العربيـة وضـد الشعب الفلسطيني الـذي شردته مـن ارضـه .

واليوم يقوم النازيون الجدد المتمثلون في الطغمة الصهيونية العنصرية بغزوة جديدة منذ الخامس مـن حزيـران ١٩٨٢ على لبنـان حيث سحقوا الحيـاة والعمران ودمروا مدناً بأكملها كصور وصيدا، ومئات مـن القرى اللبنانيـة والمخيمات الفلسطينية وافنوا الآلاف مـن الأطفال والشيوخ والنسـاء ، واقامـوا معسكرات اعتقـال نازيـة جديـدة مطورة للشعب الفلسطيني .

وهم يحاصرون بيروت عاصمة الثقافة العربية ، منذ اكثر من خمسين يوماً ، ويستمرون في قصفهـا براً وبحراً وجواً ليلاً ونهاراً ، ويقطعون عنهـا المـاء والغذاء والكهرباء والدواء .

يا رجال الأدب والفكر والثقافة وحماة الحضارة الانسانية والقيم العريقة في العالم ..

انكم تتابعون عبر اقنية الاعلام، الأعمال البربرية التي يقوم بهـا الغزاة الصهاينة تدعمهم الامبرياليـة الاميركية بأعتى وافظع انواع السلاح فتكاً ، وتغطيهم سياسياً من خلال استخدام حق النقض « الفيتـو » الذي اهين لكثرة ما استخدمته لصالح العـدوان والعنصرية والغزو مستخفة بالقيم الانسانية وبابسـط الحقوق المشروعة للشعوب .

ان في نجاح هذه الأعمال الوحشية التي تتـم بآلة الحرب الأمريكية المتطورة وباستخدام الأسلحـة المجرمة دولياً تهديداً للبشرية جمعاء ، وفناء لشرائع العدل ، ودماراً للانسانية ، وعودة الى شريعة الغاب .

ونحن من مواقعنا الحضارية والثقافية العريقة ومواقفنا المدافعة عن قيم الحق والخير ، وعن الانسان وحقوقه المشروعة ، نناشدكم ان تقفوا الى جـانب الحق والعدل والانسان في هذه المنطقة من العالم ، وان تعملوا على نقل الحقيقة للراي العام ، وتحركوا شعوبكم وتعملوا بكل الوسائل المتاحة لانقاذ الشعب الفلسطيني ولبنان الحضارة والثقافة والقيم الانسانية من الارهاب الصهيوني وحرب الابادة التي تشن ضد الشعبين الفلسطيني واللبناني .

ونناشدكم العمل على فك الحصار عن بيروت ، وفضح مزاعم الاعلام الصهيوني المضلل .

ان مفهوم السلام لا ينحصر في مقاومة الحرب النووية والاسلحـة النووية فقط ، بل ان السـلام الحقيقي والانساني العـادل يكمن في ايقاف جميـع الحروب الدائرة واشكال الابادة والتدمير باية أسلحة كانت ، وفي تحقيق الامن والسلامة والحرية للشعوب كافة ، وفي وقف العدوان وعمليات الابادة ، وهـذه الممارسات والأخطار جميعاً هي ما يفعله الصهيونيون العنصريون الآن .

ان مفهوم السلام الحقيقي لا يتأكد الا بتأمـين حقوق الشعوب وحريتهـا . ونؤكـد ان السلام في منطقتنا لا يتحقق الا باحترام حق الشعب الفلسطيني في الحياة والعودة وحق تقرير المصير بما في ذلك حقه في اقامة دولته المستقلة على ترابه الوطني .

ان للمثقفين ورجـال الفكر والادب مسؤوليات انسانية وحضارية ، ونحن نتوجه بالشكر والتقدير للأدباء والمثقفـين الذين تحملوا مسؤولياتهم بشـرف وادانوا الغزو الصهيوني للبنان وطالبوا بوقف المجازر البشرية فيـه ، ودعوا الى انسحاب جيش الغـزو العنصـري .

وندعو جميع الكتّاب والمثقفين واصحاب الكلمة المسؤولة في العالم الى موقف اكثر حزماً من النازية الجديدة التي يتزعمها قادة اسرائيـل وعلى رأسهم بيغن ، ومن دعم الولايات المتحدة الأمريكية لممارسات اسرائيل وعدوانها . ان مسؤولية الكلمـة الشريفة وحملها مسؤولية تاريخية وهذا زمن يحتاج الى موقف الشرفاء والكلمة المسؤولة .

فليرتفع صوت المثقفين ضـد الغزاة الصهاينة الذين يجسدون نازيـة جديدة .

فليعل صوت المثقفين ضد الامبريالية الأمريكية .

وليعل صوت المثقفين ضد الأنظمـة الرجعيـة والمتواطئـة .

وليرتفع صوت الضمـير الانساني ضد المجـازر الوحشية التي يروح ضحيتها الأطفال والنساء ، وضد تدمير العمران والحضارة ، وضد ابادة الجنس البشري التي تنفذها اسرائيـل في لبنـان .